
هبة محمد إبراهيم و شهرتها
تميمة نبيل
الطبعة 4
نثرتُ أوراقي البيضاء
إبداع

الإهداء

إلى من أهداني التضامن قولاً و فعلاً فكان لي سندًا و قدوة؛

من تلا اسمه اسمي، وسبق وجوده مخاوفي.. أبي الغالي.

إلى وطنٍ أعود إليه نهاية كل مطاف.. أمي الغالية.

أول الحكاية وآخرها، ومن شاركني سطورها في رواية جمعتنا؛

زوجي الحبيب..

المقدمة

"الحياة دروبٌ تتلاقى، والبشر فيها عابري سبيل.. جميعهم مغادر"

"الكلمات.. الكلمات تسحرني، مع كل كتابٍ أجدني أغرق في عالم مختلف، يخطفني ويأسرني بداخل كلماته يأبى تحريري إلا مع آخر كلمة منها.. تحويلك الكلمات من لغة الكتاب للغتك ليس عملًا، بل هو فن.. سحر.. نعم أنا أمارس السحر وأنا أنقل التعابير بما تحمله من معنى، إحساس، حماس، سخرية وغضب.. حزن دفين وليست مجرد مرادفات.."

كانت تهذي بكلامها الغريب كما اعتادت دائمًا، وكلما بدأت في ترجمة كتاب جديد.. تنسى فيه نفسها تمامًا.. لكن حركةً بجوارها جعلتها ترفع وجهها عن شاشة حاسوبها وهي ترى كوبًا من مشروب النعناع الساخن، يوضع أمامها على سطح المكتب.. فابتسمت وهي تحدق في العينين الواسعتين الكحيلتين خاليتي التعبير.. ثم قالت بامتنان وأسف:

"أعتذر يا ليلة.. هل نسيت نفسي في الثرثرة كالعادة وأصبت بالصداع؟.. لكن أظنك اعتدتِ على هذا مني، أليس كذلك؟.."

لم ترد عليها صاحبة الشعر الطويل، وهي توليها ظهرها وتستدير عنها مبتعدة بخطواتٍ حثيثة..

حسنًا هي أيضًا اعتادت منها عدم الرد في كثير من الأحيان.. وباتت لا تندهش، فرفعت وجهها وقالت مبتسمة ابتسامة أكبر قليلا: "شكرًا على النعناع.. منقذتي أنتِ الحبيبة.."

توقفت صاحبة الشعر الطويل مكانها للحظات، بينما انكبت هي على شاشتها من جديد تعمل بنَهَمٍ بينما ترتشف رشفة من مشروب النعناع متلذذة.. ومضت بضع لحظات، لم تنتبه فيها مطلقا إلى تلك التي توقفت.. ولازالت على نفس سكونها التام للحظاتٍ من الصمت الطويل..

الى أن علا صوتٌ عميق هادىء يقول بثبات: "أنا راحلة.."

انتبهت على الصوت الذي نادرًا ما يُبادر بالكلام من تلقاء نفسه، وربما كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلها ترفع وجهها عن الشاشة، فأي شيء آخر لم يكن ليثير انتباهها عن عملها..

فقالت بعفوية واهتمام: "ماذا قلتِ للتو يا ليلة؟.. لم أسمعك.."

لم تر ملامحها ولم تتبين تعابير وجهها فقد كانت ثابتة تمامًا تُوليها ظهرها.. حين كررت بنبرة أكثر ثباتا ووضوحا: "أنا راحلة.."

عقدت حاجبيها قليلا ثم سألتها بعدم فهم: "ترحلين.. هل ستخرجين؟.. الآن أم.."

لم تتم سؤالها، فقد استدارت إليها وهي تُحدق في عينيها مباشرة بنظرة ثابتة لا تتغير ثم قالت بنفس الهدوء: "بل سأرحل نهائيا.. سأغادر هذا البيت وأستقل بحياتي.."

بعد كلماتها ظلت تحدق بعينيها بهدوء للحظة أخرى ثم

عادت واستدارت مجددًا لتتركها جالسة أمام حاسوبها تحدق في إثرها فاغرة الفم.. واسعة العينين، متسارعة الأنفاس.. والشعور الذي سيطر عليها في تلك اللحظة كان واحدا بوجهين.. الصدمة و.. الخوف!..

*****

"أنا أريد الطلاق.."

توقفت الملعقة في منتصف الطريق إلى فمه وهو يرفع عينيه إلى عينيها محدقًا بها لفترة قصيرة ليس عن صدمة كبيرة بالفعل.. وكانت هي تنتفض بكل معنى الكلمة بكيانها كاملًا وهي تبادل هاتين العينين الصارمتين النظر..

له نظرة ذات بأس تمامًا كشخصيته التي لا تقبل تنازلًا.. الصمت كان ثقيلًا مهيبًا، ثم لم يلبث أن أعادها للطبق وهو يشيح بوجهه قائلًا باقتضابٍ وجفاء: "ها قد بدأنا، على الأقل كنتِ انتظرتِ إلى أن أنهي لقمة آكلها بعد يومٍ طويل.."

ثم نهض عن طاولة الطعام ليبتعد عنها إلا أنها زادت من

علو نبرة صوتها بطريقة غريبة.. ليس أنها لم يسبق لها أن علت بصوتها من قبل، بل سبق لها وصرخت أيضًا.. لكن هذه المرة كانت مختلفة، كان صوتها يحمل شيئًا مختلفًا.. يحمل طعمًا غير محبب: "هذه المرة أنا جادة.. أنا أريد الطلاق يا صالح وأريد الابتعاد عنك للأبد.."

توقف مكانه للحظة، ثم التفت بوجهه دون أن يستدير إليها قائلًا بنبرته الصارمة المخيفة: "سيطري على شَرِّك يا دلال، فأنا مرهق ولا أدري ما قد تكون عليه ردة فعلي في هذه اللحظة بالذات.."

لكنها نهضت من مقعدها مصدرة صوتَ صرير عالٍ ومزعج بكرسيها لتقول بنبرة أشد: "أنا أريد الخلاص منك، ألا تفهم.. أريد الخلاص منك يا صالح.."

بدت كلماتها الأخيرة كصياحٍ مخيف جعل ولديها يرفعان وجهيهما من أمام شاشة التلفاز ليراقبان ما يحدث بقلق.. لطالما اعتادا على خلافات والديهما.. تشنج أمهما المعتاد وتذمرها القلق لكنها تظل خائفة من سلطة وشخصية والدهما الشديدة..

أما الآن وعلى الرغم من الخوف الظاهر في عينيها، لكنها بدت أكثر شجاعة وهي تُصر بطلبها.. جعلتهما يترقبان بتوتر ردة فعل والدهما.. والتي لم تتأخر فقد استدار بسرعة ليقبض على ذراعها هادرا بصوتٍ جعلهما ينتفضان معا: "اصمتي، لا داعي لأن يسمع الجيران انعدام تهذيبك.."

كانت ترتعش فعليا وهي تحدق في ملامحه الصارمة وعينيه المخيفتين بهلع، لكن وبما أنها وصلت إلى هذه النقطة فلا مجال للتراجع.. لذا صرخت بجنون وهي ترمي عود الثقاب الأخير: "دعهم يسمعون، فأنا لم أعد أطيق الحياة معك.. لو كان لديك قدرًا من الكرامة ط.."

لكنه هدر مقاطعا بقوة وبصوتٍ جعلها تنتفض مكانها بشدة: "أنتِ طالق.."

نهض كلًا الولدين ببطء شديد، فاغري الفم بملامح شاحبة.. ازدادت امتقاعًا مع رؤية والدهما يجر أمهما هادرًا تجاه الباب ثم دفعها بعيدًا هاتفًا بغضب: "هيا اخرجي.."

صرخت فيه بقوة وهي تترنح خطوتين قبل أن تتماسك

كي لا تقع: "ليس قبل أن آخذ كل ما هو لي، بعدها سأتركك لك مسكنك الغالي.. ولداي أيضًا سيغادران معي.."

توقف مكانه وهو ينظر إليها نظرة جعلتها تصمت تمامًا وتبتلع المتبقي من كلماتها، ثم اقترب منها قائلًا بنبرة مهددة ترتعد غضبا: "الولدان لا دخل لكِ بهما.. انسي أمرهما منذ اليوم.."

صرخت بخوف وهي تتشبث في الأرض بقدميها: "مستحيل، أنا لن أتخلى عنهما.. لا يمكنك أن تحرمني من أولادي.."

هزَّها بقوةٍ وهو يهدر بعنف مما جعل العالم يدور من حولها: "الولدان تجاوزا سن حضانتك لهما.. أنصحكِ حتى ألا تحاولي.."

اتسعت عيناها بخوفٍ، حدقتاها تهتزان وهي تقدر حقيقة خسائرها.. ثم صرخت بقوة: "لا يمكنك رعايتهما، أنا أمهما وأنا الأولى بهما.."

اقترب بوجهه الصارم منها وهدر بمقتٍ شديد: "رعايتي لهما لهي خير من رعاية أمٍ مثلك، وإن كنتِ لا تليقين باللقب من الأساس.. اخرجي من هنا يا دلال! وابحثي عن الحياة التي بالتأكيد لم تَجديها هنا.. لكن انسي أمر الولدين فأنتِ غير جديرة بهما.."

شحب وجهها أكثر وارتعشت شفتاها.. لكنها عقدت حاجبيها وصرخت تنادي بعنفٍ محاولة ألا تظهر جبنها، راغبة في الهرب بأسرع مما تستطيع

"أنا لن أقف هنا لأجادلك، لا يمكنك حرماني من أولادي لأنني لم أعد راغبة في الحياة معك.."

ثم التفتت ناظرة إلى ابنيها وهي تندفع إليهما هاتفة بهلع: "هيا يا أولاد لنخرج من هنا.."

أمسكت بكف كلًا منهما تجذبها بقوةٍ تجرهما خلفها، إلا أن ابنها الأكبر قاومها وهو يسحب يده من بين أصابعها هاتفًا بحدة: "أنا لن أترك أبي.. اذهبي أنتِ.."

كانت مقاومته مستميتة لدرجةٍ جعلتها تتوقف وتلتفت إليه ذاهلة، بعينين تبرقان غضبًا غير مصدقة.. ثم صرخت فيه بجنون، وهي تجذبه من كفه وقميصه بكل قوتها: "الأمر لا يعود لك.. أنا من تقرر، أنا أمك وستأتي معي.."

لكن والدهما كان قد اقترب وسحب الولد من بين قبضتيها بالقوة وهو يهتف بصرامة: "اتركيه.. ابتعدي عنهما.."

كانت كل هذا الوقت تعتصر الأصغر تحت ذراعها وهو متشبث بحضنها بقوة وقد بدأ في البكاء رغم سنوات عمره التي تجاوزت الثانية عشر، وما أن حاول والده أن يجذبه من بين أحضان أمه حتى ضرب ذراعيه صارخا بنوبة من البكاء العنيف

"لا.. لا.. أنا سأغادر مع أمي، لا أريد البقاء معك.."

صرخ فيه والده بعنفٍ جعله يرتعد ويزيد من دفن وجهه في صدر أمه: "توقف عن البكاء كالأطفال وانظر إلى الحال الذي أوصلتك له أمك.. ابتعد عن أحضانها وكن رجلًا.."

رفع الولد وجهه المحمر إلى أمه محدقًا في عينيها بهلعٍ صارخا بكل توسل باكٍ ومنتحب: "لا تغادري بدوني يا أمي.. أتوسل إليكِ، لا أريد البقاء معه، أريد الذهاب معكِ.."

زادت أمه من ضمه بشدة.. بينما توقف والده عن سحبه وهو ينظر إليه غاضبًا نظرة قاتمة تفوق سنوات عمره.. كما فاقت سنوات نفس العمر الملائمة مع البكاء العنيف..

نظرة خيبة أملٍ ممتزجة بالإستياء.. ثم لم يلبث أن أمسك بكتف ابنه الأكبر وتراجع به عن طريقهما ليقول آمرًا بصوتٍ قاطع: "غادِرا.."

*****

قلبت محتويات قدحها الأبيض ناظرة إلى البخار المتصاعد منه بشرودٍ تتأمله وكأنه راقصة باليه تتمايل بنعومةٍ، متناغمة مع صوتِ ضحكاتِ مجموعة من فتيات الجامعةِ يجلسن حول طاولة قريبة من طاولتها على الجانب الخارجي من المقهى الأنيق.. بينما كانت هي جالسة في الداخل بالجوار من الحاجز المزين بالورود والأوراق الندية

الخضراء..

رفعت عينيها ملتفتة إليهن تراقب مرحهن الصاخب، تستمع إلى أحاديثهن الطريفة التي لا تنتهي.. أغلبهن إن لم يكن أربعتهن جميلاتٍ، ملامح كل منهن تتسم بالصبا والنضارة.. والبشرة المشتدة، بخلاف بشرتها..

رفعت أصابعها ببطء تلامس شاردةً بعض الخطوط على جانب عينها وهي لا تزال تتأملهن.. ثم انحدرت تلك الأصابع إلى زاوية شفتها.. نزولًا حتى عنقها.. وهناك كان المزيد من الخطوط تجمعت فوق بعضها كطوقٍ يقيد جيدها.. لماذا لم تخفها بأحد أوْشِحَتها الأنيقة اليوم كما تفعل كل مرة؟!!..

نظرت إلى ساعة معصمها، وأدركت أنه على وشك الظهور في أي لحظة.. ثم التفتت حولها ناظرة إلى الجانب الداخلي من المقهى متجهمة الملامح.. ربما عليها النهوض واختيار طاولة بعيدة عن مجموعة الفتيات الضاحكات بصخب.. ربما لو أسرعت قبل أن يأتي..

وبالفعل أمسكت حقيبتها، وأوشكت على النهوض، لكن

فجأة تسمرت عيناها عليه وهو يدخل المقهى متباهيًا، فانحنت ببطء تعاود الجلوس مكانها متخاذلة وهي تراقب فيه عنفوان الشباب المحيط بطلته.. وكأنما عرف مكانها دون أن تضطر عيناه للتجول بحثًا عنها، فابتسم بثقة وهو يرفع لها كفه ملوحًا بحركةٍ واثقة..

ابتسمت ابتسامة مهتزة وهي تحاول التجاوب، إلا أن الإبتسامة الزائفة سرعان ما تكسرت فوق صخور هاتين الشفتين المتحجرتين بألم..

نظرتها إليه وهو يتقدم مقتربًا منها بقوة.. لم تكن كتلك النظرات التي اجتذبها من الفتيات على الفور.. فيصمتن ويتغامزن مبتسمات.. ربما لم يكن شديد الوسامة، لكنه بالتأكيد يمتلك من الجاذبية والحضور ما هو كفيل بلفت نظرِ الجنس الناعم إليه.. وكان يدرك هذا راضيًا، لا مباليًا.. وكأنه اعتاد الاهتمام الأنثوي بجاذبيته..

انحنت عيناها وهي تختلس النظر للفتيات وكلا منهن تهمس للأخرى ممازحة وهي ميقنة بداخلها أنه محور حديثهن كما هي العادة..

شعرت بالحرج.. بالألم.. بالتضاؤل وهي تخفض وجهها متخيلة انطباع وجوههن ما أن يدركن وجهته، وكانت أضعف من أن تتحمل مثل هذا الإنطباع الآن تحديدًا: "تأخرت عليكِ؟.."

كان قد وصل إلى الطاولة التي تجلس عليها مطرقة الوجه ووصلها صوته الأجش المداعب بالفطرة.. هذا الصوت!.. كيف لها أن تتخلى عنه؟!.. كيف لها أن تحيا بدون نغمته المربتة على قلبها! وعلى أنوثتها المغادرة وشبابها المودع!..

رفعت اليه عينين متأملتين حالمتين بخطوط الزوايا المحيطة بهما وكل خطٍ منها له ذكرى وانكسارًا.. ثم أجبرت الشفتين اليابستين على الإبتسام وهي تقول بصوتها الرخيم الأنيق: "ليتك جئت مبكرًا.."

كان قد احتل المقعد المقابل لها بثقةٍ وعفوية مجيبًا باعتذارٍ جذاب كابتسامته: "والله ما يؤخرني عنكِ إلا العمل ولهذا أوشكت على كرهه.. سامحيني.."

طلب السماح من بين شفتيه عذاب!.. ليته هو من

يسامحها!.. ليتها هي من سامحت منذ دهرٍ مضى قبل أن تقتحم حياته تاركة نفسها لبركانٍ خامد فوق حممٍ لم تهدأ أبدًا ومنذ سنواتٍ طويلة.. شاردة هي أمامه وأصابعها تتلاعب فوق سطح الطاولة الفاصلة بينهما..

تصلها بعض الهمهمات الممازحة الواصلة من طاولة الفتيات الأقرب لعمره منها: " كم هو لطيف أن يدعو أمه في نهار عمله!"

تضخم قلبها بألمٍ عنيف مزق صدرها بقسوة؛ فأغمضت عينيها غير قادرة على التحمل أكثر..

لم تر انعقاد حاجبيه قليلًا وهو يتأمل ملامح الوجع على وجهها، فمد يده ليطبق على أصابعها فوق الطاولة متابعًا بجدية أكثر هذه المرة والكثير من الإهتمام اللطيف:

"نوال!..هل أنتِ متضايقة فعلًا لأجل تأخيري؟!.. أعدك أن أكون متواجدًا قبلك مستقبلًا.."

تحرك حلقها بألم وهي تحاول إبتلاع الغصة المسننة ولم

تستطع الإنتصار على فضولٍ مؤذٍ جعلها تختلس النظر مجددًا تجاه صحبة الفتيات!.. وما رأته هو ما ظنته.. هو ما أوجعها أكثر..

نظراتِ ذهولٍ مختلسة وغمزاتٍ مختلفة هذه المرة وهن يشرن إلى إمساكه بيدها يداعبها بأصابعه مداعبةٍ لا تصلح من ولدٍ تجاه أمه!!..

أبعدت وجهها بعنفٍ عن أنظارهن الساخرة المستنكرة وجذبت يدها من بين أصابعه واستمدت من هذا الألم قوةٍ.. ضربت بها الضعف والتخاذل وهي ترفع وجهها ناظرة إلى عينيه بعينين عميقتين كصوتها حين قالت

"ليس هناك مستقبلًا يجمعنا يا يوسف.."

وكأن الزمن قد توقف بينهما للحظاتٍ وجمعهما في عالمٍ منفردٍ بهما وكلًا منهما ينظر للآخر وبينما كانت عيناها تشعان حسرة، كانت عيناه مصدومتان.. وكأنه لم يصدق للتو ما سمعه من بين شفتيها!..

تكلم وهو يميل برأسه أخيرًا تجاهها سائلًا ببطء: "ما الذي تقصدينه بالضبط، لأنك لو قصدت فعلًا ما فهمته فأنا.."

قاطعته بنبرة قاسية منبعها قسوة الألم بداخلها مسبلة جفنيها عن نظرات التهديد في عينيه: "هو ما فهمته..ع لاقتنا كانت خطأ كبيرًا وآن الأوان كي ننهي هذه القصة فقد جعلت منا أضحوكة أمام الجميع.."

اتسعت عيناه ذاهلًا وهو يهز رأسه قليلًا ثم هدر هامسًا بغضب: "علاقتنا؟!..تقصدين حبنا يا نوال.."

عضت على شفتها للحظة وهي مستمرة في تجنب مواجهة عينيه بإصرارٍ ثم قالت مجيبة: "للحب أشكال عدة، وما بيننا كان مجرد.."

رفع إصبعه يقاطعها محذرًا بنبرة خطيرة، مرتعشة كإرتعاش الغضب في حدقتي عينيه: "إياكِ.. إياكِ ومحاولة تشويه مشاعري تجاهك، لمجرد أن عاد إليكِ الجبن والخوف من مواجهة مجتمعنا بهذا الحب!.."

أغمضت عينيها فوق حاجزٍ رقيق من الدموع الحارقة، ثم قالت محاولة اكساب صوتها أكبر قدر من الإتزان الذي لا يملكه كيانها المنتفض المضطرب: "ربما أنت من عليه البدء بالخوف من تحدي مجتمعه بقصةٍ كهذه.. أنت بنيت لك اسمًا شهيرًا لابد وأن يدعمه واجهة تليق بما حققته لا أن تجعل من نفسك مثار سخريةٍ فلا يثق أحد رجاحة عقلك.."

صدرت عن حلقه ضحكة ساخرة حانقة وهو يهتف مستاءً: "حتى الآن لم يشكو أحد من رجاحة عقلي، أم أنكِ لا ترين وتسمعين بنفسك؟!.."

أخذت نفسًا عميقًا ثم ردتِ بصوتٍ أجش صارم موجوع: "حتى الآن.. لكن سرعان ما ستضرك علاقة كهذه.."

تراجع في مقعده باهت الملامح، متجمد القسمات والعينين ثم قال بصوتٍ غريب: "مجددًا تصفين ما بيننا بالعلاقة؟!.. أهذا هو حقًا ما يمثله لكِ ما جمعنا؟!.."

ظل وجهها مطرقًا تضغط أظافرها في راحة يدها حتى خدشتها، ثم أجابت بصوتٍ فاتر خفيض: "أنت.. أنت حلم

جميل مر بحياتي، منحني بريقًا فقدته، لكن آن الأوان كي أفيق لواقعي.."

صمتت للحظة ثم أجبرت نفسها على النظر في عينيه أخيرًا لتتابع قائلة بنبرةٍ مشتدة": "أنت.. كنت بيدقًا في لعبة استرداد حقٍ سُلِب مني غدرًا.."

ضاقت عيناه وهو يهمس بصوتٍ أجش أجوف: "أهذا ما كنته لكِ!!!.. لعبة!.."

أغمضت عينيها المحتقنتين للحظة، ثم تشبثت بحقيبتها ونهضت واقفة وهي تردد بجمود خافت

"لا داعي لإلقاء الإتهامات يا يوسف.. ما أتيت اليوم إلا لتوديعك فهذه المرة الأخيرة التي قد يرى فيها كلًا منا الآخر.."

حاولت الإبتعاد عنه بسرعةٍ كي تنفرد بنفسها وتبكي روحًا أحبته بصدقٍ، الا أنه كان أسرع منها فقفز من مكانه واقفًا ليعترض طريقها وأمسك بكتفيها هاتفًا بقسوة حارة:

"لا يا نوال لن أسمح لكِ، أما تعرفين أنني لا أقبل بالهزيمة.. لا أسمح بأن يُسلب مني شيئٌ!!.."

تنهدت تنهيدة طويلة حزينة ثم ألقت بنظرات الفضول عرض الحائط لترفع يدها تمس بها فكه الحليق القوي.. ناظرة إلى عينيه العنيفتين بعينين حنونتين دامعتين متغضنتي الزوايا لتهمس باختناق:

"ما أنا بقضيةٍ راهنت على أن تربحها.. وما أن بشيء ملكته منذ البداية.. لنضع أحرف النهاية هنا محتفظين بالذكريات الجميلة بقلبينا عوضًا عن أخرى مريرة سيخطها أي مستقبل لنا سويًا.."

أخفضت يدها صامتة للحظة، ثم تابعت بجفاء محزن:

"وداعًا يا يوسف.."

ودون انتظار ردٍ منه كانت قد تجاوزته وابتعدت بسرعة، خطواتٍ تفر بها من أي محاولة منه حتًا ستضعف أمامها وتخر حنينًا بدًا قبل حتى الفراق.. أما هو فنظر إلى ابتعادها

فاغرًا فمه.. شاعرًا أنه للتو قد خسر أول قضية في حياته، إن لم يكن قد خسر المعنى الحقيقي لحياته!..

*****

" وكأن القمر انفلق نصفين، هما ابنتاكِ يا جميلة!!.."

جميلة.. اسم على مسمى....

هكذا عرفت في الحارة، فقد كانت من أجمل بناتها وأكثرهن بهاءا.. فتاة بتعليم متوسط، ومن أسرة بسيطة الحال أقرب للعوز..

تطلع الكثير من شباب الحي إلى خطب ودها ما أن زارها الصبا ورسم من جمال طفولتها جمالًا جديدًا لأنوثة بدأت تنضج كثمرٍ طيب..

تهاديها بتمايلٍ كان كلحنٍ راقص وابتسامتها وهاجة وكأنها لم تبصر الحزن أبدًا..

شباب حالهم كحالِ أهلها أو أفضل قليلًا لكن المشترك بين الأغلب في هذا الحي هو ضيق هذا الحال.. ومن بينهم وقع اختيار القلب على ابراهيم..شاب قوي البنية سليم الصحة عفي وعرف عنه حسن الخلق..

عامل في مصنع بصفةٍ غير ثابتة، أمن لها بساعده القوي حياة مستورة..

وكانت حياة من فرحٍ وصعوباتٍ كالجميع إلى أن زادت مساحة الفرح بمولد الطفلتين..

أنجبت جميلة توأمًا تقاسما جمال البدر ككل من شاهدهما.. ومع كل عامٍ تكبران فيه كان جمالهما يزداد..

وفي يومٍ من الأيام.. سجلته جميلة في ذاكرتها تأبى أن تمحو تلك الذكرى مطلقًا

رأتها بدرية؛ إحدى نساء الحي بصحبة طفلتيها تمسك بكفيهما مبتسمة وهي تقص لهما القصص في طريقهن للسوق.. وكان لبدريةِ ابنة، تمنت أن تزوجها من إبراهيم

وفعلت كل ما بوسعها، حتى باب الشعوذة طرقته دون جدوى.. ومع ضياع الأمل فيه تزوجت الوحيد الذي طرق بابها، أحدب الظهر، ساقه عرجاء.. طيب القلب لكن الفتاة وأمها لم تتمكنا أبدًا من إخفاء داء المقارنة بينه وبين إبراهيم بشبابه وساعده القوي.. أنجبت طفلين افتقرا للجمال، كافتقار والدهما للمال وزاد داء المقارنة لهيبًا..

استوقفتهن بدرية لتلقي السلام وعيناها على البنتين لا تغادرهما أبدًا بل ازدادت حدقتاها اتساعا وهي تتفحص كل جزء منهما.. ثم قالت بصوتٍ خفيض دون ابتسام وكأنها شاردة تخاطب نفسها:

"وكأن القمر انفلق نصفين، هما ابنتاك يا جميلة!!.."

نبرة صوتٍ لم تنسها جميلة مطلقًا ونظرةٍ زادتها هلعًا مما جعلها تشدد من قبضتها على كفي ابنتيها لدرجةٍ جعلتهما تتأوهان في آنٍ واحد.. ثم تعثرت وهي تبتعد مسرعة هاتفة بصوتٍ مذعور: "نحن مضطرات للذهاب حالًا.."

هتفت بدرية من خلفها بصوتٍ جامد: "ألم يكن السوق

وجهتك؟!.. لما تهرعين للبيت؟!.. يا جميلة!!.."

لكن جميلة لم تجبها بل أطلقت لساقيها الريح حتى تحولت خطواتها هي والبنتين ركضًا لاهثا وما أن احتمت ببيتها حتى أوصدت الباب وجرت بالبنتين إلى فراشها تدثرهما متجاورتين قبل أن تشعل البخور وبدأت في رقيتهما مذعورة..

لقد أخبرتها أمها ذات يومٍ "ليس كل الحسدِ يقتل".. لكن بعضه ترينه موتًا في عيني حاقدٍ يُشعِل الغل قلبه ولن يخطئه قلبك أبدًا.. فإن أبصرتهِ سلمي للقدر.. لا مفر.. لا مفر..

*****

جلست أمام الطبيب تضم طفلتيها بملامح شاحبة كشرشفٍ أبيض جاف.. منتظرة منه كلماتٍ قد تنفي ملامح الأسف المرتسمة على وجهه وهو يطالع تقريرًا مختصرًا، لكن الأمل يائس.. خاصة وهو يرفع وجهه ناظرًا إلى عينيها ثم أجاب باختصار:

"كما توقعنا، حالة الكلى تحتاج علاج طويل بدئًا من اليوم لا الغد.. وأي إهمال لن يكون في صالح الصغيرة.."

نظرت جميلة بذعرٍ إلى زوجها الجالس في مواجهتها تسأله العون وكأنه يملك نفيًا على كلام الطبيب، لكن ملامحه كانت أكثر انكسارًا من ملامحها وانحدرت عيناه تنظران إلى الصغيرة التي تبادله النظر ببراءة غير مستوعبة تمامًا لما يحدث..

قبضته على فمه وعيناه في اتساعٍ خائف، ثم ابتلع ريقه وهو يلتفت إلى الطبيب سائلًا بصوتٍ خفيض مضطرب:
"و..ماذا عن تكلفة العلاج؟.. أهي مرتفعة؟.."

تنهد الطبيب تنهيدة كان فيها الجواب الذي يخشاه ثم أجاب أخيرًا باختصار وهو يفتح كفيه فوق مكتبه مسلمًا

"مرتفعة نوعًا، نعم.. الجلسة الواحدة تكلف، لكننا لن نبدأ بالجلسات حاليًا بل سنكتفي بالعلاج لفترة طويلة.."

شحبت ملامحه قليلًا وهو يخفض عينيه صامتًا فهتفت

جميلة بنبرة فزعٍ على الرغم من أن صوتها لم يعلُ عن الهمس: "ابراهيم!!.."

وكأنها تسأله أن يطمئنها، يخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام.. لكن ارتفاع عينيه إلى عينيها زاد مخاوفها وجعلها أهوالًا قادمة.. مما جعلها تعتصر الطفلتين أكثر وأكثر متسعة العينين وكأن هناك من يريد خطفهما من أحضانها..

سارا متجاورين، صامتين، أصرت على أن تحمل الصغيرة المريضة رغم ثقلها وطول الطريق، لكنها لم تعبأ بالإرهاق، بل كانت تحتضنها بكل قوتها، بينما حمل إبراهيم الأخرى شارد الذهن واجم الملامح..

وحين طال الصمت وبات أقسى مما تحتمل، همست بصوتٍ مرتعش ناظرة أمامها دون أن تلتفت إليه:

"والعمل يا ابراهيم!.. الداخل باليمين ننفقه باليسار!.."

ظل شارد العينين وكأنه لم يسمعها، لكنه بعد فترة أجاب بصوتٍ خافت:

"سأجد حلًا يا جميلة، سأعمل ليل نهار ولو اضطررت إلى الحفر في الصخر.."

اهتزت حدقتاها وارتعشت شفتاها للحظاتٍ وهي تزيد من ضم طفلتها، ثم لم تلبث أن هتفت همسًا بعنفٍ يائس:

"لمَ طفلتي أنا بالذات؟!.. لماذا يجب أن تكون هي من كُتِبَ عليها المرض وهي في هذا العمر الصغير، إنها لم تتجاوز الخامسة!!.. فيما أجرمت لتحيا مع المعاناة كل سنوات حياتها، هذا إن.. إن عاشت!.."

أطبقت عينيها وهي تبكي بشدة وبصوتٍ عالٍ والنظرات الفضولية تلاحقها، لكنها لم تشعر بها، كانت في عالمٍ من الأسى على طفلتها إلا أن إبراهيم هتف مفزوعًا:

"استغفري ربك يا جميلة، أهذا هو جواب بداية الإختبار؟!..فشل تام؟!.."

توقفت مكانها غير قادرة على الحركة، ثم رفعت يدها إلى عينيها وانخرطت في بكاءٍ عنيف في منتصف الطريق

شاهقة باختناق.. ما جعله يتنهد ليقترب منها، يضمها إلى صدره بذراعه حاملًا طفلته وهي تحمل طفلتها دافنة وجهها المبلل في كتفه تهز رأسها بيأسٍ هامسة: "لا أصدق هذا.. وكأنني في كابوس سأستيقظ منه.. أيقظني منه يا ابراهيم.."

أغمض عينيه وجسده القوي يرتعش رعشة غير ظاهرة، يحتاج إلى من يفيقه هو ويخبره الحل وكيف سيتدبر إنقاذ صغيرته!.. أتراه يعجز ويحيا مع الذنب يومًا!!..

حين عاد للبيت كانت جميلة قد توقفت عن البكاء، وتحولت إلى جسدٍ ساكن بملامح ممتقعة لا حياة فيها وعينين فارغتين جافتين بعد أن نضبت دموعها.. ودون كلمة واحدة تابعت سيرها حاملة ابنتها إلى فراشها العريض فاندست فيه تحت الغطاء وهي تضم ابنتها بقوة ناظرة إلى الفراغ بصمتٍ تأرجحها باهتزازٍ ضعيف.. وهذه المرة لم تأخذ شقيقتها وكأنها غفلت عنها تمامًا..

نظر إبراهيم إلى زوجته بصمتٍ حزين ثم اصطحب ابنته إلى سريرها ليريحها على حافته وانحنى يفك رباط حذائها ويخلعه عن قدميها وهي تنظر إليه بملامح طفولية هادئة،

إلى أن سألت أخيرًا بتلقائية:

"أبي، هل ستموت أختي؟.."

انتفض إبراهيم وهو يرفع وجهه إلى عيني ابنته مجفلًا، ثم هتف برهبةٍ وهو ينهض ليجلس بجوارها يضمها إلى صدره محيطًا كتفيها بذراعه: "لماذا تنطقين بمثل هذه الكلمات؟!!.. لا تكرريها أبدًا أبدًا.. مفهوم؟.."

أومأت ابنته برأسها صامتة وهي تتطلع إليه ببراءة، فتابع قائلًا بصوتٍ أجش مختنق:

"شقيقتك مريضة قليلًا لكنها ستشفى بإذن الله.. سنتعاون جميعًا أنا وأنتِ وأمك وهي أيضًا حتى تشفى وتكون بخير.. هل أنتِ خائفة؟.."

هزت الصغيرة كتفها بعلامة مبهمة بينما بقت ملامحها على هدوئها وبراءتها وكأنها لا تحمل للحياة همًا.. فابتسم لها والدها بحزن وهو يداعب وجنتها برقةٍ ثم انحنى ليقبل رأسها برفقٍ وهو يعيد ضمها إلى صدره وهو الذي يحتاج

منها العناق هذه المرة كي تمنحه القوة في أشد أيامه ضعفًا.

*****

صوت المزلاج الضخم كان قويًا تردد صداه من حوله وبداخل نفسه معلنًا عن فتح البوابة الكبيرة وأمام عينيه العميقتين كبركتين قاتمتي السواد.. أبصرها تفتح مصرعيها له ليترائى له العالم.. تلوح له الحرية..

الحرية..

احتفالات ضخمة أقامها له زملاء السنوات الباردة الماضية بين الجدران الرمادية الكئيبة، ليلة أمس.. ظنًا منهم أنه قد وصل إلى غاية الأمل والمراد بإنقضاء أحد عشر عامًا طويلة عنيفة، تنخر العظام وتوهن القلب..

وعلى الرغم من احتفاظه بشيء كإبتسامة خالية من أي مشاعر على شفتيه، لم تصل مطلقًا إلى عينيه وهو يراقب غنائهم.. إلا أن ما بداخله كان أبعد ما يكون عن الإبتسام أو الحياة.. أبعد ما يكون عن ترقب الحرية..

بداخله نقمة عنيفة.. وعدم رغبة في الخروج لهذا العالم الذي غادره شابًا وسيعود له الآن رجلًا ميت الروح، ناقم الإحساس..

خطا بقدمٍ.. ثم الأخرى.. ليخطو عبر البوابة إلى العالم الآخر.. العالم في الخارج..

فرفع وجهه المتجهم خشن الملامح تلقائيًا يترقب ما قد يراه.. وعن بعد رآه هناك واقفًا بملامحٍ لم يرأف بها الزمن، فقد ازدادت خطوط العمر حول عينيه وغارت النظرة بهما.. بينما ازداد المشيب سريعًا فلم تسلم منه شعرة..

متجهم الملامح كملامحه.. لكن الفراق أن هناك الترقب في عينيه.. بعض الأمل.. وابتسامة!..

هذا ما رآه ما أن رفع الرجل المتجهم وجهه لتلتقي نظراتهما.. بريق من الأمل جعل شبح ابتسامة يظهر على زاويتي شفتيه قبل أن يستقيم واقفا من استناده على مقدمة سيارته العتيقة!..

نفس السيارة لم تتغير منذ عشرين عامًا!!.. لا يصدق أنها لا تزال قادرة على الحركة!..

لوح له بيده ذات العروق، فتوقف هو عن التقدم لحظة..

يعلم الله أنه حاول الإبتسام بكل ما استطاع من قدرة، إلا أنه فشل في ذلك فشلًا ذريعًا..

و كأن شفتاه قد تيبستا مع الأعوام، غير قادرتين على التحرك والإرتفاع دون أن يتشقق وجه وتتساقط ملامحه الجافة..

لذا تخلى عن المحاولة وتابع المسير ببطء يحمل حقيبة صغيرة تحوي بعض أغراضه مما تبقى منها في قسم الأمانات..

و ما أن وصل إلى السيارة العتيقة والرجل الناظر إليه بلهفة.. حتى توقف مترددًا.. وكذلك بدا الرجل، حتى أن اللهفة في عينيه تراجعت وبدا أكثر حذرًا.. وكأنه لا يجد ما يقوله،ثم تمكن من القول أخيرًا بصوتٍ خشن

"مبارك خروجك يا ولدي.."

صدرت عن ابنه إيماءة مبهمة وملامحه لا تزال متجهمة، متحفظة وكأنهما غريبان!.. للمرة الأولى معًا فوق أسفلت العالم الخارجي بعد خمسة عشر عامًا كاملة!..

و بدا له الأمر شديد الغرابة..

نظر الوالد حوله بإرتباك، ثم لم يلبث أن أعاد عينيه المغضنتين إلى ابنه المتحفظ، جاف الملامح..

و على الرغم من نضج هذا الوجه وصلابته التي اكتسبها خلف الأسوار.. لكنه استطاع أن يرى في عيني ابنه نفس النظرة التي كان يراها في طفولته وهو تائهًا..

لذا لم يستطع منع نفسه وهو يجذبه بكل قوته بين أحضانه، يعتصره بين ذراعيه متأوهًا دون صوت،..

ظل ابنه متشنجًا.. مسمرًا وغير متجاوبًا للحظاتٍ طويلة،..

حتى ذراعاه، مفتوحتان قليلًا.. ثم بدأ يلين شيئًا فشيئًا حتى التفت الذراعان حول ظهر والده ببطىء..

حينها تأوه والده بصوتٍ عالٍ وهو ينظر إلى السماء بعينين حمراوين، تغالب فيهما الدموع للإنحدار.. إلا أن الكبرياء تأبى..

فاكتفى بأن ربت بقوة على ظهر ابنه بين ذراعيه وهو يكرر بصوتٍ أكثر تحشرجًا

"طالت سنوات سجنك، فدعوت الله أن يطيل في عمري حتى انقضائها.. وقد استجاب.. مبارك خروجك يا معاذ يا ولدي.."

*****

الفصل الأول

قرار ليلة بالمغادرة

و طلب دلال الطلاق من صالح

إنهاء نوال لكل ما كان بينها وبين يوسف

مرض ابنة جميلة وضيق الحال

خروج معاذ من السجن

أهي النهايات، أم أنها البدايات؟!..

لكل نهاية طريقان كلا منهما عكس الآخر، أحدهما يمينًا والآخر يسار.. ينتهيان ببداية!

*****

نظرت حولها ببطء وشرود تتأمل البهو الواسع المحيط بها في الطابق الأرضي من البيت.. لطالما كان يسحرها التأمل في أرجاءه العتيقة الأثرية.. يأخذها الشرود عبر الأزمنة، حيث تم بناء هذا البيت..

وكأنها تعود كأحد ساكنيه منذ أجيالٍ وأجيال.. ترتدي البرقع ويغطي رأسها الوشاح الطويل.. تتوه في تخيل القصص التي تكون فيها البطلة، في زمان غير الزمان.. رغم أن المكان بمعجزة ما هو نفس المكان قائمًا منذ أدهرٍ

لكن الآن وفي هذه اللحظة، حل شعور آخر محل السحر طاردًا.. شعورًا بالخوف!..

تحرك حلقها بصعوبةٍ وهي تبتلع ريقها تجيل عينيها بين الجدران الأثرية.. وحدها!!..

ماذا يعني هذا؟!..

كم بقت على نفس جلستها منذ أن ألقت ليلة بقنبلتها وغادرت بمنتهى البساطة والهدوء إلى غرفتها!!..

دقائق، أم ساعة؟!.. أم لا تزال جالسة كالصنم منذ ساعات!..

شهقت آخذة نفسًا مرتجفًا وهي تحاول تهدئة نفسها.. تبتسم بعصبية، مبعدة شعرها عن وجهها إلى خلف أذنها وهي تهمس لنفسها بعد صمتٍ طويل

"لا بالتأكيد لم تقصد ما قالت!.. إنها لا تقصد إلا أن توترني فحسب!.. كهذا هي ليلة، لا تحلو لها متعة كمتعة إثارة توتري والتلاعب بأعصابي.."

صمتت قليلًا وقد غابت الإبتسامة عن شفتيها الجافتين..و اصابعها تنقر على ذراع مقعدها بحركةٍ عصبية، ثم لم تلبث أن همست بصوتٍ أجوف

"لكن نبرتها.. نظرتها.. أرى تصميمًا غريبًا لم أبصره على محياها من قبل!.."

عادت لتصمت للحظة، ثم همست بصوتٍ أكثر خواء

"نعم، ما أخافني لم يكن الكلمات في حد ذاتها.. بل الطريقة

التي نطقتها بها، وكأنها قد اتخذت القرار وانتهى الأمر!.."

صمت جديد.. ووجهها يزداد شحوبًا، تعيد تحريك رأسها وهي تتأمل القاعة الكبيرة وتفرك أصابعها دون إدراك.. ثم همست أخيرًا بعنف وثقةٍ زائفة

"لكن حتى وإن كانت جادة في قرارها، إلى أين ستذهب؟!.. ليس لها مأوىً آخر، ليس لها مكانًا الا هذا البيت.. ليس لها أحدُ سواي!.."

أومأت برأسها ببطء شاردة العينين الغائرتين وكأنها قد اطمئنت قليلًا، لكن ليس تمامًا..

لذا لم تستطع التحمل أكثر، فقد أجبرها الرعب على الحركة والتوجه إلى السلم الداخلي الملحق بالبيت.. في منتصف البهو تمامًا.. درجاته من الخشب القديم كحاجزه المزخرف، فمدت يدها تمسك بهذا الحاجز ورفعت رأسها لأعلى منادية بصرامةٍ وقسوة

"ليلة.. ليلة، انزلي إلى هنا حالًا.. علينا أن نتكلم.."

ثم انتظرت..

آخذة نفسًا عميقًا منتظرة.. دقائق.. دقائق.. دقائق.. وشحوب وجهها يتزايد وملامحها تمتقع أكثر!

لم يسبق لليلة أن تأخرت في تلبية ندائها مطلقًا!!..

أطرقت بوجهها الأبيض وعينيها الواسعتين قليلًا وهي تتنفس بسرعة.. ربما تكون قد نامت!..

لكن النظرة الغائمة في عينيها لم يكن لها سوى معنى واحد وهو عدم تصديق هذا المبرر مطلقًا..

تحركت ببطء ترتعش، تجر نفسها جرًا حتى وصلت للمطبخ ومكثت فيه منتظرة نزول ليلة في أي لحظةٍ من اليوم.. وقد لا تنزل اليوم، ربما غدًا..

مطبخًا غريب التصميم وكأنه من زمنٍ آخر لمن يراه للوهلة الأولى.. وهو بالفعل من زمنٍ بعيد..

بالكامل مصمم من الخشب في خزائن قديمة وألواحٍ من أشغال الأرابيسك المعشقة.. جدرانه مطلية بلونٍ أزرق زاهٍ.. تقشر في الكثير من المناطق على الرغم من الترميم الدقيق المستمر..

الستائر المزركشة القطنية تغطي الأرفف السفلية كأبوابٍ تستر ما بداخلها.. وفي المنتصف طاولة خشبية ملتصقة بالأرض.. بقائمة واحدة عريضة مشغولة بالأرابيسك..

شكل المبرد في المطبخ كان غريبًا جدًا.. وكأنه خطأ فادح من مخرج لفيلم من عصر سحيق.. غفل عن وجود هذا الجهاز العصري بمكانٍ كهذا أثناء التصوير..

لطالما جذبتها أفكارها المجنونة عن كل زاوية من زوايا هذا البيت الساحر.. لكنها الآن مقيدة بأفكارٍ أخرى..

أفكار بعيدة عن الماضي والأزمنة الغابرة.. أفكار عن الحاضر والمستقبل المخيف..

لا تزال تربت بأصابعها فوق الطاولة بوهن وهي تراقب

شعاع الشمس الحاد الأحمر والمتسلل عبر مربعات النافذة الزجاجية الملونة.. وهو يبدأ في الإختفاء بالتدريج مما يخبرها عن قرب المغيب!!..

همست بصوتٍ واهن فاتر:

"ست ساعات كاملة يا ليلة!!.. لم أعهدكِ قاسية إلى هذا الحد!!.."

وكأن كلماتها الساهمة الخافتة التي حدثت بها نفسها كانت نداءً أقوى تأثيرًا من صراخها السابق.. فقد ظهرت ليلة عند باب المطبخ في تلك اللحظة، لتتلاقى أعينهما لثانية واحدة حملت الكثير من المشاعر المعقدة الدفينة.. قبل أن تلقي بشعرها بعيدًا وتدخل ببساطة وكأنها لم تفتعل كارثة منذ ست ساعات..

راقبتها دون كلام وهي تنحني لتحضر بعض الأواني.. وتخرج الطعام المعد مسبقًا في المبرد..

لطالما كانت شديدة التنظيم إلى حدً يثير العجب.. كل علبة

بها مقدار متساوي من طعامٍ طهته وحفظته..

الأكواب مغسولة وتلمع.. المطبخ شديد النظافة ككل ركنٍ في البيت، فقط لأنها موجودة فيه.. ككل مكانٍ آخر تتواجد به..

إنها الساعة التي تم ضبطها لتيقظ وتنبه..إنها المفكرة المسجل بها جدول الأعمال والفواتير وتنظيم الإنفاق إنها مدبرة البيت التي يأمن لها المرء على أولاده..

إنها الآمر الناهي.. والمتحكم في زمام الأمور..

إنها المكلفة بتلبية كافة احتياجاتها دون اعتراض أو كلل..

إنها الطاهية والسائقة والخادمة والمسؤولة..

إنها الجميلة، الطويلة، قوية القوام.. هادئة الملامح حد الجمود...

إنها باختصار.. كل شيء وكل شخص..

تحركت الحدقتان العسليتان ببطء ووجوم مع حركة ليلة اللامبالية في المطبخ.. حتى بات الصمت بينهما غريبًا في ظلِ ظروفٍ كهذه..

لذا نطقت أخيرًا بنفس السؤال الذي جال في بالها منذ دقائق

"ست ساعات كاملة يا ليلة!!.."

لم يبد عليها أنها قد سمعت ما نطقت به للتو واستمرت في تحضير طعام غذاءٍ سريع بعملية.. ثم سألت أخيرًا بصوتٍ هادىء عميق دون أن تلتفت إليها

"هل احتجتِ شيئًا خلالها؟!.."

اهتزت حدقتاها للحظة وارتجفت شفتاها فعضت عليهما بقوة.. ثم رفعت ذقنها قائلة بصوتٍ صلب حاد

"نعم احتجت.. احتجت التأكد منكِ حيال الهراء الذي ألقيتِ به على مسامعي منذ ست ساعات وتركتِني خلالها في

انتظارٍ مريع محاولة إيهام نفسي بأنني لم أسمع ما سمعته منكِ!!.."

أغلقت ليلة المبرد دون عجلة، ثم أجابت بنفس الهدوء

"بل سمعتهِ.. أنا راحلة عن هذا البيت.. سأبدأ حياة جديدة لنفسي.."

الخوف تحول رعبًا وهي تنظر إليها بعينين واسعتين غير مصدقتين، ثم هتفت بعنف غاضب وخوف

"ماذا تعنين براحلة؟!.. ما هذا الغباء؟!.. إلى أين سترحلين؟! لا مكان لديكِ كي تذهبي إليه!!.. مع من ستقيمين؟!.. لا عمل لكِ.. لا أحد.. لا شيء.. لا شيء على الإطلاق!!!.."

توقفت ليلة توليها ظهرها بصمتٍ تام.. وكأنها قد تسمرت كتمثالٍ حجري جميل.. ثم همست أخيرًا بصوتٍ أكثر عمقًا

"لا شيء لدي على الإطلاق.."

لا تعرف إن كان هذا سؤالًا أم إقرارًا لأمرٍ واقع.. أم تأنيبًا حزينًا!..

شعرت بالندم على كلماتها القاسية فرفعت أصابعها إلى جبهتها الباردة وهي تخفض وجهها هامسة بأسف:

"ليلة.. لم أقصد.. أنا فقط قصدت.."

لكنها لم تجد الفرصة كي تتابع كلماتها، فقد استدارت إليها ليلة قائلة بهدوء مقاطعة لكن بنبرة أكثر قسوة:

"لا بأس.. أنتِ محقة، أنا لا شيء لدي على الإطلاق.. بل أنا لا شيء على الإطلاق.."

شل الرعب حلقها فهزت رأسها نفيًا قائلة بصوتٍ باهت متردد:

"لا هذا ليس صحيح.. لديكِ علاقتنا.. لديكِ حياتنا سويًا.. أنتِ هي أنا.. إن كنتِ لا شيء فهذا يعني أنني أيضًا لا شيء وأنا أرفض هذا التقييم.. نحن شخص واحد يا ليلة.."

صرخت فجأة وهي تضرب كوبًا كان في يدها عبر الحائط بقوة

"لا.. أنا وأنتِ لم ولن نكون شخصًا واحد مطلقًا يا عالية.."

يالهي!.. كانت عيناها تقدحان نيرانًا من الجحيم!.. بدت مخيفة!..

شعرت عالية وكأن ليلة ستنقض عليها في تلك اللحظة وتصفعها بكل قوتها!.. على الرغم من أنها لم تقدم على شيء كهذا من قبل! لكن نظرة عينيها منحتها ذاك الإحساس المريع بأنها قادرة على ضربها في تلك اللحظة وبمنتهى العنف!..

ومضت بضعة لحظات مرعبة وكلا منهما تنظر إلى الأخرى.. ما بين نارٍ بعيني ليلة.. وجليدٍ باردٍ مرتعب بعيني عالية.. وترقب مخيف..

حتى قررت ليلة أخيرًا التحرك فاندفعت بقوةٍ تجاهها مما جعل عالية تشهق بصوتٍ عالٍ وهي ترفع ذراعيها تلقائيًا ودون تفكير كي تحمي وجهها.. مما جعل ليلة تتوقف وهي

ترى حركتها السريعة.. وساد الصمت بينهما للحظات معدودة قبل أن تصفعها بالفعل.. لكن ليس بكفها، بل بكلماتٍ موجزة قاسية:

"أنا وأنتِ لسنا شخصًا واحدًا أبدًا.. انظري إلينا.."

ومع هذه الكلمات المؤذية سقطت ذراعا عالية ببطء مع تساقط خطوط ملامحها وعينيها وهي تنظر إلى عيني ليلة الغاضبتين.. قبل أن تندفع خارجة وهي تهتف بجمود وكأن شيئًا لم يحدث

"الطعام أُعِد على الطاولة.. يمكنك الأكل إن أردتِ وأتركي الأطباق، سأقوم بغسلها في وقت لاحق.."

ثم خرجت من المطبخ وتركت عالية مكانها تنظر بعينين دامعتين إلى الأطباق النظيفة المحضرة بعناية، وثلاث أصناف بسيطة وصحية مجهزة..

لا يقل الغذاء الذي تحضره ليلة مطلقًا عن ثلاث أصناف بالإضافة إلى طبق السلطة.. لا تنساه أبدًا..

ودون إرادة منها ملحوظة كتلك جعلت عالية تنخطر فجأة في بكاءٍ عنيف وهي تدفن وجهها بين كفيها..

*****

سكب صالح بعضًا من الطعام سيء الشكل والرائحة الذي أعده في طبقه وطبق ابنه الجالس بصمت وبملامح كئيبة يراقب والده عن كثب حتى جلس أمامه، يقلب محتويات طبقه بشرود وقد ارتسم التجهم على وجهه وازداد تحفظ ملامحه..

لطالما كان والده متحفظًا، لا يظهر مشاعره بسهولة.. يحتفظ بقناع القوة على وجهه مهما كانت الظروف

لكن بداخله كان ابنه يعرف أنه يحمل الكثير من العاطفة والمشاعر.. والتي قد تحتجزها الكرامة والكبرياء وطبيعة شخصيته الرسمية دائمًا..

انتبه صالح من شروده على مراقبة ابنه له دون حركة.. فقال بصوتٍ أجش خافت

"لما لا تأكل؟!.. هيا كل.."

وكي يشجعه قام بالأكل أولًا، لكنه فوجىء بمدى فظاعة مذاق ما أعده من طعام فمضغه بإستياء.. ثم همس بصوتٍ أجش غاضب

"هذا سيء حقًا.."

رمش الصبي بعينيه، ثم تناول ملعقة كبيرة من الطعام مضغها مرة قبل أن يبتلعها دفعة واحدة ثم قال بسرعة

"الطعام جيد يا أبي.. ليس سيئًا إلى هذا الحد.."

رفع صالح عينيه إلى عيني ابنه المشجعتين.. فابتسم رغمًا عنه لكنه لم يتكلم.. بل تابع أكله ببطء ودون شهية.. وحاول الصبي الأكل، لكنه بدا غير قادرًا..

حاول الصمت مرارًا لكنه أيضًا بدا غير قادرًا فرفع وجهه المليح الصافي أخيرا وقد اتخذ القرار بالكلام إلى والده

وسأل بتردد

"ألن تحاول إعادة أمي للبيت؟.."

تسمرت يد والده وهو يحدق في عينيه ابنه بتجهم.. ثم ألقى بالمعلقة في الطبق وهو يقول بصرامة مشيحًا بوجهه

"لا مزيد من هذا الكلام.. الموضوع انتهى وعليك نسيانه.."

يعرف والده حين يصدر أمرًا، بهذه الصلابة وصرامة النبرة.. وعادة ما ينصاع كل من حاول الجدال..

وبالفعل صمت قليلًا برهبة.. لكنه بدا وكأن شيئًا يحرق أعصابه وإن لم يتكلم.. فهتف متضرعًا

"لكن يا أبي، كثيرًا ما تشاجرتما.. هذا لا يعني أن نسمح بهدم البيت حتى وإن أرادت هي هذا، فلا تسمح لها.. اجبرها على العودة وأفهمها أنك لن تسمح بتفكيك الأسرة.."

انحنت عينا صالح لتلتقيا بعيني ابنه الحاسمتين كعينيه

ونبرة صوته الجادة والتي تفوق سنوات عمره نضجًا

فارتسم شبح ابتسامة على شفتيه الجافتين، ثم قال بصوتٍ خفيض

"لقد كبرت يا ولد وصرت رجلًا.."

ابتسم ابنه الأكبر على الرغم منه شاعرًا بالزهو فتملكه المزيد من الشجاعة وقال بقوة

"ما دمت اعترفت بهذا، فهذا يعني أن كلامي منطقي.. هيا لنذهب ونعيد أمي وأخي للبيت اذن يا أبي أرجوك.."

استدار صالح في مقعده ببطء حتى واجه ابنه بالكامل مقربًا وجهه من ملامح الصبي.. ثم تكلم بصوتٍ خفيض لكنه حمل نبرة بأس وغضب مكبوت أثارت الرجفة في جسد الصبي

"ما دمت كبرت وصرت رجلًا، عليك معرفة أن هناك أخطاءً لا يصفح عنها الرجال أبدًا.. لا بيتٌ يبنى عليها ولا أسرة

تترابط بعدها.."

فتح الصبي فمه محاولًا الكلام لكن النظرة في عيني والده أجفلته وجعلته يصمت.. وهو يدرك أنه وقت الصمت ولا كلام بعد كلماته..

أسبل جفنيه للحظات، ثم سأل أخيرًا بصوتٍ خافت

"ماذا عن أخي؟!.. هل سنتخلى عنه؟!.."

أكفهرت ملامح والده وقتمت عيناه، ثم قال أخيرًا بصوتٍ غريب

"لو أحضرته ألف مرة بالقوة.. لهرب الألف مرة وعاد إلى أحضان أمه.. أخوك مفقود الأمل فيه بإرتباطه بأمه، هي من فعلت به هذا وجعلت منه طفلًا ضعيفًا، لين العزم.."

ظل ابنه يستمع إليه صامتًا بوجوم.. بينما تابع والده طعامه وملامح وجهه الشاردة الغاضبة ممتزجة بالحزن.. فأدرك ابنه أنه يود لو ذهب وأتى بابنه الأصغر عنوة ورغمًا

عنه.. لكن لطالما كانت المودة مفقودة بينهما منذ طفولته.. وربما كانت أمهما السبب..

لقد كانت دائمة التحريض لإبنها الأصغر ضد والده.. تحتمي فيه ما أن يغضب الأب..

لا تتخلى عن ضمه إلى صدرها كل لحظةٍ، وهي تبكي.. وهي تضحك.. وهي تصرخ..

كانت بينهما علاقة وثيقة أصعب من يستطيع صالح التغلب عليها..

كان الإبن الأصغر هو صديقها ورجلها وابنها وكل ما لها.. لقد أسرفت في تدليله كما كانت تعشق الإسراف في تدليل نفسها تمامًا..

تكلم صالح أخيرًا قائلًا بصوتٍ أجش باهت وشارد

"لكنه سيعود بنفسه.. يومًا ما سيعود.."

تابع ابنه الأكل بصمتٍ تام وقد هزته نبرة والده البعيدة.. ثم قال أخيرًا بعد دقائق طويلة من الأكل دون شهية

"لنتناوب مستقبلًا في إعداد الطعام.. أنا أحب الطبخ.."

رفع صالح عينيه إلى عيني ابنه ثم ابتسم ببطىء.. قبل أن يوافق بخفوت

"لا بأس اذن.. لنرى خبرتك.."

بدا ابنه سعيدًا للمرة الأولى منذ أيام وأومأ برأسه موافقًا.. وتابع أكله قائلًا بمزاح عفوي

"لكن أرجو الا يقلل حبي للطبخ من رجولتي في نظرك.."

ساد الصمت للحظات، حتى شعر بكف والده تربت على وجنته برفق مما جعله ينظر إلى عيني صالح بدهشة، فقال والده بثقة وجدية

"لا شيء قد تفعله سيقلل من رجولتك في نظري يا ولدي،

بل على العكس.. ستكون مثار فخري دائمًا.."

*****

نظر حوله بعينين واسعتين قلقتين بهما نظرة صبي في الثانية عشر من عمره، جالسًا ملتصقًا بأمه تمامًا وكان يبدو عليها القلق والتوتر أكثر مما يبدو على ملامحه الفتية..

كان بإستطاعته الشعور بإنتفاضة جسدها الخفية.. إنها مرتعبة من الخطوة التي أقدمت عليها، وعلى ما يبدو أنها لم تحسب لها حسابًا واعيًا.. وكان هذا كفيلًا بأن يبث الرعب في نفسه خاصة في عمره الصغير نسبيًا..

لكن ولى الرغم من هذا الرعب الغادر في قلبه، الا أنه لم يكن ليتخلى عن أمه مطلقًا.. سيبقى لها مهما كانت ومهما فعلت.. سيحميها ولن يرحل عنها مطلقًا..

شعر بها تميل للأمام فإلتفت ينظر إليها وهي تلتصق به فوق الأريكة وذراعها تحيط بكتفيه، لا تفلته أبدًا.. حتى وهي تنحني لتمسك بكوب العصير ترفعه عن الطاولة.. تقربه من

شفتيها المصبوغتين بلونٍ أحمر.. تمس حافته بهما فتترك بصمتها الملفتة..

ربما كانت تريد تهدئة توترها.. فحدقتاها مهتزتان، غير ثابتين.. أنفاسها متلاحقة سريعة، والكوب تهتز به صفحة السائل من ارتعاش أصابعها..

كل تفصيلة بها كان يراقبها ويشعر بها.. فمد كفه يمسك بيدها المتشبثة على كتفه تؤلمه..

كان يطمئنها ويخبرها أنه موجود وأنه لن يرحل مطلقًا..

لكنها لم تشعر بحركته اللطيفة، كانت تحصل على الأمان بطريقتها الخاصة متشبثة بكتفه بأظافرها تسبب له الألم، بينما هي شاردة الذهن، بعيدة عنه كل البعد رغم إلتصاقهما..

دخلت أختها إلى غرفة الجلوس قاتمة الملامح عابسة العينين.. لكنها تمكنت من رسم ابتسامة متحفظة على شفتيها.. ثم جلست على حافة كرسي قائلة بفتور

"تم الطلاق.."

شعر بأمه تتسمر ويتصلب جسدها للحظة، فرفع عينيه يراقب جانب وجهها..

استطاع أن يلمح ارتعاشة شفتيها وازدياد الخوف أضعافًا في مقلتيها.. لكنها أخرجت صيحة غريبة..

بدت وكأنها مزيجًا من ضحكةٍ وتنهيدة ارتياحٍ وخلاص!.. ثم هتفت بنبرة شديدة التكلف مع ابتسامة عصبية

"أخيرًا!!.. الحمد لله، لا أصدق أنني خلصت منه أخيرًا!!.."

نظرت إليها أختها بغضبٍ واستياءٍ واضح وحسرة، ثم قالت بغيظٍ محتدة:

"ألا تراجعي نفسك يا دلال ولو لدقائق!!.. خراب البيوت ليس هينًا وأنتِ لديكِ ولدان!، ألم تفكري في مصلحتهما قبل هدم كل شيء والرحيل دون إلقاء نظرة واحدة لما خلفته من دمار بهذه الأسرة!!.."

عقدت دلال حاجبيها بشدة وبان الشر على ملامحها التي يمكن وصفها بأنها أكثر جاذبية من المتوسط.. وإن كانت الملامح ليست مقوماتها الأقوى.. فهي تمتلك سحرًا من اسمها يجعلها مثار طمعٍ وإغواء..

ثم هتفت بغضبٍ وعصبية:

"أراجع نفسي!.. أراجع نفسي بعد أن امتلكت الشجاعة لمرة واحدة في حياتي، وقررت النجاة بما تبقى من شبابي عوضًا عن دفنه كاملًا في بيت رجلٍ منقرض الأفكار، يحيا بين قوانين بائدة بالية.. حياة بليدة، لا طموح لديه.. لا يعرف لهذا العالم بريقًا سوى بريق صفحات كتبه والتاريخ المغبر الذي يعيش فيه ميتًا ويريدنا أمواتًا معه!.."

كانت أختها تنظر إليها فاغرة فمها وكأنها تستمع إلى معتوهة تتحدث، أو مغيبة تعاطت ما يكفي من المواد المخدرة لتهذي بكلامٍ من وحي أوهام نفسها.. أو ربما مسها مس من شيطان أو جن قرر امتلاكها وابعادها عن زوجها وافساد حياتها!..

فهتفت ذاهلة مستنكرة

"أي بريق وأي طموح!!.. عما تتحدثين بالضبط؟!.. تزوجتِ أستاذًا في الجامعة، تزوجتِ أستاذك تحديدًا، يشهد له بالإحترام، وقد أمن لكِ حياة مستورة.. فماذا تريدين أكثر؟!.."

شعر ابنها بذراعها تنتفض عن كتفيه وهي تقفز واقفة من مكانها تتحرك بإندفاعٍ وتوتر.. حتى وقفت أمام نافذة توليهما ظهرها قائلة بصوتٍ بارد مشتد.. يرتعش قليلًا، إلا أنه كان غاضبًا، يتوعد بالكثير من الجنون

"أستاذ في الجامعة!.. يا فرحتي بأستاذ الجامعة، أستاذي!، انظري إلى زملائه وما وصلوا إليه؟!.. منهم من سافر ومن يعطي دروسًا خاصة.. ومنهم من يكون قادرًا على بيع كتابه بشكلٍ يربحه الكثير.. أما نحن، فعالقين مع شخص آتٍ من الماضي.. يرفض السفر ويتحدث عن عدم قدرته على ترك بلده وعدم رغبته في إعطاء دروسًا خاصة وأن كتابه ليس للربح فعلًا!!!!!.. ما هذا الهراء!.. في أي زمنٍ يعيش!.."

كانت تهز ساقها بعصبية وهي تكلم نفسها.. بينما أختها وابنها يراقبانها بصمت غريب وهي تتابع من بين أسنانها

"تزوجت صغيرة في الثامنة عشر، لينقضي من شبابي معه خمسة عشر عامًا.. خمسة عشر عامًا، لم نتقدم خلالها خطوة.. لم نحقق شيئًا.. أقصى طموحه هو حجز شقتين كعلبتي كبريتٍ للولدين.. وماذا عني أنا؟!.. كل ما حلمت به يومًا لم أحصل عليه.. لم أسافر كما تمنيت.. بل بقيت عالقة هنا أراقب زوجات زملائه يحققون أحلامي أنا.."

ضربت أختها كفًا على كف وهي تهمس يائسة:

"لقد سُلِطَت عليكِ نفسك يا دلال.. خربتِ بيتك وآذيتِ ولديكِ.. والآن ماذا؟!.. ماذا ربحتِ؟! هل ستتمكنين من تحقيق أحلامك الآن؟!.. أنتِ لا تعملين ولا حتى تمكنتِ من إنهاء دراستك الجامعية!.. ماذا ربحتِ سوى خراب بيتك وتشريد ولديكِ؟!.. أما كنتِ رضيتِ بحياتك وشكرتِ ربك!.."

أظلمت عينا دلال للحظات دون رد وظهر بهما بريق خاطف.. بينما ساقها لا تزال تهتز بعصبية دون توقف..

صوت طرقة على باب غرفة الجلوس قاطعت أحلامها وصوت زوج أختها يقول بإقتضاب

"صالح يريد الولد.."

الا أن الصبي قفز من مكانه هاتفًا بقوة

"لن أترك أمي.. لن أتركها مطلقًا.."

رد زوج خالته بصرامة وحزم

"اسمع يا ولد، لقد تركك والدك مع أمك كل هذه الفترة كرمًا منه.. لكن ينبغي أن تعرف بأنه يستطيع أخذك بقوة القانون فهيا اذهب إلى والدك ولا تعاند، لست رضيعًا في حاجةٍ لحضن أمك..انضج وكن رجلًا."

صرخ الصبي بجنون وهو يتحفز إستعدادًا للقتال إن لزم الأمر

"لن أترك أمي.."

بينما اندفعت دلال هذه المرة هاجمة على ابنها تعتصره بين ذراعيها صارخة بغضب

"لن يأخذه صالح مني أبدًا، أما كفاه أنه أخذ الولد الأكبر وحرمني منه! يريد معاقبتي الآن بحرماني كليهما!!.. اذهب وأخبره أن ابنه لا يريده.. إنه ينفر منه ومن حياته.. أخبره أن يمتلك بعضًا من الكرامة ولا يحاول إجبار الولد على الذهاب معه بالقوة،.. ابني لم يعد طفلًا ولديه رأي وقرار وهو يريد البقاء مع أمه.."

أخفض الصبي وجهه قليلًا لكنه لم يمانع حين أمسكت بوجنته وضمت رأسه إلى صدرها بقوة..

رمقها زوج أختها بنظرةٍ سوداء طويلة، نقلها إلى ابنها الخاضع الصامت.. فقلب شفتيه إزدراءً ثم قال أخيرًا بصوتٍ خفيض

"ربما عليكِ البدء بالتفكير في خططك المستقبلية يا دلال.. فالبيت كما ترين لا يتسع للمزيد من الأفراد، وأنا لن أسمح

ببقاء ابنك بين بناتي أكثر من هذا.."

صفق باب غرفة الجلوس خلفه، فاندفع رأسها تنظر إلى أختها نظرة لومٍ غاضبة.. بينما كانت أختها شاحبة الوجه متخاذلة العينين.. ثم قالت بصوتٍ بطيء:

"أنت من أصرت على بيع بيت والدينا الذي ورثناه، وأنفقتِ نصيبك كاملًا أو ربما أدخرتِ بعضًا منه فهل لديك ما يكفي لشراء شقة؟!.. وإن كان الجواب لا كما أخشى فما الحل الآن؟!.. تعرفين أن كلام زوجي صحيحًا، فأنتِ لم تفكري في حياتك مستقبلًا مليًا.."

همست دلال من بين شفتيها بقساوة

"لا أصدق أنكِ تطردينني أنا وابني من بيتك!.."

تنهدت أختها بضيق وهي تهز رأسها يائسة ثم قالت بقنوط

"أنا لا أطردك يا دلال.. يمكنك البقاء القدر الذي تحتاجين، وانسي كلام زوجي.. لكن يجب أن يكون لديكِ خطة.. خطة

سكن وعمل وحياة.. لقد تهورتِ بكل غباء دون أي تفكير.."

زمت دلال شفتيها الحمراوين وازداد الغضب.. لكن لمعان الخوف كان واضحًا وهي تقول بصوتٍ مضطرب أجش

"لا تشغلي بالك أنت وزوجك.. فلن أطيل البقاء عندكما، لدي خطة.."

ضاقت عينا أختها وسألتها بتشكيك

"لديك خطة حقا؟!.. وما هي؟.."

رفعت دلال ذقنها وهي تعيد وجهها إلى النافذة محاولة السيطرة على حركة جسدها العصبية، وظلت صامتة حتى دخل زوج أختها مجددًا ليقول بصوتٍ مقتضب حانق

"لقد غادر صالح..و يقول أن نفقات ابنه ستصله في وقتها.."

ازداد عض أسنانها على شفتها بتوتر، بينما تحول بكلامه

مخاطباَ الصبي بخشونة

"وأنت.. والدك طلب مني إبلاغك أنه في انتظارك، وكلما أسرعت بالعودة لعقلك فسيكون هذا أفضل لك.."

ملامح الولد كانت باهتة، والقلق والتردد ظاهران.. لكن الإصرار قابعًا في عينيه وهو يهز رأسه نفيًا هاتفا

"لن أعود إلا بعودة أمي.. لن أتركها.."

تدخلت دلال قائلة بحدة وقسوة

"وهذا يعني أنه لن يعود.. لأنني لن أعود.. أبدًا.."

ازداد تجهم زوج أختها وخرج من الغرفة شاتمًا بينما لحقت به أختها مسرعة وهي ترمقها بنظرة فقدان أملٍ حانقة.. صافقة الباب خلفها..

حينها أسرعت دلال تقترب من ابنها تضمه لها وهمست بنبرة حادة متوترة بشفتيها بين خصلات شعره الناعم،

تحاول أن تبث فيه الطمئنينة،.. أو ربما في نفسها وتحتاج منه الدعم

"لا تقلق يا حبيبي، لا تقلق.. أمك لديها خطة.."

ظلت تمشط شعره بأصابعها للحظات وهي تراقب باب الغرفة بتمعن.. ثم تركت ابنها فجأة وتوجهت إلى هاتفها الموضوع على الطاولة فإلتقطته وضغطت على الأزرار بأصابع مرتعشة قبل أن ترفعه إلى أذنها وهي تعض جانب شفتها منتظرة بترقب وقلق.. وما أن سمعت الرد من الجانب الآخر حتى قالت بصوتٍ خافت مضطرب وهي ترمق ابنها بطرف عينيها.. مبتعدة حتى النافذة تهمس

"آآ مرحبًا.. هذه أنا.. لقد حصلت على الطلاق.."

ظلت صامتة للحظة منتظرة سماع ردًا معين، لكنها أجابت بخفوت أكبر

"الآن.. منذ دقائق.. انتهى كل شيء وأصبحت حرة.."

راقبها ابنها وهي تهمس عن بعد.. عيناه تلاحقان كل حركة منها وهي تقف أمام النافذة،..

شفتاها المكتنزتان تهمسان بقلقٍ وتوتر.. ترتعشان قليلًا كهذا الإهتزاز في عينيها..

أصابعها تمسك بخصلة من شعرها تديرها مرة بعد مرة بعدم ثبات..

تخفض وجهها بشعورٍ أشبه بالذنب أو الخوف.. ثم تعود وترفعه لتنظر من النافذة شاردة، قبل أن تلتفت لترمقه بنظرة بطرف عينيها.. حتى سمعها تجيب بصوت حاولت ألا يسمع كلماته لكنه سمعها تهمس وهي تستدير لتوليه ظهرها

"ابني الأصغر معي.. الأكبر رفض وأصر على البقاء مع والده.. سيبقى معي بالتأكيد، لا يمكنني تركه أبدا.."

ظل يراقبها وهو يرهف السمع أكثر..

الآن بدت حركات جسدها أكثر عصبية وهي تهمس

"أنا.. أنا.. لا فكرة لدي عما سأفعله حاليًا.. هل لديك أنت فكرة؟.."

ساد صمت قصير مضطرب، ثم ردت فجأة بتلعثم

"آه نعم.. حسنًا، لكن.. سأنتظر منك إتصالًا نعم.. لا تتأخر.."

أغلقت الخط في النهاية وذراعها يسقط إلى جانبها بحركةٍ غريبة غير مبشرة.. وبدت ملامحها ممتقعة وكأنها لم تسمع لهفة توقعت سماعها.. وكأن الإتصال كان مخيبًا لآمالها بشكلٍ ما..

أراد أن يسألها عمن كانت تهاتف.. لكن لسانه انعقد، وشعر بالرفض لمعرفة الجواب مسبقًا.. لذا انحنى ليجلس على حافة الأريكة مشبكًا أصابعه بملامح باهتة.. فإلتفتت إليه في تلك اللحظة بوجهها الذي رسم صورة واضحة عن.. الضياع..

ثم ابتسمت له ابتسامة لم تصل إلى عينيها وهمست بخفوت:

"أنا وأنت سويًا.."

لم يكن متأكدًا إن كانت تسأله أم تحتفل معه.. لكنه في الحالتين لم يكن لديه سوى جواب واحد رد به

"أنا لن أتركك يا أمي.."

*****

دخلت شقتها تجر ساقيها بوهن.. فجأة شعرت وكأن العمر قد أضفى بصمته على جسدها دون مقدمات..

لطالما كانت تشعر بنفسها شابة مهما مرت عليها السنوات وتعاقبت.. فقد كانت تهزمها بالمبالغة في حصار كل أثرٍ للزمن وملاحقته قبل أن يظهر..

من يراها كان يجزم بأنها تبدو أصغر من عمرها الحقيقي بعشر سنواتٍ على الأقل..

لكنها الآن!!.. الآن!!..

ألقت بمفاتيحها متنهدة فوق إطار مرآة مذهبة بجوار الباب، ليواجهها فجأة وجهها.. تسمرت مكانها..

هالها هذا الوجه المتقدم عمرًا!.. متى ارتسمت كل هذه الخطوط؟!.. وكأنها خرجت بوجهٍ وعادت بآخر!..

رفعت يدها تلامس بها بشرة وجهها المشتدة وهي تنظر إلى النظرة السحيقة في عمق عينيها.. ولون الأسى على شفتيها..

"ماذا فعلتِ؟.."

قاطع الصوت الحازم تأملها الشارد في المرآة.. فأجفلت للحظة قبل أن تستدير لتتحرك متجاوزة محدثها بملامح جامدة وهي تقول ببرود

"مرحبًا لك أيضًا.."

لكنه لم يشعر بالحرج بل لحق بها قائلًا بصوت غاضب محتد:

"لا.. لن تراوغي، ماذا فعلتِ يا أمي.."

توقفت مكانها فجأة ثم استدارت إليه وهي تلقي بحقيبتها بعيدًا بقوة.. ثم سألت بصوتٍ متشنج لاهث:

"من أعطاك الحق في التحقيق معي ومحاكمتي؟!.."

تراجع رأسه للخلف قليلًا.. وقد بان في عينيه كل مشاعر الحقد وهو يسأل بصوتٍ غاضب:

"اذن فلم تفعلي ما طلبته منكِ!.."

صرخت فجأة بغضبٍ أكبر من غضبه:

"ما طلبته مني!.. تقصد ما أمرتني به، مر الزمن وكبرت وأصبحت رجلًا لتتجرأ وتملي عليه ما تريد!.."

هاج صوته كرعدٍ قاصف وهو يصرخ ملوحًا بكفه:

"أنتِ بالفعل لم تقطعي علاقتك به!.. اذن أنتِ مصرة على تعريضنا جميعًا لفضيحة سيتحاكى عنها كل من يعرفنا.. سنصبح علكة الأفواه وكل هذا لأن الأم المحترمة لم تستطع احترام عمرها فوقعت في نزوة مع شاب من عمر ابنها بل وترفض الخروج منها.. أنتِ لا فكرة لديكِ عما سنتعرض له جميعًا بسببك!.."

صرخت فيه بجنون وهي تهجم عليه لتدفعه في صدره بقوة:

"الآن بت مهمة وتصرفاتي مثار اهتمام الجميع؟!.. أين كنت أنت وأين كان الجميع طوال تلك السنوات التي كونت العمر الذي تعايرني به؟!.. لقد سافرت أنت وأختك دون نظرة للوراء منذ سنوات وبقيت أنا وحيدة أتلهف منكما اتصالًا ولا أناله إلا في الأعياد.."

ضحك بسخرية عنيفة شرسة وهو يقول هادرًا:

"لا.. لالا.. لن تتحولي إلى تلك النغمة المستهلكة عن وحدتك بعد سفرنا واضطرارك للقبول بأول علاقة رخيصة عرضت

عليكِ.."

لم يتوقع الصفعة التي هوت على وجهه بكل قوةٍ لدرجة أن عض على شفتيه وانقبضت كفاه قبل أن يتهور ويرد لها الهجوم المفاجىء.. ثم نظر إلى عينيها بنظرة مخيفة وهو يهمس من بين أسنانه:

"أنتِ لم تضربيني للتو.. لأنكِ إن فعلتِ فسوف.."

صفعة أخرى هوت على وجنته الأخرى قبل أن يتم كلامه جعلته يفقد المتبقي من رشده ويمسك بمعصمها فجأة وكأنه ينوي كسره.. لكنها لم تخف هجوم ابنها عليها، ولم تجفل.. فقد اعتادت منه القسوة والجفاء وبات التهجم الجسدي ليس مفزعًا إلى هذا الحد.. فنظرت إلى عينيه وصرخت:

"ليتني فعلت منذ زمن، لربما كنت الآن أكثر رجولة من أن تخاطب أمك بهذه الطريقة.."

اعتصرت قبضته معصمها بقوة أكبر حتى شعرت وكأن عظامها ستتهشم.. بينما يواجه عينيها بعينين كارهتين

مخيفتين.. ثم قال ببطء كالفحيح:

"أمي!.. أمي المرتبطة بعلاقةٍ مشبوهة بشابٍ لا يكبرني بالكثير.. ولا تأبه بما سيطال ولديها جراء تلك العلاقة المريضة.. برأيك هذه الأم تستحق الإحترام؟!.."

بصقت الكلمات بهستيريا في وجهه صارخة وهي تلهث من شدة الغضب:

"لا تزد كلمة واحدة يا مهاب.. لم تكن علاقتي به أبدًا كما تصفها، كفاك دناءة.. لكن بالطبع مثلك لا يستطيع استيعاب هذا النوع من المشاعر.."

صرخ فيها وهو يهزها بقوة:

"اصمتي.. أنتِ تثيرين اشمئزازي، كلامك عن المشاعر والحب نسبة لإمرأة في عمرك ومع شاب في عمره ما هو إلا كلام مريض، يثير بداخلي الشكوك حوال سلامة قواكِ العقلية.."

لأول مرة تظهر في عينيها الدموع وهي تصرخ بألم تتلقى الإهانة واحدة تلو الأخرى:

"كفاك.. كفاك.. والله إن كنت امرأة غريبة عنك لعاملتني برحمةٍ أكبر مما تفعل الآن،.. أنا لم أر منك غضبًا عنيفًا كهذا حين عرفت بارتباط والدك بفتاة في عمر ابنته منذ شهرين!!.. أنت حتى قبلت دعوتهما!!!! جلست وضحكت دون أن تأبه لمشاعري.. والآن تحاكمني على نفس التهمة!.."

مط شفتيه ازدراءً وهو يقول بعنف:

"إنها دعوة إذن للمساواة بين الجنسين في التصرفات المختلة!.. أم أنه انتقام من والدي؟!.. أفيقي ولا تضعي نفسك في نفس الدائرة معه، نعم إنه رجل وما لا يحاكم عليه.. تحاكمين أنتِ به.. هذا ليس قانوني؛ بل قانون المجتمع الذي لن يرأف بنا ونحن نُنتهك من الألسنة.. ثم مالكِ أنت بما يفعل أبي؟!.. لقد طلقك منذ سنواتِ طويلة، الآن فقط تفكرين في الإنتقام؟!.. اتظنين أنه قد يأبه من الأساس؟!..اسمحي لي بأن أفيقك إذن، إنه غير مهتم ولا يرى فيكِ سوى امرأة متوسطة العمر مثيرة للشفقة.."

صرخت بعذاب وهي تحاول ضربه مجددًا بجنون، إلا أنه كان أسرع منها وهو يلتقط معصمها الآخر ليكبلها بكل قوته هادرًا:

"توقفي عن هذا الجنون.. لن أتراجع عن موقفي ضعفًا أمامه.. يمكنك أن تصرخي وتحطمي كل ما تطاله يداكِ وتهددي بالإنتحار كمراهقة بائسة.. لكنك ستنفذين ما أقول في في النهاية، ستقطعين علاقتك به يا أمي.."

ثم دفعها عنه فشعرت بإعياءٍ شديد، ولم تقو على الوقوف وقد ارتفع ضغطها بشدة وشق الصداع رأسها بوجعٍ غير محتمل.. فترنحت ووقعت جالسة أرضًا وهي تراه يندفع تجاه باب الشقة.. لكن وقبل أن يخرج استجمعت كل قواها لتنادي بضعف: "مهاب.."

توقف مكانه دون أن يتنازل ويلقي لها بنظرة، فقالت بصوتٍ مهتز باهت :

"لقد نفذت ما طلبت.. لكن ليس لأنك طلبته، بل لأجله.. هو الوحيد المهتم بي في هذه الفترة من حياتي ورفضت نفسي

أن أظلمه، أما أنت وأختك فلا فضل لكما.."

ساد الصمت للحظات، ثم سمعته يقول بصوتٍ بارد جاف:

"جيد.. وبصراحة لا أهتم للشق الثاني من الكلام.."

وأمام عينيها الغائرتين خرج من الشقة صافقًا الباب خلفه بقوة، مما جعلها تخفض رأسها باكية بصوتٍ خفيض حتى أراحت جبهتها أرضًا.. كم كانت تتوق من ابنها أن يضمها في تلك اللحظة بالذات كي يخفف عنها ولو زيفًا وتمثيلًا.. كانت وحيدة وقد تخلت للتو عن أجمل مشاعر مرت بحياتها..

"أهو انتقام؟!.."

سؤال ألقى به ابنها أمام عينيها جعلها تجفل.. وتدرك الحقيقة جيدًا، كان انتقاما في يومٍ من الأيام.. أو ربما شعورُ ساذج بالتشفي..

لكن انقلب السحر على الساحر وأصبح يوسف هو الصوت الذي تحب سماعه.. والوجه الذي تهوى النظر إليه.. والساعات

التي أحست فيها بأنها انسانة قبل أن تكون امرأة.. والآن انتهى كل شيء

وعادت لمكانها الحقيقي على هامش حياة ولديها.. تحيا بين جدران هذه الشقة الفارغة، تنتظر منهما اتصالات الأعياد.. لا ما عادت مهمة الآن، فحياتها لن تعود لسابق عهدها في الخواء الباهت..

بل سيملأه الألم والحنين.. الحنين ليوسف

*****

دخل إبراهيم إلى بيته منهك القوى، مرهق الجسد.. لا يتمنى شيئًا في هذه اللحظة، سوى الإرتماء فوق فراشه والغياب في نومٍ عميق يغيبه عن هذا الشقاء الجسدي والنفسي..

لكن ها هي جرعة حياة صغيرة بُثت في أوردته حين نظر إلى ابنته الصغيرة وهي جالسة أرضًا تلعب بدميتها المخاطة يدويًا..

ابتسم إبراهيم تلقائيًا كما يفعل كلما وقعت عيناه عليها..

كانت جميلة.. كأمها جميلة وشقيقتها التوأم..

لقد منحه الله ثلاثة أقمارٍ بديعة.. لكن وسط سماء حالكةِ السواد للأسف..

تنهد تنهيدة كبيرة، ثم اقترب ببطء من ابنته حتى جثا بجوارها على عقبيه ورفع يده يداعب شعرها الناعم برقة.. لكنها لم تستجب، بل كانت متبرمة الشفتين ترفض النظر إليه، فرفع حاجبيه سائلًا ببراءة:

"على ما يبدو أن أميرتي رقم واحد غاضبة!..ماذا فعلت لأغضبها يا ترى؟!"

ظلت صامتة للحظات ثم تنازلت وقالت بصوتٍ طفولي مخاصم:

"بت تأتي إلى البيت ليلًا فقط.. ولا تجد الوقت لتلعب معي، والآن ستقول أمي "هيا إلى النوم ".."

ابتسمت شفتاه قليلًا وهو يتلمس شعرها الجميل، بينما لونت الحسرة عينيه وهو يدرك كلماتها العفوية البسيطة بكامل إحساسه.. هذا بالضبط ما يشعر به.. أن العمر سيضيع في طاحونة الجري سعيًا لتأمين علاج ابنته.. والأيام تمر بسرعة البرق.. ما عاد يلعب معهما، ولا عاد شغف الترقب يطالبه بالعودة إلى زوجته الجميلة سريعًا..

باتت أسرتهم مكونة من ثلاثة أفراد يجرون سعيًا لتأمين علاج الفرد الرابع.. ابنته الجميلة وواحدة من الأقمارالثلاثة بحياته.. لكن ما فائدة الأقمار إن كان لا يجد الفرصة حتى لتأملها، فتخبو بسرعةٍ ويعود نهار الشقاء طويلًا مضنيًا دون رحمة..

تكلم أخيرًا بصوتٍ أجش محاولًا استرضائها:

"آآآه.. الأميرة رقم واحد معها حق تمامًا.. ترى كيف أصالحها؟!.."

ظلت الصغيرة تلعب بالدمية دون أن ترفع وجهها إليه، إلا

أنه كان يعلم بأن الماكرة تسمع كل كلمة ينطق بها وهي الآن تضع مخططات الخروج من الخصام رابحة.. وبالفعل سألت ببطء:

"هل أحضرت لي الحلوى بالسمسم؟.."

أخفض جفنيه بأسى قليلًا.. حتى القروش الضئيلة التي تتكلفها هذه الحلوى البخسة، ذهبت لنفس الهدف.. وهو تجميع كل ما أمكنهم لعلاج ابنته..

تكلم بصوتٍ خفيضٍ قائلًا..

"اليوم.. لم أستطع، لكن في الغد سأحضرها معي، أعدك بهذا.."

رأى شفتيها تمتدان بتبرمٍ أكثر، غير راضية فابتسم مجددًا يسألها:

"ألا يعوض العناق عن الحلوى؟.."

ظلت تتجاهله للحظتين، لكن في الثالثة لم تستطع، فنهضت على ركبتيها لتحيط عنقه بذراعيها مبتسمة فزاد من ضمها بقوةٍ متأوهًا بصوتٍ مداعب عالٍ.. وكان هذا العناق هو المتعة الوحيدة في حياته مؤخرًا..

تنعم بجمال عناقها للحظاتٍ طويلة ود لو أنها لا تنتهي.. لكن كان عليه النهوض لذا أبعدها عنه يسألها بخفوتٍ

"أين أمك؟.."

ردت بملل وهي تشير إلى غرفته مع جميلة.. ثم قالت بصوتٍ خفيض، بينما عادت للجلوس واللعب بدميتها

"في السرير.."

نظر إليها إبراهيم للحظاتٍ عالمًا بإحساسها بالوحدة مما جعل عينيه تنحنيان حنانًا لها ثم قبل مقدمة رأسها برفق قبل أن ينهض من مكانه ويتجه للغرفة..

من بابها المفتوح وقف يتأملهما.. كانت جميلة مستلقية في

السرير تضم صغيرتهما بين ذراعيها تتأملها بعينين ضائعتين شاردتين.. بينما الصغيرة تلعب بدميدتها المخاطة

لقد خاطت لهما جميلة منذ عامٍ دميتين نفس الشكل.. كي يكونا توأمًا مثلهما..

ولشدة سعادتهما بهما.. لم تفارق أيا منهما دميتها مطلقًا

كانتا صديقتين.. لكن بدا وكأن الدميتان قد حلت كلًا منهما محل الأخت الأخرى..

أول من رأته كانت ابنته.. فقد رفعت رأسها لتلتقي أعينهما فهتفت بسعادة:

"أبي.."

حينها نظرت جميلة تجاه الباب وجدت إبراهيم ينظر إليها بإرهاق، فبادلته النظر بهاتين العينين الغائرتين غير قادرة على إظهار الحماس بالإبتسام.. لكن استطاع، فابتسم لابنته مقتربًا منهما وهو يقول بعطف:

"كيف حال الأميرة رقم اثنان؟.."

زمت جميلة شفتيها بعدم رضا، بينما تحررت ابنتها من أحضانها المشتدة أكثر من اللازم كي ترتمي بين ذراعي والدها والذي كاد أن يسقط للخلف ضاحكًا بفعل وزنها.. ثم قال من بين ضحكاته وهو يدغدغها:

"أنتِ قوية جدًا.. كدتِ أن توقعيني.."

قهقهت ابنته ضاحكة وهي تقاوم أصابعه بصعوبة.. فتكلمت جميلة قائلة:

"خفف دغدغتك لها يا ابراهيم.. أنت تسحقها بأصابعك.."

إلا أن إبراهيم هتف وهو يرتمي للخلف يحملها فوقه بين ذراعيه:

"إنها قوية جدًا.. أقوى من الدغدغة بل وأقوى مني.."

كانت ابنته تضحك بصوتٍ عالٍ عنيف.. فقد كانت الأكثر

مرحًا وطاقة بين الأختين.. ولولا مرضها لكانت أكثر حيوية مما هي عليه، بل لربما أصبحت بطلة رياضية.. أو ممثلة كوميدية.. أما الأخرى فكانت أكثر تعقلًا ودهاءً .. أشد رزانة.. تصلح أن تكون وزيرة أو سفيرة.. لقد وضع فيهما أحلامًا طالت فوق أسطح أمنيات كبار القوم في أولادهم..

نهضت جميلة من مكانها بملامح واجمة، ترتب الأدوية بحرص وتجدد البطاقات التي كتبتها كي تذكرها بالمواعيد..

تسمعهما من خلفها يضحكان وابراهيم يناديها باللقب الذي اختاره لها: الأميرة رقم اثنان..

وكانت تمقت هذا اللقب بشدة، والآن باتت غير قادرة على تحمل تكراره فقالت بنبرة جادة من فوق كتفها

"توقف عن مناداتها بهذا اللقب.. قد يؤذي نفسها، فما معنى أن ترقمها بالرقم اثنان!.."

رمى إبراهيم زوجته بنظرة من طرفِ عينيه ثم قال ببساطة:

"تعرفين سبب اللقب.. لأنها لحقت أختها بعد ثلاث دقائق.. كما أنها تحب اللقب ولم يسبق أن تضايقت منه.."

ثم وجه كلامه لطفلته هاتفًا بمزاح وهو يدغدغها بفمه في خصرها سائلًا:

"هل يضايقك؟.. هل يضايقك؟.."

تعالت ضحكاتها وارتفعت فتنهدت جميلة بتعب وعدم قدرة على الجدال مفضلة الصمت..

وطال لعب إبراهيم مع ابنته حتى وقفت زوجته بصمتٍ تنظر إليهما دون مرح، ثم سألت بصوتٍ خافت يحمل ارتعاشة خوفٍ حاولت جاهدة إخفائه: "ماذا فعلت بشأن السُلفة؟.."

استمر صوت ضحكات ابنته وهي تطير محلقة بذراعيها في الهواء فوق كفيه.. بينما خبا صوت ضحكاته وبقت ابتسامة باهتة على شفتيه.. ونظرة واحدة إلى ملامحه في تلك اللحظة، أعطتها الجواب الذي ارتعبت من سماعه..

أخذت نفسًا مرتجفًا وغارت عيناها.. ثم استقام إبراهيم جالسًا وهو يخفض الصغيرة حتى جلست بجواره، محتفظًا بها بجواره قلبه، مداعبًا شعرها غير قادرًا على مواجهة عيني جميلة وهو يقول بخفوت

"رفضوا السُلفة.."

ضربت جميلة على صدرها شاهقة برعب.. حتى أن طفلتها أجفلت ونظرت إليها بسرعة، لكن إبراهيم احنى إليها هامسًا برفق

"اذهبي والعبي مع أختك قليلًا.."

امتثلت ابنته وجرت خارجة من الباب ومعها دميتها.. وبقى إبراهيم جالسًا على حافة السرير مخفضًا وجهه، مشبكًا أصابعه صامتًا.. مما جعلها تهتف بحدة

"ماذا تعني برفضوا؟!.."

فتح زوجها كفيه قائلًا بإستسلام متهربًا من عينيها

"رفضوا يا جميلة.. ليس لها سوى معنىً واحد.."

هتفت مجددًا وهي ترتجف

"وهل رضخت بهذه السهولة؟!.. رفضوا فانصرفت راضيًا؟!.."

رفع وجهه لها سائلًا بعجزٍ متجهمًا

"ما الذي كان بيدي لأفعله؟.."

فغرت فمها ومن شدة عجزٍ يشابه عجزه، تمردت ولوحت بذراعيها هاتفة وكأنها تخاطب نفسها

"كان بإمكانك إخبارهم عن سبب حاجتنا للسلفة.. عن مرض ابنتنا.. عن تكلفة العلاج التي لا نستطيع تدبيرها.. كان بإمكانك اخبارهم أن البنت يمكن أن تموت اذا أهملت في علاجها..كان بإمكانك التوسل، لكن كرامتك أبت، لو كنت

مكانك لإستطعت اقناعهم بقلب الأم، فهو الذي سيتكلم بلساني ويخبرهم أن حياة طفلة صغيرة معلقة بأيديهم.."

رفع إبراهيم أصابعه يضغط بها اعلى أنفه بإرهاقٍ مؤلم حرفيًا.. ثم تكلم بصوتٍ مكتوم دون أن يفتح عينيه

"إنهم يعرفون.. يعرفون منذ السلفة الأولى.. ورفضوا الثانية لأن العمال أمثالي غير مقيدين رسميًا في المصنع من الأساس.."

صمت للحظات وهو ينظر إليها بعينين حمراوين سهرًا وتعبًا وعجزًا.. ثم هز رأسه متابعًا بصوتٍ خافت

"إنهم لا يهتمون يا جميلة.."

شهقت بنحيبٍ عالٍ وهي تسقط لتجلس على الحافة المقابلة من السرير، كلًا منهما يواجه جدارًا.. يوليان ظهريهما لبعضهما غير قادرين على مواجهة كلًا منهما الآخر..

تكلم إبراهيم قائلًا بنبرةٍ لا تحمل حياة

“حياتها ليست معلقة بأيديهم أو بأيدي أي مخلوق.. إنها بيدي خالقها فقط..”

صرخت جميلة باكية بألم وقهر

“لكنهم هم من يملكون المال..”

رد عليها مسلمًا مطرقًا برأسه

“ونحن لا نملك إلا الدعاء..”

أغمضت عينيها على دموعٍ انسابت فوق وجنتيها ببطء وحسرة ثم همست

“والعمل يا ابراهيم؟!.. لم يصلنا شيء من الجمعية الخيرية هذا الشهر، كانت لديهم حالاتٍ أكثر.. ولم نترك بابا في الحي إلا وطرقناه كي نقترض من صاحبه.. والمال الذي جُمع في الجامع بعد صلاة الجمعة لم يكفِ.. وماذا سيحدث حين نبدأ بالجلسات، هل تعرف كم تتكلف الجلسة الواحدة؟!..”

أجابها بصوتٍ خفيض

"لا تيأسي من رحمة الله..فقط.. زيدي إيمانك صبرًا وثقة بالله"

التفتت إليه عبر السرير صارخة فجأة بغضب

"لا تتهمني في إيماني يا ابراهيم.. ايماني بالله، أنا أعلم به والله يعلم.. لكن نحن لا ينبغي أن نبقى عاجزين مقيدي الأيدي وطفلتنا تموت.."

صرخ هو أيضًا وقد بدأ يفقد أعصابه

"ما الذي بإمكاني فعله وتأخرت؟!.. لقد أخذت مناوبتين في المصنع.."

صرخت فيه بقوة

"اطلب الثالثة.."

رد إبراهيم بجمودٍ متنهدًا

"رفضوا.. لم أنتظرك لتطلبيها مني.."

قفزت واقفة تهتف بعذاب

"كيف لهم أن يغلقوا كل سبل الرحمة في وجوهنا بهذا الشكل؟!.."

أغمض عينيه غير قادرًا على الرد هذه المرة، فنظرت إليه باكية وهي تهز رأسها غضبًا، يأسًا وألمًا..

ثم اندفعت تخرج من الغرفة وبقى هو مكانه، جالسًا منحني الظهر حتى سمع صوتها يهدر بصرامة من الخارج

"هيا إلى النوم.."

*****

خطا بقدميه داخل البيت وهو ينظر حوله دون تعبير

معين.. فقط عينان متلقفتان بهما بعضًا من الحنين..

لم يتغير البيت مطلقًا.. كل تفصيلةٍ فيه على حالها، كحال السيارة وملابس والده..

توقف مكانه للحظاتٍ وكأنه ضيف على مكان غريب رغم شعوره بالحنين.. فإستدار إليه والده متفاجئًا بوقوفه وسأل بدهشة

"ما بالك تقف عندك.. ادخل فبيتك يشتاق لك.."

تحرك حلق معاذ قليلًا وهو يتقدم بضعة خطوات مجيلًا عينيه عبر اللوحات القديمة المعلقة.. والهاتف الأرضي ذو الأزرار.. والمكتبة..

مكتبة والده لا تزال على حالها وبنفس ترتيب الكتب الذي يحفظه عن ظهر قلب.. التوت شفتاه قليلًا أسفل تلك اللحية الكثة المحيطة بفمه.. وكأن هذه الإلتواءة هي أقصى ما يستطيعه من ابتسام، لكن والده لمحها وسأل بنبرته الرزينة بصوته العميق

"ما الذي يضحك؟!.."

"ما اللذي يضحك؟!.."

هل يليق بهذا الإلتواء المتشقق أن يشبه بالضحك؟!.. لا يذكر آخر مرة ضحك فيها، كان هذا منذ سنواتٍ طويلة جدًا..

تكلم أخيرًا بصوتٍ أجش خافت قائلًا

"أثناء الطريق لاحظت كم اختلفت الأحياء والطرق خلال أحد عشر عامًا.. تغييراتٍ كثيرة وسريعة لم أتوقعها.. لكن ما أن دخلت هنا.."

صمت للحظة وهو يعيد النظر إلى كل زاوية وجدار.. ثم تابع ناظرًا إلى عيني والده

"حتى شعرت وكأن السنوات لم تمر.. لم يتغير شيء.."

انحنت زاويتا عيني والده بإجهاد.. ثم قال مجيبًا بخفوت يومىء برأسه

"وهو المطلوب.."

عاد هذا الإلتواء الجاف لشفتيه الجافتين، إلا أن والده تنحنح وقال بنبرة طبيعية مشيرًا إلى غرفته

"وغرفتك كما هي.. مرتبة ونظيفة، مؤكد أنك في حاجةٍ لنومٍ حقيقي على فراشك.. أم ربما تريد الأكل أولا؟.."

رفت عيناه قليلًا ثم رفع وجهه وقال بإقتضاب

"أحتاج للنوم فقط.."

أومأ والده برأسه دون أن يجادله وأشار للغرفة قائلًا بإختصار

"هيا اذهب.. سيكون لنا وقت طويل فيما بعد لإستعادة الذكريات.."

تحرك رأس معاذ قليلًا.. ثم تحرك ببطء شديد كشخص

حرج تجاه الغرفة.. وحين وصل فتح الباب بحذرٍ ليدخل..

نفس الغرفة كنفسِ كل شيء..

ضاقت عيناه وهو يمشي بصعوبة.. تتحركان.. تسبقانه دون تعبيرٍ معين، تجري على الأرفف الخشبية القديمة المثبتتة في الجدار.. تحمل السيارات وكرتين وعددًا من إطارات الصور الفوتوغرافية..

وصل إلى المكتب وتحركت راحة يده الخشنة على سطحه الذي حمل نقوش الملل من الدراسة وخواطر وأفكار المستقبل والأحلام..

هناك في الجارور الأول بطاقات الفرق الرياضية التي كان يجمعها.. لا يزال والده يحتفظ بها له دون أن تنقص إحداها..

وهنا منشوراتٍ لرحلاتٍ مختلفة حول العالم.. انقضت تواريخها منذ عقودٍ وعقود..

الشرفة التي كان يطل منها على ابنة الجيران بحياء شاب

صغير ثم يسارع بالدخول..

السرير.. جلس عليه بهدوءٍ وهو يتلمسه بكلتا كفيه ببطء..

يختلف تمامًا عن سرير الزنزانة..أتراه يستطيع النوم عليه من جديد وبعد أكثر من أحد عشر عامٍ من الفراق؟!..

تحرك للخلف حتى استلقى بملابسه محدقًا في السقف بعينين كبيرتين لا مباليتين.. لا تبدو عليه الفرحة أو المشاعر.. عيناه تفتقران لكلِ احساسٍ آدمي..

حكم بخمسة عشر عامًا.. انتهت في المجمل كأحد عشر.. ليست بالعمر الطويل، لكن بالنسبة له كان كأهل الكهف نام طويلًا ثم استفاق.. فأي حياة سيراها يا ترى!..

*****

المرة العاشرة يتصل بها دون ملل لكن بخوف وهي لا تجيب.. حتى أغلقت الهاتف في النهاية!..

نظر إلى هاتفه بعينين غاضبتين مشتعلتين قبل أن يلقي به صارخًا فوق فراشه..

كيف يمكنها أن تفعل هذا به؟!.. كيف أمكنها أن تتخلى عنه بهذه البساطة؟!..

وهو.. كيف تركها ترحل بينما هو معقود اللسان مكتف الساقين وكأن الشلل أصابه!..

لا يمكنه البعد عنها ولا يمكنها التخلي عنه.. لن يسمح لها..

كيف لها أن تتراجع بعد أن كان قد اتخذ القرار الوحيد في حياته ضد مصلحته بالتمسك بها؟!..

نعم.. كل قرارٍ اخذته كان يخدم مصلحته ويحقق هدفًا في حياته..

كل قرار.. إلا نوال..

تلك الصلة التي تربطه بنوال والتي تعمقت بدرجة أكبر مما

تخيل، وطال به الوقت حتى اعترف صاغرًا أمام نفسه أنه الحب!.. وإلا فماذا يكون..

لقد تمكنت منه.. تخللت روحه وبات كالمدمنين بحثًا عنها في كل مكان.. يترصدها بين صديقاتها حول أحد طاولات النادي الممل في جلسات الصباح ذات الفضائح والشائعات..

تتجول بمفردها في المجمع التجاري وهي تتناول المثلجات وكأنها ابنة العشرين لا الخمسين..

و شكلها الجميل ساعد تقبلها بسرعة وجنون..

كثيرون من عمرها حاولوا التقرب منها.. لكن هو وحده.. هو وحده من قربته لها حتى أصبح أسير صوتها الراقي وكلامها الحنون..

لقد واجه عاصفة قوية في معرفة البعض بمشاعرهما بعد أن كانا يتحججا زيفًا بالصداقة العفوية..

وقرر بمجهود عنيف أن يواجه العالم كله بالإرتباط بها..

وأعد نفسه لأشرس الحروب..،

لكنه لم يتخيل أن يأتي الخذلان من جهاتها هي!!.. لقد نبذته في أربع دقائق!..

بعد أن اتخذ قراره في ليالي أشهرٍ طويلة مؤرقة وعنيفة..

شتم بصوتٍ عالٍ وهو يتخلل شعره بأصابعه قبل أن ينحني ويجلس على حافة السرير، ثم استلقى بملابسه ناظرًا إلى السقف بعينين واسعتين مشتعلتين..

بداخله جيشان متناحران.. أحدهما يحارب بسؤالٍ عنيفٍ مستعر

كيف لها أن تنبذ يوسف الجندي بذاته بعد أن تنازل!..

والآخر يسلم بسؤالٍ جوابه مخيف.. كيف تستقيم الحياة بخلوها من وجودها فيها!!.. الوجود الأجمل والأصفى..

نعم لقد تنازل..

أهي عبارة فجة لا تليق بمقام الحب ولا تجعل منه مثالًا للعاشقين!

لقد عاش حياته واقعيًا بعيدًا كل البعد عن المثاليات الزائدة ولا يمقت أكثر من الإدعاءات الفارغة..

لا يعترف إلا بالحقائق.. وإحدى تلك الحقائق تقول أنه يوسف الجندي

لن يدعي نبذ ملذات الحياة فيما مضى.. ولن يتظاهر بأنه لا يلمح إهتمام الجنس الآخر به..

لن يكون ساذجًا أو مدعيًا.. يمكنه الحصول على الأجمل والأصغر.. الأعلى مكانة والأنفع لمستقبله..

لكنه تنازل عن مصلحة كبرى في حياته تتمثل في الزواج بمن يرتفع معها وتعلو به.. واختار نوال..

الزيجة التي كانت ستعرضه لكل سخريةٍ بائسة.. وتفتح عليه أبواب الجحيم من كل حاقدٍ ينتظر له تصرفًا أهوج..

بقراره الزواج من نوال كان يضحي بالكثير.. والآن هي من تراجع!..

أغمض عينيه وصدره يتضخم بنفسٍ يغلي كالمرجل المشتعل..

تكلم من بين أسنانه بصوتٍ يفيض بالغضب والرفض

"ستعودين.. ستعودين لأنكِ لن تقوي على الفراق، لن تقوي على نبذي من حياتك.. كما لن أفلح في نزعك من قلبي.."

أمسك بهاتفه وكتب لها رسالة علها تصلها ما أن تفتح هاتفها بحثًا عنه

" إن ظننتِ أنك بيسرٍ قادرةً على الرحيل فأعيدي التفكير.. فكري في كل لحظةٍ من اللحظات التي ستمضين العمر خلالها وحيدة بقلبٍ باردٍ جاف، في تلك الحياة الخاوية إن اخترتِه.. إن اخترتِ العمر.. "

*****

جالسة بهدوءٍ وثبات أمامهم وكفيها على ركبتيها.. فإن كان هناك ما تبرع به ضمن عدة مميزات، فهو التزام الثبات في الأوقات الصعبة.. وكانت هذه لحظة من اللحظات الصعبة.. ليست أكثر لحظات حياتها صعوبة فقد عاشت الأقسى والأفظع.. لكنها بالتأكيد لحظة يمكن وصفها بالصعبة..

ثلاث أخواتٍ من الذكور أصغرهم في الخامسة والأربعين وأكبرهم ربما يقارب السبعين..

وأخت رابعة في المنتصف ترتيبًا، كما أنها في منتصف الستينات..

جميعهم ينظرون إليها بتحفز وكأنهم على وشكِ الإنقضاض عليها في أي لحظة..

ابتسمت عالية ابتسامة رزينة ومدت يدها النحيلة تشير إلى عدد من الأكواب قائلة بتهذيب

"تفضلوا.. قمر الدين.. أعدته ليلة.."

تستطيع أن تلمح بكل وضوح النظرات الكارهة الساخرة التي تناوبت على أعينهم بسبب عبارة كرمٍ وضيافة بسيطة.. وتستطيع ترجمة السبب كما تترجم الكتاب بسهولةٍ ويسر..

تكلم الأكبر منهم.. عبد الرحيم غنام.. بصوتٍ فظٍ لا يعرف المجاملات

"لسنا هنا للضيافة.. ولا أحد يستضاف في ملكه.."

رفعت عالية ذقنها وهي تنظر في عينيه بنفس الثبات والملامح الهادئة، ثم أجابت بصوتٍ واثق

"إن كان ملككم فما لي أنا هنا أضايفكم بعد أن طرقتم الباب طالبين الدخول!.."

انحنى الأخ الثاني اسماعيل غنام للأمام مستندًا إلى ركبته بمرفقه قائلًا بصوتٍ حاد من بين أسنانه

"اسمعي يا فتاة.. لن ندخل معكِ في لعبة الكلمات، جئنا هنا طلبًا لحقنا.. والذي سنحصل عليه، إما بالحسنى أو.."

رفع حاجبه بحركةٍ ذات مغزىً واحد.. وهو التهديد.. وترك لها حرية وضع الصورة المخيفة التي تحب..

لطالما كان اسماعيل عنيفًا.. ربما كان شقيقه الأكبر والذي تجاوز الستين فظًا خشن الطباع، إلا أنه لم يكن عنيفًا كاسماعيل.. وتصدق أن بإمكانه أذيتها فعلًا..

استمعت بهدوء، تحاول الشراء منهم أكبر قدرٍ مما يرمون به حول ما يستطيعون فعله.. ولمحت عيناها الأصغر من بينهم وهو يرفع كفه تجاه أخيه اسماعيل مبتسمًا بنزق وهو يجلس في مقعده مرتاحًا.. واضعًا ساقًا فوق الأخرى.. تبدو عليه علامات الخيلاء واضحة.. سامي غنام والذي ثم قاطع أخيه قائلًا بصلف

"اعذري أخي يا عالية.. لسنا مجرمين أو قطاع طرق.. نحن أصحاب حقٍ هنا.. ولا نحتاج للتهديد بطريقٍ غير شرعي، طالما القانون موجود.."

رفعت أحد حاجبيها بحركة بسيطة مع إيماءة مماثلة ثم قالت بهدوء

"ممتاز.. لماذا لم تتخذوا طريق القانون اذن؟!.. لكنتم وفرتم أكواب قمر الدين.."

هدر اسماعيل غاضبًا غير قادر على منع نفسه

"أنتِ فتاة عديمة التربية وأنا منذ البداية قلت إن التفاهم لا يصلح مع أمثالكن.."

فتحت عالية كفيها متفاجئة وهي تسأل

"ماذا فعلت؟!.. سألتكم سؤالًا بسيطًا منطقيًا!!.."

فتح اسماعيل فمه ينوي التهور بالمزيد من التهديدات الصريحة هذه المرة.. إلا أن سامي أمسك بمعصم أخيه يسبقه قائلًا بنبرةٍ جادة وعملية

"للقانون طريق طويل.. حتى وإن كنا نحن الرابحين

في النهاية، لذا فكرنا في إختصار الطريق ولنخرج جميعنا رابحين.."

لم تقاطعه عالية وحتى حين صمت لم تتكلم منتظرة.. عالمة بأن للكلام بقية، وبالفعل تراجع رأسه متشدقًا بالقول

"يمكننا منحك مبلغ خمسون ألف جنيهًا وتخرجي من البيت بسرعة.."

نقلت عينيها الكبيرتين بين وجوههم ثم استقرت للحظات على وجه حنيفة.. حنيفة غنام..

أختهم الرابعة حنيفة.. لقد سمعت عنها كثيرًا.. كثيرًا جدًا..

و لم ترها سوى اليوم فقط.. آتية لتطالب بميراثها في بيت الحبيب!!..

ملامحها قاسية، حادة الزوايا.. ولم تكن آثار العمر كريمة معها، فهي تبدو أكبر من عمرها الحقيقي..

لكن بين الخطوط وبعض الشعرات البيضاء.. استطاعت أن تلمح الجمال المحدد الذي طغى على تلك الملامح منذ أكثر من عشرون عامًا..

عينان سوداوان كحيلتان.. وحاجات سميكان كإطارين منمقين.. وجنتان مرتفعتان في وجهٍ مثلث.. والشعر رغم الوشاح الذي يغطيه جزئيًا إلا أنه ظاهرًا كسواد ليلةٍ لا قمر فيها..

" حنيفة يا ضي القمر في ليلٍ طاب للعاشقين السهر فيه.. "

ابتسمت رغمًا عنها ورقت النظرة في عينيها وهي تتأمل حنيفة.. لكن في المقابل كانت حنيفة تبادلها النظر بكرهٍ فائق.. مما زاد ابتسامة عالية والغضب في عيني حنيفة!..

تنازلت عالية عن تحديقها في ليل العاشق وسماه.. الليل وسماه ونجومه وقمره.. قمره وسهره..

أسبلت جفنيها مبتسمة بحزنٍ واشتياق..ثم ما لبثت أن رفعت وجهها تميل به وهي تسأل سامي بعملية بسيطة

"خمسون ألف جنيهًا.. بماذا ستفيدني وأنا في الشارع لا مأوى لدي؟!.."

نظر اسماعيل لأخويه ذاهلًا، ثم هدر بنبرةٍ غير مصدقة كثورٍ هائج

"إنها تساومنا.. هل سمعتم هذا؟!.. إنها تساومنا.. كان عليكما الإقتناع بكلامي حين أخبرتكما أن أمثالها لا تفلح معهم العروض الكريمة.. بل يُركَلون بعيدًا بعيدًا لأنهم غير ذي قيمة وإن أعطيتموهم قيمة فهذا ما تحصلون عليه.."

لم يرف لها جفن وهي تتلقى الإهانة العنيفة.. لكن هكذا تعودت، فالإهانة بمثل هذا العنف الفج لا تخبر سوى عن ضعف صاحبها.. وهي لن تنحدر إلى هذا المستوى من الضعف..

لذا ابتسمت بتهذيبٍ جم وهي ترد

"سامحني إن كنت سأشكك في.. " السلطة " التي تمكنك من ركلي بعيدًا عن هنا.. وحتى تجد جوابًا مقنعًا، سأكون

مضطرة إلى قول.. شرفتُونا بالزيارة.. ولن أؤخركم أكثر.."

صرخ اسماعيل غاضبًا بقوة جعلتها تغمض عينيها مع الصفير الذي اندلع في أذنيها

"تطردينا من ورثنا أيتها النكرة!.. لكن هذا ليس غريبًا فأنتِ وأمك أتيتما يومًا من الشارع وهو المكان الذي ستعودين له قريبًا.."

أمسك به كلا من أخواه كي لا يتهور بينما كان يتعرق انفعالًا كعادته.. ونهضا معًا لينهضاه، حينها قامت حنيفة ترميها بنظرةٍ حاقدة سوداء..

و بينما هم في طريقهم للخروج إلتفت إليها سامي وقال ببرود

"سنمنحكِ مهلة للتفكير يا عالية.. إن أردتِ حل الموضوع وديًا دون اللجوء للمحاكم، فأنتِ تعرفين كيف تتواصلين معنا..أما إن أصريتِ على موقفك فستخرجين خالية اليدين في نهاية المطاف.. فكري جيدًا.."

ثم اتجهوا للباب دون انتظار ردًا منها.. وما أن مرت بها حنيفة، حتى تكلمت عالية بهدوء دون أن تلتفت إليها

"يؤسفني أن يكون هذا أول لقاء لنا يا سيدة حنيفة.. فالكلام عنكِ ليالٍ طويلة أكبر وأغلى مما دار هنا للتو."

توقفت خطوات حنيفة للحظة، وكأنها اختلت.. انحنت القسوة عن الملامح، والحاجبان السميكان المترفعان أخفضًا القليل من كبريائهما في لمحةٍ من الماضي.. ولمعت غلالة رقيقة فوق العينين السوداوين..

لكن كل هذا اختفى فجأة وكأنه لم يكن سوى وهمًا.. وارتفع الرأس مجددًا وانصرفت حنيفة..

بينما ارتسمت نفس الإبتسامة على شفتي عالية من جديد وهي تستشعر في كيانها الهش هالة العشق القديم التي مرت بجوارها حالًا.. ولمعت نفس الغلالة من الدموع في عينيها..دموع الحنين..

فقد اشتاقت لعبد الحليم الطرقاوي.. اشتاقت له جدًا..

*****

فتحت الباب وتراجعت مبتسمة للزائرة كبيرة الحجم التي وقفت أمام الباب تلهث قليلًا من صعود الدرجات التي لا تعتبر كثيرة..

و هي بدورها نظرت إليها عابسة ومن بين لهاثها سألت بخشونة

"لماذا تفتحين الباب بنفسك؟!.. أين هي الهانم ليلة،أم على قدميها نقش الحناء؟!.."

ردت عالية بإبتسامة واسعة وهي ترفع ذراعيها المفتوحتين

"خالة حسنات.."

انحنت حسنات تضمها إلى صدرها الرحب وهي لا تزال تتنفس بصعوبة ثم قالت متجهمة

"نعم الخالة حسنات، والتي لم يعد سنها أو صحتها يسمحان بالكثير من هذه الزيارات.. لماذا لا تحضران أنتِ والهانم ليلة عوضًا عن الإتصال بي وإصدار أمرٍ مباشر بأن آتيكما جريًا منذ الصباح الباكر!!.."

تنعمت عالية قليلًا بين أحضانها حتى تركتها، فقالت متنهدة وهي تراها تدخل مغلقة الباب خلفها

"الأمر خطير كما أخبرتك في الهاتف يا خالة، وليس لي سواكِ كي أشكو ليلة.."

مطت حسنات شفتيها وهي تقول بغضبٍ تلقائي قبل حتى معرفة سبب الشكوى

"ماذا فعلت سيدة الهوانم؟!.. هذه المرة لن أسكت إن كانت أغضبتكِ بكلمةٍ أو فعل أو حتى تلميح سمج من تلميحاتها!.."

ردت عالية متراجعة تفسح لها المكان كي تمر

"ادخلي وارتاحي أولا والتقطي أنفاسك.. أحتاج للكلام

معكِ طويلًا.. أحتاج وبشدة.."

وبعد دقائق من الكلام المختصر وبينما عالية ترتشف من كوب الشاي ناظرة عبر النافذة الخشبية المغطاة بالمشربية ذات الفراغات الدقيقة.. هتفت حسنات ذاهلة سائلة وحانقة

"ترحل؟!.. إلى أين ترحل بالضبط؟!.."

ردت عالية بهدوء وهي تتأمل الخشب القديم وتداخلاته

"إنه نفس السؤال الذي سألتها إياه في لحظة الصدمة الأولى.. ولم أحصل على جواب حتى الآن.."

هزت حسنات رأسها وهي تضرب كفًا بكف.. ثم لم تلبث أن قالت بعصبية

"ربما ما كانت هذه إلا إحدى طرقها في مضايقتك واستفزاز مشاعرك.. تعرفين أنها تظل صامتة طويلًا ثم تقدم فجأة على تصرفٍ أخرق يثير أعصابك.."

هزت عالية رأسها نفيًا ببطىء.. ثم همست بفتور

"ليست هذه المرة.. نبرة صوتها ونظرة عينيها.. كان فيهما تأكيدٍ واضح أنها ملت كل شيء ولا تريد فقط.. سوى الرحيل.."

هتفت حسنات بحنق

"وأين ستذهب؟!.. لا بيت لديها ولا أحد ولا حتى وظيفة.. لا شيء.."

ابتلعت عالية غصة مؤلمة في حلقها شطرته نصفين..

" لا شيء.. لا شيء لديها "

الآن فقط استطاعت سماع قساوة وقع كلماتها على أذني ليلة.. الآن شعرت بما شعرت به هي..

و الآن أكثر من أي وقتٍ مضى تفهمتها بصدق..

سألت حسنات بصوتٍ خافت هامس، وهي متجهمة الملامح بقلق أكبر

"أيكون غريبًا قد أغواها أو تلاعب بأذنها فقررت الرحيل معه؟!.."

انتفضت عالية وهي تنظر إلى حسنات بعينين واسعتين ذاهلتين ثم هتفت بقوة

"ما هذا الذي تقولينه يا خالة حسنات؟!.. ليلة لن تقدم على شيء كهذا مطلقًا.."

لم تتخلى حسنات عن تجهمها غير مقتنعة، بينما عالية تتهرب بعينيها من عيني المرأة المحدقتين بها وهمست مكررة

"ليلة غير مهتمة بالرجال مطلقًا.. مجرد الإحتمال مضحك وظالم لها.."

هزت حسنات كتفها ولا زال الشك بداخلها قويًا لكنها آثرت

الصمت كي لا تغضب عالية

أما هي فأغمضت عينيها طويلًا تحاول إستعادة هدوء نفسها.. ثم ابتسمت قائلة بمزاحٍ عفوي

"بالمناسبة، ليلة ليست الوحيدة التي لن يكون لديها بيت تذهب إليه.. فقريبًا سيكون الشارع بيتي أنا أيضًا.."

عقدت حسنات حاجبيها وهي تميل للأمام واضعة الكوب على الطاولة الخشبية سائلة بقلق

"وكيف هذا؟!.. ماذا حدث؟!.."

ارتشفت عالية من كوبها بتمهل، ثم نظرت إلى حسنات قائلة بهدوءٍ واختصار

"كان أولاد غانم هنا بالأمس.."

تراجعت حسنات في مقعدها بملامح مجفلة وهي تقول متوجسة

"يا الله.. المزيد من التهديدات؟!.."

أخذت عالية نفسًا عميقًا ثم ردت ببطء

"يبدو أن ليلة ليست الوحيدة الجادة هذه المرة.. بل هم أيضًا، فقد أمهلوني فترة قبل اللجوء للمحاكم.. وعرضوا مبلغًا لن يكفي شراء غرفة حتى.."

رفعت حسنات يدها المكتنزة إلى وجنتها مهمومة، ناظرة إلى عالية ثم قالت بتوتر:

"وهل هذا ظرف مناسب كي تتخلى فيه ليلة عنكِ؟!.. عليكما أن تكونا سويًا في مواجهتهم، حينها لن يقدروا على التعرض لكما.. أما بمفردك يا ابنتي.."

صمتت بعد أن خفتت نبرة كلماتها الأخيرة.. ولم تكن في حاجة للمتابعة، فعالية تعرف بواقعية أنها لا تستطيع مواجهتهم وحدها..

و في الحقيقة البحتة.. تعرف أن لهم الحق.. في قرارة

نفسها تعترف وقد اعتادت دائما أن تفعل ما هي مقتنعة به مهما كان ساذجًا غبيًا..

لذا نظرت إلى حسنات بعينين واسعتين وهمست مستسلمة

"أعتقد أنه علي الرحيل أنا أيضًا يا خالة.. وفي أسرع وقت، لكن أين أذهب؟.. وكيف أعيش وحدي؟! أنا لا أستطيع أن.. أعيش وحدي.."

دائمًا ما عَرفَت نفسها بالقوية.. تمتلك قوة تجعلها قادرة على التغلب على كل معوقات حياتها وكان هذا هو الظاهر منها، ما تحب أن يعرفها الناس عليه..

لكن هناك بداخلها جانبًا ضعيفًا، هشًا.. تخجل من أن يراه سواها..

هذا الجانب الضعيف لم يكن مخفيًا إلا لأن ليلة معها.. وبدونها تشعر بهذا الجانب وقد تكشف عاريًا أمام الجميع..

ضعفها أو ربما قلة حيلتها.. نعم إنها قليلة الحيلة..

هل اعترافها هذا تأكيدًا لضعفها أم أنه قوة تسليم بالواقع والمنطق!..

رمشت مفكرة.. لكن من العدم تشوشت الرؤية أمام عينيها بفعل الدموع المفاجئة، فهزت رأسها قليلًا عاجزة وهي تغطي شفتيها بإصبعها ناظرة من النافذة ثم هتفت بإختناقٍ هامس باكٍ مكلمة نفسها

"لا أستطيع العيش بمفردي.. ماذا أفعل؟!.. كيف سأتمكن؟!.."

أغمضت عينيها لتبكي فجأة محررة هذا الجانب المقيد منها ولو للحظاتٍ قليلةٍ فقط.. مما جعل حسنات تتأوه وتنهض من مكانها متجهة لعالية ثم انحنت وضمتها إلى صدرها بقوة فمالت عالية بوجهها تدفنه في صدر حسنات مطلقة العنان لنحيبها المختنق..

الآن فقط اكتشفت كم هي وحيدة والآن فقط استطاعت

الشعور بالرعب المرافق لتلك الوحدة

لطالما تشدقت بأنها تقدر خصوصيتها وتفضل الوحدة.. لكنها كانت تخادع نفسها، فما كان هذا إلا لأن ليلة لا تزال متواجدة معها..

إنها تخاطب الآلاف من البشر اسبوعيًا.. عبر صفحةٍ أنشأتها على موقع التواصل، حيث تقوم بنشر مقاطع فيديو تتحدث فيها كل حلقةٍ عن قصةٍ من التاريخ..

بإبتسامتها الجذابة واسلوبها اللبق استطاعت أن تنتشر وتنال الإعجاب..

ووصلتها كذلك مئات الرسائل، لكنها ما كانت قادرة على التواصل بشكلٍ خاص مع أحد وأوضحت أكثر من مرة أنها تقدر خصوصيتها..

كانت وحيدة خلف الشاشة وهي تتحدث بطلاقة.. على الرغم من وجود الآلاف على الجانب الآخر

كانت مكتفية بليلة تمامًا وها هي ليلة سترحل..

ربتت حسنات على شعرها قائلةٍ بحنان:

"لا تخافي بهذا الشكل يا عالية يا حبيبتي.. لطالما كنتِ قوية، لم أعهدكِ جبانة أبدًا.."

ردت عالية بصوتٍ مختنق وهي تلوح بكفها المرتعش

"لأنني لم أكن وحدي يومًا.."

عادت حسنات لتتنهد مجددًا وهي تمسح وجنتها بقمة رأس عالية، تقبلها.. تربت على وجهها برفق..

و حين شعرت بها تهدأ أمسكت بذقنها ترفع وجهها لها، لتجدها تبتسم بحماقة على الرغم من الدموع في عينيها ثم قالت بمزاح

"مالي اخترت الدراما ونسيت نفسي!.. أتراه تأثير زيارة أولاد غانم! دائما ما يجلبون الغم معهم للبيت كلما دخلوه.."

ابتسمت حسنات لها ثم انحنت لتجلس بجوارها فوق أريكة قريبة وقالت بحزم

"لا بأس أن تبكي من آنٍ لآخر يا صغيرتي.. لا تكبتي خوفك أو حزنك.."

صمتت قليلًا وهي تهز رأسها مفكرة بأسى ثم همست

"والله يا ابنتي لو كان لدي مكان في بيتي لكنت أستضفتك العمر كله، لكن تعرفين.. أنا أعيش مع ابني وزوجته وأولاده.. و.."

صمتت شاعرة بالخجل فأخفضت وجهها، لكن عالية مالت للأمام لتمسك بكفها بين يديها تشد عليه بقوة ثم قالت ضاغطة على كل حرفٍ بثبات

"خالة حسنات، لا تتابعي ولا تكرري ما قلته.. لقد قدمتِ الكثير بسؤالك عنا دائما ووجودك كلما احتجنا لكِ.. لطالما كنتِ نعم العون بوجودك في حياتنا.."

لم ترتح ملامح حسنات على الرغم من كلام عالية، بل بقت آسفة قلقة..ثم نظرت إلى عينيها وقالت بصرامة مفاجئة

"ليس لديكِ سوى حل واحد يا عالية.. الزواج.."

ارتعشت حدقتا عالية وهي ترفع حاجباها تحاول التأكد مما سمعت.. ثم لم تلبث أن ضحكت بعصبية وهي تهز كتفها سائلة بسخرية

"الزواج!!.. هل تتكلمين عني أنا؟!.."

ردت حسنات بجدية عابسة

"عمن أتكلم اذن؟!.. عن ليلة مثلًا.."

ضحكت عالية وهي تقول بتشدق

"لكان هذا أكثر منطقية.."

لوحت حسنات بكفها قائلة ممتعضة

"انسي.. كم من مرة عرضت عليها خُطابًا ولم تتنازل حتى بالرد ولو بكلمة مهذبة من قبيل الذوق!!.."

أخفضت عالية وجهها وهي ترفع يدها إلى عنقها.. بينما زفرت حسنات متابعة

"دعكِ من الكلام عن ليلة الآن ولنعاود الحديث فيما يخصك.. الزواج هو الحل الأمثل وربما يكون الوحيد لمساعدتك.."

ضحكت عالية بإستهزاء تحك شعرها وكأنها تسمع مزحة.. بينما تابعت حسنات بقوة

"أنتِ لست بحاجة لمجرد بيتٍ يأويكِ بين جدرانه.. بل أنتِ في حاجة لزوجٍ يرعاكِ.. تحتاجين أسرة لن تتخلى عنكِ أبدًا.."

نظرت عالية من النافذة بملامحٍ لا تحمل أي تعبير..

رجل!.. يقوم بكل ما تقوم به ليلة!..

رمشت بعينيها وهي تهز رأسها بسرعةٍ مبعدة الفكرة عن ذهنها المرتبك.. ووجدت لسانها يقول ناسفًا الإقتراح من أساسه

"هذا مستحيل يا خالة حسنات.. لم أفكر في الزواج مطلقًا من قبل لإستحالة الفكرة، كما أنني غير مهتمة بالأمر.."

عقدت حسنات حاجبيها وهي تهتف بإستياء

"ولماذا هي فكرة مستحيلة بالنسبة لكِ؟!.. ماذا ينقصك؟!.."

رفعت عالية حاجبها وهي تنظر إلى حسنات نظرة ذات مغزى مما جعل حسنات تخفض عينيها للحظة بينما قالت عالية بهدوء

"خالة حسنات، حاولتِ تزويج ليلة عدة مرات من قبل.. لو كان الأمر متوفرًا بالنسبة لي لما تأخرتِ أبدًا.. وأنا صدقيني لم أفكر في الأمر من قبل.."

توترت ملامح حسنات للحظات، لكنها ردت بصلابة ترفض التراجع

"ربما علينا فقط تغيير استراتيجية البحث ليس إلا.."

ابتسمت عالية رغمًا عنها وهي تنظر إلى حسنات بتعاطف ومحبة.. بينما استندت بوجنتها إلى قبضتها المضمومة قائلة بمزاح

"تتحدثين وكأننا على وشكِ تضييق الخناق حول مسكين ما واصطياده قبل حتى أن يحاول الهرب!.."

زمت حسنات شفتيها وهي تقول بخشونة

"بنت يا عالية، توقفي عن مزاحك الأحمق هذا.. لسنا في حاجةٍ لإصطيادِ أحد، بل هم من سيتدافعون طلبًا ليدك.."

ضحكت عالية ضحكة عالية بددت القليل من حزن الأيام الحالية والخوف من الأيام المقبلة.. وهتفت من بين دموعها

"هذه أكبر خدعة، يمكنك خداع نفسك أو خداعي بها يا خالة حسنات!.."

سألتها حسنات قائلة بإستياء

"أما من شابٍ من بين مئات الشباب اللذين يتابعون حلقاتك أبدى اعجابه بكِ ورغبته في التقدم لطلب يدك؟!!.. كم حلقة نشرتِ حتى الآن دون جدوى!!.."

اتسعت عينا عالية وهي تقول بنبرة حازمة ممطوطة

"خالة حسنات!.. أنا لا أنشر حلقاتي بغرض البحث عن عريس.."

ردت حسنات مبررةً على مضض

"لم أقل أنكِ تفعلين، لكن على الأقل افتحي الباب جزءًا.. وارِبي الرسائل قليلًا، لربما حدث في الأمور أمور من قبيل النصيب.."

زمت عالية شفتيها قائلة قاطعة

"هذا الأمر مرفوض بالنسبة لي تمامًا كما أنها محاولة يائسة مصيرها الفشل وتعرفين هذا جيدًا.."

تنهدت حسنات بقنوط، ثم قالت بجدية أكثر حزمًا

"اتركي لي اذن حرية خداع نفسي كما أشاء وسترين إن كنت أخدعك أم لا..و لن أكون أنا حسنات إن لم يقف العرسان على بابك بالطوابير..سنعود للطريقة التقليدية ففيها الخير والبركة."

كانت تخرج من حقيبتها دفترًا صغيرًا بعملية في حين تنظر إليها عالية بعينين واسعتين ضاحكتين.. ثم قالت بهدوء

"خالة حسنات اسمعيني.. حتى وإن وافقت على المبدأ، فإن التنفيذ صعب جدًا.. نحن الآن في وضع لا يسمح لنا بإستقبال أحد بصفة مستمرة خاصة إن أتى بمفرده، كما أن خروجي من البيت لمكانٍ عام من آنٍ لآخر أمر صعب جدًا.."

ردت حسنات ببساطة دون أن تتنازل برفع عينيها لعالية

"من سيأتي إلى هنا لن يأتي إلا بوالدته أو أي من قريباته المتوفرات.. وإن كان وحيدًا فالعالم تطور أكثر مما يسمح لمشكلة تافهة كهذه بالظهور.. يمكنكما التواصل عبر الشاشة في مقابلة للتعارف.."

رفعت عالية حاجبيها بدهشة، فنظرت إليها حسنات قائلة ببديهية

"ماذا ظننتِ؟!.. هكذا يتم التعارف بين الباحث عن عروس في الخارج وبين الفتيات المرشحات.."

أخفضت عالية عينيها بقنوطٍ لم يفت على عيني حسنات الخبيرتين، فمالت تمس ركبتها برفق قائلة بحنان

"لا توقفي حياتك إنتظارًا لقصة حبٍ تحلم بها كل فتاة.."

تفاجأت عالية مجفلة وهي ترفع وجهها بدهشة.. ثم ضحكت بعصبية هاتفة بتوتر وإرتباك

“قصة حب!!.. لم أنتظر يومًا قصة.. قصة حب.. مطلقًا.. أنا إنسانة واقعية تمامًا يا خالة حسنات وحياتي بين الكتب لا تعني أنني سلمت لعقلي بالضياع ما بين الحقيقة والخيال..”

صمتت للحظات وهي تدير وجهها لتنظر من النافذة الخشبية، ثم همست قائلة

“لم أنتظر يومًا قصة حب.. بل كنت أحياها في كلِ كتابٍ حكى عنها، وهذا كافيًا بالنسبةِ لي..”

*****

لديها القدرة على الجلوس ثابتة ساكنة دون حراكٍ لساعات!!..

لطالما تسائلت عالية بدهشة، كيف لها أن تبقى ثابتة على هذا النحو طويلًا!.. ألا تمل؟!..

ألا توجعها ساقاها؟!..

كانت ليلة كتلة من النشاط وهي تقوم بأعمال البيت دون تعب.. ومن يراها تعمل لا يتخيل أبدًا أن تكون هي نفسها من تجلس أمام النافذة هكذا بعينين سارحتين في البعيد، جالسة فوق أريكة قديمة.. ساق مثنية تحتها وأخرى تتدلى من حافة الأريكة..

مستندة بذقنها إلى كفها.. وشعرها يتدلى حول كتفيها وظهرها..

لن تبالغ عالية حين تفكر بأنها في جلستها الثابتة تلك تمثل النموذج المثالي لأي رسام يريد رسمها،..

في ثباتها الطويل دون حراك..

في جمالها وجمال النظرة الشاردة في عينيها البعيدتين..

جمال المشربية الخشب من خلفها وكأنها لوحة من زمنٍ فات بكل جدارة..

أخذت عالية نفسًا طويلًا ثم تكلمت بهدوء

"ألن تطلعيني على الأقل على مكان سكنك الجديد؟!"

لم تتحرك ليلة من مكانها، لكن عينا عالية لمحت الموجة التي طافت فوق سكونها في لحظةٍ خاطفة.. وبقت مكانها على نفس ثباتها دون ردٍ أو إلتفات..

فتنهدت عالية دون صوت، ثم حاولت مجددًا

"ألن تخبريني عن خططك؟! هل وجدتِ عملًا، هل اخترتِ سكنًا..هل وجدتِ غيري ترتاحين لقربه؟!"

ظنت أنها ستتجاهلها مجددًا فقالت بنبرة أقوى قليلًا

"ما معنى صمتك؟!.. هل تنوين قطع كل صلةٍ لكِ بي؟!.."

ساد صمت طويل بينهما لا يقطعه سوى صوت أنفاس عالية الخارجة من صدرها الخافق بحركةٍ متسارعة..

بينما ليلة على سكونها لم تتحرك.. إلى أن تكلمت أخيرًا..

تكلمت بصوتٍ هادىء جميل.. عميق لا يليق بمحتوى كلماته

"أعطيتك الكثير من عمري وحياتي يا عالية.. آن الأوان كي أهرب بالمتبقي منها.."

أخفضت عالية وجهها بصمتٍ تاركة خطين من الدموع ينسابان على وجنتيها، رفعت يدها تتحسس بها صدرها المتألم.. ثم همست أخيرًا بصوتٍ له صدى ناعم

"أنا.. أنا أدرك هذا جيدًا وأنا.. أتيتك الآن لأخبرك أنني.. موافقة.."

ساد الصمت بينهما مجددًا، حتى تحركت ليلة ببطء ملتفتة حتى تقابلت أعينهما حينها فقط ابتسمت بينما الدموع تغرق عينيها وأومأت برأسها هامسة بصوتٍ متحشرج

"نعم موافقة.. تحرري يا ليلة.."

اهتزت حدقتا ليلة للحظة، ثم عادتا إلى ثباتهما.. في حين همست عالية متابعة بصوتٍ هامس متوسل

"ربما لم تعودي في حاجةٍ لموافقتي التي لا أهمية لها.. فقد اتخذتِ قرارك وانتهى الأمر، لكني فقط أردت إخبارك أنني أتفهم هذا القرار رغم أنه.."

صمتت وهي تخفض وجهها تهز رأسها ببطء وكأنها تمنع نفسها عما كانت ستقول، ومضت لحظة قبل أن تتابع قائلة

"لي فقط طلبان..الأول هو أن تمنحيني فرصة حتى أدبر أموري كما سبق وعرضتِ بكرم أما الطلب الثاني فهو أن تخبريني عن خططك، أين ستكونين وكيف ستتدربين أنتِ أيضًا أمورك.. لن أجري عليكِ في أول عقبة أمر بها، أعدك.."

ضحكت من بين دموعها وهي تهمس بصوتٍ مختنق

"هذا وعد أستطيع الإيفاء به بكل تأكيد.."

صمتت مجددًا وقد اختفت ضحكتها.. أنفاسها تتلاحق بخوف حقيقي ثم همست وهي تنظر بعيدًا

"لا يمكنك الإختفاء هكذا ببساطة.. أعدك ألا أضايقك أبدًا أو أن أطلب منكِ أي شيء آخر.."

خفت صوتها وانقطعت كلماتها وهي تنظر إلى ليلة منتظرة بلهفة طفلٍ صغير يترقب أمه..

و كانت أمه من القسوة بحيث سألت بصوتٍ ساكن هادىء لا يحمل مشاعر

"كم تحتاجين من الوقت؟.."

بهتت ملامح عالية وهي تفكر أن القرار بات حقيقة واقعة.. سترحل ليلة..

سترحل الليلة الحالكة دون قمر.. والعجيب أنه لم يكن بداية الأمل،..

كيف يمكن للنهار المقترب أن يكون مخيفًا لهذا الحد؟!..

ابتلعت الغصة في حلقها، وبجهدٍ رائع حاولت أن تجعل

صوتها عمليًا فقالت مجيبة بهدوءٍ خافت

"أنا.. سأتزوج.."

اتسعت عينا ليلة بذهولٍ في أول بادرة لمشاعر آدمية تظهر على وجهها وهتفت بنبرة غريبة قاسية

"تتزوجين؟!.. من وكيف؟!.."

أجفلت عالية للحظة من القساوة المخيفة في صوت ليلة، فضحكت بتوتر وهي تنظر للسقف محرجة

"يا الهي لقد جعلت من نفسي حمقاء تمامًا.. لا يوجد أحد يا ليلة، حتى الآن على الأقل.. كان مجرد إقتراحًا من الخالة حسنات.. تظن أن الزواج هو الحل الأمثل لي.."

ضحكت مجددًا وهي تنظر إلى عينيها سائلة بإرتباك خجول

"هل تتخيلين هذا!!.. هذا ما تظنه على كل حال، عامة

قالت.. قالت ستبحث.."

صمتت والحرج يتزايد بداخلها فأخفضت وجهها المرتبك.. أما ليلة فلم ترى كل هذا الإرتباك الحزين على ملامحها، وعادت عينيها لنفس النظرة الباردة وكأنها.. وكأنها ارتاحت!..

ثم سألت بنبرة تشوبها سخرية دهشة

"عالية.. هل تتوقعين مني الإنتظار إلى أن تجد لكِ حسنات زوجًا؟!!.. هل تطلبين مني البقاء لآخر العمر؟!.."

شحب وجه عالية تمامًا حتى بات كمحرمةٍ شديدة البياض.. فنظرت إلى ليلة بوجوم وهمست متراجعة بصوتٍ أجوف مدافع

"لا.. بالطبع لا.. أنا فقط أطلب منكِ مهلة محددة، فإن تمكنت حسنات خلالها من إيجاد زوجٍ مناسب لي فلن تكون هناك مشكلة.."

رفعت ليلة ذقنها وهي تسأل بصوتٍ جامد غير متهاون

"وإن لم تجد؟"

أخذت عالية نفسًا عميقًا ثم همست دون أن يرتعش صوتها هذه المرة

"يمكنك حينها الرحيل.. فقد أديتِ واجبك كاملًا.."

ساد الصمت بينهما وكلأ منهما تنظر إلى الأخرى شاردة وكأنهما في عالمين مختلفين تمامًا.. حتى قالت ليلة أخيرًا وهي تنهض من مكانها

"لديكِ مهلة شهرين فقط يا عالية.. هذا كل ما أستطيع تقديمه.."

امتقع وجه عالية بينما ابتعدت ليلة تنوي الخروج من البهو لكن قبل أن تفعل توقفت للحظة ونظرت إلى عالية قائلة بصوتٍ خفيض جامد كملامحها

"وتصحيح بسيط.. " لم يكن يومًا واجبي ".."

خرجت ليلة من البهو تاركة التصحيح لعالية والتي لم تفهمه لبضعة لحظات، حتى وصل الجواب إلى عقلها ببطء وتمهل..

كان تصحيحًا لعبارتها منذ قليل

" فقد أديت واجبك كاملًا.. "

*****

الفصل الثاني

"مخيفة هي النهايات الحزينة، لكن نقطةً بعد كلمة النهاية.. لا تخيف أكثر من أول كلمة بعدها!!.."

*****

أولى لحظات تفكير عالية في الحياة بمفردها..

أول خطوة لليلة في طريق استقلالها..

أتراه معاذ خرج للحرية أم إلى أسوارٍ أعلى!..

تسليم نوال بالعودة لحياتها وإيهام نفسها بأن يوسف قد خرج منها للأبد..

الآن وقد حصلت على الطلاق واقتلعت صالح من حياتها كي تحلق لسماوات أحلامها.. لماذا الخوف؟!

أن تذوي قطعة من أحشائك أمامك ببطء لأنك لا تملك الدواء ولا تقدر على الداء.. لهي بداية نهاية كل ليلة طويلةٍ كدهرٍ لا ينتهي..

*****

نظر إلى ابنه وهو يتناول طعامه ببطىء، يحركه في فمه شاردًا دون شهية.. وكأنه لم يحرم لأكثر من عشر سنواتٍ مما لذ وطاب.. وكأنه فقد الشهية لكل شيء، وكأن اللذة باتت كلمة غريبة على تذوقه واستيعابه..

أخفض عينيه للحظة وهو يحرك طعامه هو أيضًا لكن في طبقه.. همة ابنه في التظاهر بالأكل فاقت همته..

بداخله صرامة والدٍ قلق في غير وضعها أو وقتها..

يريد أن يأمره بقوة كي يفيق وينفض عن روحه غبار الزنزانة ويبعد عن عينيه أسوارًا عالية حجبت رؤيته طويلًا..

لكن فليتمهل، فليعطه الفرصة ليتعافى.. يتعافى؟!.. بل هو

محتاج أن يبعث للحياة من جديد..

هاتان العينان متجهمتان الزوايا فقدتا كل لمحةٍ من الروح والحياة.. هذا الجسد القوي، قوته فانية..

لا تنبض.. لا تتحرك..

ترك الملعقة من يده وحاول أن يرسم ابتسامة على ملامحه المتقدمة في العمر، إلا أنها كانت ابتسامة متحفظة كما اعتاد دائمًا.. لا تميل إلى التهاون أو التدليل..

ثم سأل بصوتٍ هادىء حمل بعض الحزم تعشم ألا يكون زائد عن حد الظرف الحالي والموقف

"اذن.. ما هي خطوتك الأولى ؟.."

توقف فمه عن الحركة.. ورفع عينيه إلى عيني والده الصارمتين المحدقتين بجدية.. ومضت بضعة لحظات قبل أن يسأل بصوتٍ أجش خافت متباطىء

"خطوتي الأولى!.."

السؤال المندهش زاد تجهم والده.. لكن في قرارة نفسه، لم يسمح للتجهم بأن يظهر على ملامحه، بل حافظ على الإبتسامة الخشنة وهو يقول برفقٍ مختصر وواضح

"العمل.. هل فكرت أين ستبدأ البحث وكيف؟.."

ساد صمت تام بينهما ومعاذ ينظر إليه رافعًا حاجبيه قليلًا محدقًا بعينيه الحادتين.. ثم وضع معلقته هو أيضًا ليستقيم بظهره متراجعًا في مقعده قائلًا بنبرة لا تحمل تعبيرًا معينًا..

"العمل!.."

بدا على غير عجلةٍ في الرد على السؤال، بل بدا متفاجئًا، جمدته الكلمة..

و انتظر والده بصبرٍ على الرغم من التحفز الذي غزا جسده، هذا الجسد الذي أضعف الزمن قواه، لكن زاد من عزمه صلابة ومن صرامته شدة..

و حين طال الصمت دون جواب، تداعت الإبتسامة عن شفتي والده وسأل بهدوء جاد

"ما بالك تكرر كل كلمة يا معاذ!.."

أدخل كفيه في جيبي بنطاله وهو يمد ساقيه أسفل الطاولة بينهما.. ناظرًا في الأرض بلامبالاة، ثم قال أخيرًا بجمود

"ربما لأن بعض الكلمات سابقة لأوانها.."

رد والده بقوةٍ مسيطرة

"لم أطلب منك أن تخرج للعمل غدًا، أنا فقط أسألك عن خطوتك التالية.. ماذا تنوي، فيما فكرت؟.."

فغر معاذ فمه قليلًا وكأنه سيرد بجواب عرف والده قبل أن يسمعه بأنه لن يعجبه.. فإنتظر رافعًا وجهه مستعدًا لأي مواجهة.. لكنه رآه يغلق شفتيه على الكلمات يمنعها، وخرجت كلمة واحدة فقط..

كررها لكن بسخرية هذه المرة وهو يكلم نفسه

"العمل!.."

أخفض والده عينيه والسخرية التي سمعها في نبرة ابنه كانت بالنسبة له أكثر ألمًا من البكاء..

لكن والده لم يعتد الضعف، لم يقبل باليأس حلًا.. لا يعرف أنصاف الحلول، لذا سأله بصوتٍ هادىء

"كم صار عمرك؟.."

ارتفعت عينا معاذ وحاجباه بدهشةٍ مجددًا، ثم لم يلبث أن ابتسم.. لأول مرة يرى ابتسامة على وجه ابنه منذ سنواتٍ طويلة فاختلج قلبه.. لكنه حافظ على رسمية ملامحه حتى تكلم معاذ قائلًا بخفوتٍ أجش

"هل فقدت العد خلال السنوات يا أبي؟!.. أنا الآن في السادسة والثلاثين.."

والله ما فقدت العد يا ولدي يومًا واحدًا..

لكن لم يكن هذا ما جاوب به والده بل قال عوضًا عنه

"لازال العمر أمامك اذن.. أم تنوي البقاء خلف أسوارٍ بنيتها داخل نفسك لإضاعة المتبقي منه"

ظل معاذ صامتًا للحظات، وتلك اللمحة من السخرية تشوه ملامحه.. ثم قال أخيرًا

"دخلت خلفها في الخامسة والعشرين!.."

رفع والده كفيه قائلًا ببساطة

"وخرجت بعد أكثر من عشر سنوات.. فترة كبيرة، لكن أي غباءٍ يجعلك تزدها عشرًا أخرى أو ربما أكثر!.."

أخرج كفه من جيبه وحك بها جبهته للحظة دون أن تموت تلك السخرية المقيتة

"لا بأس.. سأخرج للبحث عن عمل.."

لم تعجبه لهجة ابنه، لكنه اكتفى بها بداية.. وأومأ برأسه قائلًا بلطف

"جيد.. والآن أكمل طعامك.."

عاد معاذ ليتلاعب بالمعلقة للحظة، لكن بدا وكأنه يريد السؤال عن شيء ما..

راقبه والده خلسة بملامح مبهمة، حتى سمعه يتسائل بصوتٍ خافت لا مبالي..

"هل ترى رؤى؟.."

تسمر والده للحظة، لكنه أخفى إجفاله ورد بهدوء

"تسأل عني من حينٍ لآخر.."

صدرت ضحكةٍ خافتة من حلق معاذ.. هذا إن كان يصح أن

تلقب بالضحكة، ثم قال بسخرية خافتة

"بها الخير.."

تجاهل تلك النبرة وتظاهر بأنه لم يسمع نفس النبرة الساخرة الخشنة، لكن معاذ يبدو وكأنه يريد الوصول للسؤال الأساسي.. فسأل ببرود

"كم طفل لديها الآن؟.."

ضاقت عينا والده وهو يقول بصوتٍ خشن

"دع الماضي خلف ظهرك يا معاذ وانظر لمستقبلك.."

ضحكة أخرى.. هذا إن كان يصح أن تلقب بالضحكة..

نهض معاذ من مكانه فرفع والده وجهه وسأل بقلق

"إلى أين؟!.. ألن تكمل طعامك؟!.."

رد معاذ يقول بجفاء

"سأدخل لأنام قليلًا.."

ارتفع حاجبا والده وهو يقول عاقدًا حاجبيه بتجهم

"تنام مجددًا؟!.. لقد استيقظت منذ ساعة فقط.."

عقد معاذ حاجبيه فبدا للحظةٍ شديد الشبه بوالده، مع الفارق.. فقد كان التجهم على ملامحه يزداد عن تجهم والده مرارة.. وكانت صرامة والده وكأنها تحولت في ملامح معاذ لشررٍ ناقم..

ثم قال أخيرًا بإقتضاب

"أحتاج لنومٍ طويل.. أهو مطلب صعب بعد أحد عشر عامًا؟!.."

تنهد والده وهو يلوح بكفه قائلًا بخشونة

"اذهب.. سنتابع كلامنا في الصباح.."

تحرك معاذ تجاه غرفته بخطواتٍ متثاقلة، لكن صوت والده علا خلف ظهره يقول برزانة قبل أن يبتعد

"لديها طفلان.."

توقف معاذ مكانه لحظة واحدة دون أن تتغير ملامحه الخشنة.. ودون أن تبعث الحياة في عينيه القاتمتين، تحرك متجاهلًا المعلومة يدخل غرفته مغلقًا الباب خلفه بكل هدوء..

أما والده فقد ألقى بمعلقته وهو يزفر ناظرًا بعيدًا، شاردًا بفكره الغاضب.. الحزين..

أمام المرآة خلع قميصه من فوق رأسه ووقف يتأمل صدره وأضلعه.. كم شجارٍ خاضه؟!.. كم لكمة نالت منه مقارنة بما انطلقت به قبضته!.. آثار الحروق وجروحٍ غائرة تركت علاماتها على جسده أخبرته بوضوح عن مقدار العراك الذي شغل به أيامه خلف تلك الجدران العالية..

خمسة عشر عامًا منطوقة.. حسابها بالأيام والسنوات اقتصر على أحد عشر..

أكثر من أربعة آلاف يوم.. كان مطالبًا بأن يحيا كل واحد منها وينجو.. وقد فعل..

هذه المرآة التي يقف أمامها هذا الرجل الأضخم والممتلىء بالجروح والحروق.. طويل اللحية ومتجهم الملامح

كانت تحمل صورة مختلفة قبل هذه السنوات..

كانت تتباهى بصورة شابٍ رياضي بشوش الملامح مشرق العينين..

رفع كفه قليلًا ينظر إليها دون مشاعر

هذه الكف المرتعشة كانت ثابتة تهوى ملاكمة الأكياس الرياضية.. أما الآن ورغم ارتعاشها فهي تفضل أجساد غير المرغوب فيهم.. تجد متعتها بتسديد حساب السنوات فوق أضلعهم..

*****

صدر الحكم وأعلنت براءة الجاني بجدارة..رُجَت جدران القاعة بصوتٍ عالٍ جهوري عرف ثغرات الإفلات وبرع في اقتفاء آثارها حتى قال القانون كلمته..

المتهم بريء.. فلم تثبت إدانته..

لمع اسمه وعلا شأنه ونقش عنوانه بحروفٍ من ذهب فوق بطاقاتٍ تلقفها الجناة بظمأٍ وكأنهم وجدوا فيه غايتهم الجديدة.. وجدوا فيه الكنز، متوقعين له المزيد من النجاح.. والبراعة في ضرب النقطة الأضعف من الحجر الثابت ليشقه نصفين..

تعالت الزغاريد من حوله وكأنها زفة ذات صخب مجنون.. يتبعنه بأحصنةٍ ذات أجراس الفرح وهو يلملم أوراقه مبتسمًا بهدوءٍ وثقة.. متحركًا في منتصف القاعة بخيلاء ينوي الخروج..

و من خلفه هتاف واحد أوقفه بنبرة محترقةٍ متداعية

"عسى أن يحرق الله قلبك ويريك ظلمًا يغشى عينيك.."

رعدة مرت على ملامح يوسف الجندي لكنه سرعان ما تغلب عليها وتابع طريقه خارجًا من حربٍ سجل فيها انتصارًا جديدًا..

كل انتصار حققه في قاعات المحاكم كان يملأه نشوى خاصة ومختلفة عن سابقه.. لا يوقفه سوى رجفة سماع الدعاء عليه.. ينتظر اليوم الذي سيتغلب فيه على هذه الرجفة نهائيًا حين يتمكن من قتلها في المهد قبل أن تظهر.. لكن هذا اليوم لم يأتِ بعد..

جلس في سيارته يلقي بإزاره وحقيبة أوراقه وحاسوبه على المقعد بجواره.. ثم أخرج هاتفه لينظر إليه بنظراتِ قنوطٍ وقد غابت عنه نشوى الإنتصار وحل محلها خواءِ قلبٍ غلفه رماد حريق اشتعل ثم خبا تاركًا رمادًا ينهك الأنفاس ببطء شديد..

بدأ في كتابة رسالةٍ إليها كتب فيها

" ربحت اليوم حربًا.. خرجت مسرعًا أنوي الجري إليكِ وإخبارك كما اعتدت أن أفعل.. لكني تذكرت أنكِ ما عدتِ متاحة كي تصغي، وعرفت أنني خسرت في حربٍ أكبر، لكنني لم أعلن هزيمتي بعد يا نوال.. فما خسرت إلا جولة، والتالية ستكون انتصارًا في استعادتك لمكانك الطبيعي الحقيقي والوحيد.. "

أرسل الرسالة ثم ألقى بالهاتف جانبًا بإهمال ووضع يديه على المقود ناظرًا أمامه بعينين قاتمتين عميقتين

وبينما هو يقود السيارة مسرعًا كعادته، جعله رنين هاتفه يلتقطه مجددًا بلهفة..

لعل الرسالة وصلت والعين قرأت فاستجاب القلب..

لكن الرقم كان غريبًا فرد زافرًا بقوة محبطًا بعد لهفة الشوق.. ووصله صوت أنثوي مضطرب يقول

"يوسف.. أنا خديجة، صديقة نوال.."

عقد حاجبيه للحظة ثم قال بإقتضاب وملل فآخر ما يود الكلام عنه الآن هو قضية زوجها التي تولاها منذ فترة

"سيدة خديجة، أهلًا بكِ.. اعذريني فأنا الآن أقود السيارة هلا أتصلتِ بي في وقتٍ لاحق إن أردتِ أي سؤال يخص قضية السيد عوض الله.."

لكن خديجة قاطعته وهي تقول بصوتٍ متسارع

"لا لا.. انسى القضية الآن، اتصلت بك لأخبرك أن نوال أصابتها وعكة صحية اليوم صباحًا ونقلتها للمشفى وأنا معها الآن.."

اتسعت عيناه للحظات وشعر بصدره ينقبض فجأة مغلقًا حول رئتيه وكاد المقود أن يحيد من بين كفيه.. لكنه استجمع كل أعصابه ليسأل بصوتٍ كالصدى

"ماذا أصابها بالضبط؟!.. هل هي بخير؟.. أجيبي بالله

عليكِ.."

ردت عليه قائلة بصوتٍ خافت

"حالتها الآن مستقرة.. قمت بزيارتها اليوم صباحًا وكانت تشعر بإعياءٍ شديد فبقيت معها لفترة لكنها فجأة سقطت مغشيً عليها.. حاولت إفاقتها، فكانت تفيق لحظة ثم تغيب عن الوعي فنقلتها للمشفى.. لقد ارتفع ضغطها لحد الخطر لكنها الآن أفضل قليلًا.. على الأقل بدأت تتكلم وتعي ما حولها.."

سأل يوسف بنبرة قاسية باترة

"أي مشفى.."

بدا صوتها مترددًا للحظات، ثم قالت بخفوت

"لا أظنها فكرة سليمة يا يوسف.. فقد يأتي مهاب إن علم بالأمر، أنا لم أتصل به لأنه قادرًا على اخراجها عن شعورها كلما اجتمعا.. وفكرت أن أطمئنك لأن.. لأن هاتفها معي تحسبًا

وسامحني إن قرأت رسالتك وفكرت أنك لو كلمتها وأنا سأعطيها الهاتف دون ذكر اسمك فقد تصبح أفضل حالًا.. لكن"

هدر يوسف فجأة بصوتٍ جعلها تنتفض وتوقف الثرثرة وترتعش واقفة في مكانها

"أي مشفى؟؟؟؟؟.."

*****

نظرت بعينيها الحمراوين عن بعدٍ إلى النافذة والسماء الزرقاء من خلفها.. سمعت صوت باب الغرفة يفتح بهدوء ثم يغلق وخطواتٍ تقترب.. فتنهدت وقالت بصوتٍ مرهق رقيق

"عودي لبيتك يا خديجة.. أنا أحتاج للراحة قليلًا ولا رغبة لي في العودة للبيت، سأبيت الليلة هنا.."

صمتت للحظة ثم همست بصوتٍ أكثر إعياءً وألما

"كرهت البيت، كرهت الوحدة.. حتى باتت المشفى أفضل منه.."

توقفت الخطوات ثم تكلم صوت رجولي خافت أجش يقول

"يمكنك المجيء لبيتي.."

انتفضت ملتفتة برأسها وهي تحاول الإستقامة في استلقائها بوجهٍ أكثر شحوبًا من الأغطية البيضاء تحتها.. بل أكثر زرقة..

إنه هنا.. يقف أمامها طويلًا، قبلة مبهجة للنظر المتلهف..

شبابه ينبض بالحياة وسلطان سحره يتحدى أي أنثى أن تقاومه..

لم ترى النظرة الحنونة في عينيه.. لم تبصر المشاعر الجلية في حدقتيه المتنقلتان فوق عينيها، ملامحها وشعرها..

لم ترى كل هذا.. بل لم تر سوى آثار العمر التي منعها الإغماء من إخفائها بمهارة كما اعتادت دائما..

فرفعت يدها مذعورة تتلمس وجهها الخالي تمامًا من الزينة.. تكاد أن تستشعر كل خطٍ فيه وقد ازداد عمقًا وزادها خزيًا أمام حيويته ورجولته..

شعرها الذي كان فائق الجمال يومًا بات الآن دون المصفف جافًا حفيفًا مشعث ومنهك كقلبها..

عمقها وطوق التجاعيد..

صدرها الذي فقد ارتفاعه وانخفض على الرغم من اهتمامها بالرياضة وحربها الشرسة ضد عوامل العمر.. لكن الخصم كان أكثر شراسة وترك بصماته..

الهالات تحت العينين الحمراوين الغائرتين..

و شفتين جافتين تمامًا لا تحملان لونٍ يخفي اللون الأزرق الرمادي..همستا بضعفٍ وأسى

"يوسف!!!.. أخرج من هنا.. اخرج أرجوك.. لا أريدك أن تراني بهذا الشكل فأنا أبدو.. عجوز جدًا.."

لكنه لم يعبأ بكلامها غير المترابط.. بل اقترب منها خطوة أخرى وهو يتابع وكأنها لم تقل شيئًا

"حينها ستتمنين الوحدة، ولن تجديها.. لأنني لن أفارقك أبدًا.."

أغمضت عينيها بأهدابٍ عارية من اللون الأسود الساحر.. أهداب طبيعية بلونها الشاحب ولم تعلم أنه لم يهتم.. لم يهتم مطلقًا بمظهرها، فالعين اكتفت أن رأتها فقط..

همست بصوتٍ مختنق مشيحة بعنقها الذي يكاد أن يلتوي من شدة ما أبعدته

"أرجوك أخرج.. أنت تنتهك عمري وآثاره، ألا ترى أنك تؤلمني بهذا التصرف!.."

جلس على حافة سريرها ببطء رفعت كفها تغطي بها

وجهها باكية دون صوت.. لكنها انتفضت على الإحساس بيده تمسك بكفها النحيل الآخر والملقى بجوارها..

حاولت أن تسحبه إلا أنه رفض تحريره.. وتكلم بصوتٍ أجش غاضب

"أنا لم تسرقني مرآة الحب العمياء يا نوال.. أنا لست مراهقًا سلب الهوى عقله، أنا انسان واقعي، بل واقعي بشكلٍ لعين.. فكرت طويلًا، أكثر مما يمكنك التخيل ودرست كل سببٍ منطقي يمنعني من الزواج بكِ دراسةً وضعت بها حياتي.. سجلت كل عقبة قد تقف أمامنا وأدركت أنني في مواجهة الكثير..

حللت وقارنت..

قارنت بين عواقب زواجنا وبين الحياة بدونك.. فوجدت النتيجة بالأدلة والإثباتات تخرج واحدة كل مرة.. الحياة بدونك أصعب وأقسى من كل العواقب.."

انخفض وجهها قليلًا.. وتحرك تجاهه ليرتفع إليه ببطء،

ناظرة إلى عينيه بوهن

منظرهما معًا لهو.. منتهى النشاز!

همست مجيبة سؤالًا من عالمٍ آخر لم يطرح ولن يسمع

"لقد أتممت الخمسين لتوي.."

تحركت شفتاه قليلًا مبتسمًا ورد يضغط كفها الهش

"وأنا في الرابعة والثلاثين.. تشرفنا.."

استجابت شفتاها في ابتسامة واهية وهي تنظر إلى عينيه الجميلتين..

لكن هذه اللحظة لم تدم طويلًا فقد صُرِعت على الفور والباب يفتح بعنف وهناك من يدخل مقتحم غاضبًا صارخًا

"أنت.. ماذا تفعل هنا.."

هجم مهاب على يوسف يمسك بمقدمتي سترته يقتلعه بالقوة عن السرير أمام عيني نوال الذاهلتين ودفعه بعيدًا هادرًا بجنون

"ابتعد عنها أيها المريض المختل.."

ارتطم يوسف بالجدار من خلفه مسقطًا لوحة بسيطة كانت معلقة في الغرفة محدثة دويًا مزعجًا فصرخت نوال بذعر

"كفى يا مهاب.. كفى جنونًا.."

لكنه لم يكن من تحرك الآن، بل كان يوسف الذي اندفع له يقبض على قميصه ليلقي به خارج الغرفة بعنفٍ فتعثر بأحد مقاعد الإنتظار في الرواق وسقط أرضًا أمام قدمي خديجة الواقفة والتي صرخت برعب وهي تغطي فمها بكفيها..

قفز مهاب واقفًا يعاود الهجوم عليه ليلكمه إلا أن يوسف أمسك بمعصمه يثنيه خلف ظهره وبمقدمة قدمه ضرب في ظهر ساقه مما أسقطه أرضًا متأوهًا بقوة وانحنى معه ليثبته مشددًا على ذراعه أكثر وهو يتكلم قائلًا بنبرة عنيفة

ومخيفة

"سأتزوجها وإن اضطررت إلى اقحام الكلمة في أذنك يوميًا حتى تقتنع وإن لم تقتنع يمكنك حينها أن تضرب رأسك بأكبر جدار أمامك.."

كان مهاب يصارع بإستمامتة كي يتحرر منه، كحيوان شرس غير قادرًا على الفكاك.. لكن صوتًا من خلفهما صرخ برعب

"اتركه يا يوسف.. اترك ابني.."

ثم هجمت عليه تضرب ظهره بقبضتيها الضعيفتين وترنحت بفعل الإعياء وكادت أن تسقط لولا أن أمسك بمعصمها يدعمها ثم استقام واقفًا بسرعة وهو يمسك بها.. لكن مهاب ما أن ترنح حتى حاول ضربه مجددًا وكادت قبضته أن تبطش بجسد أمه المنهك لولا أن لكمه يوسف بكل قوةٍ ليسقطه أرضًا مما جعل نوال تصرخ مذعورة وهي تضربه في صدره

"هل جننت؟!.. ماذا أصابك؟! كيف لك أن تضرب ابني!!.."

جثت أرضًا بجوار ابنها الذي استقام يمسح الدم عن أنفه لاهثًا وهي تهتف فيه برعب

"دعني أرى أنفك.. هل كُسِرَت؟.."

لكن مهاب دفعها بقسوةٍ وفظاظة بفعل كرامته المراقة بسببها خاصة وأن جمهورًا من الناس بدأو في التجمع في الرواق.. والكل يتابع ما يحدث بذهولٍ وصدمة..

فتكلم يوسف قائلًا بصوتٍ أجش متراجع

"نوال.."

لكنها إلتفتت برأسها إليه صارخة بألم من بين دموعها

"كفى يا يوسف.. هذه القصة محكوم عليها بالفشل، غادر الآن رجاءً وكفى.. أنا لن أدمر ما بنيته لسنواتٍ طويلة بسبب نزوة عابرة.."

تسمر مكانه وهو ينظر إليها طويلًا فسارعت تخفض وجهها متهربة من عينيه.. بينما ترددت الكلمة على لسانه بصوتٍ غريب

"نزوة!.."

شددت هادرة دون أن ترفع عينيها له بل تابعت التشبث بإبنها تفحصه

"نعم والآن وللمرة الأخيرة أترجاك أن تغادر ولا تعد مجددًا.."

ساد الصمت بينهما والصخب من حولهما وهو ينظر إليها بملامح قاتمة.. ودون كلمة واحدة ابتعد عنهما عبر الرواق..

و كانت هناك إحدى الممرضات تصور ما يحدث خلسة بهاتفها.. تمني نفسها بنشر مقطع فيديو تحت عنوان قتال بين شابين في المشفى لأن أحدهما يريد الزواج من أم الآخر..

لكنها شهقت برعب والهاتف يقتلع من يدها فجأة ووقف أمامها يوسف ينظر إليها بوحشية قبل أن يضرب الهاتف في الأرض بكل قوته أمام عينيها المرتعبتين ثم صرخ فيها بصوتٍ جعلها تبكي

"لا أنصحك بالقيام بما تفكرين فيه، فأنا محامٍ وقادر على رفع عدة قضايا ضدك تفسد حياتك لسنواتٍ قادمة.."

لم ترد عليه الممرضة بل التصقت بالجدار تبكي بخوف من هول الصدمة.. أما هو فقد انصرف بخطواتٍ عنيفة..

تلمست نوال فك ابنها لكنه دفعها عنه بشدة فستعثرت للخلف لينهض ويتركها على الأرض دون أن يعبأ بمساعدتها على الوقوف.. كل اهتمامه كان منصبًا في الهتاف للجميع أن يبتعدوا من هنا لأن المسرحية قد انتهت..

خديجة هي من ساعدتها على الوقوف وأدخلتها غرفتها لتجلسها على حافة السرير وجلست بجوارها فأحنت نوال رأسها تسنده بكتف صديقتها وانفجرت باكية بقوة على إيلامه.. وألم ابنها..

*****

نظرتا إلى والدتهما بعينين طفوليتين كبيرتين سعيدتين بما يحدث..

فقد كانت أمهما ممسكة ورقةٍ قُصت على شكلِ عروس..

و بينما هما متربعتان أرضًا.. رافعتان وجهيهما تتأملان ما تفعله الأم، همست إحداهما تقول بسرعة وهي ترفع إصبعها

"أنا سآخذ هذه العروس بعد أن تنتهي منها أمي.."

عقدت الصغيرة الأخرى حاجبيها وهتفت مستاءة

"لماذا يجب أن تكوني أنتِ من ستأخذها؟!.. أنا أريدها أيضًا"

ردت أختها تقول بحدة

"أنا قلت قبلك، أو اطلبي من أمي أن تقص لكِ عروسًا

مثلها.."

لكن الصغيرة لم ترد عليها في حرب الإستحواذ البريئة تلك.. فقد حولت إنتباهها إلى أمهما بعينين كبيرتين ثم همست بصوتٍ خفيض حائر

"أمي تؤذيها!!!!.."

عقدت الصغيرة الأخرى حاجبيها بعدم فهم، ثم التفتت إلى أمها لتجدها ممسكة بإبرة بكفها الآخر وقد بدأت تثقب بها العروس مراتٍ عديدة وهي تهمس بشيء مستمر لم تسمعاه..

عيناها غاضبتان براقتان وهي تثقب تثقب تثقب.. قوة احداث تلك الثقوب بدأت تزداد مع ضغط شفتيها وتجهم ملامحها.. وكأنها تنتقم من أحدهم..

و مع هذه الهالة من الغضب والخوف كانت الصغيرتان تلقائيًا تتحسس كلًا منهما ذراعها بحركةٍ لا إرادية خوفًا مما تفعله أمهما..

و ما أن انتهت أخيرًا الأم وقبل أن تعاود الطفلتان شجارهما، كانت قد دست العروس في المبخرة لتحترق أمام أعينهما الذاهلة.. وهتفت أحدهما بقوة مستاءة

"لماذا أحرقتِها يا أمي؟!.. كنت أريدها.."

لكن على ما يبدو أن أمها لم تسمعها وهي تنظر للنار التي كانت تلتهم العروس الورقية ببطء وتحولها إلى بقايا سوداءٍ تستغيث قبل أن تذوي تمامًا..

و هتفت الأخرى بغضبٍ أكبر وهي تضرب الأرض بقبضتها

"أمي، أنتِ لا تسمعين.. كنا نريدها، كنت قد حضرت علبة ألواني لأرسم لها وجها وألون فستانها.. لماذا فعلتِ هذا؟!.."

هذه المرة سمعت الأم كلام صغيرتها.. أو ربما لا..

ربما ما كان الجواب إلا ردًا لنفسها، فقد همست بصوتٍ شارد وهي تراقب الرماد الأسود

"هذه العروس ستفديكما وتتلقى الأعين عنكما.."

لم تفهمها كلًا من الطفلتين.. فأخذتا تراقبان ما يحدث بعينين فضوليتين، وفجأة سمعن طرقًا على باب البيت الخشبي.. فنهضت جميلة من مكانها متجهة إليه وأوشكت أن تفتحه لولا أن توقفت للحظة واضعة يدها على الخشب المتقشر ونادت تسأل

"من؟.."

سمعت الصوت المرعب من الخارج يقول

"أنا خالتك بدرية، افتحي يا جميلة.."

اتسعت عينا جميلة بذعرٍ.. ثم غضب.. واتجهتا سريعًا إلى المبخرة حيث العروس محترقة..

لقد شعرت بهذا.. بدرية شعرت بأن هناك من سيفدي بنتيها فأتت سريعًا كي تصب عليهما المزيد من نيران حسدها وحقدها.. لكن والله لن تسمح

لم يعد الحرج ليمنعها ولا الأصول لتُخجِلها.. فهتفت من خلف الباب بقسوة غير معتادة منها

"سامحيني.. لا أستطيع فتح الباب.."

ساد الصمت في الخارج، ثم هتفت بدرية بتعجب

"لا تستطيعين فتح الباب!!.. لماذا؟.."

أغمضت جميلة عينيها للحظات، ثم ردت بفظاظة

"أغلق إبراهيم الباب بالمفتاح صباحًا وخرج.. ونحن الآن لا نستطيع فتحه.."

هدرت بدرية من الخارج بغضب

"لقد رأيتك صباحًا في الحي يا جميلة!.. هل تمنعينني من دخول بيتك؟!.."

عضت جميلة على شفتها وهي تهز ساقها بسرعة وعصبية،

وبدأت جبهتها تتعرق بتوتر..

لكن حين نظرت إلى البنتين المحدقتين فيها.. سكن جسدها وتوقفت ساقها..

من أغلى لديها من طفلتيها؟!.. بدرية تريد أن تحرقهما بعينيها، فهل تسمح للذوق والضيافة بأن يعرضا البنتين لعينيها الحاسدتين؟!.. والله لن يحدث

لذا صرخت بصوتٍ عالٍ

"اعذريني يا خالة، هذا موعد دواء ابنتي.. لا أقدر على الوقوف والكلام معكِ أكثر.."

سمعت من الخارج صوت غاضب بدأ يتباعد مع رحيلها وهي تصرخ مسمعة الجيران عن قصد

"هذه قلة أدب، والخطأ خطأي في مجيئي للإطمئنان على ابنتك.. شابة عديمة التهذيب"

ظلت جميلة مستندة إلى الباب تلهث بخوفٍ حتى خبا صوت بدرية مع أصوات النساء اللاتي تجمعن ليهدئنها..

فرفعت رأسها لأعلى وهي تضع يدها على صدرها الخافق..

بدرية لن تتوقف عند هذا الحد ولن تتراجع.. لن تهدأ حتى تموت البنت..

لقد رأت الموت في عينيها يوم نظرت إليهما، صوبت وأفلح تصويبها وقد أصاب الهدف في مقتل..

مؤكد أنها لن تكتفي، بل ستقوم بوضع الأعمال الشريرة لأذية الطفلتين..

ابتعدت عن الباب بوجهٍ ممتقع، ثم أشارت للبنتين تهمس بخوف

"تعالا لأبخركما.. هيا.."

نظرت الصغيرتان كلًا منهما للأخرى بملل شديد ثم نهضتا

متخاذلتين، راضختين..

فيما بعد، دثرت جميلة طفلتها الصغيرة وقد راحت في سباتٍ عميق.. ثم جلست على حافة السرير تتأملها بأسى..

لم تعد البنتين صورة طبق الأصل من بعضهما.. لقد اختلفتا كثيرًا..

فإحداهما كانت تكبر وتزداد توردًا وحجمًا.. بينما الأخرى تشحب وتزداد هزالًا وتتعمق عيناها للداخل بسبب العلاج الطويل..

و كأن أحدهما كانت تمتص الحياة من الأخرى!..

مدت يدها تتلمس الوجنة الشاحبة الممتقعة برفق وهي تتنهد بحسرة.. بينما كانت ابنتها الأخرى تقف عند الباب تراقبها، ثم همست تسأل

"أمي.. لماذا لم تعودي تدثريني في السرير وتأخذيني بين ذراعيكِ كما تفعلين معها؟.."

أشارت إلى أختها غاضبة بغيرة طفولية.. فرفعت أمها إصبعها إلى فمها تهمس بصرامة

"هششششش،.. ستستيقظ أختك.."

ثم قامت من مكانها وأمسكت بكف الصغيرة الواقفة لدى الباب بتذمر.. تخرجها من الغرفة لتغلق الباب خلفها.. وقادتها حتى جلست على الأريكة وأوقفتها أمامها تمسك بذراعيها وتحدق في وجهها الطفولي الجميل ثم سألت بخفوت

"لماذا تتكلمين بهذا الشكل؟!.. ألا تعرفين أن أختك طوال فترة استيقاظها تعاني من الدوار والغثيان والكثير من الآلام وأننا نتمنى لها النوم أطول فترة ممكنة كي ترتاح؟!.."

تبرمت شفتا الصغيرة بعدم رضا، شاعرة بالملل من تكرار نفس العبارات عن المرض يوميًا..

متى تشفى شقيقتها من هذا المرض؟!.. كل صديقاتها يمرضن ثم يتعافين خلال اسبوع واحد.. أما أختها فلا تتعافى أبدا!..

لقد ملت منها.. وبدأت تغضب من أمها فهي لم تعد تعيرها أي اهتمام مطلقًا..

فتحت فمها المكتنز لتقول محبطة

"أتمنى أن أمرض مثلها كي تدلليني أنا أيضًا.."

لكنها انتفضت برعبٍ مع صوت شهقة جميلة العالية المذعورة وهي تهجم عليها لتكتم فمها بيدها!..

ذعرت الصغيرة ونظرت إلى أمها بعينين واسعتين كبيرتين فزعتين من فوق كف أمها الكاتم لأنفاسها.. بينما كانت ملامح هذه الأم مرتعبة وهي تنظر حولها بهلع للحظة، ثم أعادت عينيها إلى الصغيرة وهزتها هاتفة بعنف

"كيف تقولين هذا؟!!!.. كيف تنطقين بشيء كهذا؟!!.. كيف؟!!.."

ثم قرصتها في ذراعها بقوةٍ مما جعل الطفلة تشهق ألما،

قبل أن تنفجر باكية من تحت كف جميلة..

هزتها جميلة وقالت بصرامة

"كفى.. كفي عن البكاء.. قلت كفى.."

مع النبرة الصارمة لأمها توقفت الطفلة عن البكاء بصعوبة ثم رفعت يدها تمسح بها دموعها ووقفت تنظر إلى أمها بسكون حتى تكلمت جميلة قائلة بشدة

"كيف تقولين شيئًا سيئًا كالذي نطقتِ به للتو؟!.. ألا تعرفين أن الأمنيات السيئة تتحقق دائمًا!.."

أخفضت الصغيرة عينيها دون رد، بينما ظلت جميلة تنظر إليها دون أن تلين ملامحها ولو للحظة.. ثم أعادت الإمساك بذراعيها بقوة ورددت أمام وجهها ببطء

"إياكِ.. إياكِ أن تكرري ما قلتِ للتو.. عليكِ أن تفهمي أن ثلاثتنا أنا ووالدك وأنتِ مهمتنا هي مساعدة أختك حتى تشفى.. إنها تتألم وعلينا أن نخفف عنها، لا أن تغار منها!..

مفهوم؟.."

ظلت الصغيرة صامتة للحظات، ثم أومأت برأسها أخيرًا دون إقتناعٍ كبير.. فأغمضت جميلة عينيها للحظاتٍ وهي تتنهد مجهدة.. ثم نظرت إلى ابنتها وقالت بهدوء كي تستوعب

"ما فعلتهِ الآن جاء في وقتٍ خاطىء تمامًا فقد كنت على وشكِ أن أجعلك في موضع المسؤولية للمرة الأولى.. لكن كلامك هذا يجعلني أشك في أن تكوني قدر المسؤولية!.."

برقت عينا الصغيرة بإتساعٍ طفولي بريء وجفت دموعها على الفور وظهر الإهتمام على محياها وهي تهتف

"ماذا.. ماذا.. ماذا كنتِ تريدين؟.. أستطيع فعل أي شيء، صدقيني.."

رمقتها جميلة بطرفِ عينيها بنظرةٍ مشككة.. بينما كانت ابنتها تضم كفيها منتظرة، حتى دلكت أمها ذراعيها برفق وبدأت في الكلام

"أحتاج للخروج لفترة.. ثلاث أو أربع ساعات.. وجدتك مريضة كما تعرفين، باتت غير قادرة على البقاء معكما لرعايتكما.. ترى، هل يمكنك البقاء مع أختك لرعايتها؟.."

بهتت ملامح الصغيرة للحظة، ثم سألت برهبة

"تتركيني معها وحدي؟!.."

ملامح جميلة شديدة الشحوب كملامح ابنتها لأنها أكثر منها خوفًا.. لكنها قوت قلبها قليلًا وردت تسألها بشك

"هل تقدرين على الإنتباه لها؟!.. ستكون نائمة معظم هذه الفترة، وإن استيقظت ساعديها على دخول الحمام وتنظيف نفسها ولا تسمحي لها مطلقًا بأن توصد الباب.. ادخلي معها ورافقيها خلال كل نفس.. ابقيا جالستين لا تتحركان لأي مكان إلا للمطبخ لتأخذي الشطائر التي أعددتها لكما.. ابقيا ثابتتين تمامًا لحين عودتي، هل تستطيعين فعل هذا؟!.."

كانت الطفلة تدبر الكلام في رأسها مليًا وهي تنظر إلى عينيها بقوة.. ثم أومأت برأسها أخيرًا وردت

"نعم سأكون أنا المسؤولة عنها، فأنا في السابعة الآن.. ويجب عليها أن تسمع أوامري وتنفذها.."

أمسكت أمها بذراعيها وقربتها منها تتكلم ببطء جاد وهي تحدق في عينيها قائلة

"عليكِ التفكير جيدًا قبل أن تعطيني ردك، لأنه إن أصابها أي مكروه ستكونين مسؤولة عنها وسأعاقبك عقابًا شديدًا.."

ظلت الصغيرة على ثباتها وهي تتلقى لغة الحوار بين عينها وعيني أمها الجادتين دون تهاون.. ثم أومأت برأسها أخيرًا.. فأومأت أمها كذلك في إشارة اتفاقٍ بينهما.. ثم سألتها بصوتٍ طفولي خافت

"أين ستذهبين؟.."

أخذت جميلة نفسًا قصيرًا ثم قالت بخفوت

"هذا سر.. وعليكِ ألا تخبري أحد، خاصة والدك في أي

يوم.."

أومأت الطفلة برأسها فتابعت جميلة بحزم

"والآن، إن حدث أي أمر طارىء.. بل شديد الخطورة أو لو توجعت أختك.. يمكنك حينها فقط النزول لجارتنا فتحية.. لكن ليكن هذا عند الضرورة القصوى وشيء آخر.. لا تفتحي الباب لغريب قط ولا تفتحي بالذات للخالة بدرية مهما قالت.. مفهوم؟.."

أومأت ابنتها برأسها بثقة ثم سألتها بمودة

"وحين تعودين هل تقصين لي عروس كالتي أحرقتِها، لكن لا تحرقيها هذه المرة.. أريد أن أرسم لها وجهًا وألون فستانها.."

ابتسمت لها أمها برفق وهي تتلمس وجنتها بحنان.. فأغمضت الصغيرة عينيها وتنعمت بتلك اللحظة النادرة والتي افتقدتها منذ زمن.. وقالت جميلة بوعد

"إن أحسنتِ التصرف فسأرسم لكِ عروسًا لدى عودتي.."

ردت ابنتها تستغل الموقف الذي قد لا يتكرر

"وعريس لها كي يتزوجا؟.."

ازداد عمق ابتسامة أمها وظنت الصغيرة في تلك اللحظة أنها أجمل امرأة رأتها يومًا.. فقد ابتسمت لها أخيرًا..

*****

طرقت الباب وانتظرت متوترة تفرك أصابعها بقلق.. وحين فتحت الباب امرأة نظرت إليها مليًا ثم سألت بهدوء

"أنتِ من أتيتِ للتنظيف؟.."

أومأت جميلة برأسها وردت بصوتٍ خافت مضطرب

"نعم يا سيدة.. نعم سيدتي.. إنها أنا.."

أومأت المرأة برأسها وفتحت أبعدت الباب لها كي تدخل وبالفعل دخلت تتطلع للبيت بخوف، فهي الآن تقدم على شيء ما فعلته في حياتها كلها ولم تتخيل يومًا أن تقدم عليه..

بعد ساعاتٍ من التنضيف المضني وسر شقائه هو السرعة، فقد كانت تريد أن تنتهي وتعد البيت سريعًا للبنتين فكانت تلهث وتلهث حتى انتهت أخيرًا وانطلقت لتقفز بين الحافلات حتى وصلت للبيت منهكة القوى وما أن أغلقت الباب خلفها حتى اندفعت بقلبٍ مذعور كبتت رعبه طوال تلك الساعات بمعجزة

ظهرت ابنتها خارجة من غرفها وهي تقول بسعادة

"أمي.. عدتِ أخيرًا.."

جرت جميلة تتجاوزها وهي تنظر إلى السرير حيث كانت أختها نائمة بأمانٍ فوقعت مستندة بظهرها إلى الجدار ترفع يدها إلى صدرها المنهك.. تملي عينيها من رؤيتها الحبيبة وهي ترتاح مغمضة عينيها وكفيها مضمومتين بجوار وجهها

على الوسادة.. وما أن وجدت صوتها حتى سألت بدهشة هامسة دون تبعد عينيها عن الطفلة النائمة

"ألازالت نائمة منذ خرجت؟!.. ألم تستيقظ أبدًا؟!!.. هل تأكدتِ إن كانت تتنفس؟.."

و دون انتظار الرد لتتأكد، كانت قد اندفعت للصغيرة تقرب وجهها منها ولم يهدأ قلبها حتى شعرت بأنفاسها الدافئة فوق وجهها.. أما الطفلة الأخرى فقد وقفت خلفها وقالت بخفوت هامسة

"بلى استيقظت.. وساعدتها في دخول الحمام وشربت ماء وبقيت جالسة معها أقص لها قصصًا حتى نامت مجددًا.."

استلقت جميلة في فراشها بملابسها تترنح وهي تنزع حذائها لتضع وجهها بالقرب من وجه ابنتها تتأملها بصمت طويل..

فسألتها ابنتها من عند باب الغرفة

"ألن تقصي لي عروس من ورق يا أمي فلقد أحسنت التصرف.."

أغمضت جميلة عينيها وهمست بتعبٍ شديد وهي على وشك الإغماء نومًا من شدة الإرهاق

"ليس الآن.. غدًا، فأنا متعبة جدًا.. جدًا..هيا للنوم"

لكن الغد لم يأتِ ولم تُقَص العروس إلا لتُحرق فقط..

*****

توالت أيام الخروج وتنظيف البيوت.. منها من كان سكانه كرامًا ومنهم من كان دنيئًا..

رأت الكثير وواجهت الكثير.. باتت أكثر شراسة وهي تدافع عن نفسها إن حاول أحد أن يمسها بطريقة غير ملائمة وفي نفس الوقت تحافظ على الوسيلة التي تدر لها بعض المال لعلاج ابنتها..

لم تعد جميلة كما كانت.. فقد قست الملامح الجميلة وغَلُظَت الروح الرقيقة..

و في يومٍ مرهقٍ عادت للبيت تجر قدميها بتعب، لكن ما أن فتحت الباب ودخلت حتى تسمرت لوجود إبراهيم في البيت، جالسًا في انتظارها..

لم يكن هذا موعد عودته ومن شدة الرعب هتفت تلقائيًا

"لماذا عدت من العمل باكرًا؟!.. هل استغنيت عن مناوبة الليلة أم.. صرفوك!.."

ملامحه كانت معقدة وعيناه غاضبتان تدققان النظر بها وكأنه على وشكِ افتراسها، فسأل آمرًا متجاهلًا أسئلتها

"أين كنتِ؟.."

لكنها لم تجب كذلك بل رددت تسأل خوفًا

"لماذا عدت باكرًا يا ابراهيم؟.."

حينها فقط نهض من مكانه مندفعًا إليها ليمسك بذراعها بكل قوةٍ يهزها صارخًا

"أجيبي سؤالي..أين كنتِ وأين تذهبين كل يومٍ لساعات ؟.."

نظرت إليه بعينين واسعتين ووجه شاحب، ثم انتقلت عيناها خلفه لتقعها على الطفلتين وقد خرجتا من باب غرفة النوم ووقفتا تنظران بفزع إلى صراخ والدهما في أمهما للمرة الأولى..

أعادت عينيها إليه وسألت بصوتٍ بارد جاف

"من أخبرك أنني أخرج كل يوم؟.."

هزها مجددًا وهو يهدر بعنف وقد بدأت عروقه في الظهور من شدة الغضب وسوء الظنون التي طافت بباله

"أخبرني رجلًا من الحي حين خرجت للسؤال عنكِ منذ قليل.. الجميع يرى خروجك وعودتك بعد ساعات وأنا

الوحيد الجاهل بما يدور تحت سقف بيتي.."

كانت جامدة الملامح، ميتة النظرات وهي تحدق في عينيه دون تأثير.. ثم أجابت في النهاية بقسوة واختصار

"أنا أعمل في تنظيف البيوت.."

تجمدت يده على ذراعها للحظة، ثم سأل بصوتٍ يرتعد غضبًا

"نفذتِ ما أردتِ بعد أن سبق ورفضت!!.."

صمت قليلًا ثم صرخ عاليًا

"ألم يعد لي كلمة عليكِ وبتِ تقررين وتنفذين!.. كم بيتٍ غريبٍ دخلتِ دون علمي!!.. كيف تجرأتِ؟!"

صرخت فجأة عاليًا بصوتٍ جعل الطفلتين تنتفضان ذعرًا

"نعم تجرأت.. ومن الجيد أنك عرفت لأن هذا ما سيحدث

وعليك تقبله لأنك إن لم تفعل فقسمًا بالله ستكون النهاية بيننا وأنا أعني كل حرفٍ نطقته.. أنا سأخرج كل يوم للتنظيف في البيوت تلبية لتكاليف العلاج التي نعجز عن الإيفاء بها كاملة في كثيرٍ من الأحيان.."

صمتت للحظة تلهث ثم همست أخيرًا بشراسةٍ من بين أسنانها

"لا تفرض سلطتك على أمٍ تحارب مرض طفلتها، لأنها ستختارها هي دون أي تفكير.."

سحبت ذراعها من قبضته بعنفٍ بينما بقى هو واقفًا مكانه يتنفس بصعوبة وقد شعر بقيدٍ حديدي يكبل عنقه له سلسالُ ضخم يذله ويمنعه من الحركة.. من الإنتفاض رفضًا.. من الإعتراض بكلمة..

و أمام عينيه العاجزتين، كان هناك زوجٍ من العيون الذهبية الخلابة ينظران إليه بخوفٍ..

و كفان صغيران ممسكان ببعضهما طلبًا للإطمئنان.. إنهما

القيد والسلسال ما هو إلا ضيق الحال..

*****

"أنت تماطل.."

هتفت بهذه العبارة بحدة وعصبية، ثم أدركت أن صوتها أعلى من اللازم فنظرت حولها بقلق قبل أن تعاود انتباهها إلى محدثها عبر الهاتف وهي تقضم أظافرها بقلق..

استمعت قليلًا وهي تهز ساقها بعصبية، ثم همست غضبًا من بين أسنانها ترتعش توترًا

"لقد انقضت العدة منذ فترة ولم أسمع منك شيئًا ولم تتخذ خطوة.."

راقبها ابنها من خلف جدارٍ بعينين حادتين وهي تتحدث في الهاتف، يرهف السمع وعيناه تضيقان وهو يلتقط الخوف الحقيقي على محياها وقد بدأت تفقد زمام الأمور..

همست بغضبٍ وارتباك

"أنا أمكث لدى أختي وزوجها منذ أكثر من أربعة أشهر.. وقد بات يتكلم صراحة ويسأل عن موعد مغادرتي لبيتهم.."

صمتت مجددًا وقد عقدت حاجبيها تعض على أظافرها مجددًا.. ثم هتفت بصوتٍ خفيض غاضبة

"ماذا تعني بأن ظروف زواجك معقدة؟!.. هل هذا جديد؟! أما كنت تشكو منها طويلًا، لما اذن لا تنهي الأمر؟.."

بهتت ملامحها وهي تسمع ثم سألت بصوتٍ واهٍ أجوف

"مصلحة أولادك!.. لم يكن هذا ما كنت تقوله حين كنت متزوجة!.. لطالما كررت أن مصلحتهم ستكون في طلاقٍ متحضر عوضًا عن زواجٍ فاشل وإهاناتٍ متبادلة.. ماذا عن مصلحة أولادي أنا؟!.."

صمتت للحظة قبل أن يرتفع حاجباها ويشحب وجهها بشدة.. وسمعها تهمس سائلة بصدمة

"لما عليك أن تفكر في مصلحة أولادي!!!!.. أما قلت من قبل أن.. أما قلت أنك.."

استمعت مرة أخرى ثم هتفت بذعر

"لن تستطيع!!!!!.."

ثم أغلقت الخط وألقت الهاتف بعيدًا فجأة ورفعت أصابع كفيها إلى رأسها تنظر حولها باكية بشراسة وغضب.. تشهق بعنفٍ وكأنها تبحث عن شيء ما لتكسره، وحين لم تجد انحنت لتجلس أرضًا ثم انفجرت باكية بقوة..

خرج من مخبأه واقترب منها ببطء وهو يسمع صوت نحيبها وحركات كفيها العصبية..

تلوح بهما، ثم تشبك أصابعها في شعرها قبل أن تمس وجنتيها المبللتين وبينما هي تبكي بشدة رأت ابنها يقف أمامها.. فتأوهت بأسى وفتحت له ذراعيها كي تحصل منه على بعض الأمان..

و بالفعل لم يتأخر، وعلى الرغم من ملامحه الفتية الغاضبة وعيناه المتقدتان.. الا أنه اقترب وانحنى ليدس نفسه بين ذراعيها فأطبقت عليه بقوةٍ تبكي وهي تقبل جبهته هامسة

"كل شيء سيكون على ما يرام.. أعدك، فقط لا تبتعد عني.. ابق معي أرجوك ولا تتخلى عني.."

ظل صامتًا للحظات وملامحه قاتمة وعيناه جامدتان.. ثم نطق أخيرًا، صاغرًا

"لن أتركك.."

*****

أدخلت طفلها الصغير السيارة لتجلسه في المقعد المخصص له وثبتت حزام الأمان من حوله.. ثم استقامت وهي تقول مخاطبة طفلها الآخر بحزم

"هيا ادخل يا معاذ.."

وقف ابنها يلعب قليلًا فأمرت بنبرةٍ أكثر قوة

"معاذ.. ادخل إلى السيارة، فقد تأخرت على العمل.."

و بينما هي تحتد على ابنها الصغير المشاغب ككل يومٍ قبل ذهابه للروضة ثم اتجاهها إلى عملها بعد ذلك، شعرت بشيء غريب في تلك اللحظة.. وكأن تيارًا باردًا كالجليد قد سرى عبر الحبل الشوكي بظهرها..

شعرت بخفقةٍ زائدة في قلبها مما جعلها ترفع وجهها من فوق سطح السيارة.. لتنظر عبر الطريق إلى الرصيف المقابل.. وهناك على بعد أمتارٍ منها وبعد السيارات المتسارعة.. وجدت رجلًا يقف ثابتًا تماما وكفيه في جيبي بنطاله..

بدا في وقوفه غريبًا بينما كل من حوله يتحرك متجهين إلى مصالحهم وأشغالهم..

على الرغم من أنها لم تتبين ملامحه عبر هذا البعد لكنها عرفت أنه يراقبها..

على الرغم من أنها لم تتبين ملامحه وخاصة مع اللحية، لكنها.. عرفته..

تسمرت مكانها وفغرت فمها للحظة.. بينما انحنت عيناها بتعبيرٍ شارد في زمنٍ آخر..

رمشت بعينيها للحظة ثم خاطبت أبنها قائلة بخفوت

"ادخل إلى السيارة يا معاذ بجوار أخيك.. سأذهب لأحضر شيئا وآتي على الفور.."

بعد أن أدخلت ابنها، أغلقت الباب والسيارة.. ثم تحركت بخطواتٍ بطيئة متعثرة لتعبر الطريق بينما عيناها عليه ثابتتين حتى أن سيارتان انحرفتا كي لا تضربانها.. ولا تزال لا ترى سواه..

عبرت أخيرًا وهي لا تزال على قيد الحياة بمعجزة، ثم وقفت أمامه ومال ينظر إليها دون أي تعبير..

و كأنه كفيف لا يبصر امرأة أتت لتقف أمامه مباشرة تحدق

فيه.. إنه حتى لم يتنازل ليخرج يديه من جيبيه..

فقط يحدق بعينيها بنظرةٍ خاوية تمامًا.. بخلاف نظرات عينيها، فقد كانتا تحملان كل شيء..

تخبران أسرارًا مؤلمة احتفظت بها داخل قلبها لسنواتٍ طويلة..تتحركان فوق كل خطٍ من خطوط ملامحه.. ترسمان له صورة جديدة خلاف صورة مضى عليها سنواتٍ عدة

برقت الدموع في عينيها دون أن تمتلك الجرأة على بكاء فعليًا ثم همست بصوتٍ شديد الخفوت

"تغيرت.."

تحركت زاويتا شفتيه في ما يشبه التواء ابتسامة.. محاكاة مشوهة للإبتسام..

ثم قال بصوتٍ عميق ساخر

"هذا ما لا أستطيع قوله عنكِ فلم يتغير بكِ شيء.. رغم

الطفلين وخلافه.."

ارتبكت وأخفضت وجهها تشيح به لتنظر إلى سيارتها عبر الطريق حيث تحمل داخلها السبب الوحيد لحياتها مؤخرًا.. ثم همست قائلة بصوتٍ كصفير الرياح

"انتظرت كثيرًا.."

مجددًا هذا الإلتواء الساخر على شفتيه ثم التفت وجهه إلى حيث تنظر وهو يقول ببساطة

"هذا واضح من عمر طفليكِ وهو ما أقدره لكِ حقًا.. لو لم تنتظري لكانا الآن يقاربان العاشرة.. لكن كم عمر ابنك الأكبر من باب الفضول؟.. أربع سنوات؟.. خمس؟.. لا أستطيع التحديد عبر هذه المسافة.."

ردت همسًا بإختصارٍ مؤلم

"ثلاث.."

ارتفع أحد حاجبيه وهو يقول معقبًا

"ثلاث!.. لقد أطلتِ الإنتظار فعلًا"

أغمضت عينيها هامسة بصوتٍ متحشرج تغالب حريق الدموع المحتجزة في مقلتيها

"كفى أرجوك.."

صمتت غير قادرة على المتابعة، بينما قال متراجعًا بصوتٍ بسيط

"نعم أنتِ محقة، لا داعي لهذا الكلام.. فما أتيت حاملًا عتاب العاشقين المحطمين.."

سألته غير قادرة على مقابلة عينيه مجددًا

"لماذا أتيت اذن؟.."

مضت بضعة لحظات قبل أن يجيبها هادئًا

“ربما لأتمكن من وضع هذا الفصل حيث ينتمي.. في الماضي”

لعقت شفتها ببطء وهي تفكر

ربما لتؤلمني..و ربما لتراني لازلت كما كنت ولازال القلب بداخلي أنت فيه ولا سواك..

تكلم متابعًا بخفوت

“هيا اذهبي لطفليكِ.. لا ينبغي أن يرى أحدًا أمهما واقفة بصحبة قاتل..”

أطبقت عينيها بشدة

لن تبكي.. لن تبكي الآن.. لأنها إن فعلت فلن تتوقف حتى آخر العمر..

لذا حركت يدها بحركةٍ واهية وهي تقول بخفوت وصوتها يرتعش بينما عيناه تحدقان في وجهها المنخفض قصدًا

"خروجك.. خروجك أسعدني يا معاذ، أتمنى لك حياة جديدة.. سعيدة.."

عاد الإلتواء المشوه على شفتيه ولم يجب.. فأخذت نفسًا عميقًا وهي تتابع بصوتٍ مختنق متحشرج الآن

"يجب أن أذهب.. وداعًا"

لكن قبل أن تتحرك بادرها طالبًا بصوتٍ هادىء

"انتبهي هذه المرة وأنتِ تعبرين الطريق.. فعلى الجانب الآخر طفلين في حاجةِ لكِ.."

لم ترد عليه وهي تهبط لتعبر الطريق على غير هدىً.. تعرف أنه يحدق فيها دون أن ترمش عيناه، لكنه لم يرى نحيبها الصامت وهي تبتعد عنه باكيةٍ، دموعها تغرق وجهها..

ليت البدايات لم تكن مؤلمة إلى هذا الحد..

*****

مرتبكة خجول كمراهقة لم تتجاوز الرابعة عشر من عمرها.. بينما هي في الواقع شابة تجاوزت الثامنة والعشرين.. وعلى الرغم من ذلك كان مقدار خبرتها بالجنس الآخر كإرتباطٍ حقيقي ما هو إلا صفر كبير..

خبرة لا تتعدى الكتب التي قرأتها والتي تترجمها فقط لا غير..

لكن في مجال عملها كانت بسيطة التعامل، لا تتخيل أوهامًا ولا تؤلف أي قصص في مخيلتها وكذلك كان الحال أثناء دراستها الجامعية..

و هي الآن لا تجري مقابلة ودية عفوية، بل تخضع لمعاينة صريحة سيتحدد عليها إن كانت صالحة كزوجة للشخص الجالس خلف الشاشة أم لا..

جنبت نفسها حاليًا الشعور بالمهانة وخيبة الأمل مقارنة بقصص العاشقين عبر التاريخ أو بأقلام الأدباء وفي

الأساطير.. وعادت سريعًا لعالم الواقع والمنطق الذي تجيد التعايش فيه بسلامٍ نفسي واقتناع بذاتها..

فتحت الإتصال بأصابعٍ مرتعشة وانتظرت بترقب تضم كفيها بين ركبتيها لترى الزوج المحتمل..

و بالفعل ظهر لها وجهه.. ضيقت عينيها محاولة استجلاب أي شعورٍ خاص تجاه ملامحه

لكن لا شيء.. كان وجهًا عاديًا تمامًا لا يترك في النفس أي أثر من القبول أو النفور..

تراجع وجهها للخلف قليلًا مفكرة بواقعية

" لا بأس.. طالما أن النفور غير موجود فهذه إشارة جيدة.. "

تكلم مبادرًا بصوتٍ مقتضب

"مساء الخير.."

تنحنحت محاولة أن تجلي حلقها ثم ردت وهي ترجع شعرها خلف أذنها

"مساء الخير.."

فترة من الصمت كانت عيناه خلالها تتفحصانها بدقة لم تشأ أن تشعر بها مهينة فأخفضت وجهها المتورد ولم تحتاج أن تتأمله في المقابل.. نظرة واحدة كانت كافية وبالنسبة لها الشخصية والحوار بينهما أهم لذا هو ما ستهتم به.. حين يبدأ..

طال الصمت أكثر مما ينبغي وازداد احمرار وجهها..

حسنًا التحديق الصامت بهذا الشكل محرج جدًا، على الأقل ليتحلى ببعض الكياسة ويبدأ حوارًا خلال النظر..

هل هناك زر مفتوح عند صدر قميصها!!.. هل يمكن؟!..

فتحت عينيها ونظرت لأسفل، لكن القميص كان مثاليا وهي تمرر أصابعها على طول أزراره الثلاثة العلوية ثم

ارتبكت من الحركة وسارعت تخفض يدها متوترة

أوشكت أن تكون فظة في الكلام لكنه سبقها وتنازل أخيرًا سائلًا بهدوء

"أخبرتني السيدة حسنات أنكِ تعملين.."

حسنًا لا بأس.. لقد بدأ الحوار أخيرًا

ردت عليه بصوتٍ هادىء وهي تنظر إليه متغلبة على ارتباكها وبإبتسامة بسيطة

"نعم أنا أعمل كمترجمة لدار نشر.."

أومأ برأسه بحركةٍ مبهمة فشكت إن كان قد استوعب فردت مكررة

"مترجمة.."

أومأ مجددًا وهو يسألها مجددًا بصوتٍ عابر

"هل هي كوظيفة ثابتة مثلًا؟.."

رفعت يدها تتلمس ذقنها مجيبة بخفوت

"ليس تمامًا.. أعمل من المنزل، ويتم إرسال الكتب المراد ترجمتها من حين لآخر.."

مط شفتيه للحظة وهو يخفض عينيه، ثم سألها مستنتجًا

"تعملين بالقطعة اذن.."

ارتفع حاجبها قليلًا وهي تمد رأسها..ثم أجابت بصوتٍ مقتضب مختصر

"أعمل بال.. بالقطعة نعم.."

ظل صامتًا مخفضًا وجهه مفكرًا، وانتهزت الفرصة لتتأمله، ليس رغبة في حفظ ملامح وجهه بل لتقرأ تعابيره.. ومن نظرة واحدة استطاعت قراءة أن ما يراه لا يعجبه..

تكلما في وقت واحد وكلا منهما يسأل سؤالًا فتداخلت أحرفهما

"أي نوعٍ من الكتب تفضل قرائتها؟.."

"هل عملك هذا مربح؟.."

ضحك كلًا منهما بتوتر ثم أشارت له بتهذيب تدعوه أن يسأل سؤاله أولًا.. وبالفعل كرر سؤاله كي تسمعه

"سألتك إن كان عملك هذا مربحًا.."

فتحت فمها متفاجئة للحظة واحدة، ثم مطت شفتيها وهي تعاود دس شعرها خلف أذنها مجيبة مفكرة

"آآآه.. لم يسبق لي أن فكرت في الأمر من قبل، لكن على ما أظن وبالنسبة لأسعار اليوم فالجواب هو.. لا ليس تمامًا.."

ملامحه غلفها بعض البرود فأخذت نفسًا وهي تتابع بخفوت

"الحقيقة أنني لم أكن أبحث عن مصدر دخل حقيقي حين انتقيت هذا العمل.. كان اختيارًا للقيام بما أحب بشغف.. الترجمة بالنسبة لي متعة خالصة والدخل المصاحب لها كان كفائدة إضافية.."

تحولت هذه الملامح الذكورية الآن لوجهٍ بارد بوضوح يعمل نوعًا من الإمتعاض وهو يكرر سائلًا

"تعملين للمتعة!.."

امتقع وجهها وشعرت بقدرٍ من البلاهة قادرًا على أن يكفيها لسنواتٍ قادمة.. فظلت صامتة تفرك أصابعها بين ركبتيها..

تحلى الرجل ببعض اللياقة ليسألها بخشونة وإهمال

"ماذا كان سؤالك؟.."

انتبهت مجفلة وهي تجيب كتلميذة في مدرسة

"ها!.. آه نعم، لا ليس سؤالًا هامًا.."

لم يعبأ بالإلحاح عليها لمعرفة السؤال.. بدا متجهمًا شارد الذهن وهناك ما يشغله بوضوح ثم نظر إليها وسألها بإختصار

"هل لديكِ ميراثًا مثلًا أو خميرة ترتكنين عليها؟!.."

ميراث وفهمتها.. لكن عن أي خميرة يتكلم بالضبط؟!.. أهو مصطلح جديد دارج في الشوارع هذه الأيام؟!.. لا تعرف فهي لا تخرج..

رمشت بعينيها وهي تسأل بصوتٍ مبهم

"عفوًا لم أفهم قصدك تمامًا.."

أجابها بوضوح أقرب إلى الوقاحة

"أعني إن كان عملك كما تقولين ما هو إلا للمتعة.. وأنه لا يدر ربحًا كافيًا فكيف تنفقين؟!.. هل لديكِ ميراثًا أو أملاك؟.."

ظلت جالسة أمامه فاغرة فمها للحظات، ثم همست بغباء

"آآآه.. في الحقيقة لا.. لا خميرة لدي.. حتى هذه اللحظة فإن ما تدره الترجمة يكفيني فأنا وحيدة دون مسؤولية ونفقاتي ليست بالكثيرة.."

سألها مجددًا بصوتٍ بدا عصبيًا

"ماذا عن صفحتك على موقع التواصل والحلقات التي تقومين بنشرها.. كما علمت فإن هذا العمل مربح جدًا، بسبب الإعلانات.."

ردت ضاحكة وهي تقول رافعة كفها

"لا.لا، أنا فاشلة تمامًا في موضوع الإعلانات هذا ولا أفهم فيه شيئًا.. كما أنني أرفض الإعلان عن شيء لا علم لي به.. ومن الأساس، لم أبدأ هذه الحلقات بغرض الربح.."

زم شفتيه وبدا تجهمه الآن موترًا للأعصاب وكأنه يجالس عدوًا.. أرادت أن تطمئنه وتخبره أن يهدأ فما هذا إلا لقاء

تعارف لا يعني أي ارتباطٍ رسمي بعد..

ونظر إليها بنفس التجهم والعبوس سائلًا بعصبية

"هل يمكنني الكلام معكِ بصراحة؟.."

لوحت بكفها هاتفة بجدية وحرارة

"بالتأكيد أرجوك.. لا شيء أفضله أكثر من الصراحة.."

فتح كفيه فوق الطاولة أو المكتب الذي يجلس خلفه وبدا في تلك اللحظة كمديرٍ فظ يرتب الكلمات داخله استعدادًا للإستغناء عن أحد موظفيه والذي هو جالس أمامه على وجه التحديد.. وربما لأن السبب كونه يعد خسارة على العمل وصاحبه!..

و بالفعل بدأ كلامه ناطقًا اسمها للمرة الأولى وهذا يعد التصرف الأكثر عاطفية منذ بدأ المقابلة

"آنسة عالية.. أنا كنت صريحًا مع السيدة حسنات في

تحديد مواصفات الفتاة التي أريدها زوجة، وأولها أن تكون موظفة لديها دخل ثابت أو ترتكن إلى ميراث تنفق منه لتساعدني على ظروف العيش الصعبة.. وأمام هذا الطلب كنت مستعدًا للتنازل في الباقي من المواصفات كما ترين.. الزواج عبارة عن تقدير إمكانيات الشريك المقابل.. وشيء يعوض عن آخر.."

أغمضت عينيها للحظة وهي تحرك حلقها بصعوبة كي تتمكن النطق بهدوءٍ وثبات.. وبالفعل حين فتحتهما كانت قادرة على الإبتسام بمودة قائلة بحيوية

"بالتأكيد.. كلامك في محله وغاية في المنطقية، أحييك عليه.."

لم يزل التجهم عن ملامحه.. وهذه المرة بدا أكثر انسانية واحساسًا بالذنب على إحراجها،..

بدا عاجزًا عن ايجاد الكلام المناسب ليغلق به هذه المقابلة فقررت أن تعفيه من الحرج وقالت بنفس النبرة العفوية الحيوية

"أتمنى لك كل التوفيق وعسى أن تجد ما تبحث عنه.."

أومأ برأسه مبتسمًا رغم أن التجهم لا يزال على وجهه!.. يا له من كئيب بالفطرة!..

و ما أن أغلقت التواصل وبقت الشاشة سوداء أمامها، تعكس صورتها القاتمة..

ارتعشت ابتسامتها بالتدريج لكنها لم تخفِ وظهرت الدموع في عينيها لتنساب ببطء ونعومة..

وأصابعها لا تزال متشابكة بين ركبتيها..

*****

" ماذا يفعل هنا؟!.. "

سؤال ساخر طاف بذهنه وهو يجلس مادًا ساقيه، ويداه في جيب بنطاله الجينز، ينظر إلى الرجل الجالس خلف المكتب مرتديًا حلة رسمية شديدة الأناقة..

لم يأتِ هنا إلا إرضاءً لوالده.. لكن على أبيه أن يعرف حدود تنازل الشخص في القبول بالقيام ببعض التصرفات لإرضاء الغير..

لقد تمادى حقًا في توقعاته!..

ربما لم تكن هذه الشركة بالفخامة الكبيرة.. وربما لم يكن اسمها معروفًا من الأساس..

لكنها تظل منشأة تحت مسمى شركة!!!.. فماذا يفعل هو هنا؟!!!!..

لقد بالغ والده جدًا في الإستماع لنصيحة أحد زملاء الدراسة القدامى والذي نصحه بهذا المكان المتواضع كبداية..

فهذه البداية التي هي متواضعة بالنسبة لهما.. وجوده أمامها يعد مهزلة وليست في صالحه مطلقًا!..

تابع الرجل النظر إلى أوراق سيرته الذاتيه بتركيز لا يفوقت

كلمة.. ثم رفع وجهه إلى معاذ قائلًا بإبتسامة مهذبة

"" باشمهندس " معاذ.. مسجل هنا خبرة في العمل لفترة قصيرة لا تتعدى أربع سنوات.. وكان هذا منذ أحد عشر عامًا.. ولا شيء بعدها حتى يومنا هذا!.."

صمت للحظة ثم سأل بحيرة

"هل مُسِحت أجزاء من سيرتك الذاتية بطريق الخطأ؟!.."

ظل معاذ صامتًا بملامح صلبة، جامدة كنظراته.. ثم تحرك ببطء وهو يقول بصوتٍ أجش

"لا.. لم يمسح شيء.. لقد توقفت عن العمل لظروفٍ خاصة.."

ساد صمت مضحك بينهما والرجل ينظر إليه ببلاهة.. ورغب معاذ في الضحك فعلًا تقديرًا لموقف هذا المسكين.. لولا أن فقد قدرته على المرح والتسلية منذ زمن، فاكتفى بأن بادله النظر بلا تعبير..

حتى رفع الرجل حاجبيه متعجبًا.. ثم سأل يميل برأسه محاولًا إرضاء فضوله على الأقل

"هل يمكنني معرفة طبيعة تلك الظروف الخاصة؟!.."

رد معاذ بصوتٍ هادىء مختصر

"لا.. لا يمكنك.."

ازداد ارتفاع حاجبا الرجل أكثر وأشفق عليه معاذ حقًا لكنه بقى مكانه صامتًا حتى تنتهي تلك المقابلة

فعاود الرجل يسأله بصوتٍ بطيء ذو مغزى

"هل يمكنك اعطائي سببًا منطقيًا اذن لتوظيفك بظروفٍ كهذه؟!.."

ظهر الإلتواء على شفتي معاذ ثم قال بصوتٍ خفيض خشن

"لا يمكنني تقديم سوى عرض واحد.. هو البدء بالعمل

كشاب في الخامسة والعشرين دون خبرة كافية وتقبل أي راتب معروض مهما كان.."

صمت قليلًا ثم قال مبتسمًا بتلك الإبتسامة المشوهة

"وإن كنت أظنه عرضًا شديد التكبر من جهتي، لذا فالجواب هو.. لا، لا يمكنني اعطائك سببًا منطقيًا واحدًا لتوظيفي.."

مط الرجل شفتيه بأسف، ثم مد الملف الذي يحتوي على السيرة الذاتية عبر سطح المكتب وهو يقول معتذرًا

"أعتذر يا " باشمهندس " معاذ.. أتمنى لك حظًا أوفر في مكانٍ آخر"

*****

رفعت فستانًا جميلًا أمسكت به بين أصابعه تنظر إليه شاردة..

كان واحدًا من عدة أثواب قامت بشرائها دفعة واحدة ودون بحث طويل أو تدقيق.. تعرف أن الفتيات أو النساء عامة يقضين معظم أعمارهن في التسوق والبحث عن الشيء المطلوب وقد لا يجدنه أبدًا..

أما هي فلم تكن متوافقة مع نشاط التسوق.. ويعد خروجها مرة لشراء العديد من الأثواب والأحذية لهو قمة التطور.. لذا عمدت على أنفاق كل المبلغ معها في يومٍ واحد لمعرفتها أن الرغبة أو الحماس لن يواتياها مجددًا فقررت أن تقدم على هذا قبل أن تتخاذل..

لكن الآن نظرت إلى الفستان بعدم اقتناع!.. هذا سيء.. سيء جدًا..

فستان كهذا يليق بشابة تبحث عن رجلٍ يعجب بها!.. أين كان عقلها حين اختارته؟!..

لماذا لم تختر بنطالًا جديدًا من الجينز عوضًا عن القديم وربما قميصًا جديدًا أكثر جاذبية من أقمصتها الصبيانية.. سيكون أفضل من فستان!!..

أخفضت كفيها بحنقٍ زافرة ثم استدارت تنظر إلى صورتها في المرآة..

كان شعرها مربوطًا على هيئة ذيل حصان فرفعت أصابعها لتفكه وتمشطه على طول ذراعها ببطء وشرود

ربما عليها أن تقصه، قد يمنح هذا بعض الحيوية لوجهها الساكن الجامد بملل..

لكن.. لا تحب أن تقص شعرها..

فهي لا تزال تحبه..

رفعت يدها تلامس صورتها في المرآة ببطىء.. بينما الأصابع الأخرى تمر على ملامحها الحقيقية وعنقها..

"ليلة.. ليلة.."

النداء العالي الصاخب جعلها تتشنج وتغمض عينيها.. تزم شفتيها بغضبٍ بينما كل عصبٍ في جسدها قد تحفز تلقائيًا..

حاولت تهدئة أنفاسها والسيطرة على غضبها تعد بداخلها ببطء شديد، لكن وقبل حتى أن تصل في عدها لرقم أربعة كان الصراخ قد عاد من جديد

"ليلة.. ليلة.. ليلة.."

هدرت من بين أسنانها بقوة شاتمة، وهي تضرب بقبضتيها على سطح طاولة زينتها بعنفٍ اهتزت له المرآة وكادت أن تسقط فوقها وربما تقتلها إن كانت سعيدة الحظ..

وقفت منحنية الرأس مستندة إلى طاولة الزينة تلهث بشدة، وحين رفعت وجهها للمرآة من جديد.. كانت نظرة الجمود قد تغيرت في عينيها وحل محلها نظرة حالكة مشتعلة..

" ليلة.. ليلة.. ليلة.. "

أتراها تستطيع تغيير اسمها كما ستغير حياتها وملابسها وربما شعرها؟!..

اسمها كان واحدًا من الأشياء التي لم تخترها في حياتها والتي كرهتها أشد الكره..

ليتها تستطيع تغييره كما ستغيرها.. بل ستقتلعها من حياتها اقتلاعًا إن أمكنها..

*****

زفرت بحنقٍ بالغ ومزيج من الغضب والأسى.. باتت ليلة تتجاهلها الآن!..

كم من مرة خلال الأيام الماضية نادتها ولم تبالي دون ردٍ أو جواب!.. على ما يبدو أنها تمنحها فترة تدريب على الوحدة..

غارت عيناها وهي تصل لنفس الفكرة ككل لحظةٍ مرعبة خلال الأيام الماضية..

استندت بمرفقها إلى ذراع مقعدها، تريح وجنتها المائلة إلى قبضتها تنظر إلى أرجاء البيت الكبير القديم بشرود.. إنه

ساكن جدًا.. صامت حد الرعب!..

كانت تعشق هذا المكان وحتى الآن لا تزال تعشقه بكل ذرة في كيانها، لكن مع تخيل بقائها فيه دون ليلة فهو يبدو لها مخيفًا موحشًا ومهجورًا وكما ثارت الشائعات من حوله لسنواتٍ طويلة فهو يبدو مسكونًا بالأشباح دونها..

سمعت فجأة صوتًا هادئًا يقول من خلفها

"ما الداعي للصراخ وكلتانا تمتلك هاتفًا!!.."

انتعشت في لحظةٍ واحدة وأشرقت ملامحها واستدارت بسرعة تواجهها بإبتسامة كبيرة، بينما كانت ليلة واقفة مكتفة ذراعيها، مستندة بكتفها إلى الجدار تبادلها النظر ببلادة، وعلى الرغم من تلك البلادة إلا أن عالية كانت تعرف بأنها غاضبة بشدة.. فاتسعت ابتسامتها أكثر ثم لم تلبث أن هزت كتفها قائلة

"استخدام الهاتف فيما بيننا ونحن تحت سقف واحد، يعد تصرفًا غريبًا مشوهًا بالنسبة لي وخالٍ من العاطفة.. الصراخ

يملأ هذا البيت حياة ويطرد أشباحه.."

مطت ليلة شفتيها ببرود ثم قالت رافعة حاجبها مجيبة

"إن كانت الأشباح ستخرج فهذا سيكون لإنزعاجها.."

ضحكت عالية ولم يؤثر عليها مزاج ليلة المتجهم كعادتها، بل ربتت على الأريكة بجوار مقعدها تدعوها لتجلس بالقرب منها قائلة بلطف

"تعالي واجلسي بجواري.. أريد الكلام معكِ قليلًا.."

ظلت ليلة تنظر إليها طويلًا بتعبير غير مقروء كعادتها وودت عالية لو تعرف ما يدور خلف هاتين العينين الهادئتين.. تمنت لو استطعت ترجمة أفكار ليلة..

لكن ترجمة ليلة أشبه بترجمة حجرٍ منقوش باللغة المؤابية لمن يجهل علم اللغات من الأساس..

لكن.. إن تعلم لربما تمكن من الترجمة..

و هذا هو ما تحاول فعله منذ سنوات.. ليلة ما هي إلا كتاب أغلق صفحاته منذ زمن وهي تحاول جاهدة إعادة فتحه ونفض الغبار عنه..

تحركت ليلة أخيرًا بملل ظاهر ثم جلست حيث أشارت وعاودت تكتيف ذراعيها منتظرة..

لم تجعلها عالية تنتظر طويلًا فقد تكلمت مشيرة بإهتمام

"خرجتِ اليوم دون أن تُخبريني وعدت لتفرين إلى غرفتك دون أن تُريني.."

سألت ليلة بهدوء

"أهو لغز؟!.."

تأوهت عالية وهي تدفع ركبة ليلة بقوة هاتفة بنفاذ صبر

"هيا يا ليلة توقفي عن التظاهر بالغباء، لقد خرجتِ اليوم للتسوق وحين عدتِ لم تريني ما اشتريتِ.."

رمقتها ليلة بطرفِ عينيها وقالت بنبرة طفى على سطحها توتر محذِر

"أنا لست ملزمة بأخذ الإذن منكِ في الخروج يا عالية.. ولا فتح كل ما يخصني لتبدي عليه موافقتك، رجاءً ابدئي بمحاولة عدم تخطي دائرة خصوصية أحاول بدوري البدء برسمها.."

لماذا.. لما البدء في كل هذه الخطط الجديدة؟!

لما تضع نهاية وتقرر بداية لكل شيء.. كل شيء..

أي صعوبةٍ تلك تحاول إجبارهما معًا على تقبلها وبالفرض دون استشارة حتى!..

لو خُيِرَت عالية في حرية الكلام لصرخت عاليًا

ليس من حقك أن تنتزعيني بهذا الشكل!.. ليس من حقك أن تكتبي نقطة نهاية وتخطي أول كلمة لبداية جديدة لا

تتضمني..

لكنها لم تُخَيَر.. لقد أُخبرت فقط بدافع المعروف ليس إلا..

و حينها فكرت عالية وحكمت المنطق والرحمة.. بلى، من حق ليلة أن تتحرر وتحلق بعيدًا..

أهو فصام أم أن بداخل كلًا منهما اثنتان!..

هزت عالية رأسها تبعد تلك الأفكار المضنية عن ذهنها كي لا تضعف وتتراجع عن موقفٍ نبيل أُجبرت عليه

فوالله لو خُيِرَت لما عَرِف النبل لها طريقًا ولأصرت على الأنانية قرارًا

ها قد عادت من جديد..

هزت رأسها بقوة هذه المرة كي تتوقف.. ثم رفعت عينيها إلى عيني ليلة وابتسمت قائلة بنبرة متمعنة

"لا داعي لمثل هذه العدوانية، فقد كنت أبدي بعض اللطف ليس إلا..المهم أنني لمحت الكثير من الأكياس بيديك لدى عودتك.. لقد بدأتِ بإنفاق ما تركه لكِ عمنا عبد الحليم وأراكِ تنوين الإسراف."

ارتفع حاجبا ليلة ثم انعقدا بشدة وفتحت فمها تنوي أن تصب جام غضبها على عالية.. إلا أن الأخيرة رفعت كفها وصوتها لتمنعها قائلة بحزم

"أنا لا أحاكمك، بل على العكس.. أنا سعيدة بإقبالك على الحياة وشرائك لأغراض جميلة لذا.. قررت قرارًا وحيدًا،أرجو منكِ أن تتقبليه كقرارٍ أخير مني.."

صمتت وهي تحني وجهها لتخرج شيئا من جيب ثوبها البيتي.. وكان ورقة مطوية..

فردتها أمام ليلة ثم مدتها لها كي تأخذها.. لكن ليلة لم تتحرك ولم تفك ذراعيها حتى، بل نظرت للورقة بلا تعبير ثم سألت

"ما هذا؟!.."

لم تسحب عالية يدها بالورقة حين ردت بمودة

"هذا شيك مصرفي، سجلت فيه رقمًا مما تركه لي عمنا عبد الحليم كذلك.. أرجو أن تتقبليه مني كشكرٍ على كل ما فات وقدمته.."

ساد الصمت بينهما لفترة قبل أن تتحرك ليلة أخيرًا، فمدت يدها تتناول الشيك ببطء ونظرت اليه تقرأ الرقم المدون..

ابتسامة.. ابتسامة ونظرة في عينيها أصابتا عالية في مقتل..

يا الله ما تلك النظرة؟!.. وكأن العينان الجميلتان قد غارتا حزنًا مع ابتسامة تسليةٍ مريرة!..

يا لهما من بركتين من الألم!..

أتراها أخطات إلى هذا الحد؟!.. هل أفقدتها الحياة بين

الكتب والقواميس القدرة على تفهم آلام البشر فتحولت إلى مرجعٍ بارد يحوي الحقائق المادية ولا يستوعب ما تجيش به النفس!..

تكلمت ليلة أخيرًا وبدا صوتها غريبًا عميقًا وهي تهمس مخاطبة الشيك بين أصابعها

"ياللسخاء!.. إنه لعرض كريم، ترى كم يساوي اليوم ثمنًا برأيك؟!.."

شعرت عالية بالإرتباك يجتاحها فهمست برهبة

"أتراني أخطأت التصرف يا ليلة؟!.."

رفعت ليلة عينين مندهشتين ساخرتين وهي تسأل

"أخطأتِ!.. بل على العكس، أنتِ فائقة الكرم.. لكن ألستِ أولى بهذا المبلغ مني؟!.."

ترددت عالية وهي ترد بخفوت

"فكرت جيدًا، وجدت أنني لست في حاجة له مثلك.. أنتِ على وشك بدء حياة جديدة وتحتاجين كل قرش.. أما أنا فهذا المبلغ الذي تركه لي عم عبد الحليم ليس بالضخم،حتى إن قبلت بما عرضه أولاد غنام فلن يكفي لشراء شقة صغيرة حتى.. وهذا سبب إضافي في القبول بحل الزواج.."

نظرت ليلة إليها بدقة وخيل لعالية أن عينيها قد زادتا قسوة وهي تسأل بحذر

"حل الزواج، نعم.. كيف كانت المقابلة بالمناسبة؟.."

زفرت عالية من بين شفتيها المتبرمتين وهي تنظر لليلة بطرفِ عينيها قائلة

"فشلت فشلًا ذريعًا.."

خيل لها أن رأت بريق ظفرٍ خاطف في عيني ليلة!.. لكنها أبعدت هذا التفكير البائس عن مخيلتها المريضة..

و تكلمت ليلة سائلة، ترفع حاجبيها بفضول

"ولماذا؟.."

فتحت عالية فمها لتجيب، ثم نظرت إلى الشيك في يد ليلة ولم تلبث أن ضحكت فجأة بحرج وهي تقول

"لأنني مفلسة متسولة.."

ازدادت الحيرة في عيني ليلة فوضحت لها قائلة بشديد الإحراج

"أراد موظفة براتب ثابت أو فتاة لديها أملاك أوميرات.. ترتكن إلى خميرة على حد قوله كتعبيرٍ دارج.. وهذا المبلغ الذي تركه لي عم عبد الحليم ليس ميراثًا بمعنى الكلمة، وأما البيت فسأغادره في أي لحظة.. لذا بعد تفكير فكرت أنك في حاجة للمال أكثر مني.."

ساد الصمت بينهما دون أن تشاركها ليلة روح المزحة.. بل مالت للأمام فجأة تمسك بذراعي مقعد عالية هامسة بنبرة باترة أمام وجهها

"هكذا هي أنتِ دائمًا يا عالية.. تتصرفين بكرمٍ مبالغ فيه وترفع لا يليق بكِ، بينما أنتِ في الحقيقة وكما نطق لسانك من باب التسلية، مفلسة.. تبحثين عن محض غريب كي ينفق عليكِ ويأويكِ في بيته، ولا تجدين.. لأن حتى هذا الغريب ينتظر منكِ مقابل أنت لا تملكينه.. ومع ذلك تتشدقين بإحتياجي الذي يفوق احتياجك، لأنك تترجمين كتابًا كل شهرين أو ثلاث.. أنتِ متكبرة، متمننة، شديدة الأنانية بدرجةٍ تثير الغثيان.."

كانت عالية تستمع إليها مصدومة من كل طاقة الكره تلك والموجهة إليها.. وما أن انتهت ليلة من كلامها حتى همست عالية ترتعد

"لماذا يا ليلة؟!.. فيما أجرمت أنا كي تحاكميني بهذا الشكل؟!.."

ردت عليها ليلة بصوتٍ خفيض

"أحاكمك!.. ليتك ما نطقتِ الكلمة، لأنكِ لو تتخيلين شكل المحاكمة التي أعدها في خيالي كل ليلة، لما رأيتِ سوى

كوابيس شديدة السواد، تتمنين معها بزوغ النهار.. لكن وكأن موعده بعد أعوامٍ وأعوام من سوادٍ لا ينتهي.."

*****

"أحد عشر عامًا!.. أين كنت خلالها يا رجل؟!.. هل سرقتك نومة طويلة!.."

قابل الإبتسامة السمجة بنفس التعبير العابس دون تنازل والذي يوحي لمن يواجهه بأن هذا الرجل قد فقد القدرة على فهم روح التسلية أو التهكم..

نقر على مكتبه ناظرًا إلى السيرة الذاتية.. ثم قال رافعًا حاجبيه

"لابد وأن يكون لديك تفسيرًا معقولًا.."

نظر معاذ إلى أرجاء مكتب تركيب مكيفات التبريد الصغير والذي لا تتعدى مساحته البضع أمتار..

ثم أعاد عينيه للرجل المرتدي سترة فضفاضة زرقاء عليها علامة اسم المكيف الذي يقوم المكتب بتركيبه في البيوت والشركات.. وأجاب بهدوء

"لا تفسير معقول لدي.."

هز الرجل رأسه وهو يعيد إليه ورقة سيرته الذاتية قائلًا

"طلبك مرفوض.. لا وظائف شاغرة لدينا.."

*****

"هل ستتمكنين من رعاية ثلاث أطفال؟!.."

فغرت عالية فمها ذاهلة وهي تردد عبر الشاشة

"ثلاث أطفال!!!.."

سألها الرجل الأربعيني الأصلع عاقدًا حاجبيه بقلق

"تعرفين أنني أرمل ولدي أطفال.. أليس كذلك؟.."

سيطرت عالية على ملامحها فورًا وأجابت بتهذيب

"أعرف أن لديك أطفال بالطبع، رحم الله زوجتك.. لكنني لم أعرف عددهم.."

سألها عابسًا

"هل يعتبر ثلاث أطفال عددًا كبيرًا؟!.."

سارعت ترد وهي تهز رأسها نفيًا

"لا طبعًا.. حفظهم الله لك.."

ازداد تجهمًا وهو يعاود السؤال بنفاذ صبر

"اذن هل ستتمكنين من رعايتهم؟!.."

هل هو كفيف يستحق التفهم أم غبي لا يليق به غير

الإهانة؟!..

تلجم لسانها للحظة ثم ردت بهدوء

"هل هناك إمكانية لوجود مربية مثلًا؟.."

سألها بفظاظة

"ولماذا أبحث عن زوجة إن كانت هناك إمكانية لوجود مربية؟!.."

مطت شفتيها مفكرة.. ثم قالت بهدوء

"جواب منطقي.. لكن جوابي هو للأسف لا أستطيع رعاية ثلاث أطفال، وفقك الله.. سلام"

*****

"نحن في حاجةٍ لمحاسب، لا مهندس!.. محاسب حديث التخرج في الواقع بينما أنت مهندس تخرجت منذ خمسة

عشر عامًا.."

ردت السكرتيرة الشابة بهذا حين سألها عن الوظيفة الشاغرة، فأجابها بإقتضاب

"لا أمانع.."

ارتفع حاجبها وهي تتأمله بصلفٍ وشيء من الإزدراء لا يعرف سببه حقيقة!.. فهو يفوقها تعليمًا وعمرًا ومكانةً نسبية.. وهو لا يبحث عن عملٍ إلا ليرضي والده ببداية جديدة كما يتخيل..

أعادت عينيها إلى الورق أمامها والذي نزع منه صفحتين لن يفيداه بشيء في مجال المحاسبة وقالت ببرود

"نحتاج محاسب حديث التخرج يا أستاذ.."

رد عليها بغلظة قائلًا

"طالما أنه لا يحتاج إلى خبرة فلا مشكلة لدي.. كما أنني

في الحسابات شديد البراعة كما أتذكر.."

زفرت بنفاذ صبر ثم ردت بجفاء سائلة

"وماذا عن العشر سنوات التي لم تسجل فيها شيئًا؟!.. هل كنت مهندسًا خلالها أم محاسب أم أستاذ تاريخ بما أنك أتيت اليوم كي تمزح.."

رد عليها قائلًا ببساطة شديدة

"أحد عشر عامًا، لا عشر.. وكنت خلالها في السجن.."

نظرت إليه بسرعة مجفلة، ثم ودون ردٍ أمسكت سماعة هاتف رفعتها إلى أذنها قائلة

"الأمن حالًا.. لدي حالة طارئة.."

*****

"ماذا تعنين بسبب رغبتي في الزواج منكِ؟.. ظننت السبب

واضح، وهو الستر..الزواج ستر لأي فتاة"

ارتبكت قليلًا وكأن الكلمة المنطقية ذات التعبير الجميل، قد نطقت بفظاظة فألجمتها وامتقع وجهها.. لكنها ردت بهدوء واتزان

"شكرًا لك.. لكن السبب في سؤالي عن السبب في رغبتك الزواج مني هو أنك متزوج في الأساس!"

أجابها بثقة مبتسمًا

"هذه الزيجة أحتسبها لوجه الله.."

أسبلت جفنيها للحظات ثم سألت بخفوت

"وما هو رأي زوجتك؟.. هل توافقك الرأي؟.."

أجابها بهدوء

"زوجتي كذلك تحتسبها صدقة لوجه الله وهي موافقة.."

شعرت بألمٍ في صدرها جعلتها تتنفس بصعوبةٍ وهي تنظر جانبًا لتطرف بعينيها عدة مرات قبل أن تنظر إليه مبتسمة هامسة بهدوء

"شكرًا لك.. وفقك الله"

*****

النساء الأكبر سنًا عادة متعاطفات، طيبات.. يشعرن بالأمومة والرغبة في التبني تجاه من جائهن طلبًا للعمل..

و هذا ما يراه على ملامح تلك السيدة الحنونة ذات الوجه الأحمر المكتنز وهي تنظر إليه بلطف خلف لوحة مكتب صغيرة مكتوب عليها

" مدير فرع متجر البساتين للسلع الغذائية "

هزت رأسها بأسف وهي تقول تلوح بكفها الممتلىء

"نحتاج إلى أمين مخزن ذو خبرة لا تقل عن خمس

سنوات.."

سألها بصوته الخشن الفاتر

"ماذا عن عمال تجميع في المخزن؟.."

هزت رأسها مجددًا شديدة الأسم وهي تقول بحنان

"أيضًا تحتاج الوظيفة لخبرة لكن ثلاث سنوات.."

سألها سؤالًا عابرًا محاولًا قدر استطاعته حتى يرضى والده عن سعيه الجاد

"" الكاشير ".. ماذا عنه؟!.."

نظرت إليه بحزنٍ سائلة

"أنت مهندس، ما الذي يجبرك على وظيفة لا تتناسب ومؤهلك؟!.."

أجابها بالإلتواء المشوه الساخر

"لأنني كنت مسجونًا لمدة أحد عشر عامًا.."

فغرت فمها وأراد الضحك عاليًا من منظرها المصعوق وقد فر التورد من وجنتيها المكتنزتين.. وانتظرها بصبرٍ طويل حتى تتغلب على الصدمة..ثم تلعثمت سائلة بتعثر

"ما.. ما هي تهمتك؟!.."

أجابها ببساطة يضربها بالصدمة الثانية دون رحمة

"قتل.."

الآن بالذات ضحك للمرة الأولى بصوتٍ عميق وهو يتأملها تتخبط مذعورة ملتقطة سماعة لتهتف فيها برعب

"الأمن.. الأمن.. نادوا الأمن.."

*****

الفصل الثالث

" ما أسوأها من بدايةٍ حين يلجأ الإنسان إلى الحلول اليائسة!..

تلك ليست بداية، بل حلقة مفرغة لا فكاك منها "

*****

عاد للبيت بخطواتٍ متثاقلة كنهاية كل نهارٍ فشل فيه سعيًا، آخر ما يرغب فيه هو رؤية وجه والده الذي ورغم تحفظه الدائم، لكن تظهر في هاتين العينين المتقدمتين عمرًا أملًا بإمكانية ابنه في الحصول على حياة ناجحة.. على بداية جديدة!..

زم شفتيه وهو يرفع عينيه ناظرًا إلى لوحة أرقام طوابق المصعد البطيء منتظرًا.. وشعر بوقوف شخص بجواره فألقى عليه نظرة عابرة لا مبالية.. ليجد أنها فتاة شابة في مقتبل العمر كانت تحمل حقيبة رياضية فوق ظهرها وتنتظر

المصعد مثله..

أبعد عينيه دون اهتمام، لكنه لم يلبث أن سمع صوتها يسأل بدهشة

"أستاذ معاذ؟.. أهذا هو أنت حقًا؟!.."

نظر إليها مجددًا نظرة مدققة هذه المرة ثم أجاب بخفوت

"هذا يعتمد على من هو السائل.."

وضعت يدها على جيدها تهتف مبتسمة

"ألا تتذكرني؟!.. أنا سارة.. الطابق السادس.."

ظل مبهم التعابير للحظة وهو ينظر إليها بتدقيقٍ أكبر ومحاولة مضنية لعصر الذاكرة وربط اسمها مع رقم الطابق الذي أعطته، لأن الشكل لم يفده بشيء.. ثم لم يلبث أن قال بدهشة رافعًا حاجبيه

"سارة!.. سارة سليمان في الطابق السادس؟!!!.."

هتفت ضاحكة وهي تومىء برأسها

"نعم.. درس الرياضيات.."

فتح فمه قليلًا وهو يتأملها غير مستوعبًا فمن تقف أمامه الآن ليست الطفلة في الصف السادس والتي كان يعطيها درس في الرياضيات كل اسبوع، بل كانت فتاة شابة طويلة وناضجة!..

هل يعقل أن تكون كل تلك الأعوام قد مرت فعلًا!!..

نقلت ما تحمله من كتبٍ من ذراعها الأيمن للآخر ثم مدت له يدها مصافحة وهي تقول بسعادة

"كيف حالك؟.."

نظر إلى يدها متراجعًا للحظة دون أن يخرج يديه من جيب بنطاله، لكنه أمام كفها الممتدة اضطر للتنازل وأخرج

كفه ليصافحها ببطء فشدت على كفه الخشن هاتفة بحيوية

"مر وقت طويل، بالكاد استطعت التعرف عليك!.."

رفع حاجبيه وهو يهز رأسه قائلًا

"أنا من ينبغي علي قول هذا، فآخر مرة رأيتك فيها كنتِ طفلة.."

تأوهت مبتسمة ممازحة

"لم أكن طفلة إلى هذا الحد!.. كنت في العاشرة.."

رفع حاجبيه أكثر وهو يمط شفتيه ثم سألها ببطء

"وكم عمرك الآن؟!.."

ردت بثقة "أنا في الحادية والعشرين الآن، لقد تخرجت هذا العام من كلية الآداب"

رد عليها متفاجئاَ "تخرجتِ!.. لقد مر وقت طويل فعلًا، اذن لم تدخلي كلية هندسة كما تمنيت!.."

ضحكت تجيبه متشدقة

"يا الهي! بالطبع لا.. كنت فاشلة في كل ما يتعلق بالرياضيات، ما كنت أقول هذا إلا لأنك كنت خريج كلية هندسة.."

حاول الإبتسام مجاملة، لكن عيناه فقدتا الرغبة في استعادة المودة والمرح..

لكن هناك من جاء يلحق بها بخطواتٍ مهرولة ليقف ناظرًا إليهما بنظراتٍ متجهمة، مجفلة وغاضبة..

نظر معاذ إلى القادم بخطواتٍ سريعة، وهذه المرة استطاع التعرف على الرجل الذي احتفظ بنفس هيئته وملامحه إلا من بعض الشيب فحسب، وبنظرة واحدة استطاع قراءة فزع هذا الأب وغضبه البالغ فبادره يقول بصوتٍ خافت مقتضب كتحية واهية

"سيد سليمان، كيف حالك؟.. سررت بلقائك من جديد.."

لكن ملامح الرجل لم تلن ولم ترسم أي مودة أو ترحيب، بل ازدادت عداوة وتجهم وانطلقت قبضتاه لتمسكان بكتفي ابنته لدى وصول المصعد في تلك اللحظة، وقال بصوتٍ فظ خشن

"هيا يا سارة ادخلي.."

تلون وجهها حرجًا وهي تقاوم دفعه لها وتهمس بغيظ وخجل

"أبي.. ما الذي تفعله؟!، لقد ألقى عليك التحية.."

لكن والدها جرها للمصعد قائلًا بصرامة أكبر وصوت أعلى

"قلت ادخلي.."

و ما أن دخلا وواجها معاذ واقفًا مكانه ينظر إليهما بصمتٍ ساخر.. حتى قال سليمان بقسوة

"المصعد لا يتسع لثلاثتنا.."

و لم يكن معاذ قد تحرك أو كانت لديه النهية أصلًا في الدخول.. فاكتفى بإلتواء ساخر ظهر على شفتيه حتى أغلق المصعد أبوابه فاصلًا بين وجه الرجل الغاضب المتحفز.. ووجه معاذ الهادىء الساخر..

بينما كانت سارة تنظر ليه آسفة وهي تهمس الكلمة بشفتيها دون صوت كي يتمكن من قرائتها..

*****

"كيف أبليت اليوم يا معاذ؟.."

توقف مكانه ناظرًا للسقف للحظة، وهو يسمع السؤال المضحك من خلفه، خاصة مع النبرة الصارمة التي رافقته والتي لا تتائم مع هزلية الوضع.. لكنه ضبط أعصابه وأجاب بهدوء متحركًا تجاه غرفته

"أسوأ من أسوأ لحظات الفشل التي يمكن أن تكون قد قابلتها أو ستقابلها في حياتك.. عمت مساءً "

و تحرك آملًا أن ينتهي الكلام عند هذا الحد، لكن صوت والده قصف من خلفه بقوة هادرًا

"انتظر عندك يا ولد.."

توقف معاذ مكانه بملامح غريبة قاتمة، ثم استدار إلى والده ببطء شديد حتى تلاقت أعينهما لفترة..

كانت عيناهما متشابهتان كثيرًا.. نفس الصلابة والقوة.. لكن عينا معاذ أكثر قتامة وغضبًا رغم الغضب البادي على والده.. لكن غضب معاذ أعمق وأقسى..

لكنه حين تكلم قال بصوتٍ عادي غير مرتفع

"لديكِ مشكلة في تقدير الزمن الذي مضى يا أبي.. لازلت تنعتني بالولد ولا تبصر بداية غزو الشعر الأبيض للحيتي.."

لم يرد والده عليه للحظة ثم سأله بصوتٍ جاد

"هل تتخيل أنني لم أعرف كيف يمكن لحياتك أن تكون قاسية الأيام التي ستلي خروجك؟!.."

ضحك معاذ وهو يهز رأسه قليلًا دون مرح.. ثم وضع يداه في خصره ناظرًا إلى والده قائلًا

"صعبة!!.. مجرد اختيارك لهذه الكلمة يخبرني بوضوح أنه لا فكرة لديك بالفعل.."

أشار بإصبعه بعيدًا وهو يتابع من بين أسنانه

"حياتي في السجن ونجاتي آخر كل نهارٍ يمكن وصفها بالصعبة.. أما حياتي الآن فهي مهزلة.. مهزلة بالمعنى الحرفي للكلمة.. وأنت لا تود الإعتراف بهذا، تحيا عالمك المثالي السحري الذي سيحل فيه كل شيء بين يومٍ وليلة بقوىً خارقة للطبيعة البشرية.."

لم تهتز ملامح والده وهو يحدق في ابنه بإصرار على

الرغم من اهتزاز وتيرة أنفاسه قليلًا، لكن معاذ اقترب منه وهمس من بين أسنانه مشددًا على كل كلمة

"أفق يا أبي، ابنك خرج للتو بعد انقضاء عقوبة جريمة قتل.. وعلى الرغم من أنه أدى واجبه للمجتمع إلا أن للناس محاكمة أخرى قضوا فيها بأنهم لا يستطيعون تقبله بينهم.. وعليك أن تقبل بهذا الحكم، فلا طعن فيه ولا استئناف.."

مد والده كفه ليشد بها على كتف ابنه وهو يخفض وجهه وكأنه عاجز عن الكلام وكانت هذه لمحة نادرة في حياه هذا الوالد، فلم يعجز لسانه يومًا عن الكلام.. حتى في أحلك المواقف كان مفوهًا قادرًا على قيادة المئات بقوة الكلمة..

و الآن وهو يقف صامتًا.. ليس صامتًا فحسب، بل غير مخفضًا عينيه كذلك!..

أدرك معاذ أنه قد أصاب.. أنه كان محقًا في وصف حريته بالمهزلة!..

بداخله شعر بالخوف من هذا الإكتشاف!.. لأن معارضة

والده القوية المسيطرة ومواجهة عينيه الصارمتين كانتا دائمًا ترشدانه إلى الصواب..

والآن.. كان الصواب مغايرًا، كان الصواب هو ما فرضته عليه قوانين البشر، لا قوانين العدل والكتب..

هذا قانون وذاك قانون آخر.. وعلى ما يبدو أن والده قد بدأ يقر أخيرًا بالفرق بين المحكمتين!..

رفع معاذ يده يربت بها على كف والده الممسكة بكتفه ثم تكلم بصوتٍ هادىء خفيض

"أعرف أنك لا تملك إلا معاشك، وأنني ربما أكون عبئًا عليك الآن لكن لا تقلق فسوف.."

قاطعه والده قائلًا بنبرة متسلطة رغم أنه لم يرفع صوته

"اخرس.."

نظر معاذ إلى عيني والده الحازمتين الغاضبتين، بينما تابع

"الحال ميسور اذن!.. أتعلم أنني كنت على استعداد للقبول بوظيفة عامل تخزين أو " كاشير " فقط إن كان هذا سيرضيك!.. لكنهم لم يقبلوا.."

انحنت شفتا والده في ابتسامة جافة مختصرة.. وأجاب بصوتٍ أجش خافت

"ما كنت لأتركك.. أو ربما كنت لأفعل، حتى تتعافى على الأقل.."

اشار إليه معاذ بإصبعه ضاحكًا بسخرية، ثم قال بهدوء

"أنت آتِ من زمن آخر يا أبا معاذ.. حقا.."

*****

دخلت دلال إلى شقةٍ صغيرة ضيقة تبدو كالجحر.. مقلبة شفتيها بقرفٍ وعدم تصديق، متشبثة بذراع ابنها وكأنها تحتمي به، بينما كانت في الحقيقة تؤلمه بأظافرها، وتحمل الألم لأنه يشعر في هذه اللحظة كم هي

مهانة وغاضبة وخائفة..

لحقت بها أختها تنظر بحسرة إلى المكان الصغير.. ربما ليس سيئًا إلى هذا الحد، لكنه لا يقارن بشقتها الكبيرة حين كانت متزوجة من صالح..

فوضعت كف على كف وهي تسأل بقنوط رغم معرفتها بالجواب سلفًا

"ما رأيك يا دلال؟.."

و كأن السؤال كان كعود ثقاب أشعل نيرانها فانتفضت مستديرة إلى أختها هاتفة بغضب

"ما رأيي؟!.. ولكِ الجرأة على سؤالي؟!.. ألا ترين بعينيكِ هذا الجحر الذي سأعيش فيه! صالح يريد اذلالي.."

برقت عينا أختها وبدت غير قادرة على الصمت أكثر من هذا فهتفت بأختها غاضبة تشتعل غيظًا

"بل أنتِ من لكِ الجرأة على النطق يا دلال؟!.. الرجل عرض تأجير شقةٍ تمكثين فيها حفاظًا على ابنه فقط، لا لشيء آخر.. بينما أي رجل مكانه ما كان إلا ليجعلك تمرغين وجهك بالتراب ذلًا عقابًا لكِ.."

صرخت دلال بذهولٍ غاضب

"ما هذا الذي تقولين؟!.. كيف لكِ أن.."

مدت أختها يدها بقوة تنشب أظافرها في لحم ذراعها تقاطعها همسًا من بين أسنانها

"أقول لكِ ما تحتاجين سماعه، هل ظننتِ أننا لم نسمع بالصدفة مرة أو مرتين أحدى مكالماتك الهامسة المزرية وأنتِ تتوسلين شخصًا وعدك ثم نبذ وعده دون اهتمام!!.. أنا لا أريد الكلام أمام ابنك أكثر.."

ابتلعت دلال ريقها وحاولت الكلام بينما تابعت أختها تقول بغضبٍ أشد

"وصالح يعرف.. فما أن لمح له زوجي بمحاولة الصلح حتى قالها صراحة، دلال محرمة علي إلى يوم الدين وحفاظًا على كونها أم ابني فلن أتكلم في التفاصيل..أنتِ شديدة الغباء يا دلال فإصرارك المفاجىء على الطلاق كان مريبًا لن يقبل به عقل رجل خاصة أن الشك كان قد بدأ داخله منذ فترة قبل الطلاق"

فغرت فمها تهز رأسها قليلًا بضياع ونظرت إلى ابنها المراقب لهما.. ثم همست بضياع محاولة ألا يصل صوتها إليه

"لم أخنه أبدًا.."

زادت أختها من نشب أظافرها في لحمها أكثر حتى تأوهت دلال بصوتٍ عالٍ بينما تكلمت الأخت همسًا بكرهٍ واضح

"طلبك الطلاق بعد وعدٍ من آخر أن يتزوجك فور حصولك عليه، ألا تسميه خيانة!.. أحيانًا أتسائل أهو نفس الرحم احتواكِ بعد أن احتواني؟!.. أي أخلاقٍ قذرة تلك!.."

هتفت دلال همسًا وعينيها على ابنها

"اخفضي صوتك.. لا أريد للولد أن يسمع.."

دفعت أختها ذراعها بإزدراءٍ هامسة

"هذا الولد لم يعد في الخامسة.. إنه صبي في الثانية عشر ويفهم أبعد مما تتخيلين، لكنه حتى هذه اللحظة يختار حمايتك والدفاع عنكِ بإستماتة حتى وإن كان في قرارة نفسه يعلم أنكِ مذنبة.. إن تشوهت نفسيته وحياته يومًا فلن يكون السبب شيء سواكِ.."

*****

"هل انتهيتِ من ارتداء الفستان؟.."

أجابت وهي تحارب كي تغلق السحاب لاهثة

"نعم انتهيت.. هل أتت؟.."

نظرت شقيقتها التوأم من النافذة تدقق النظر مجيبة

"لا ليس بعد.."

ثم التفتت تنظر إلى أختها وهتفت مبتسمة بعينين شيطانتين

"طبق الأصل.. لكن أظن شعرنا مختلف.."

ردت شقيقتها وهي تندفع إليها قائلة بصوتٍ يلهث بشقاوة مرحة

"انتظري.. أعرف أجعله أشبه بشعري تمامًا.."

بدأت في تسوية جانبي شعرها ترفعهما لأعلى وتثبت كل جانبٍ بدبوس.. ثم تراجعت تنظر إليها بتقييم وقالت بإستحسان

"الآن أصبح كشعري بالضبط.."

ردت شقيقتها بقنوط محبطة

"لكن أظن أن وجهينا مختلفان.. وكذلك جسد كلًا منا مختلف، أنت أطول وأسمن.."

ابتعدت شقيقتها عنها عاقدة حاجبيها وهي تهتف بغيظٍ وغضب

"أنا لست أسمن منكِ، أنتِ التي أصبحتِ هزيلة أكثر مما ينبغي واختلفت ملامحك بسبب الدواء والمرض.."

انخفض وجه شقيقتها وهي تزم شفتيها عاجزة عن الرد مما جعلها تقترب منها وتربت على وجنتها قائلة

"لا تغضبي.. أنتِ بدأتِ، لا أحب أن يعلق أحد على وزني الزائد عن وزنك.."

بقت أختها متبرمة دون رد وهي تنظر من النافذة، ثم لم تلبث أن هتفت فجأة

"لقد أتت.. ها هي أول الطريق.."

سارعت الأخت الأخرى تخرج من باب الغرفة جريًا ثم فتحت باب الشقة ونزلت بسرعة فوق السلالم الأسمنتية شديدة الضيق عالية الدرجات حتى وقفت في باب البناية المتواضعة الفقيرة تنظر إلى أول الطريق

و رأت امرأة تحمل سلة بيضٍ فوق رأسها، تمر من هنا منذ خمسة أيام متتالية في نفس الموعد،تبدو عليها علامات الملل والغضب والتعب من شقاء الحياة ومتاعب اليوم.. تكلم نفسها وتشتم أحيانًا

و ما أن اقتربت منها حتى نادتها الفتاة الصغيرة بسرعة

"يا خالة.. يا خالة.."

توقفت المرأة تنظر إلى من يناديها.. حتى وجدت فتاة صغيرة جميلة للغاية، شعرها طويل وترفع جانبيه بينما الباقي انسدل على ظهرها.. ترتدي ثوبًا منقوشًا بالورود زادها لطفًا وبهجة..

فاقتربت منها المرأة أكثر وسألتها بتوجس

"ماذا تريدين يا فتاة؟.."

ردت عليها الفتاة قائلة بنبرة حزن وخوف

"ساعديني يا خالة، أحاول دخول بيتي لكن بعد أن خرجت لا أستطيع الآن دخوله.."

زفرت المرأة بملل ونفاذ صبر وهي تنظر حولها سائلة

"هل أغلق الهواء الباب؟!.. الا مفتاح معكِ؟.."

ارتفع حاجبا الفتاة وهي تقول ببراءة

"لكنني لم أخرج من الباب.. بل وقعت من النافذة!.."

صرخت المرأة بفزع وهي تتفحص الفتاة هاتفة

"أي نافذة؟!.."

أشارت الفتاة لأعلى وهي تقول بخوف

"فوق، ولقد مُت.."

تلجمت المرأة عاقدة حاجبيها بشدة من الكلمة المفاجئة، لكنها تلقائيًا رفعت وجهها إلى حيث تشير الفتاة بإصبعها.. فوجدت نسخة منها جالسة على حافة إطار النافذة وتدلي ساقيها للخارج وتبدو على ملامحها علامات الخوف وهي تهتف بصوتٍ ممتدٍ كالصدى

" ساعديني يا خالة.. "

انتفضت المرأة وأعادت وجهها إلى باب البناية لكن الأخرى كانت قد اختفت!!،

و للوهلة الأولى شل الرعب تفكير المرأة وسقطت سلة البيض من فوق رأسها أرضًا ليتكسر كاملًا وهي تصرخ هلعًا.. وإن كانت قد نظرت في مدخل السلم المظلم الضيق لوجدتها مختبئة وهي تكتم ضحكها العالي.. لكن مع النظر لأعلى رأت الفتاة الجالسة على إطار النافذة تضحك بقوة حتى دمعت عيناها..

حينها فقط تأكد لها أنها كانت حيلة ما.. ولم تهدأ حتى توصلت إلى أم هاتين الشيطانتين..

صرخت بألم شديد وهي تتلقى ضرباتِ عصًا رفيعة حادة كلسان لهب تنزل عليها دون تمييز وأمها تصرخ فيها بجنون

"كم مرةٍ منعتكما من إفزاع الأغراب!.. لقد تسببتما في تحملي تكلفة ثمن سلة كاملة من البيض!.."

بكت بشدة وهي تهتف

"تربيت والله يا أمي، لن نعيدها.. أرجوكِ توقفي.."

لكن أمها لم تتوقف وتابعت ضربها صارخة بفعلٍ شقاءٍ أشبه بشقاءِ بائعة البيض.. يجعلها عصبية مجهدة أقرب إلى الجنون.. فهتفت بهستيريا

"بماذا سيفيدني ندمك الآن؟!.. من سيرد لي ثمن سلة البيض؟ هل تعرفين كم ساعة عملت لقاء ثمنها؟! كنت لأنام هذه الساعات على الأقل.."

بكت الفتاة بشدة وهي تقفز من قدم لأخرى رافعة ذراعيها كي تتقي الضربات ثم صرخت بشدة

"وهي أيضًا كانت مشتركة معي فلماذا لا تضربيها هي أيضًا؟!!!.."

اتسعت عينا الأم ذاهلة، ثم صرخت بعنف وهي تضربها مرة أخرى على ساقها

"هل تملكين الجرأة والوقاحة كي تحققين معي؟!!.. هل جننتِ؟!.."

فتح إبراهيم الباب في هذه اللحظة وكان قد سمع صوت صراخهما قبل حتى أن يدخل البناية وما أن أغلق الباب خلفه حتى اندفع إلى جميلة وحاول إبعادها عن ابنته بينما كانت الأخرى واقفة خلف باب غرفتها واضعة كفيها على أذنيها تبكي بشدة..

صرخ إبراهيم وهو يمسك بمعصمي جميلة يرفعهما لأعلى

فهربت الفتاة من براثنها تدخل غرفتها وتقف بجوار شقيقتها خلف الباب تبكي بشدة مثلها.. لكنها كانت تنظر إليها بكرهٍ وغضب..

أما إبراهيم فدفع معصمي جميلة عنه وهو يهتف غاضبًا

"كفى يا جميلة، أنتِ تقسين على الفتاة أكثر مما يجب.."

صرخت فيه جميلة بحسرة

"أنت لا تعرف كم دفعت ثمنًا للبيض!!.."

صرخ فيها بجنون هو الآخر

"محروق البيض كله.. توقفي عن الجنون، لقد أصبح هذا البيت لا يطاق.."

تركها ودخل غرفتما.. فلحقت به وهي تلهث من شدة الغضب، تغلق الباب خلفها هاتفة

"ما هذا الذي تفعله بالضبط؟!.. أهذا هو دورك؟!.. أهذه هي مساندتك لي في تأديبهما؟!.."

التفت إليها هاتفًا

"ما أراه أنكِ تؤدبين فتاة واحدة.. بينما تدللين الأخرى.."

صرخت فيه بقوة

"لأنها تعاني من الضعف والهزال جراء الخضوع لجلسات الغسيل الكلوي، منذ أن بدأنا بها وقد بدأت الفتاة تذوي وتتعرض للإغماء والدوار، لا أستطيع أن أضربها!!.."

هدر فيها هاتفًا

"اذن لا تضربي الأخرى ببساطة.."

رفعت حاجبيها وهي تهتف بذهول

"ببساطة!!.. ببساطة تقول؟!.. إنهما تمثلان أن إحداهما

ماتت!!!.. اللعينتان تمثلان أن إحداهما ماتت!! وتكلمني عن البساطة؟!!."

التفت إليها هاتفًا

"إنهما في العاشرة!.. جميعنا قمنا بأفعالٍ خاطئة في صغرنا.."

صرخت فيه

"وجميعنا ضُرِبنا.. لا تجعلني أبدو بمظهر الشريرة المتوحشة.."

اقترب منها يتنفس بصعوبة ثم قال بغضب

"إنهما اثنتين، إن لم تتمكني من معاقبة إحداهما فلا تفعلي مع الأخرى.. إنكِ تفرغين فيها تعب اليوم دون ذنب.."

لوحت بكفيها وهي تهز رأسها يأسًا ثم همست مكلمة نفسها

"أنا وحدي.. أنا وحدي تمامًا في مواجهة كل هذا، بينما أنت لا تستوعب ما نمر به كي نجمع ثمن جلسة واحدة.. تخرج بعدها البنت أكثر مرضًا عما دخلت.. والآن تعاقبني على ضرب السليمة لأنها مثلت أن أختها ماتت!!.. إما أنك لا تستوعب أو أنك لا تبالي!.."

وقف مكانه ينظر إليها بيأسٍ مماثل، ثم قال بشدة

"لستِ وحدك من تتألم.. لستِ الوحيدة التي تشقى وتعمل.. لستِ وحدك من باعت ماء وجهها في التسول للغريب قبل القريب.. لستِ وحدك من لديها طفلة مريضة وتعجز عن تسديد ثمن جلسات علاجها..لست وحدك يا جميلة، لكنك اخترتِ أن تعاقبينا جميعًا على ذنبٍ لم نقترفه.."

رفعت كفيها وكأنها تناجي، ثم أسقطتهما وهي تهز رأسها مجددًا فاقترب منها إبراهيم وأمسك بكتفيها قائلًا بصوتٍ جاد

"أدركت شيئًا بعد كل هذه السنوات.. أننا نحارب في قضية لا نملك فيها شيئًا، إننا نحارب أنفسنا.. ربما علينا فقط أن

نسلم للقضاء راضين، مهما بلغ ألمنا.."

كانت تنظر إليه ذاهلة، ثم همست بذهول

"ماذا تقصد؟!.."

أجابها مجهدًا بصوتٍ بطيء

"أحيانا أفكر لماذا رزقنا بتوأم؟!.. نفس الشكل تمامًا، احمدي ربك لأنه ساعة تسليم الأمانة، على الأقل ستكون لديك نفس الفتاة.. غيرك ممن يقف في طابور جلسات الغسيل لا يحظى بهذه النعمة.."

فغرت فمها ذاهلة، غير مصدقة لما تسمع..

و في الخارج، خلف باب غرفتهما المغلق كانت تقف الفتاتان ترهفان السمع.. وبينما شحب وجه الفتاة المريضة بشدة، شعرت بكفٍ تمتد لتمسك بكفها الصغير برفقٍ وقوة.. مما جعلها تنظر إلى شقيقتها التي كانت تبادلها النظر بثقة ثم همست

"لا تخافي.."

*****

لم يكن صالح هو ذاك النوع من الآباء القادر على إظهار مشاعره بطريقة عاطفية منمقة.. الحب بالنسبة له كان عبارة عن مجموعة من المثل والقوانين..

لم يُجِد العناق لولديه لكنه كان مهتمًا بزرع قناعاته داخل قلبي هاذين الصبيين.. أو على الأقل واحد منهما وهو الذي بقى معه..

لم يقص حكاية قبل النوم، بل كان يملي أسس الأخلاق والإنضباط..

لم يحتاج لإستخدام الضرب مطلقًا، لأن الصواب كان سينفذ في كل الأحوال.. لا سبيل لأي طرقٍ فرعية ولا وجود للون الرمادي في حياته..

خير مثالٍ يوم من الأيام.. وأثناء تحضيره لطعام الغذاء

بمساعدة ابنه

هو يضع الوعاء الساخن بحرص، وابنه يرص الأطباق فوق الطاولة سمعا صوت جرس الباب، فرفع صالح رأسه عاقدًا حاجبيه سائلًا

"من سيأتي في ساعة غذاء؟!.."

و دون انتظار الرد من ابنه اتجه لفتح الباب وجد أمامه رجلًا من عمره تقريبًا أو أقل قليلًا تبدو عليه علامات الحرج وهو يبتسم قائلًا

"الدكتور صالح عبد العظيم.. أليس كذلك؟.."

أجابه صالح هادئًا وإنما برسمية اعتادها

"نعم، ومن تكون حضرتك؟.."

أجابه الرجل وهو يلمح ابن صالح الواقف ينظر إليهما من الداخل ببعض الإرتباك

"أنا محيي أبو الفضل، والد أحد زملاء ابنك في فريق السباحة، انه يعرفني بالمناسبة.."

و أشار بكفه إلى ابن صالح بكفه.. فإلتفت إليه صالح تلقائيًا ومن نظرة واحدة أدرك أن ملامح ابنه يشوبها الإضطراب.. فأعاد انتباهه إلى الرجل وابتعد عن الباب داعيًا بتهذيب

"تفضل اذن.."

دخل الرجل خطوتين، ثم توقف قائلًا

"أنا لست في حاجة للجلوس أو أخذ الكثير من وقتك، أتيتك طمعًا في مساعدتك وقد سمعت عنك أنك لا تحيد عن الحق أبدًا وهذا ما ربيت عليه أبنائك.."

انتظر صالح سامحًا للرجل بالمتابعة، وبالفعل قال بصوتٍ متشنج يرتعش

"ابني تعرض منذ يومين لإصابة بالغة بعد أن اجتمع عدد من أولاد النادي وقاموا بضربه خارج السور الخلفي.. وأمام

عددهم وكونه وحيدًا لم يستطع الدفاع عن نفسه، والآن هو يعاني عدة كسور بالغة.."

عقد صالح حاجبيه وهو يقول بصوت أجش

"أنا آسف لسماع هذا، وكيف بإمكاني مساعدتك.."

أخذ الرجل نفسًا طويلًا ثم قال ناظرًا إلى ابن صالح

"لقد تركه الأولاد وفروا هاربين.. لم يرهم أحد سوى زميل واحد لهم ولابنك وقد أخبرني أن ابنك قد شاهد معه ما حدث، لكنهم هربوا قبل أن يتمكنا من التصرف وخلال دقائق تم تجمع الناس واستدعاء عربة الإسعاف.. الآن وبعد أن استقرت حالة ابني نوعًا ما، حاولت سؤال ابنك عما حدث.."

صمت قليلًا، ثم فتح كفيه متابعًا بصوتٍ عاجز

"لكنه أنكرا.."

ساد صمت قصير متوتر بينهما والتفت صالح مجددًا يلقي

نظرة إلى ابنه والذي أخفض وجهه بينما تابع الرجل بصوتٍ أكثر رجاءً

"أنا متفهم مخاوفه لكنك والد وتستطيع تقدير شعور أب تم التجني على ابنه وهو يقف عاجز عن استرداد حقه.. كل ما أطلبه فقط هو شهادة حق.."

نظر صالح للرجل لفترة ثم قال بصوتٍ هادىء

"أحتاج للكلام مع ابني أولًا لأفهم منه الموضوع كما يراه.. وبعدها سأتواصل معك.."

أومأ الرجل برأسه بسرعة وهو يخرج من جيبه دفترًا وقلمًا حيث دون رقمه قائلًا

"هذا رقمي الخاص، يمكنك الإتصال بي في أي ساعة.."

أخذ صالح الورقة منه بينما قال الرجل بخفوت

"أعتذر أنني لم أتصل قبلًا، كل ما أردته هو الكلام معك

شخصيًا لا في الهاتف كي ترى ملامحي وأنا أطلب منك طلبي.. حينها ستعرف شعوري كأب.."

بعد انصراف الرجل وبعد أن أغلق صالح الباب.. كان ابنه ممسكًا بالمعالق يحركها بقلقٍ، يولي والده ظهره، مخفضًا وجهه وهو يختلس النظر بعينين جانبيتين منتظرًا..

ثم تكلم صالح أخيرًا بهدوء مخيف في حزمه

"اترك ما بيدك الآن وتعال.. أريد الكلام معك.."

لحق الولد بأبيه وجلس بجواره مخفضًا وجهه بينما صالح يدقق النظر به بصمتٍ موتر حتى قال أخيرًا بنفس الهدوء

"نظرة واحدة لك تخبرني أن الرجل يقول الحقيقة وأنك أنكرت كذبًا.."

ارتفع وجه الولد بسرعة وفتح فمه ينوي الكلام، إلا أن صالح قاطعه قائلًا بنبرة باترة

"لن تستطيع الكذب فأنت لا تجيده، اذن لا تحاول.. لا تكن كاذبًا وغبيًا.."

أخفض وجهه مجددًا وبقى صامتًا فتابع والده آمرًا

"لماذا أنكرت رؤيتك لما حدث؟.."

رد الصبي بخفوت دون أن يرفع عينيه

"علاء سيكون بخير، لقد ذهبنا للمشفى وتأكدنا بأنه.. سيكون بخير.."

ارتفع صوت صالح بنبرة أكثر صلابة

"لم يكن هذا سؤالي.. لماذا أنكرت ما رأيته؟.."

أجابه الولد أخيرًا بخفوت شديد

"من نفذ وخطط ابن مدرب الفريق.."

ارتفع حاجبا صالح للحظة إلا أنه حافظ على هدوءه وهو يسأل

"ولما تخافه؟.."

رفع ابنه وجهه وقال بسرعة

"لا أخافه.. لا أخاف أحدًا.."

انتظر صالح غير متنازلًا عن الحصول على جوابٍ صادق، فتابع الصبي أخيرًا بخفوت

"لا أحتاج لمشاكل في الفترة الحالية خاصة مع اقتراب البطولة.. طالما سيكون علاء.. بخير.."

ساد صمت طويل بينهما وصالح هادىء تمامًا، لم ينفعل ولم يغضب.. ثابت في مكانه لكن النظرة في عينيه أعادت وجه ابنه أرضًا.. وبالفعل ترجم هذه النظرة قائلًا

"لقد خاب ظني بك.. أتعلم ماذا فعلت؟.. لقد كتمت شهادة

حق!.."

لم يرد ابنه للحظات بينما توترت أصابعه حول بعضها ثم قال بقنوط هامسًا

"تعبت واجتهدت لأجل البطولة، والمدرب يستطيع افساد كل شيء إن أراد.."

مال صالح للأمام قائلًا بصوتٍ مهيب

"ما أراه أنه لم ينجح إلا في إفساد شيء كنت أغرسه فيك لسنوات.. ما الفائدة إن كنت بطلًا في السباحة، جبانًا في قول الحق؟!.. الرياضة دون أخلاق كخشب ضخم داخله وباء جعله مجوفًا هشًا.."

نظر الصبي لصالح لفترة دون كلام.. لكن ملامح وجهه كانت متراجعة متخاذلة فتابع والده يقول

"لو لم تكن خجلًا من نفسك لما أخفيت الأمر عني.."

البلاد رحالًا زمان بعد زمان، ستظل حنيفة هي مقصدي.. غايتي.. أصلي وعنواني.. "

أمسكت بالرسالة الصفراء القديمة وأصابعها تتلمسها برفق وتتلمس أطرافها المطوية والتي بدأت تتآكل..

مكتوبة بخط الرقعة وبقلم الريشة! وكأنه يسافر برسالته لماضٍ بعيد، يهرب بمحبوبته بعيدًا عن هذا العالم العبثي من حولهما..

برقت عينا عالية واتسعت حدقتاها وكأنهما طاقتين متوهجتين من انبهارٍ هادىء ساكن هاتين العينين..

شفتاها مبتسمتان ابتسامة متعة لم تعرف مثلها إلا مع قراءة تلك الرسائل..

متعة ربما فاقت متعة قراءة قصص المحبين في الكتب..ربما لأنها عاصرت بطلها! وأبصرت عيناها المحبوبة..

"مر فوق الشهرين، أربعة عشر يومًا!.."

نغمة نشاز مشوهة اقتحمت هذا اللحن البديع الذي كانت تعيش فيه الآن.. ولم تكن هذه النغمة النشاز سوى صوت ليلة من خلفها..

أغمضت عالية عينيها للحظة تحاول التخلص من السحر القديم الذي سيطر عليها ككل مرة.. فطوت الرسالة وأدخلتها بحرصٍ في مظروف قديم خط أعلاه جانبا اسم صاحب الرسالة مذهبًا..

و بنفس الدقة والحرص وضعت الرسالة داخل صندوق خشب ضخم ومحفور باليد بصناعة فنية رائعة، وأرجعته مكانه على أحدِ أررفِ المكتبة الضخمة، كانت تتعامل معه وكأنها تتعامل مع كنز حقيقي يجب فحصه بين الحين والآخر وصيانة أي تلفٍ قد يصيبه..

ثم استدارت ببطء لتواجه ليلة التي بدت غاضبة جدًا بملامح شديدة التحفز!..

ها قد بدأت حالة عنفٍ عاطفي تنبثق من العدم ودون سبب حالي مستحدث.. فأخذت نفسًا عميقًا ثم أجابت بخفوت

دون أن تتظاهر بعدم فهم هذا التنبيه المختصر

"أعرف.. ونحن نبحث بجهد.."

ردت ليلة بنبرة شديدة التحفز وعيناها تبرقان بطريقة مخيفة

"إلى متى؟!.. أخبرتك أنني غير مستعدة للبقاء يومًا واحدًا إضافيًا.."

رمشت عالية بعينيها وهي تنظر جانبًا متهربة من عيني ليلة، ثم قالت بألمٍ محتدة

"ما الذي يمكنني فعله ولم أفعل؟!.."

هتفت ليلة بغيظ وعيناها تبرقان أكثر..

"هذا بالضبط ما سبق ونبهتك أنني لا أود سماعه.."

شتان ما بين بريق عينيها ذو الغضب المكتوم المحتد

وبين بريق عيني عالية منذ لحظات وهي تعيد قراءة رسالة العاشق لمحبوبته حنيفة!..

أغمضت عالية عينيها وهي تحك جبهتها بإرتباك ثم لم تلبت أن لوحت بكفيها سائلة بحدة

"أريد فقط أن أعرف ما الذي قلبك ضدي هكذا فجأة؟!.. كنا بخير لفترة طويلة، ما هو ذنبي.. فقط أخبريني عن ذنبي أنا؟.."

ساد الصمت للحظات، بينما ليلة تنظر إليها بنظراتٍ قاتمة عميقة، ثم قالت بخفوت مقتضب

"لم أكن بخيرٍ مطلقًا.."

فتحت عالية كفيها فوق ركبتيها يائسة.. ثم لم تلبث أن سألت بنفس اليأس وهي تعرف الجواب مسبقًا

"هل يمكنني أن أعانقك؟.."

هتفت ليلة بحدة وصرامة قاطعة

"لا أريد سوى أن أخرج من هذا البيت.. أريد حياة.."

لكن وقبل أن تتابع كلامها، سمعتا صوت تهشيم عالٍ في الخارج جعلتهما تشهقان بصدمة في آنٍ واحد

ثم ساد صمت تام..

نظرت كلًا منهما للأخرى بعينين واسعتين.. حتى سألت عالية بخوف

"ما كان هذا الصوت؟!.."

مدت ليلة كفًا صارمة وهي تقول آمرة

"انتظري هنا.. سأذهب لأرى.."

صرخت عالية من خلفها

"لا تذهبي وحدك، انتظري.. ليلة انتظري.."

إلا أن ليلة كانت قد خرجت من باب المكتبة العالي وتركتها بمفردها فتراجعت للخلف حتى النافذة المغطاة بالخشب المزخرف تطل منها علها ترى شيئًا على ضوء المصباح الجانبي الشاحب، إلا أن الظلام في الخارج كان حالكًا ولم تتبين شيئًا..

و مرت فترة قبل أن تعود ليلة قائلة بفتور وهي تضع كفيها في خصرها مفكرة

"زجاجة مشروب فارغة قذفت من الخارج وكسرت زجاج نافذة الشرفة السفلية.."

شهقت عالية هاتفة بحسرة وغضب

"الزجاج الملون القديم؟!.. من فعل هذا؟!.."

نظرت إليها ليلة للحظات دون تعبير وبدت شاردة الذهن، ثم قالت برتابة

"على الأرجح أحد السكارى من المراهقين.. فالمنطقة في الخارج باتت مشبوهة وغير آمنة، عربات الجر الخشبية المكسورة وأكوام القمامة والسيارات الخردة جعلت منها وكرًا للمتعاطين والمخمورين.."

زفرت عالية بضيق حزين وهي تعرف أن ليلة على حق.. ومع شرودها انتظرت بيأسٍ أن تتابع ليلة تهديدها بالرحيل وتتابع هي عجزها في إيجاد الرد المناسب أو التوسل طلبًا لمهلة جديدة..

لكن وللمفاجأة الكبرى سمعتها تقول بإقتضاب

"سأذهب لأنام.. لقد أحكمت غلق كل الأبواب والمداخل، ولمزيد من الحذر أوصدي باب غرفتك عند ذهابك للنوم.."

و لم تنتظر منها ردًا أو تأكيد.. بل غادرت منسحبة من الجدال في الوقت الراهن..

*****

جلس في الكرسي المذهب الضخم واضعًا ساقًا فوق أخرى.. يبدو بجاذبية مظهره العصري وحلته الأنيقة التي تحمل اسمًا شهيرًا أكثر ذوقًا من هذا المكان رغم ضخامة المبلغ المنفق على تأثيثه، لكنه لم يشغل باله بتأمل ما يحيط به، لأنه أتى إلى هنا أكثر من مرة..

و بصراحة بات لا يتفائل حين يتم استدعائه إلى هذا البيت شخصيًا.. لكن عليه التنفيذ مسلمًا طالما أن الموضوع ولا شك سيكون على أكبر قدر من السرية..

زفر بضيق وهو يطالع أحد مستندات قضية من قضاياه.. مريحًا إصبعه على فمه مفكرًا بتركيز، باحثًا عن المخرج، إلى أن شعر بنفسه مراقبًا وأن هناك من ينظر إليه عند مؤخرة عنقه..

التفت بوجهه بسرعة، لكنه وجد طفل لا يتجاوز التاسعة يقف مريحًا يده على ظهر المقعد الجالس عليه، يحدق في الهاتف الذي يحمله..

ضاقت عينا يوسف وهو ينتظر أن يعرف الطفل المتطفل

عن نفسه وسبب وقاحته في التجسس بهذا الشكل..

و حين بدا أن الطفل غير مستعد أو مهتم بالتعريف عن نفسه، استدار له يوسف بظهره بخيلاء وهو يسأل بصوتٍ هادىء

"أي خدمة؟!.."

اضطر الطفل أن يبعد عيناه عن هاتفه وهو ينظر إلى عيني يوسف وحاجبه المرتفع بعدم رضا ثم قال أخيرًا ببساطة

"لا.. يمكنك أن تتابع ما تفعل، كنت فقط أتأمل هاتفك.."

أخفض يوسف الهاتف وهو يقلبه على شاشته ثم أولى الولد انتباهه قائلًا ببرود

"ربما لا أحب لأحد أن يتأمل شيء يخصني دون اذن مني!.."

مط الولد شفتيه وهو يسأل ممتعضًا

“هل سآكله إن تأملته!..”

رد عليه يوسف بإستفزاز مماثل يمد وجهه مغيظًا

“ربما كنت من أكلة الهواتف، ما أدراني!..”

ضاقت عينا الولد وهو يقول مقرًا

“أنت مغرور ككل من يأتي إلى هنا..”

رفع يوسف حاجبيه سائلًا

“حقًا!.. وأنت يا صاحب التواضع الغامر، من تكون؟.. لم يسبق لي أن رأيتك هنا من قبل!..”

أجابه صوت ممازح ساخر من خلفه

“هذا لأنه كان يسكن مع أمه قبل أن ينتقل إلى هنا..”

سارع يوسف بالنهوض احترامًا للرجل الذي نزل السلالم

الداخلية للتو واقترب منهما مبتسمًا.. وعلى الرغم من انه كان يرتدي بنطالًا رياضيًا قصيرًا فوق الركبتين.. إلا أن سيماء العز والسلطة كانت ظاهرة على ملامحه..

ملامح رجل يحصل على كل شيء وقت يريد وقبل حتى أن ينطق.. ولهذا فهو مبتسم لا يحمل للدنيا همًا..

تكلم يوسف بتهذيب محييًا

"سيد جلال.."

أشار إليه الرجل قائلًا وهو يرتمي على أريكة مقابلة في البهو الواسع

"اجلس يا يوسف.."

ثم نظر إلى الولد قائلًا بتأنيبٍ أبوي وممازح لطيف

"ما بالك يا حمزة تضايق ضيوفي!.. هيا اذهب والعب أو اقرأ كما تحب.."

نظر يوسف إلى حمزة الذي كان يرمقه بغير رضا، متمهلًا في انصرافه.. بينما تبرع جلال يعرفه

"هذا حمزة، ابن عبد الواحد الجنائني، كان يسكن مع أمه لكنه أتى في الفترة الأخيرة ليعيش مع والده.."

سأله يوسف بخفوت

"عبد الواحد الذي.."

أومأ جلال قائلًا باقتضاب مشيرًا

"نعم الذي توفي الاسبوع الماضي.. توفي بعد مجيء ابنه بشهر، وقررت أن يبقى حمزة معنا يسكن غرفة والده.."

رد يوسف بهدوء

"هذا كرم بالغ منك يا سيد جلال.."

أجابه جلال قائلًا بتشدق

"كان يعيش مع أمه وزوجها لكن على ما يبدو أن الأمر فاق احتماله كولد في هذا العمر خاصة أن الرجل كان حقيرًا لا يتوقف عن ضربه وتعنيفه وضربها هي أيضًا وفي النهاية طرده بموافقة الأم.."

التفت يوسف لينظر إلى الولد الذي كان يبادله النظر عابسًا.. ربما كان سر عبوسه عدم رغبة في فضح أسراره الخاصة على الملأ ولكل غريبٍ آتٍ للزيارة.. أن يعرف عن أمه وزوجها..

و ربما ترتسم له صورة واضحة في مخيلته عما يمكن أن يكون هذا الولد رأى وسمع وعاش..

مع أمه ورجل غريب.. نعم سيظل رجل غريب هذا الذي ينتهك أمه ولو تزوجها ألف مرةٍ..

أفاق من أفكاره على صوت جلال يقول بعفوية الرفاهية المتباسطة

"المهم يا يوسف.. لندخل في موضوعنا، أو ربما تفضل لو أكلنا شيئا أولًا.. سأبدأ في الشواء بنفسي بعد قليل.."

رد عليه يوسف قائلًا بلطف

"بل أفضل الدخول في صلب الموضوع رجاءً ، في الحقيقة يا سيد جلال بت لا أتفائل حين يتم استدعائي إلى هنا بصفة شخصية.."

ضحك جلال وهو يقول ممازحًا

"يا لك من مشكك يا يوسف الجندي.. هل يجب أن يكون أمرًا شديد السوء إن رغبت أن أكلمك فيه دون قيود المكاتب!.. المكان هنا أفضل بكثير، ألا تشاركني الرأي؟.."

ابتسم يوسف مستجيبًا وهو يقول رافعًا حاجبيه بحركةٍ ذات مغزى

"اعذرني إن كنت لن أطمئن قبل أن أعرف سبب استدعائي.. والأمر أظنه لا يحتاج للكثير من الذكاء، أنه

شيء يخص هاني ابن سيادتك، أليس كذلك؟!.. ماذا فعل هذه المرة؟!.. سيد جلال كنت جادًا حين أخبرتك المرة السابقة بضرورة التخفيف من تصرفاته.. إنه يتصرف بتهور تجعل كل الحيل القانونية المعروفة وغير المعروفة تقف أمامه عاجزة.. إنه في حاجة لساحر.."

ضحك جلال وهو يقول بنبرة عالية جهورية ممازحة

"ولماذا نستدعيك يا يوسف؟!..لقد اخترت الوصف المثالي فما أنت إلا ساحر.. أنت ساحر الأعوام القليلة الماضية..

يوسف الجندي أنت كنز كان لي شرف اكتشافه.."

تنهد يوسف بقنوط وهو يعرف أن تلك المقدمة الفخمة لا تبشر بالخير مطلقًا فقال مستاءً

"إنه ليس مراهقًا يا سيد جلال، إنه رجل أوشك على بلوغ الثلاثين، عليه أن يكون أكثر حكمة.. إخراجه المرة السابقة بعد ضبطه بكمية من المخدر تقارب الإتجار وتحويلها إلى تعاطي ثم حيازة عن جهل لهو أكبر سير على حبل بسمك

شعرة فوق حقل ألغام.. والآن العين عليه مفتوحة وتنتظر منه أي هفوة.."

عقد جلال حاجبيه وهو يقول مبررًا هاتفًا

"إنه مجرد شاب تافه كان منتشيًا هو ومجموعة كبيرة من أصدقائه بسبب حفل فاسدة.. أعترف أنها حماقة لكن لا يمكنك أن تسمح بسجنه مع تجار المخدارت!!!.. أنظر إليه إنه أبله بالكامل! هل يمكن لأبله أن يتاجر في المخدرات!.. وهل هو في حاجة لهذا من الأساس؟!.. إن أمضى حياته الآتية ينفق في ثروة والده لما أنهاها!.."

كان يوسف يستمع بملامح بليدة وهو يستند بوجنته إلى كفه.. وما أن انتهى جلال من المرافعة دفاعًا عن ابنه أوشك أن يجيبه يوسف بقول واحد

" عليه ألا يبيع الماء في حارة السقايين.. "

لكنه وكما اعتاد لم يفصح عن ردوده البديهية بل سأل مباشرة وبإختصار

"ماذا فعل؟.."

سأله جلال بدهشة

"ما الذي جعلك تظن أنني استدعيتك بسبب هاني؟!.. هل قلت أنا هذا؟!.. لماذا أنت دائم الشك به؟!.."

أنزل يوسف يده ببطء واستقام سائلًا بتركيز أكبر

"من اذن؟ سيادتك؟.."

جلال النقلي.. رجل أعمال برز مؤخرًا وارتفع صيته، ثم وبمجهود شخصي يستحق أصبح عضوًا في المجلس ومعه حصانة..

يعترف يوسف أن الحصانة هي العصا السحرية التي تفتح له الأبواب المغلقة.. لكن مهما بلغت قوة رذاذها السحري فهي في حاجة لمهارة الساحر الشخصية.. وهنا يأتي دوره..

نظر جلال في عيني يوسف وأجاب بجدية للمرة الأولى

منذ جلوسهما.

"بل أنت.."

ضاقت عينا يوسف بصمت تام وعرف أن الأمر مهما كان فهو لن يعجبه.. فانتظر دون رد وبالفعل تابع جلال متحرجًا

"سبب استدعائي لك اليوم في البيت يا يوسف أن الأمر شخصي وأنا أردت أن أخفف من وطأة طلبي وأنصحك نصيحة والد لابنه.."

ترى هل ينصح هاني من الأساس؟!.. يشك في هذا

لكنه مرة ثانية لم ينطق بالرد البديهي وانتظر، فقال جلال بهدوء مباشر هذه المرة

"شكري السيد.. رجل ليس بالمهم، لكن لدي مصلحة معه.."

تراجع يوسف وهو يشيح برأسه وقد تلبدت ملامحه كاملة وتحفز جسده بالكامل.. بينما تحول في لحظة واحدة

من محامٍ داهية، يحافظ على الإبتسامة الساخرة والسيطرة على قناع جامد بينما نظرة العين ثاقبة تربك من يواجهه.. إلى رجل متشنج همجي يريد الدخول في عراكِ قاتل عاري الكفين..

ابتسم جلال وهو يراقب التغيرات التي مرت على ملامح يوسف وعضلات جسده.. فقال متابعًا بخبث

"تعرفه حق المعرفة بالطبع.."

رفع يوسف كفًا متشنجًا قائلًا بصرامة

"سيد جلال.. رجاءً .."

لكن جلال قاطعه قائلًا

"شكري غير راضٍ عن.. علاقتك بطليقته، لنقل أنه غير راضٍ كون ولده على وشكِ الإصابه بالجنون جراء هذه العلاقة.. وقد كلمني في الأمر كي أتوسط وأحاول تخليصك من هذا الفخ.."

تكلم يوسف بصوتٍ خفيض خطير

"تخليصي من هذا الفخ!.."

رد جلال بقوة أكبر

"أكبر فخ يمكن أن تنساق إليه بمنتهى الغباء وأنت مغمض العينين، ما بالك يا يوسف؟!.. ماذا تفعل بمستقبلك؟!.. انظر لنفسك وللشهرة التي بدأت في تحقيقها، يمكنك الحصول على أجمل الفتيات وأكثرهن شبابًا وصبا ومركزًا.. كيف لشابٍ مثلك أن يربط نفسه بعلاقةٍ غير طبيعية كهذه؟!.. هي ستأخذ منك الشباب بينما أنت ستشيخ معها روحًا عامًا بعد عام.. وربما تكتشف خطأك بعد عام أواثنين فقط لكن حينها ستكون قد جعلت من نفسك أضحوكة دون سببٍ وجيه.."

نهض يوسف من مكانه قائلًا بصوتٍ غريب

"بعد اذنك يا سيد جلال.. أنا مضطر للإنصراف.."

نهض جلال بدوره وأمسك بذراع يوسف قائلًا بجدية

"انسى أمر شكري، إنه مجرد نكرة.. أنا أقوم له بهذا الحوار من قبيل مجاملة ذات مصلحة، لكن من يهمني هو أنت.. أنت تسير معمي العين والقلب يا يوسف وهذه صفة لا تليق بمستقبلك المبشر.. فكر في ما قلته جيدًا وحكم عقلك.. لأن القلب دائما هو ذاك الطفل المدلل الغبي والذي لا يجلب سوى المتاعب والوحل فوق الرأس.."

خرج يوسف بملامح ملبدة من باب البيت الضخم وهو ينظر حوله محاولًا استعادة هدوءه قدر الإمكان، والسيطرة على آتون اشتعل بداخله ويعجز عن إخماده..

"يبدو أن ما سمعته في الداخل لم يرق لك.. هل تم توبيخك؟.."

أخفض يوسف رأسه على الفور ليجد الولد المسمى حمزة جالسًا على أحد الدرجات رافعًا وجهه إليه وفي عينيه نظرة شماتة خفية..

فزم يوسف شفتيه ثم قال ببرود

"أنت حقًا طفل سمج!!.."

لم يجفل الولد وهو يجيبه ببرود مماثل

"عجبًا، هناك شيء مشترك بيننا اذن!.."

زفر يوسف بصوتٍ عالٍ وهو يخرج نظارته السوداء ويضعها فوق عينيه لينصرف.. بينما نظر الولد إليه مراقبًا ثم نادى بصوتٍ عالٍ

"عسى أن يُكسر هاتفك إن شاء الله.."

توقف يوسف مكانه بملامح متشنجة، مغمضًا عينيه للحظة.. ثم استدار ليقول بتفاهة طفلٍ في التاسعة

"حتى وإن حدث، يمكنني شراء أفضل منه.. استمتع أنت باللعب بكرة مصنوعة من جواربك القديمة ذات الإصبع المثقوب.."

ثم رفع اصبعيه يحيه بتحية عسكرية قبل أن ينصرف مبتسمًا لهذا النصر الضئيل الذي حققه في مواجهة الوغد الصغير

*****

نيران.. كان يتقلب في فراشه، لا يرى سوى النيران.. وبداخلها عينان واسعتان تنظران إليه باستنجاد وهو يحاول عبور تلك النيران ولحمه يحترق ويتساقط أمام عينيه لكنه لا يعبًا..

كل ما يريده هو اختراق هذه النيران وانقاذ من يحترق فيها.. وما أن وصل حتى أبصر وجهًا مختلف عما تخيل.. وجه رجل بغيض ينظر إليه مبتسمًا ابتسامة كريهة، جعلته ينفر على الفور ليمسك به ويدفعه للنيران مجددًا بكل قوته..

ثم صوت صراخ.. صراخ مدو وعويل مما جعله يقطب جبينه وهو يحرك رأسه منزعجًا من هذا الصراخ المزعج لكن مع عودته البطيئة تدريجيًا لعالم الوعي أدرك أنه لم يكن صراخًا..

بل كانت همهمات منفعلة آتية من خارج غرفته.. وكأنهم مجموعة كبيرة في جدالٍ حاد..

فتح معاذ عينيه مرة واحدة محدقًا بالسقف وهو يلهث.. أخبروه مرة في السجن أنه يستيقظ كالذئب..

مرة واحدة وبطريقة مفزعة، ولم يكن أحدهم قادرًا على سرقة شيء يخصه وهو نائم..

استقام ليجلس محاولًا استعادة أنفاسه للحظات، ثم تقدم من باب غرفته يرهف السمع.. وبالفعل التقط بعض أطراف الحديث الدائر في الخارج، بين والده ومجموعة من البشر..

تكلم أحدهم مخاطبًا والده بصوتٍ أجش

"عليك أن تقدر موقفنا.. نحن لا نشعر بالأمان لأنفسنا ونسائنا وبناتنا بينما يوجد معنا قاتل تحت سقف واحد.."

خرج معتز من غرفته مشتركًا في الحوار قائلًا بسخرية

وهو يمر بعينيه على النخبة المختارة من قبل سكان البناية بعد تشكيل لجنة مهمتها المجيء إلى هنا الليلة ممسكين بالمشاعل ومطالبين بطرده من بيته

"قلت بنفسك يا سيد سليمان " قاتل ".. ولست مغتصبًا.."

تعالت الألفاظ المستنكرة والنظرات الغاضبة والخائفة، بينما تجهم وجه والده، وآثر البقاء صامتًا فوجه سليمان الكلام له منفعلًا

"هل يرضيك ما يقوله ولدك؟!.."

هدر صوت والده يقول بصرامة

"ما لا يرضيني هو أن يتجرأ أحدهم على المجيء إلى بيتي ومطالبتي بطرد ابني منه.."

لم يقف معاذ ليسمع المزيد من الحوار الهزلي فاتجه للباب عازمًا على قضاء أمسيته في الخارج وقبل أن يخرج التفت ناظرًا إلى والده مبتسمًا ابتسامة كانت الأصدق منذ خروجه

رغم ما حملته من مرارة، ثم أغلق الباب خلفه بهدوء.

*****

الفصل الرابع

"يغرق الإنسان حين يسمح لشيء غير ملموس بالسيطرة عليه سلبًا.. شهوة، خرافة، ماضٍ، عجز"

" ما هي إلا معانٍ لهوة سوداء تبتلع صاحبها وتجره للعمق في دوامةٍ لا قرار لها.."

*****

" يحتاج الإنسان لقوة إيمان ووعي كامل ليستوعب توالي الإبتلاءات عليه، لكن للأسف مع غياب الوعي وضعف ايمانه يسقط في بئر الخرافة، ويجد فيها السبب والعلاج وإليها اللجوء "..

*****

تناولت كلًا منهما أذن والدها وهما تهمسان بتحريضٍ متوسل

"أرجوك يا أبي أخبرها أننا لا نخرج أبدًا.. نريد أن الذهاب للمولد كباقي أطفال الحي، لما نحن محتجزات؟!.. ألا يكفي أننا متفوقتان في الدراسة! هل مكافئتنا هي الإحتجاز في البيت!!.."

تنهد إبراهيم بصمتٍ مدركًا أن إقناع جميلة بخروج البنتين لهو أشبه بإقناعها بإقتلاع مقلتيها من محجريهما..

لو كان القرار بيدها لمنعت ذهابهما إلى المدرسة خلال الأعوام الماضية..

جميلة تحولت إلى انسانة غريبة جدًا، فهي على استعداد لتركهما في البيت بمفردهما دون خوف وهما لم تتجاوزا السابعة من عمرهما.. بينما ترتعب من أن تخرجان معًا متزينتان فتراهما أعين الناس وتحرقهما على حدِ قولها!..

و الآن البنتان بلغتا الحادية عشر.. قاربت طفولتهما على النفاذ ولم يتذوقا من مرحها شيئًا..

ضيق الحال حرمهما من الألعاب والرحلات..

و خوف جميلة من الحسد حرمهما من الخروج معًا بزهوٍ ترتديان تلك الفساتين التي كان يقتطع فيها من لحمه ليتمكن من شرائها لهما كل عيد، لكن راحت كلها هباءً .. فكل عام تكبر البنتين على الفستانين دون أن يرتديانهما..

همست ابنته الأخرى في أذنه الثانية بترجي

" أخبرها أننا ينقصنا الكثير ولا نطلب سوى القليل.."

نظر إليها إبراهيم بحسرة نظرة طويلة، خاصة أن من نطقت بهذه العبارة هي من كان المرض رفيقها لسنوات طفولتها كاملة..

جذبت شقيقتها ذراعه تقول بغيظ وخفوت

"أخبرها أن الكبت يولد الإنفجار.."

ابتسم رغمًا عنه ورغم معالم الشقاء على ملامحه..

فأمسكت الأخرى ذراعه تقربه منها وهي تهمس ممازحة

"وإن لم تقبل، استخدم السلاح الأخير والفعال.."

سألها إبراهيم بخفوتٍ مبتسمًا

"وما هو؟.."

ردت عليه بنفس النبرة المشاغبة الممازحة

"قل لها أنني قد لا أعيش للمولد القادم.."

ضحكت أختها تشاركها المزحة بينما شحبت ملامح وجه والدها وأمسك بكتفيها يهزها قائلًا بقوة وغضبٍ مفاجىء

"لا تعيدي هذا الكلام مجددًا، على الأخص أمام أمك وحتى بينك وبين نفسك.. هل فهمتِ؟.."

ارتبكت الفتاة وهي تحدق في عيني والدها للحظات طويلة.. كان فيهما الفزع والألم..

فهمست بخفوت

"ظننتك.."

صمتت لا تجد التعبير المناسب، فسألها عاقدًا حاجبيه بصوتٍ متحشرج

"ظننتني ماذا؟!.."

هزت كتفها وهي تهمس مبتسمة بصوتٍ مرتعش

"لا أعرف.."

و دون أن ينتظر منها شرح أو تفسير ضمها إلى صدره بقوة وهو يغمض عينيه كعينيها.. بينما كانت أختها تنظر إليهما بوجوم مفاجىء..

والدها كان الشخص الوحيد المتبقي لها، وهذا العناق أشعل بداخلها غيرة لم تتخيلها أبدًا..

ابتعد إبراهيم عن ابنته وهو يقول بصوتٍ خشن ناقلًا عينيه بينهما

"اذن تريدان الذهاب للمولد.."

أومأت كلا منهما برأسها بسرعة ولهفة، فتنهد وهو يقول مستسلمًا مسلمًا قدره لله

"أمري إلى الله، سأقول لأمكما.."

و كما توقعت البنتان كانت النتيجة رفضًا وجدالًا ثم شجارًا وصراخًا.. لكن إبراهيم لم ييأس بل استخدم كل حنانه ولطف اقناعه وكأنه يقنع صخرة لا تستجيب.. لكن حتى الصخر يتفتت أحيانًا مع نعومة الماء المنساب بتدفقٍ من حوله..

مرت اللحظات والدقائق الطويلة والبنتان تتحرقان لسماع معجزة الموافقة.. وبالفعل خرج إبراهيم ينظر إليهما بهدوءٍ للحظات ثم ابتسم ابتسامة عريضة قائلًا

"بدلا ملابسكما.."

صرخت كلا منهما وهما تقفزان بسعادة للمرة الأولى منذ فترة طويلة.. بينما كانت جميلة من خلفه تنظر إليهما بقلق وكأنما ندمت على قرارها..

الاثنتان معًا مطمعًا للحسد.. وقبلة للعين الحاقدة والقلب المحترق بسعير النقمة على جمالهما المنسوخ اثنين

وهي تراهما تقفزان بهذا الشكل وعيونهما تلمع وشعرهما يتقافز من حولهما، شعرت بقرصة الخوف في قلبها!.. لكنها وافقت وانتهى الأمر فأغمضت عينيها ببطء..

وقفت كلًا منهما تدفع الأخرى من أمام المرآة الضيقة المتآكلة، تتشاجران على المكان ظاهريًا لكن بداخلهما حماس كبير..

دخلت جميلة تنظر إليهما بقلق تقيم منظرهما ثم قالت آمرة بحدة

"لتجمع كلًا منكما شعرها وتربطه بوشاح.. هيا"

جمدتا مكانها للحظات ثم هتفتا معًا معترضتين، غير مصدقتين.. لكن جميلة تابعت بصرامة أكبر

"واخلعا هاذان الثوبان الجديدان.. ارتديا شيء قديم.."

نظرت كلًا منهما للأخرى بصدمة، وهتفت واحدة بغضب

"هذا كثير.. لماذا تفعلي بنا ما تفعلين!!.."

اندفعت إليها جميلة تنوي قرص ذراعها، لكن الأخرى وقفت حائلًا بينهما وهي تهتف بقوة متوسلة

"لا بأس يا أمي.. سننفذ ما تأمرين به.."

وبينما كانت ملتفتة إلى شقيقتها غمزت بعينها وهي تعض على شفتها كي تصمت حاليًا.. وبالفعل اضطرت للصمت على مضض متجهمة الملامح..

لكن أوامر جميلة لم تقتصر على الوشاح والقديم من الملابس.. بل ثبتت لكلا منهما خرزة زرقاء كبيرة في أعلى الثوب.. وكحلت لهما أعينهما بالكحل الأسود السميك بطريقة بشعة!..

و ما أن انتهت وخرجت حتى وقفت البنتان متلاصقتان أمام المرآة، ثابتتان تمامًا وقد زال التدافع وغاب المرح..

هزت إحداهما رأسها وهي تهمس غير مستوعبة

"لماذا صنعت من كلًا منا مسخًا!!.."

ظلت الأخرى صامتة تمامًا وهي تطالع نفسها بحسرةٍ ثم همست بفتور

"لأنها تريد أن تكون كلًا منا كذلك.."

*****

جلست جميلة بجوار إبراهيم فوق رصيفٍ عالٍ تنتظران

إلى البنتين وهما تتأرجحان في أرجوحةٍ عالية.. وصراخهما المرح يشق الفضاء..

و على الرغم من الإبتسامة المرتسمة على وجهيهما، إلا أن خطوط الحزن كانت أعمق.. ونظرات العينين كانت منهكة غير قادرة على الإصابة بالعدوى من المرح والصخب المحيط.

همس إبراهيم بخفوت

"صحتها جيدة اليوم.. لم تصب بالدوار أو الإعياء.."

رفعت جميلة كفها المفرود مفتوح الأصابع تجاهه، فنظر إليها بدهشة هاتفًا

"ما بالك يا جميلة!!.. أنا لن أحسد ابنتي.."

ردت عليه دون أن تجفل

"ما حسد المال إلا أصحابه.."

أجابها بخشونة وهو يتأمل ابنتيه

"المال ربما، أما البنون فلا.. لن يحسد والد طفلته التي يتمنى لو أعطاها من عمره.."

أخفضت وجهها وهي تحيط جبهتها بكفيها ناظرة في الأرض، فرمقها إبراهيم بتعاطف قبل أن يحيط كتفيها بذراعه وهو يخاطبها بصوتٍ أجش خفيض

"ستكون بخير.. إنها بالفعل بخير.."

قالت بصوتٍ خفيض باهت وفاقد للحياة

"إننا نخدع أنفسنا، ما هذه الجلسات إلا دفعات تدفعها بالقوة والغصب لتحيا بضعة أيامٍ زائدة.. تخرج منها أكثر هزالًا وضعفًا.. تتشنج بين ذراعي ويتصلب جسدها، كل هذا وما النتيجة طالما يخبرنا الطبيب كل مرة أن حالتها لا تتقدم.."

زاد إبراهيم من ضمها إليه صامتًا لفترة، ثم قال بخفوت

"عندي أمل كبير أنها ستكون بخير.. ستكبر ونراها أجمل عروس ونرى أطفالها أيضًا.."

تنهدت جميلة هامسة بصوتٍ مختنق

"أطفالها!.. كل ما أريده هو أن تنجو فقط، وأنت تتكلم عن أطفالها!.."

هزها بلطفٍ وهو يقول مشجعًا

"تفائلي بالله يا جميلة.. ستنجو وسأذكرك.."

ردت عليه بنبرةٍ مكتومةٍ ترتعد

"تكاليف كل جلسة تتدبر بالعدم ونخرج منها لا نملك مليمًا للجلسة التالية.. سائرين بغير هدىً، لا نعلم إن كنا سنتمكن من تدبير التالية أم سنفقد البنت!.."

أجابها بثقة يشد على كتفيها

"وماذا يحدث كل مرة؟!.. نستطيع تدبرها، لأن الله يرزقنا.. لأنه معنا دائمًا.."

رفعت وجهها هامسة بتنهد

"ونعم بالله.."

صمتت قليلًا وهي تنظر أمامها بطريقةٍ غريبة، ثم قالت ببطء شديد

"أين البنتين؟!.."

التفت إبراهيم بسرعةٍ إلى حيث تركتهما عيناه منذ قدائق في الأرجوحة، إلا أنهما لم تكونا هناك.. انتابه القلق لكنه قال

"لا تقلقي، مؤكد ذهبتا إلى لعبة أخرى، ابقي وهنا وأنا سأبحث عنهما.."

لكن جميلة لم تبقى، ولم تهدأ بل قفزت واقفة وهي تنظر يمينًا ويسارًا تنادي عليهما بهلع..

"ستضربنا أمي لهذا.."

ضحكت واحدة منهما وهي تطبق الفستان القديم الذي خلعته ليظهر تحته الآخر الجديد والذي كان يتجاوز ركبتها ببضعة إنشاتٍ فقط.. بينما ردت الأخرى وهي تحرر شعرها وتنفضه

"الأمر يستحق الضرب، لا أظننا سنخرج مجددًا في كل الأحوال لذا لنتزين كباقي البنات.. امسحي عينيك من هذا السواد، هيا.."

مسحت الكحل السائل بالفعل حتى بقت منه بعض الظلال الخفيفة زادت عيناها جمالًا وتركت شعرها تتخلله بأصابعها.. وما أن انتهيتا حتى خرجتا من الزاوية ضاحكتين ممسكتين بأيدي بعضهما وهما تتأملان الألوان الصاخبة والأراجيح الدائرة..

كلما مرتا بأناسٍ انجذبت لهما الأنظار.. كونهما اثنتين فهذا جعل من يراهما يتسائل من الأم المحظوظة التي لديها

اثنتين تحملان هذا الجمال..

صرخت جميلة برعب تنادي على ابنتيها وابراهيم يسأل كل من مر بهما يمليه مواصفاتهما..

العالم يدور من حولها برعب وهي تدور برأسها وحول نفسها لا تعلم إلى أين تذهب وأين ذهبتا..

صرخت مرة أخرى وانطلقت تعدو وتعدو.. تنادي بإسميهما باكية، إلى أن وجدتهما..

كانتا واقفتين عن بعدٍ ومعهما امرأة تتحدث معها وعينيها تكاد أن تخترقهما خرقًا.. يدها تتلمس وجه كل واحدة وجيدها وذراعها ثم تميل فوق شعرها..

تسمرت جميلة مكانها تمامًا كالصنم.. كتمثالٍ ميت فقد الحياة..

وصل إليها إبراهيم مهرولًا وما أن أبصر البنتين حتى زفر براحةٍ قائلًا بصوتٍ مهتزٍ ونفس غير مستقر

"ها هما.. أليست هذه هي الخالة بدرية التي تقف معهما؟.."

لم تجبه جميلة، كانت كالأموات بعينين غائرتين ضائعتين.. وصوت أمها يعود إليها كلحنٍ رتيب

" ليس كل الحسدِ يقتل ".. لكن بعضه ترينه موتًا في عيني حاقدٍ يُشعِل الغل قلبه ولن يخطئه قلبك أبدًا..فإن أبصرتهِ سلمي للقدر.. لا مفر.. لا مفر..

*****

الحياة تغيرت كثيرًا خلال أحد عشر عامًا.. توسعت الشوارع وطالت البنايات وتزاحمت السيارات وكأن عددها بات ضعف عدد راكبيها..

تغير الناس كثيرًا..و هذا ما تأكد منه وهو يقف مدخنًا إحدى سجائره ناظرًا بتأملٍ صامت في إحدى الأحياء القديمة حيث ساقته قدماه دون وجهة معينة.. كل ما أراده هو الإبتعاد عن جيران والده، ربما عن الناس جميعًا.. لكن حتى مع ابتعاده كل هذه المسافة، لم يستطع إلا أن يلاحظ

فيما مضى كانت الفتاة لتخفض رأسها وتتابع سيرها بسرعة وخوف..

أما الآن فهي تستدير بشراسة كي تهجم وتدافع عن نفسها في هذه الأدغال المرعبة، فيعلوا صوتها وتشتم بألفاظٍ شبيهة بألفاظهم..

معركة تبدأ.. ومع المعركة ينتهز القردة الفرصة كي تسرق أيديهم لمسةٍ قذرة هنا وهناك..

حاول التجاهل والبقاء مكانه صامتًا متفرجًا كالصالحين من أهل المنطقة..

فالصالحين حاليًا هم اللذين لا يتدخلون بالشر أو الخير.. لا يرون، لا يسمعون، لا يتكلمون..

يمرون بما يحدث، فيتعمدون خفض رؤوسهم والإسراع في طريقهم متخذين نفس دور بنات الزمن الماضي..

ضاقت عينا معاذ وهو يراقب انقلاب الأدوار في المسرحية

عن أعوامٍ مضى!! كلُ أخذ دور غيره!!

و لأنه لم يكن قد تمكن بعد من تحديث دوره وفقًا لما يتناسب مع العام الحالي، فقد ألقى بسيجارته في الأرض ليدهسها بحذائه ثم تحرك نحو هذه الأدغال ببطىء.. ثم وقف وقال بصوتٍ خشن متثاقل ومرتفع

"أظن أن عليكم الإبتعاد عنها.."

توقفت صيحات القردة فجأة.. والتفتت رؤوسهم لمعرفة من المتجرىء على أمرهم بالتوقف في موسم تزاوجهم غير الشريف.. وبنظرة تقييم وتدقيق، بدأت علامات الشك، القلق.. ثم السخرية من هذا الرجل ذو اللحية الكثة والتي يخالطها بعض الشيب، بفعل ما رأى في حياته وعايشه وليس بفعل العمر حقيقة..

وبادر أحدهم قائلًا بسخرية فجة

"وإن لم نبتعد فماذا سنفعل؟!.."

أجاب معاذ قائلًا بهدوء

"لا أظن أن هذا سيكون في صالحكم.."

تعالت ضحكاتهم الصاخبة الرقيعة أشبه بضحكات النساء ممن كن يستخدمن الردح وسيلة للحروب قديمًا..

أما قال إن الأدوار قد انقلبت!!..

ثم تقدم واحدًا منهم ورفع يده يضرب بظهرها على صدر معاذ عدة مرات وهو يقول بصفاقة

"وأنا أقول لك، أنه في صالحك الإنصراف حالًا يا جدي حتى لا تؤذي ظهرك.."

لم يهتز معاذ ولم تجفل ملامحه أو تتحرك فيها عضلة واحدة.. فقط أخفض نظره لهذه اليد ثم إلى صاحبها وقال آمرًا بهدوء:

"ابعد يدك.."

التفت الرقيع إلى صحبته ضاحكًا متسليًا وهم في تجاوب يناسب قطيع القردة في التصرف دائمًا كانوا يصدرون أصواتًا غريبة عالية.. ساخرة ومشجعة للفحل زميلهم..

ثم نظر إلى معاذ وقال بصوتٍ منفر:

"لما لا أريك ما معنا كي تستوعب الموقف.. أخرج السيف يا عبده.."

وبالفعل أستل المحارب العظيم عبده سيفه من خلف ظره، إلا أنه لم يكن كسيف المحاربين القدامى.. بل كان أشبه بساطور تقطيع اللحم طويلًا وأقل سمكًا.. لوح به عاليًا بفخرٍ مهددًا وهو ينظر إلى معاذ رافعًا حاجبيه بسخرية..

ضحك الجميع بتسلية لكن ما أن أعاد الأول انتباهه إلى معاذ حتى تلقى لكمة في منتصف أنفه جعلته يترنح ويسقط للخلف أمام أعينهم الذاهلة..

أحتاج الإستيعاب منهم إلى بضعة لحظات قبل أن تبدأ الحرب الشعواء.. وإن كان هناك شيء واحد قد تعلمه معاذ

في السجن هو أنه لن ينجو في الحياة دون سلاح أبيض.. لذا أخرج سلاحًا صغيرًا فعالًا اشتراه منذ اليوم الأول، كان متأكدًا بأنه سيحتاجه يومًا ما.. وإن كان لم يعرف أنه سيحتاجه بمثل هذه السرعة..

استطاع خلال دقائق أن يضرب بشراسة، جارحًا جروحًا غير عميقة إلا أنها موجعة..

هاؤلاء القردة صغيري الأعمار، لا يقارنون بمن كان يحاربهم داخل السجن.. لكن ورغم بناطيلهم الضيقة وضعف بنيتهم إلا أن الكثرة تغلب الشجاعة دائمًا.. فناله منهم الكثير من الجروح بدوره ومع ذلك استمر في الضرب بعنف أقرب للوحشية.. حتى تدخل أحد شباب المنطقة في صفه هادرًا ومعه سيف مشابهًا لسيوفهم..

"عيب يا شباب، الرجل ضيف في منطقتنا.."

ثم هتف في معاذ منبهًا

"انتبه.."

وبالفعل وبفضل تنبيهه تفادى معاذ ضربة خنجر كادت أن تخترق قلبه، فأمسك بعنق صاحبها بذراعٍ وأسقط منه الخنجر ليضربه بعدها بمرفقه مراتٍ متتالية.. والشاب الذي ساعده لم يتوان عن المساعدة بكل قوته.. حتى علا صوت صارخ يحذر الجميع

"شرطة.. شرطة.."

وفجأة وكأن الحرب قد انتهت بأعجوبة فتفرق الجميع هاربين وبقى معاذ واقفًا ينظر حوله عاقدًا حاجبيه باحثًا عن محارب.. بينما أمسك الشاب الذي ساعده بذراعه وجذبه خلفه جريًا صارخًا

"هل ستطيل التفكير؟!!!.. هيا اجري.."

لحق به معاذ جريًا حتى اختبئا في مدخل أحد البيوت البعيدة.. وجلسا لاهثين بقوة فوق مقعد بواب خشبي قديم وخالٍ..

مسح الشاب وجهه بيده وهو يميل بوجهه متأكدًا أن

سيارة الشرطة لم تصل إلى هذا الطريق، وبعد فترة طويلة نظر إلى معاذ محاولًا التنفس بصعوبة ثم سأل ببساطة

"هل أنت بخير يا صديقي؟.."

إلتفت معاذ ناظرًا إليه لاهثًا.. كان شابًا في العشرين من عمره تقريبًا، أسمر البشرة، وكان في المظهر لا يختلف مطلقًا عمن كان يخوض الحرب ضدهم منذ قليل، فقد كان بنطاله شديد الضيق بدرجةٍ تظهر تفاصيل معالمه الذكورية.. قصير عن كاحله فوق حذاء رياضي أحمر وحظاظات عديدة في قدميه..

أما شعره فكان كشتلة كبيرة واقفة لأعلى، صلبة لا تتحرك ولم تفقد رونق صلابتها حتى بعد الحرب العنيفة!!..

أومأ معاذ أخيرًا برأسه، فمد الشاب كفه معرفًا عن نفسه

"مرجان فيرمان.."

ضاقت عينا معاذ وهو يسأل تلقائيًا

"ماذا؟!.. هل هذا اسم أم لقب!.."

مط الشاب شفتيه وهو يهز رأسه ساخرًا ثم قال

"أنت قديم جدًا يا صديقي ولا تستطيع ربط الإشارات.. اسمي الحقيقي، محمد مرجان، لكن ونظرًا لأني أشبهه اسمًا وشخصية فقد حصلت على اللقب.."

سأله معاذ ببطء

"تشبه من؟!.."

زفر الشاب قائلًا بملل وبديهية "مرجان فريمان..ألا تعرفه؟!"

ساد الصمت للحظات ومعاذ ينظر إليه مضيعًا عينيه أكثر، ثم مد كفه أخيرًا مصافحًا وهو يقول بخفوت

"معاذ.."

شدد الشاب على كفه، ثم أخرج من جيبه سيجارة بينما سأله معاذ بصوتٍ مقتضب:

"هل ستكون بخير لدى عودتك؟.. على الأقل أنا لست من المنطقة، أما أنت فستعود إليهم.."

ضحك مرجان وهو يقول ساخرًا:

"هل تظن أنه الشجار الأول أو سيكون الأخير؟!.. إن لم ندخل في شجار سيوفٍ مرة أو مرتين في الشهر ينتابنا الشك حول رجولتنا.."

مط معاذ شفتيه مسلمًا بالفكرة دون رد.. ثم قال أخيرًا:

"أشكرك على المساندة، لكن لماذا تطوعت؟.."

مد مرجان له سيجارة منتفخة بشكلٍ غريب وغير طبيعي قائلًا:

"أقدر الشهامة والنخوة يا صديقي على الرغم من تقدمك

في السن ولهذا تفضل..تحية اعجاب مني، مساء الخير.."

نظر معاذ إلى السيجارة التي لا تحتاج إلى الكثير من الذكاء ليدرك فحواها ومحتواها..

نعم، لقد تغيرت الأدوار وانقلبت تمامًا..

*****

لم يكن يحب أن يراها تبكي.. صوت بكائها كان يشعره بالعجز والغضب والرغبة في فعل أي شيء لأجلها

أمه امرأة جميلة، تستحق أن تحيا حياة مرفهة وتحقق ما تتمنى.. وتستحق أن يدللها أحدهم، وهو موجود معها ليدللها وليحميها أيضًا..

اقترب من الأريكة الصغيرة التي تجلس عليها نصف متمددة تبكي وهي تغطي فمها المرتعش بظاهر يدها ناظرة من النافذة إلى الليل الصامت في الخارج.. فجثا بجوارها أرضًا يراقبها للحظات بملامحٍ مهمومة.. ثم قال أخيرًا

"لا تبكي يا أمي.. لا أحب أن أراكِ تبكين.."

نظرت دلال إلى ابنها من بين دموعها الغزيرة، ثم همست باختناق

"انظر كيف انتهى بنا الحال.. كيف لا أبكي.."

اقترح عليها بعد لحظة تفكير

"أستطيع الذهاب إلى أبي واقناعه بأن نعود للبيت.."

حار في النظرة التي ظهرت بعينيها.. أهي حسرة وندم.. أم نفور ورفض.. أم تفكير ثم يأس..

كانت كتلة من مشاعر متناقضة لا يستطيع تفسيرها.. لكن ما يعرفه أن بكائها قد زاد حدة وهي تغطي وجهها بكفيها هاتفة باختناق..

"والدك لن يرضى أبدًا أن يعيدنا للبيت.. أنا أعرفه جيدًا، إنه فظ قاسٍ ولا يعرف المشاعر أو الأحلام.. والدك لا يأبه لنا

مطلقًا.."

هتف ابنها قائلًا محاولًا إقناعها

"إنه يريدني.. سأشترط عليه أن تعودين معي.. إما أن نعود سويًا أو لا.."

هزت دلال رأسها نفيًا وهي تمسح دموعها بقسوة وبملامحٍ صلبة عنيفة.. ثم قالت شاردة وهي تعاود النظر من النافذة

"لن يقبل، وقد يحتجزك هناك.. ثم أنني لم أفقد الأمل بعد كي ألجأ إليه متوسلة أن يعدني إلى نفس الحياة الرتيبة المحدودة لأفني الباقي من شبابي.. ليتني ما تزوجت.. ليتني ما تزوجت في مثل هذا العمر، لو كنت انتظرت قليلًا لربما وجدت من يحقق لي ما تمنيته.."

ظل ابنها صامتًا متألما من ندمها على الزواج وبالتالي انجابها له ولأخيه..ترى هل هي فعلًا نادمة أنها أنجبته؟!.. هل سيأتي يوم وتمل من رعايته وتتخلى عنه؟!..

لا يستطيع الإبتعاد عنها أبدًا.. يحب أحضان أمه حتى وإن خجل من الإعتراف بهذا أمام أصدقائه أو أي مخلوق.. يحب التنعم بقربها ورؤيتها سعيدة وجميلة.. يحب الشعور بإحتمائها فيه وقولها الدائم أنه رجلها الوحيد..

سألها بقلق عله يرضيها

"ما الذي يمكنني فعله لكِ كي يسعدك الآن على الأقل؟.."

نظرت إليه طويلًا بعينيها الحمراوين، ثم أرجعت رأسها ذو الشعر الطويل للخلف حتى استند إلى ذراع الأريكة وتأوهت هامسة

"آه، كم أتمنى شراء أشياء من تلك التي تسعدني.. أدوات زينة وعطر.."

سألها ابنها قائلًا

"هل تسعدك هذه الأشياء حقًا يا أمي؟!.."

نظرت إليه مبتسمة وهي تشدد على الرد

"هذه الأشياء تسعد أي امرأة.. وتنسيها كل الحزن في قلبها.."

ظل صامتًا للحظات ثم سألها بعفوية

"وما ثمنها؟.."

ضحكت وهي ترمش بعينيها تمسح الدموع عنهما مجيبة بيأس

"تلك الأنواع الفاخرة التي أحبها تساوي الكثير.."

وحين أطلعته على الرقم التقريبي فغر فمه بصدمة كبرى..و كان هذا هو الإكتشاف الأول له عن الجنس الآخر لماذا كل ما يسعد المرأة مكلفًا إلى هذا الحد؟!..

*****

نظر صالح إلى ابنه الأصغر والذي جلس أمامه مطرق الوجه مشبكًا أصابعه.. حقيبته المدرسية بجواره فوق الأريكة، يجلس كضيف..

بينهما علاقة مفقودة ورابط لم ينشأ.. فقط علاقة الدم ورابط الأبوة.. أما الشيء الأعمق والذي يكبر مع مرور السنوات فهو لم يولد بينهما.. بعكس ارتباطه بأمه، كان عنيفًا غير قابلًا للكسر

تكلم صالح بصوتٍ بطىء وملامح متجهمة

"إنها المرة الأولى التي تأتي فيها لزيارتي بمحض إرادتك.. وتخبرني أنك لم تفعلها إلا لأنك تريد شراء لعبة إلكترونية جديدة؟!.."

تحرك حلق الصبي بصعوبة وأبقى وجهه منخفضًا.. ثم قال بصوتٍ خفيض

"لم أطلب منك شيئًا منذ أن غادرت مع أمي.."

ضاقت عينا صالح وهو يسأل بنبرة محذرة

"هل أسمع في كلامك نبرة تقريع!!!.."

لعق الصبي شفتيه المتوردتين بقلق ثم رد بخفوتٍ شديد خائفًا

"لا.."

تراجع صالح في مقعده وهو يراقب ابنه طويلًا دون أن يريحه فزاد توتر الولد بشدة ورفع يده يمسح بها العرق عن جبهته.. فسأل صالح بنبرة آمرة

"عرفت أنك تخليت عن تمرين السباحة منذ فترة، على الرغم من تتسلم أجره مني كل شهر.."

ازداد التوتر على ملامحه الفتية ثم قال بصوتٍ مضطرب

"اخترت.. رياضة أخرى.."

سأل صالح قاطعًا

"ما هي وأين؟.."

رفع الصبي يده يفرك بها عينه بإرتباك وكأنه جالس أمام محقق في الشرطة ثم قال أخيرًا

"أحب المصارعة.."

ساد الصمت لفترة وتسارعت أنفاسه بينما رد صالح أخيرًا

"سبق وطلبت مني التدرب على المصارعة ورفضت.."

تجرأ الولد وأجاب بخفوت

"كنت أصغر سنًا.."

رفع صالح حاجبيه وهو يسأل بجفاء

"والآن صرت أكبر سنًا فإتخذت القرار بنفسك؟!.."

شعر أنه قد أخفق في مهمته تمامًا فعجز عن الرد.. ثم سأل صالح بصرامة

"أين تتدرب على المصارعة؟.."

كيف يجيب على سؤال كهذا؟!.. كيف يخبره أنه قرر أعطاء أمه نصف ثمن التمرين على السباحة وبالنصف الثاني اكتشف ما يشبه الوكر في أحد الأزقة يقوم فيه شباب أكبر على تعليم الصبية المصارعة والقتال باليد والأحزمة!..

رفع يده مجددًا يمسح بها وجهه وقد عقد لسانه تمامًا.. يمتلك دائما مهارة الكذب وقلب الحقائق أمام الجميع

إلا أمام شخص واحد فقط.. والده..

لذا أي محاولة فستكون فاشلة تمامًا.. لذا اكتفى بالصمت، فقال صالح أخيرًا بجفاء : "تعلم أنني أستطيع اجبارك على السكن معي.."

رفع ابنه عينيه إليه بسرعة وقال بقوة: "لا أريد.."

رد صالح بعنفٍ قائلًا:

"السبب الوحيد الذي يمنعني هو عدم رغبتي في رؤية واحدًا من أبنائي يبكي كالأطفال بشكلٍ مقيت طالبًا الذهاب مع أمه كل لحظة.."

احتقن وجه الولد بشدة حتى أصبح بلون الدم بينما تشرست عيناه في نظرة خفية أبقاها منخفضة وهو يغرس أظافره في راحة يده..

نهض صالح من مكانه قائلًا بصرامة:

"منذ اليوم لن تتلقى أجرة تمرين السباحة إلا بالعودة إليه.. ولا تتجرأ على المجيء وطلب شراء لعبة إلكترونية بينما درجاتك في انخفاض مستمر.. هيا اذهب"

رفع الصبي ابنه عينيه إلى عيني والده في نظرةٍ طويلة ناقمة، قبل أن ينهض جاذبًا حقيبته بعنفٍ ليندفع خارجًا من البيت..

ولدى وصوله للبيت يجر أذيال الخيبة وقد أخفق بالمجيء لأمه بما يفرحها.. وجدها على حالٍ مختلف تمامًا.. كانت تبرق بصورة خاصة، واقفة أمام المرآة تتأمل نفسها بنظراتٍ لامعة..

مرتدية كامل ملابسها وكأنها ستخرج أو عائدة من الخارج للتو.. بقميص أبيض حافته داخل تنورة سوداء يظهران انحناء خصرها.. ومع شعرها المجعد الطويل وزينة وجهها بدت خلابة..

استدارت بسرعة على صوته يسألها

"هل أنتِ خارجة يا أمي.."

فازدادت ابتسامتها عمقًا وهي تتجه إليه لتمسك بكفيه بين يديها قائلة بسعادة جمة

"بل عدت من الخارج للتو.. بارك لي يا حبيبي، لقد وجدت عملًا في معرض للسيارات.. منذ اليوم سنستطيع شراء كل ما نريد ونتمنى.."

اتسعت عينا ابنها بشدة وهتف ذاهلًا

"عمل!!.. أنتِ لم تعملي يومًا في حياتك يا أمي!.."

هتفت بقوة وشدة

"وكان هذا أكبر خطأ في حياتي.. وأكثر ما ندمت عليه.."

ظل ناظرًا إليها فاغرًا فمه بعدم تصديق حتى ربتت على ذراعه قائلة بسعادة

"هيا اذهب وبدل زي المدرسة هذا، سأدعوك للغذاء في الخارج احتفالًا.."

ابتعد عنها يهز رأسه بعد استيعاب بينما نهضت من مكانها تتهادى تجاه المرآة مجددًا ووقفت أمامها تتأمل نفسها وهي تبتسم بطريقة مميزة وهي تتذكر لقائها بصاحب المعرض حين دخلته تسأل عن الإعلان المعلق..

تأملها مليًا ثم قال بخفوت مبتسمًا

"لكننا ذكرنا في الإعلان أننا نطلب من هي أصغر سنًا.."

لم تعتبرها إهانة بل رفعت حاجبيها مبتسمة تجيبه بمكر

"مكتوب في الإعلان ألا تتجاوز الخامسة والعشرين.. وأنا في الثلاثين، لكن لا أظن أن خمس سنوات ستشكل فارقًا ضخمًا إن كان لدي اسلوب التعامل والقدرة على اقناع الزبائن بالشراء.."

ضاقت عينا الرجل وهو يتأملها معجبًا ثم أجاب بهدوء

"ولديكِ الشكل أيضًا.."

تنهدت دلال وهي تتذكر الذهب الذي يتحلى به!!.. لا تمتلك مثله!.. سلسال ذهب سميك في كل معصم مع ساعة من الذهب الخالص.. وخاتم ضخم.. بخلاف سلسال أكثر سمكًا حول عنقه!..

*****

عاد معاذ إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل.. وكم تمنى لو نام والده، إلا أن الصوت الذي قصف بقوة جعله يتوقف مكانه

"أين كنت حتى هذه الساعة؟.."

زفر معاذ بنفسٍ طويل دون صوت.. ثم استدار إلى والده قائلًا بهدوء

"كبرت قليلًا حول التحقيق معي بسبب التأخير في العودة يا أبي.."

انعقد حاجبا والده بشدة وهو يرى مدى الإصابات التي لحقت به.. حتى أن قميصه القطني كان عليه الكثير من بقع الدم جراء جروح متفرقة.. والكدمات في وجهه وحول فمه وأنفه النازف!!..

فهتف بصدمة قائلًا

"ماذا حدث؟!.. كيف أصبت بكل هذا؟!.."

تنهد معاذ قائلًا بإختصار عله يتنازل عن باقي التحقيق

"دخلت في شجارٍ مع مجموعة من الشباب، شيء طبيعي يا أبي.. ليست أول مرة.."

هدر والده بغضب

"أول مرة في مثل هذا العمر!.."

ضحك معاذ فجأة بصوتٍ عالٍ وهو يغط أعلى أنفه بأصابعه، فسأله والده بصوتٍ خشن يرتعد من الغضب

"هل قلت شيئًا مضحكًا؟!.."

سعل معاذ من شدة الضحك ثم قال بهدوء

"العفو يا أبي، الأمر فقط أنها ثالث مرة يعلق فيها أحد على تقدمي في العمر!.."

زفر والده بقوة وهو يقول بتعب

"لم أعهدك شائكًا إلى هذا الحد يا معاذ.. هل قلت أنك تقدمت في العمر؟!.."

أبقى معاذ وجهه منخفضًا، بينما نظر إليه والده لفترة ثم سأل أخيرًا دون ملل

"أين ذهبت؟.. وما هو سبب الشجار؟.."

اقترب منه معاذ ببطء حتى وقف أمامه ثم انحنى ليقبل جبهته برفق قبل أن يقول بصوتٍ أجش

"أرجوك ألا تسألني.. لأنني لن أجيب ولم أعتد الكذب عليك مطلقًا.."

ساد الصمت بينهما ووالده يحدق في عينيه بعينين عميقتين حزينتين ثم قال أخيرًا بصوتٍ خفيض

"لقد فكرت طويلًا ووجدت الحل.. بتفقدي للشقة التي كنت قد حجزتها لك منذ سنوات.. وجدت متجرًا معروضًا للإيجار في الطابق الأرضي من البناية.. ما رأيك لو قمت بفتح مشروعًا أي شيء.. مكتبة أو.. لا أعلم.. فكر أنت وأنا سأمولها لك.."

ابتسم معاذ برفق، ثم قال بخفوت

"موافق وشاكرجدا لكن لدي رجاء.. إنها الفرصة الرائعة للذهاب والمكوث في تلك الشقة.."

انعقد حاجبا والده بشدة وهدر مصدومًا

"تتركني يا معاذ!!!.."

رأى في عيني ابنه نظرة أضعفته وشلت قواه.. نظرة ألجمته وأوجعت قلبه، ثم قال معاذ أخيرًا

"ابنك مجرم قاتل.. فاسد ومرتشي لن يتورع عن ارتكاب أي جريمة أخرى.. لا تتوقع أن تمضي الأيام ويتقبلني الناس

بالقوة ولا حتى بالإقناع.. أريد الإبتعاد والبدء في مكان لا يعرف فيه أحد عني شيئًا.. كما أحتاج للإنفراد بنفسي لفترة يا أبي.. هلا حققتت لي هذا الرجاء؟.. أنا أكثر إجهادًا من المحاولة.. تفهمني أرجوك.. أرجوك.."

جذبه والده إليه بشدة وهو يضم رأسه بين ذراعيه بكل قوته.. عسى أن يخفف عنه بعض من هذا الإحساس العنيف بالنبذ..

*****

جالسة على الأريكة المتواضعة وساقيها تحتها، بجوار النافذة المطلة على الطريق الترابي الضيق.. الخوف يغشى عينيها والقلق يسمرها دون حركة.. لقد بزغ الصباح وابراهيم لم يعد إلى البيت..

كان يفترض به أن يعود منذ أربع ساعات.. ليس بالتأخير الكبير، لكنها الساعات الوحيدة التي ينامها حتى يتمكن من متابعة شقاء اليوم التالي..

بعد مناوبة المصنع الأخيرة، يعمل كعتالٍ لدى أحد المخازن حتى الساعات الأولى من الصباح ثم يعود ليرتمي على السرير.. لكن ها قد أتى الصباح وطلعت الشمس ولم يظهر ابراهيم!!..

ابتلعت ريقها وهي تفكر.. ربما وجد قطعة رزقٍ أرسلت له فأبى أن يتركها!.. لكنه لا يغيب حتى صباح اليوم التالي إلا ويخبرها قبلها كي لا تقلق، خاصة وأنه يدرك بأنه لم يعد لديها أي متبقىً من أعصابٍ تتحمل

مالت برأسها تستند إلى كفها منتظرة.. مؤكد سيعود في أي لحظة، فموعد مناوبة المصنع الصباحية قد اقترب وهو لن يتأخر عليه أبدًا..

لكن الساعات مضت ووصلت التاسعة!.. تجاوز موعد المناوبة بساعة ولم يعد!..

وهي جالسة مكانها مسمرة، جامدة الملامح كالصنم، على لسانها وعيد بالويل والثبور وعظائم الأمور لدى عودته لما سببه لها من رعب.. وحول قلبها قبضة تخبرها أنها في قرار

نفسها تعلم أن مكروه حدث..

بقت على صمتها طويلًا..حتى البنتان تغيبتا عن المدرسة بأمرها..

وكأن البيت بأكمله أضحى قلعة ساكنة، توقف كل من فيها عن الحياة لحين عودة ابراهيم..

ربان السفينة المثقوبة المتهالكة، والذي كان يصارع الأهوال ليصل بسكانِها لبر الأمان.. محاولًا فقط ألا تغرق مهما كان البر الذي سيرسون عليه..

ومع مرور الدقائق وعيناها مثبتتان على الطريق رأت أربعة رجال آتين من أوله..

ضيقت عينيها وهي تتبين ملامحهم.. كانت ملامح قد قدت من صدمة وأسى.. صدمة تخبر عن مأساة وقعت يشيب لها الشعر..

ارتعشت شفتاها للحظة وليس هذا هو كل ما تبينته..

بل تبينت هوية اثنين منهما، انهما يعملان مع إبراهيم في المصنع..

أسقطت يدها عن وجنتها الشاحبة، تطالع اقترابهم بعينين زائغتين.. حتى وصلوا إلى باب بناية بيتها..

أخذت تدعوا الله أن يتجاوزوها..دعت من صميم قلبها ألا تكون المقصودة بالزيارة..

لكنهم دخلوا..

فاستدارت تولي النافذة ظهرها وجلست تراقب باب الشقة بصمت مرعب تعد درجات السلالم..

تسع، عشر.. الدرجة الحادية عشر.. الثالثة عشر.. الخامسة عشر..وتابعت العد..

ثم انتفضت فجأة على صوت طرقات فوق الباب.. لم تستطع التحرك للحظات، ثم أجبرت نفسها على التوجه إليه بترنح معتثرة لتفتحه..

ملامح الأسى زادت.. والشحوب على وجوه الرجال لم يكن طبيعيًا..

ومع الصمت المطبق دون كلام، بادرت هي وسألت بصوتٍ مرتعش

"ماذا حدث؟.."

تطوع أحدهم وهو من تعرفه قائلًا بخفوت شديد

"اذكري الله يا أم البنات واحتسبي مصيبتك عنده سبحانه.. إنا لله وإنا إليه راجعون.."

شهقت برعبٍ وهي تترنح متعثرة للخلف ثم هتفت بصدمة ضاحكة

"ما هذا!!.. ماذا تقول؟.. أنتم مؤكد أخطأتم العنوان، هذا بيت ابراهيم.. لقد أخطأتم، أليس كذلك؟.. ليس هو البيت المقصود، أليس كذلك؟.."

ظلوا صامتين مطرقين بوجوههم فصرخت مجددًا بصوتٍ أعلى

"أرجوكم تكلموا.. أتوسل إليكم تكلموا.."

عاد الرجل ليتكلم قائلًا بصوتٍ متحشرج

"البقاء لله يا أم البنات.. توفي ابراهيم.."

شهقت دون صوتٍ هذه المرة وهي تنحني في وقفتها عدة مرات.. محاولة التنفس، ثم همست بهذيان غير مستوعبة

"لكن كيف.. كيف.. كيف.. كان، كان.. كان سليمًا بخير وصحته قوية.."

صمت من جديد، فصرخت عاليًا لعل هناك خطأ أو تشابه أسماء

"كيف؟؟؟؟.. هل هو في المشفى؟.. هل هو مصاب في مشفى؟.."

مع صراخها المستمر تكلم الرجل بخفوت شديد

"يبدو أنه مع إجهاد العمل يوم أمس، أصيب بالدوار أو عدم التركيز.. فوقع في خزان الغلال، ولم يشعر به أحد.. ما عرفنا إلا اليوم صباحًا حين وجدنا ال.."

صمت غير قادر على المتابعة وقد اختنق صوته، بينما هي تنظر إليه بلوعة، ثم شقت الجدران صرختها بعويلٍ مفجع لم ينقطع لساعات طويلة بعدها وهي تلطم وجنتيها وصدرها حتى أدمت وجهها ولم تكتفِ..

وفي الداخل كانت البنتان متربعتان أرضًا متشبثتان ببعضهما كجسدٍ واحد دون صوتٍ، دون كلام..

بأعين واسعة حمراء.. وفمين فاغرين مرتعشين..

*****

جرى بسرعةٍ إلى الحمام مغلقًا الباب خلفه قبل أن يجلس أرضًا رافعًا ركبتيه إلى صدره يضمهما بذراعيه..

ثم تعالى الطرق على الباب وأتاه صوت خالته تقول بحنان وتعاطف

"افتح يا حبيبي.. افتح الباب لنتكلم.."

لكنه رفض الرد أو فتح الباب بل ظل مكانه يتنفس بسرعة وغضب..فطرقت الباب مجددًا وهي تقول برفق

"يا حبيبي أمك لم تفعل شيئًا خاطئًا، أمك تزوجت وهذا خير لها من البقاء وحدها.."

رفع قبضته إلى عينيه ودون أن يتمالك نفسه انفجر في البكاء بشدة وخالته مستمرة في الطرق على الباب..

لقد غدرت به أمه حتى اللحظة الأخيرة!!.. لم يعرف بنيتها مطلقًا حتى أتت به في زيارة إلى خالته وهنا فاتحته بعزمها على الزواج غدًا!!.. وبأنه سيبقى مع خالته لمدة أيامٍ فقط ثم يعود إليها..

كانت تتكلم بهدوءٍ ولطف متوقعة منه أن يتقبل الأمر بصورة طبيعية.. لكنها فوجئت بجريه مندفعًا ليغلق عليه الباب..

عادت خالته تقول من الخارج بصوتٍ مواسٍ:

"أمك اضطرت للنزول يا حبيبي.. وهي متأكدة أنك ستتفهم موقفها وتدعمها.. افتح وتعال لتجلس مع أولاد خالتك هيا.."

دلال ستتزوج!.. ستكون مع رجل غريب في بيت واحد.. غرفة واحدة..

رجل غريب مع أمه ولم تحاول حتى أن تشركه في قرارها وكأن موافقته مسلمًا بها!!!..

تعالى بكائه الشرس أكثر وهو يضرب الأرض بقدميه بينما خارج الباب، وقف زوج خالته بجوارها سائلًا بإمتعاض

"ما باله يبكي بهذا الشكل المخزي!!!.. كم عمره هذا

الولد!!!.."

رفعت إصبعها على فمها هامسة بحدة

"هششش سيسمعك.."

أجابها بخشونة وإستياء

"فليسمع اذن.. ابن أختك هذا غير سوي، والسبب تدليل أمه المقرف وسلوكها المشين دائمًا.."

استدارت إليه زوجته تقول بحدة وغضب

"كفى، إن لم يكن لديك شيء غير مؤذٍ لتقوله فابتعد أرجوك.. ألا تسمع الولد منهارًا!!!.."

مط شفتيه ممتعضًا ثم انصرف وهو يهز كتفيه، ضاربًا كفًا على كف..

وحاولت مجددًا منادته، إلا أن صوت بكائه كان عويلًا ومن

يدقق فيه سيسمعه صراخ غضب، لا بكاء مدلل..

*****

أما الآخر فدخل غرفته ضاربًا الباب خلفه وهو يتنفس بغضب.. ثم أمسك بأحد المزهريات وألقى بها أرضًا لتتحطم بكل قوته ووقف ينظر إليها لاهثًا..

"هل تشعر أنك أصبحت أفضل حالًا بصفقك الباب وكسرك للمزهرية!!.. هل حل العنف الأحمق مشكلتك وأزال وجعك؟!.."

التفت الإبن الأكبر إلى صالح ونظر إليه بملامح متجهمة حزينة.. فاقترب منه حتى أمسك بكتفه قائلًا بصوتٍ أجش:

"إن تركت نفسك فريسة للغضب، فلن تكون إلا الخاسر الوحيد بينما الجميع لا يبالي..تعلم متى تسلم حين تصبح القضية خاسرة، فلو لم تفعل فكأنك تترافع وحدك بعد أن أغلقت المحكمة أبوابها.."

تكلم ابنه قائلًا بقسوة وألم:

"لا أطيق فكرة أن تكون أمي لرجلٍ آخر.."

أطرق صالح برأسه وهو يشدد على كتف ابنه قائلًا

"هي اختارت منذ البداية، دلال بالنسبة لهذا البيت قضية خاسرة، مهما حاولت لم تكن لتبقى.."

بقى ابنه صامتًا غير قادرًا على التجاوز، بينما قال صالح متابعًا

"والآن، سأذهب لآتي بأخيك وأعيده إلى هنا.."

ارتفع حاجباه وهو يسأل بصوتٍ خفيض

"وهل سيقبل؟!.."

رد صالح بصوتٍ صارم ونظرة كحد السيف

"سيأتي بالقوة إن لزم الأمر.."

*****

لكن دلال لم تسكت، بل صرخت بعنفٍ وهستيريا ما أن عرفت باستعادة صالح لإبنه بالقوة.. لم تكن لتستطيع البقاء بدونه مطلقًا..

وبعد ساعات الجنون الأولى جلست تهز ساقها بعصيبة وعيناها تبرقان شرًا تفكر بمنطقٍ أكبر..

لن يمكنها مواجهة صالح وهي تعرف هذا جيدًا.. لكنها تملك قلب ابنها بين يديها، ابنها لن يستطيع التخلي عنها مطلقًا..

لذا ذهبت إلى مدرسته في اليوم التالي وطلبت الإذن بإصطحابه وأخذت تبكي أمامه تتوسله أن يعود إليها وأنه الوحيد المتبقي لها بعد رفض أخوه البقاء معها.. وأنا لن تتحمل.. بل وستقتل نفسها إن تجرأ وتخلى عنها!!!..

لطالما كانت دلال انفعالية، مبتزة بطريقة العواطف وأحيانًا

بدرجة قد تكون خانقة وأحيانًا أخرى مخيفة..

وبالفعل ذات يومٍ عقب المدرسة هرب وذهب إليها.. وأعاده صالح، فهرب مجددًا.. وأعاده ثانية فعاد وهرب.. حتى ضربه بقوة وكانت تلك هي الحجة التي جعلته يصر على الهرب من والده أكثر من ذي قبل..

خاصة وأن سيطرة صالح لم تعد تصلح كلما اندمج الصبي أكثر في جحور الأزقة وبين الفشلة ممن هم أكبر منه ولم يستمروا في الدراسة..

فبات أشرس وأكثر عنفًا.. إلا مع أمه، بقائه معها كان أكبر صفعة لرجولته وهو يرى حركاتها مع زوجها ومزاحهما الجريء.. ودخولهما غرفة واحدة بنظراتٍ ذات مغزى..

لدرجة جعلته يقترب من الغرفة أحيانًا كثيرة ليرهف السمع وكلما فعل كان يبكي، لكن بكاؤه لم يسمح لمخلوقٍ أن يراه مجددًا أبدًا، لقد أقسم على هذا..

لكن شهر العسل لم يستمر طويلًا، وخلال عامٍ واحد بدأ

الوجه الآخر لزوج أمه في الظهور..

بداية من صوته الذي بدأ يعلو شيئًا فشيئًا مع كل خلاف حتى وإن كان تافهًا..حتى تحول إلى جعيرٍ جهوري.. ترافقه الشتائم بألفاظ نابية.. إلى أن جاء اليوم وامتدت يده بأول صفعةٍ لأمه!!..

حينها لم يتمالك نفسه وتحول إلى مجنونٍ وهو يكيل له اللكمات، وقد نال منه بدوره العديد من الصفعات، بينما دلال جالسة أرضًا بعجزٍ مقرف تبكي بصوتٍ عالٍ لا تحاول حتى الدفاع عن ابنها..

ولم تكن المرة الأخيرة.. بات ضربها يحلو له، وجنون ابنها وشراسته يتضاعفان حتى أصبح بيتهم أشبه بحلبة مصارعة..

توقف خلال هذه الفترة عن زيارة والده ورفض مقابلته بإصرار كي لا يرى آثار المعارك الطاحنة على وجهه، إلى أن جاءت مرة أخيرة وذهب مكدوم الشفاة متورم العين وانتظر خروج أخاه من مدرسته

لم يحتج إلى الكثير من الشرح حتى اتقدت عيناه غضبًا وأمسك بأخيه الأصغر بقوةٍ يجره خلفه حتى وصلا إلى معرض السيارات.. وما أن دخلا حتى هجم الإثنان معًا على زوج أمهما لتمتزج الملاكمة التي تمرن عليها الإبن الأكبر مع مصارعة الأزقة التي أتقنها الأصغر وتحولا معًا إلى زوجٍ من المجانين في عنفهما..

ولم يتركا الرجل إلا مكومًا على الأرض.

*****

مهلة جديدة وشهرين آخرين.. وهي تعيش مع الخوف من تنفيذ ليلة لتهديدها في أي لحظة

لكنها خلال المهلة الجديدة لم تتكلم ولم تنفذ.. لكن الخوف داخل عالية لم يتبدد، ليلة يصعب التنبؤ بما تفكر فيه وما قد تقدم عليه في أي لحظة..

كم واحد رأت حتى الآن؟!.. وكلها محاولاتٍ زادت قلبها حسرة من اضطرارها للقبول بعرض نفسها بهذا الشكل وهذه

السرعة، وياليتها كانت بضاعة عليها إقبال، مطلوبة..

فكل من يعاين ولا يجد ما سيربح، ينصرف بلا عودة..

نظرت إلى الساعة في شاشة الحاسوب بتوتر.. ثم بدأت ترتب شعرها مجددًا وتتلمس ثوبها بأصابعها كتأكيدٍ أخير.. و

ها قد بدأت المقابلة..

ابتسمت ابتسامتها المهذبة المدروسة تستعد لفشلٍ جديد.. والبداية غير مبشرة فهو يتفحصها بدقةٍ أكثر من أي واحدٍ ممن سبقوه.. وطال تفحصه بينما أخفضت وجهها المتورد وقد تضاعف الضيق في نفسها

من حقهم النظر لكن لماذا عليهم أن يكونوا بمثل هذه الفظاظة!..

حتى أن هذا الشخص تحديدًا ليس في حاجة للتفحص بهذا القدر، فقد سبق ورأها عبر الحلقات التي تقدمها

لكن على ما يبدو أنه في مقابلات الزواج هناك تفحص من نوعٍ خاص!!

حسنًا لقد زاد الأمر عن حده وباخ كثيرًا وباتت غير قادرة على التحمل أكثر، فرفعت وجهها الغاضب ودون تفكيرٍ سألت بعصبية

"اذن.. هل يعجبك ما ترى؟!.."

أجفل للحظةٍ من كلماتها الوقحة، ثم تمهل قبل أن يرد ببطء وبصوتٍ أجش خشن

"أنتِ من النوع غير الودود!.."

تفاجئت من نبرة صوته العميقة، لا تعلم لماذا غير صوته من نظرتها الأولية له..

فلديها قناعة أن الصوت هو عنوان الشخصية.. قناعة لا أسس علمية أو نفسية لها..

لكن نبرة الصوت عادة ما تنم عن شخصية صاحبها وصوته كان عميقًا يوحي بشخصية أكثر عمقًا مما تخيلت..

ارتبكت قليلًا وهي تبعد شعرها خلف أذنها قائلة بخفوت متوتر

"أهي صفة ستلصقها بملف عيوبي! اعذرني إن كنت لا أشعر بالود وأنا عرضة للتفحص كل هذا الوقت! وعلى هذا النحو!.."

عقد حاجبيه قائلًا بجفاء

"وثرثارة أيضًا.. لم ألقي التحية حتى!.."

تورد وجهها بشدة إلا أنها أبت التراجع فقالت بجفاءٍ مماثل

"ربما لأنك كنت مشغولًا بالنظر.."

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يجيب بطريقة فظة

“ينبغي أن أنظر..”

" لكن ليس بهذا القدر من الوقاحة! "..

تمتمت بهذه العبارة وهي تشيح بوجهها قليلًا فمد وجهه للأمام سائلًا بخشونة

“عفوًا، ماذا قلتِ؟.. أحب أن أسمع من يخاطبني جيدًا..”

استدارت إليه وردت بسرعةٍ وتهور

“قلت " لكن ليس بهذا القدر من الوقاحة! "..”

رفعت كفيها فجأة تغطي بهما وجهها وهي تهتف بصدمةٍ وذهول

“يا الهي!..”

لم يسبق لها أن تهورت في الرد بمثل هذه الحماقة وفقدت أعصابها.. بينما رد الرجل بخشونة أكبر، أقرب للإنفعال

"لم أنظر سوى لوجهك!!.."

الآن تحول وجهها إلى لونٍ أحمر قاني.. وظلت مستندة بمرفقيها إلى سطح المكتب الذي يحمل الحاسوب وكفيها تغطيان وجهها غير قادرة على مواجهته بطفولية..

سمعت صوته يزفر بقوة فإزداد تسارع نبضها من شدة الخجل والتوتر.. تمنت بإخلاص أن يغلق هذه المحادثة، لكنها سمعته بعد فترة يسأل بجفاء

"هلا أبعدتِ كفيكِ عن وجهك.."

لكنها لم تستجب بل ظلت على حالها كالنعامة.. فتابع بنبرةٍ متوترة أكثر خشونة وفظاظة، لكنها كانت خفيضة

"من فضلك!.."

الكلمة السحرية.. وكان استخدامها له مفعول السحر بالفعل فأخفضت كفيها ببطىء،إلا أنها أبقت وجهها المتورد منخفضًا.. كانت تعلم أنه يتأملها من جديد، لكن هذه المرة لم

تشعر بنفس الخجل.. بل كانت خجلة من نفسها ومن تصرفها المتهور دون تفكيرٍ أو سيطرة..

سألها أخيرًا بصوتٍ فقد الكثير من فظاظته لكنه بقي خشنًا وعلى الأرجح هذه هي طبيعة اسلوبه..

"ألا يفترض بكِ النظر إلي أنا أيضًا؟!.. ألا يحق للكِ تأملي عن قرب؟.."

تحرك عيناها جانبًا وهي تدس كفيها بين ركبتيها بحذر، متفاجئة من طلبه ثم حركتهما إليه أخيرًا حتى استقرتا على وجهه..

ضاقت عيناه منتظرًا.. تشعر الآن أنه أقل خبرة ووقاحة مما ظنت في البداية، فهو جلف، يلقي بالعبارة دون تفكير.. كما أنه متوتر وعلى ما يبدو يترقب رأيها المبدئي عنه!!..

و هذا كان يجعله مختلفًا عمن سبق ورأتهم.. فالآخرون كانوا غير منتظرين رأيها، مسلمين بموافقتها!

أجبرت نفسها على الكلام بإرتباك

"أعتذر عما قلت، الموقف موتر.."

نظر إليها لفترة وهي جالسة وخلفها غطاء براق وردي على ظهر مقعدها يناقض مظهر الغرفة الأثرية العتيقة التي تجلس فيها والظاهرة من خلفها..

ثم أجاب بإقتضاب

"طبيعي.."

عقدت حاجبيها مستاءة من فظاظته، لقد اعتذرت فماذا يريد أكثر؟!.. هل سيتابع الحوار بكلمة مقتضبة كل حين!!..

أجبرت نفسها على المحاولة أكثر فرفعت وجهها له وابتسمت بتحفظ أكبر وهي تقول:

"لقد أعطتني الخالة حسنات معلوماتٍ شديدة الإختصار عنك، فلا أظنها تملك الكثير منها.."

كان متراجعًا في مقعده، جالسًا في شقةٍ تبدو فارغة من خلفه.. إلا من صندوقٍ هنا وكرسيٍ هناك.. وبعض الفوضى في أحد الزوايا..

انتبهت من شرودها حين سمعت صوته يقول مجيبًا بهدوء

"هذه حقيقة، وفي المقابل أعطتني القليل أيضًا من المعلوماتِ عنكِ وإن كنت أظن أنها تملك الكثير منها"

اكتفت بإيماءة سريعة، ثم سألت مبتسمة

"وما الذي تعرفه عني؟.."

أجابها على مهلٍ قائلًا:

"عالية عبد الحي، اسم دُوِن على أكثر من كتابٍ قمتِ بترجمته.. في الثامنة والعشرين من عمرك، تقدمين حلقاتٍ في التاريخ عبر موقع التواصل.."

صمت للحظة فرفعت حاجبها بإنتباه، حتى قال أخيرًا

متابعًا بنبرة عميقة

"حيث رأيتك للمرة الأولى.."

صمت وانتظرت.. ثم لم تلبث أن رفعت حاجبيها مبتسمة بمرح وهي تسأل

"أهذا كل شيء!.."

لم يستجب لابتسامتها، بقت ملامحه جافة وعيناه غير مبتسمتين.. إلا من بعض اللين خفف من صلابة فمه، واكتفت بهذا تجاوبًا..

ثم سألها بصوتٍ خفيض لا يعرف المرح:

"وما هي المعلومات التي لديكِ عني اذن؟.."

هزت كتفها وهي تقول بتهذيب وتبسم:

"ما أعطيته لها فقط.. اسمك معاذ، مهندس، في السادسة

والثلاثين.."

وخارج الغرفة التي كانت تجلس فيها لتجري المقابلة، كانت ليلة واقفة بجوار الباب، مستندة بظهرها إلى الجدار.. تستمع إلى الحوار بعينين غائرتين وملامح جامدة، بينما شفتاها تهمسان بفتور:

"مهندس في السادسة والثلاثين.. هذا ليس إنصافًا.."

*****

الفصل الخامس

"للحقيقة وجهان.. وجه بسيط مجرد وهو أول ما تبصر، ووجه خفي لا تراه في نظرتك الأولى، وقد لا تراه أبدًا "

*****

جلست على حافة النافذة تدلي ساقيها للخارج.. بينما استندت برأسها إلى الإطار ناظرة إلى الطريق بصمت شارد..

أما أختها فقد كانت جالسة أرضًا مستندة إلى الجدار بظهرها.. مرجعة رأسها للخلف، تحدق في السقف بسكون..

مر عام على رحيل ابراهيم، وكأنه رحيله كان بالأمس فقط.. لا تزال كلًا منهما تنتظر سماع صوت مفتاحه في الباب، معلنًا عودته أخيرًا.. كان الصوت الأجمل في حياتهما كرنين جرس المحبة..

عام مضى، غاب عنهما الحنان وتهوين قسوة المرض

والعوز.. غاب الدلال والإبتسام.. غاب من كان يدعوهما " بأميرتيه ". وساد البيت سكون موحش، لا يقطعه سوى النحيب الخافت.. وباتت جميلة أكثر قسوة من ذي قبل وكأن أي معنى للرفق قد غادرها للأبد..

نهضت إحداهما من على الأرض وخرجت من الغرفة بغير وجهة.. كانت ترفض أن ترى الحزن على وجه أختها أو أمها.. فأي منهما لم تفقد نفس ما فقدته هي!..

لقد فقدت الشخص الوحيد لها في الحياة.. منذ عام كامل لم يشعر بوجودها مخلوق وكأنها وهم أو شبح..

و كأنها مجرد صورة لأختها المريضة..

بات الكلام عن جلسات الغسيل الكلوي وتدبير ثمنها أو بمعنى أصح العجز عن تدبيره هو اللغة الوحيدة المفهومة في هذا البيت..

إن تكلمت في أي شيء آخر، لم يكن أحد ليفهمها أو يسمعها من الأساس..

حين خرجت من الغرفة أبصرت أمها واقفة عند باب الشقة المفتوح، تتكلم مع واحدة من الجيران.. صوتهما خافت عمدًا، وجميلة تستند برأسها إلى إطار الباب بيأسٍ، تشبه ابنتها الجالسة على حافة النافذة في الداخل..

اقتربت منهما ببطء متسللة، تدرك أن التهامس بهذا الشكل لا ينم عن خيرٍ مطلقًا..

تلك الجارة، ممرضة في مشفى حكومي.. تبدو على وجهها علامات الجدية والتحفيز، بينما أمها متخاذلة وكتفاها منحنيتان بخوفٍ وقلة حيلة..

اقتربت الفتاة أكثر حتى وقفت بأحد الزوايا ترهف السمع.. ووصلها صوت الجارة تقول:

"ربما لهذا السبب رزقك الله بتوأم.. هناك دائمًا حكمة لكل شيء"

عقدت الفتاة حاجبيها وهي تسمع تلك العبارة.. فقد سبق أن سمعتها من والدها ذات يوم..

فهل يئست أمها من تدبير علاج أختها؟!.. كان هذا آخر ما توقعت سماعه!..

لكن على ما يبدو أن للكلام بقية، فقد قالت جميلة بصوتٍ خفيض متحشرج

"لا أعرف إن كنت قادرة على الإقدام على شيء كهذا.."

ردت عليها جارتها بحدة همسًا

"وهل لديكِ حل الآن.. الحمل في سلة بيدين يحمله اثنين، والأخت يجب أن تتحمل مع أختها.."

ضاقت عينا الفتاة وهي تتسمر ملاحظة أن الكلام يشملها ولم تتفائل بهذا خيرًا مطلقًا.. فلم تظن أن يأتيها خيرًا من أمها يومًا.. هكذا كانت قناعتها التي لن تتغير أبدًا..

سألت جميلة همسًا بصوتٍ مضطرب شديد الخفوت

"وهل سيفلح هذا؟.. أم سأخسر الإثنتين!.."

ردت عليها الجارة قائلة بتشجيع

"لن تقدمي على خطوة دون أن يؤكد لكِ الطبيب نجاحها.. ستبدئين بالفحص والتحليل وخلافه.."

ردت جميلة بصوتٍ غريب جدًا وكأنها مقدمة على شيء مروع

"وماذا عن التكاليف، لم يتبق لدينا من مبلغ التعويض الكثير بعد جلسات الغسيل خلال عام.."

ردت جارتها تقول

"يمكننا المحاولة بالجمع من جديد، المساجد والجمعيات وكل أسرة عملتِ عندها.. وتذكري أنكِ ستنتهين من هذه الجلسات للأبد.."

ظلت جميلة صامتة غير قادرة على الرد، بينما قالت الجارة

أخيرًا

"فكري في الأمر جيدًا واتخذي قرارك.."

بعد انصرافها شاهدت الفتاة أمها تتجه إلى الأريكة وتجلس شاحبة الوجه بشدة، زائغة العينين.. فاقتربت منها ببطء وهمست

"أمي.."

أجفلت جميلة ما أن سمعت صوت ابنتها فرفعت وجهها بسرعة ونظرت إليها بخوفٍ صامتة، وطال الصمت بينهما حتى تكلمت جميلة تمد يدها إلى ابنتها قائلة بخفوت

"تعالي، أريد الكلام معكِ في أمرٍ هام.."

وضعت الفتاة كفها في يد أمها التي جذبتها وأجلستها بجوارها تنظر إلى عينيها طويلًا ثم قالت أخيرًا بهدوء

"تعرفين حال أختك، وتعرفين أنه يتدهور كل عامٍ أكثر

وجلسات الغسيل لن نكون قادرين على التكفل بها لفترة طويلة بعد وفاة والدك..يجب أن يكون هناك حل واحد يرحمنا من كل هذا، حل واحد وأخير.."

فتحت الفتاة فمها الوردي وسألت بصوتٍ متردد متجاهلة كل هذه المقدمة الطويلة

"ما هو؟.."

شددت جميلة فوق أصابع ابنتها وقالت بقلبٍ يتفطر

"لدى أختك كليتيتين عليلتين، ستموت في النهاية وهي لم تر من الحياة شيئًا.. وأنتِ لديك اثنتين سليمتين، يمكنك اعطاء أختك واحدة وستعيشين بالأخرى.. ستمنحين أختك العمر.."

ساد الصمت بينهما طويلًا وكل منهما تنظر للأخرى وكانت عينا جميلة تهتزان وأصابعها ترتعش.. فقالت ابنتها أخيرا بصوتٍ خافت

"لا أريد.."

توقف ارتعاش أصابع أمها، وتصلبت النظرة في عينيها وهي تسمع الرفض غير المتوقع!!

ضاقت عينيها للحظاتٍ على نظرة مصدومةٍ ثم همست بغضب

"لا تريدين!.. هل قلتِ للتو أنكِ.. لا تريدين!!.. بهذه البساطة؟!.."

أجابتها الفتاة قائلة

"ألا تسأليني رأيي؟.. أنا لا أريد قطع جزء من جسدي وأخاف من المرض وأنا سأمرض بالتأكيد.."

شددت جميلة على كفيها أكثر لكن هذه المرة لم تكن بحنان، بل بقسوة كادت أن تكسر أصابعها وهي تقول بحدة

"لن تمرضي.. أنتِ وهي ستعيشان، لكن بدون أن تتبرعي

ستعيشين وحدك وهي ستموت.. كيف لكِ أن تكوني بمثل هذه الأنانية!!..”

ردت ابنتها قائلة بنفس النبرة الباهتة

“تبرعي أنتِ لها..”

تركت يدها فجأة وصفعتها على وجهها صفعة سريعة وهي تهتف

“وهل ظننتِ أنني كنت في انتظارك كي تملي علي ما أفعل!.. لقد سبق وحاولنا أنا ووالدك منذ سنوات ولم نتطابق مع أختك..”

رفعت الفتاة يدها إلى وجنتها وأخفضت وجهها وظلت صامتة.. بينما كانت أمها ترمقها بغضبٍ وخيبة أمل، ثم قالت بصوتٍ مرير

“وقد لا تتطابق كليتك معها.. لكن على الأقل عرفت نيتك تجاه أختك وحقيقة شعورك وأنا مصدومة فيكِ حقًا..”

نهضت الفتاة من مكانها تبتعد عن جميلة بصمت، إلا أن صوت أمها قصف من خلفها بقوة

"ستذهبين معي في الغد لنقوم بالفحص.. وهذا أمر لا تخيير.."

لم تتوقف ولم تستدر إلى أمها، بل تابعت طريقها حتى دخلت الغرفة وأغلقت الباب من خلفها واستندت إليه..

ظلت لدقائق طويلة تنظر إلى ظهر أختها وهي جالسة على حافة النافذة للخارج، صامتة، مستندة برأسها للإطار دون حركةٍ أو حياة.. وأحست في تلك اللحظة أنها بكلِ صدقٍ لا تحبها..

تكره فيها أنها كانت شؤمًا على هذه الأسرة، ربما لو ماتت منذ زمن لكانت ارتاحت ولكان والدها حي الآن

تكلمت أخيرًا قائلة بفظاظة

"ادخلي ولا تجلسي على النافذة هكذا.. لا تنقصنا

المصائب.."

لكن أختها لم ترد عليها، بل ظلت على نفس جلستها الصامتة.. فزفرت بغضب وقالت بقسوةٍ أكبر

"قلت لكِ ادخلي، ستقعين.."

استقامت أختها قليلا وهي تنظر بعينين دائختين إلى الطريق الضيق، وشعرت فجأة أن الرؤيا قد تداخلت والطريق أصبح اثنين، ثم أربع وه يدور بشكلٍ غريب، فأحنت رأسها للأمام شاعرة وكأنه أصبح في ثقل حجرٍ ضخم لا يستطيع عنقها حمله أكثر..

عقدت أختها حاجبيها وهي تبتعد عن الباب ببطء سائلة

"ماذا تفعلين؟!.. أرجعي رأسك للخلف.."

لكن أختها شعرت فجأة أن الأرض أصبحت شديدة القرب قبل أن يحل الظلام الحالك.. وعلى صرخة ابنتها المرتعبة انتفضت جميلة بقوة وهي توقع من يديها الطبق الذي كانت

تحضر فيه طعام الإبنة الأخرى..

*****

وقف أمام المرآة ممسكًا بأوراقه ينظر إليه نظرة، ثم يعاود المرافعة أمام صورته بملامح جادة، حاد النظرات قوي النبرة.. متلاعبًا، ساخرًا في بضع فقرات عن قصد..

مستهزئًا في الخفاء، يسمح للمستمع أن يشعر بنفس الإستهزاء تجاه الخصم مع محافظته على ثبات صوته وعفوية سؤاله..

أخطأ عدة مرات.. فأغمض عينيه للحظة ووقف ثابتًا قبل أن يعاود مجددًا وبصوتٍ أقوى وأعلى..

لكنه عاد وأخطأ فهز رأسه يزم شفتيه بينما توتر صوت أنفاسه..

أحس أنه عاجز عن إداء مرافعة بسيطة كهذه، فجلس على فراشه الوثير وهو يلقي بالورق بجواره..

لقد اعتاد دائما أن يؤدي المرافعة مسبقًا مهما تماثلت القضايا وتشابهت.. وكان يؤديها على أكمل وجه..

فقد كان الجمهور هو كل ما يحتاج ليحسن ادائه..

كانت هي الجمهور الأول والوحيد..

تجلس بطريقة راقية وساقين مائلتين متلاصقتين.. مستندة بكفٍ مرتاح بجوارها، أما ملامحها فكانت تحمل أجمل ابتسامة حانية رآها يومًا..

أما في عينيها كان الزهو.. معها كان يشعر بأنه الأقوى.. القادر على هزيمة الجميع..

أغمض عينيه للحظات، ثم ترددت أصابعه وهو يمسك بهاتفه ويرسل لها رسالة جديدة، على الرغم من أنها حتى الآن رفضت الرد على أي واحدة..

" لن أطالبك بما لا تستطيعين الآن، فأنا بدوري لازلت غاضبًا.. غاضبًا منكِ نعم، فقد خذلتني أمامهم في حين

قررت مواجهة العالم بكِ.. لن أتحدث عن شيء يربطنا بعد الآن أعدك.. لكن أيرضيكِ عجزي عن إداء مرافعة وأنتِ لستِ الجمهور؟!.. أحتاج جلوسك أمامي لتستمعي كما اعتدتِ وعودتِني.. لن أطالبك بأكثر من هذا أعدك.. "

ترك الهاتف بجواره وهو يزفر بقوة نظرًا أمامه بعينين قاسيتين وقلب خاوي منذ رحيلها تاركة فراغًا باردًا لا يستطيع ملئه أبدًا.. وهذا ليس جيدًا..

كان صادقًا حين قرر في علاقته بنوال مصلحته.. منطقه.. واقعه..

ليست حلمًا أو نزوة.. ليست خللًا أو حتى شهوة..

هي جمهوره ونفسه.. وبدونها لا يصبح في كامل قوته وقدرته على المضي في طريق تحقيق أهدافه..

نهض من مكانه شاتمًا بغضب ليقف أمام المرآة.. ناظرًا إلى عينيه بقوةٍ وإصرار عازمًا على ألا يثنيه شيء أو يؤخره..

و بعد ساعة من المحاولة بجهد، سمع رنين جرس الباب.. فترك الأوراق وذهب ليفتحه لكن ما أن فعل حتى جمد مكانه وتصلبت عيناه وهو يرى الراجل الواقف أمامه، يداه في جيبيه، يبادله النظر مبتسمًا وحين طال الصمت بينهما سأله بهدوء

"ألن تدعوني لدخول بيتك يا يوسف!.."

ابتعد يوسف على مضض تاركًا له المساحة كي يمر وهو يرمقه بطرفِ عينيه ثم أغلق الباب بهدوء واستدار إليه بينما كان الرجل واقفًا يتأمل الشقة الواسعة والمؤثثة بذوقٍ عصري عالي..

ثم قال بنبرة هادئة مع احتفاظه بإبتسامته

"شقتك مثال الذوق الرفيع يا يوسف، كان عليك دعوتي إليها منذ فترة كبيرة.."

أخذ يوسف نفسًا طويلًا ثم قال مباشرة وبإقتضاب

"نظرًا للظروف لم يكن هذا ممكنًا لذا دعنا لا نحرج أنفسنا بالذوقيات.. ولا أظنك أتيت إلى هنا كي تعاتبني.."

استدار إليه الرجل قائلًا بنفس الإبتسامة الواثقة

"في الواقع بلى، أتيت لأعاتبك.."

قست نبرة يوسف وهو يقول بعنف

"ربما اذن كان عليك فعل هذا قبل أن تلجأ لأحد موكليني وأكثرهم أهمية ومكانة كي يحدثني في أمرٍ بالغ الخصوصية كهذا!.."

برقت عينا الرجل للحظات وضاقت ابتسامته، ثم قال أخيرًا

"وربما لأجل المودة القديمة فعلت هذا.. كي لا نضطر للمواجهة كما نفعل الآن.."

ضحك يوسف ضحكة خشنة مزدرية وهو يقول بكره

"لم تكن بيننا أي مودة في أي يومٍ من الأيام يا سيد شكري.. لا يوجد شيء بيننا سوى امرأة واحدة، تركتها.. وأحببتها أنا.."

صحح له الرجل مبتسمًا بهدوء

"امرأتين تركتهما في الواقع.."

عرف شكري أنه قد نال منه، من نظرة إلى وجهه الذي طفت فوق صفحته الجامدة رعدة غضب وانقباض كفه.. لقد أفقده توازنه للحظة وسره هذا..

ثم قال يعاجله بسرعة قبل أن يفيق

"ضربتك ضربة، فرددتها لي.. وكذلك نوال، ضُرِبت ضربة فردتها.. لما لا نغلق هذه القصة السيئة بأكملها كي لا يتأذى أولادي ويتأذى مستقبلك؟.. أنت تستحق الأفضل يا يوسف.."

تكلم يوسف بنبرة خفيضة حادة

"يؤسفني أنك لا تراها الأفضل.. أما أنا فكنت محظوظًا بما يكفي لأرى هذا.."

هز شكري رأسه بنفاذ صبرٍ وهو يتنهد قبل أن يسمر عينيه على عيني يوسف للحظات ثم قال

"هل فكرت بعد عشر سنوات كيف سيكون وضعكما؟!.. بعد عشرين سنة!.."

رد يوسف قاطعًا بصرامة ونبرة مخيفة

"لن أناقفش أمر كهذا مع طليق امرأة أنوي الزواج بها، ليقنعني أنه يريد مصلحتي.."

ضحك شكري وهو يقول سائلًا ببرود ساخر

"تنوي الزواج منها!!.. يالك من واثق من نفسك حد الغرور يا يوسف، ومع ذلك شديد الغباء في انتقائك سامحًا لخللٍ في نفسك بالتحكم في عقلك ومنطقك.."

هدر يوسف قائلًا بعنف

"إن كنت ستتجاوز حدك فانصرف كي لا تهين نفسك.."

ضحك الرجل وهو يهز رأسه مجددًا، ثم قال بهدوء ماكر

"بل أنت من تتجاوز حدك وأنا أتيت اليوم تحديدًا كي أعاتبك فعلًا على تجاوزك هذا.."

و قبل أن يرد يوسف.. رآه يخرج من جيب سترته هاتفًا يعرفه جيدًا من شكل غطائه الملون.. فتحه شكري وبدأ يقرأ بصوتٍ عالٍ هازىء

"خذلتني أمامهم في حين قررت مواجهة العالم بكِ!!!!!..أيرضيكِ عجزي عن إداء مرافعة وأنتِ لستِ الجمهور؟!!!!!!!.. أحتاج جلوسك أمامي لتستمعي كما اعتدتِ وعودتِني!!!!!!!!"

كان بعد قراءة كل مقطعٍ بصوتٍ ساخر يرفع عينيه إلى عيني يوسف مستهزئًا مستنكرًا..

تحرك حلق يوسف المتشنج بينما تحولت عيناه إلى شظايا نارية غاضبة.. ثم قال بصوتٍ خفيض شرس

"تتفاخر بسرقة هاتف امرأة لا تخصك وقراءة رسائلها!!.."

أغلق شكري الهاتف وأعاده إلى جيبه ببساطة ثم نظر إلى يوسف قائلًا بهدوء

"يحق للرجل وضع حد لوصول رسائل كهذه إلى هاتف زوجته، ألا توافقني الرأي!.."

صحح يوسف قائلًا بعنف

"طليقته.."

ضحك شكري بصوتٍ هادىء وهو يقول ناظرًا في عمق عينيه

"بل زوجته الحالية.. جئتك أخبرك أن نوال باتت زوجتي من جديد لصالح ابني وبنتي.. وأن اهتمامك بها وملاحقتك

لها بات شيء غير مقبول وأنت أدرى الناس بالقانون، فلا تدعني استخدمه ضدك. حفاظًا على مستقبلك المهني.."

و أمام نظرة يوسف المصعوقة كان شكري قد اكتفى بتحقيق ما أتى لأجله.. ثم اتجه إلى الباب وقبل أن يخرج استدار إليه قائلًا بهدوء

"كلمة أخيرة يا يوسف.. ما كنت لها سوى لعبة انتقام منذ البداية، لكن اللعبة منحتها الصبا الزائف ومتعة خداع الزمن.."

*****

أثارت أعين الناس في الحي وهي تجري ممسكة بطرفِ عباءتها.. وجهها الباكي مخيف وعيناها الحمراوان كالدم مرعبتين مصممتين بعزمٍ قوى على إيذاء أحدهم..

حاول كل من رآها أن يوقفها ويسألها عن حال ابنتها التي تركتها في المشفى إثر وقوعها المفجع من النافذة..

لكنها كانت تدفع كل من يعترض طريقها وعيناها في اتجاه مستقيم كأنها عمياء لا ترى غيره..

وصلت لبيت محدد فدخلت لأول باب منه وضربت على خشبه بقبضتيها بمنتهى العنف وهي تصرخ بوحشية

"افتحي.. افتحي الباب.. افتحي الباب.."

مرت لحظات قبل أن تفتح بدرية الباب وهي المقصودة فنظرت بدهشة إلى جميلة التي كانت تبدو وكأن مسًا من الجنون قد أصابها.. فسألت ذاهلة خائفة

"ما الأمر يا جميلة؟!.. ماذا حدث؟!.."

لكن جميلة لم تتنازل بالرد بل انحنت لتخلع حذائها من قدمها ثم هجمت عليها تضربها بكل قوتها وأمام صدمة المتجمهرين صارخة بجنون

"ماذا تريدين مني ومن بناتي؟!.. إبتعدي عنا، ابعدي عينك وشرك الأسود عن بناتي.."

صرخت بدرية بكل قوتها وهي تشق ملابسها تستنجد بالناس قبل أن تشد شعر جميلة نازعة الوشاح عن رأسها تكاد أن تسحلها أرضا لولا أن حال الجمع بينهما بصعوبة شديدة والنساء تصرخ في جميلة أن تستعيد عقلها يبعدنها بالقوة، يحملنها حملًا وهي تصرخ فيهن بعينين واسعتين

"هي من حسدت بناتي.. هي من قتلت إبراهيم هي من تدس لنا أعمال الشر.."

الهتاف من حولها يدعوها أن تصبر على مصيبتها وأن تستعيد وعيها لأجل البنتين والمسؤولية الضخمة فوق عاتقها..

و كانت ابنتها كانت رأتها من النافذة من أول دخولها للحي بهذا المنظر المخيف فارتعبت وخرجت من البيت حافية القدمين جريًا تبحث عنها إلى أن تتبعت الصراخ فاقتحمت الناس ووصلت لأمها فتشبثت بها وهي تصرخ باكية بعنف

"كفى يا أمي أرجوكِ.. تعالي لنعد للبيت، أتوسل إليكِ.."

أما جميلة فكانت لا تزال تصرخ في الناس هاتفة

"لقد أخبرني الشيخ.. حين ذهبت إليه بالبنتين أخبرني أن واحدة قريبة وعينها نافذة دست لأسرتي عملًا شريرًا غير قابل للفك من يومها.. إنها هي، أقسم لكم أنها هي من أرادت بنا سوءًا.."

ارتعدت الفتاة وهي تتذكر هذا الدجال الذي صحبتهما أمهما له ذات يوم وطلب منها أن تتركه مع البنتين قليلًا حتى يستعشر الشر المحيط بهما..

انتفضت وهي تتذكر ملامسته لجسدهما بأكمله.. يطيل اللمس في مناطق محددة بينما عيناه تنظران إليهما نظرة مخيفة كشخص جائع..

صرخت فجأة بقوة وهي تنتحب من هول الذكرى

"كفى يا أمي أرجوكِ.."

انتبهت جميلة فجأة لوقوف ابنتها بجوارها وكأنها نبتت من

تحت الأرض، فصمتت عن الصراخ للحظة وهي تنظر إليها بطريقة غريبة ثم قبضت على كتفيها فجأة وهي تهمس من بين شفتيها بوحشية تهزها

"أنتِ من دفعتِها من النافذة.. أليس كذلك؟؟.."

اتسعت عينا الفتاة بصدمة كبيرة وفغرت فمها غير مصدقة فهزتها جميلة مجددا وهي تهتف

"أنتِ من دفعتها بسبب حديثنا.. قولي ولن أضربك،.."

صرخت ابنتها باكية بشدة مترجية

"أقسم بالله لم أفعل يا أمي.. يشهد الله أنني لم أفعل.."

ظلت جميلة صامتة تدقق النظر في عيني ابنتها وهدير أنفاسها الساخن يلفح بشرها الحمراء المبللة..

ثم شعرت برجل يحاول تفريق الجمع وهو يهتف فيهم بخشونة أن يبتعدوا وما أن وصل إلى جميلة حتى قال

بصوتٍ عالٍ

"وحدي الله يا سيدة جميلة.. ما تفعلينه يضرك ويضر ابنتيكِ.."

نظرت إليه جميلة وهي تهذي لكن بصوتٍ خافت بعد أن هدأت قليلًا

"البنت.. ضاعت البنت مني كما ضاع أبوها.."

تكلم الرجل بصوت نافذ

"هيا كل إلى بيته ومصالحه هيا، لم يعد ما تشاهدونه.."

بدأت الناس تتفرق ببطء وعلى مضض بينما أحاط الرجل كتفي ابنة جميلة بذراعه يضمها إلى صدره وهو يقول آمرًا

"هيا إلى بيتك يا جميلة ولنتكلم هناك كفاكِ فضائح في الحي.."

تركته جميلة يقودها هي وابنتها حتى بيتهما.. فأجلسها على الأريكة وكانت تنظر أمامها تضرب ركبتيها بكفيها مكلمة نفسها دون توقف

"راحت البنت.. راحت البنت.."

جرت ابنتها إلى غرفتها باكية بقوة وأغلقت الباب خلفها.. أما الرجل فجلس على كرسي قديم مقابل وقال

"وحدي الله يا جميلة ولا تقدمي الفأل السيء على ابنتك.."

نظرت إليه وهي تلوح بكفيها هامسة بنحيبٍ ذاهل

"يقول الطبيب أن ظهرها قد تضرر بشدة وأنها قد لا تتمكن من المشي مجددًا.. بعد كل ما لاقته من مرض وعذابه.. لماذا يقع الإبتلاء كله عليها هي وحدها؟!.. أما كان يقسم على الإثنتين!.."

أخذت تلطم وجنتيها بشدة بينما ابنتها في الداخل تكتم بكائها الشديد من هول ما سمعت

تكلم الرجل قائلًا ببطء

"لا تقولي هذا يا جميلة.. إن شاء الله ستكون ابنتك بخير، أنا معكن منذ اليوم ولن أتخلى عنكن أبدًا"

*****

نظرت عالية إلى صورتها في المرآة بينما وقفت ليلة خلفها تمشط لها شعرها، فقالت مبتسمة بلطف

"أريد ضفيرة السنبلة يا ليلة من فضلك.."

توقفت أصابع ليلة عن التمشيط للحظة وهي تقابل نظرات عالية الودودة في المرآة بعينين جامدتين دون تعبيرٍ للحظات.. ثم تابعت التمشيط بصمت، وأثناء تضفير شعرها سألت بفتور

"لما كل هذا التأنق؟!.. إنها مجرد مقابلة ثانية عبر الشاشة، فلم يعلن عن موافقته بعد.."

ردت عالية ممازحة وهي تعدل ياقة فستانها

"بما أني مع كل من سبقوا لم أتجاوز المقابلة الأولى فهذا يعد تطورًا ملحوظًا.."

لم ترد ليلة وتابعت تضفير شعرها بصمت، بينما شردت عالية قليلًا قائلة بعدم رضا

"وإن كان الموضوع غير مبشر فعلًا، فعلى الرغم من أننا تعارفنا المرة السابقة، ظننته سيطيل الكلام.. لكنني فوجئت به يلقي التحية وينهي المقابلة، فسلمت بأن الموضوع قد انتهى، لكن قبل أن يفعل فوجئت به ثانية يطلب موعدًا لمقابلة أخرى!!.. أتراه من النوع المتردد أم يتسلى؟!..كل ما عرفته عنه أنه يمتلك متجرًا لبيع المستلزمات الرياضية رغم كونه مهندسًا وهذا كل شيء..

إنه يبدو أقل إصرارًا منه حين كان يرسل لي التعليقات على حلقاتي بعبارة واحدة وهي " هل يمكنني الكلام معكِ في موضوع شخصي "

في البداية تجاهلته لكن مرة بعد مرة لمحته الخالة حسنات من حسابها ودخلت دون اذنٍ مني تسأله عما يريد.. حينها بدأ الحوار بينهما وأخبرها أنه يبحث عن عروس.."

شعرت بأنها قد ثرثرت مع نفسها طويلًا وعلى الأغلب أن ليلة الآن تجاد تجن من شدة الملل فصمتت لكن بعد فترة سألتها ليلة دون حماس

"هل يعجبك؟.."

فكرت عالية في السؤال طويلًا ثم قالت ببطء

"انطباعي تجاهه أفضل ممن سبقوه.. لكن لافكرة لدي عن السبب.."

عادت ليلة لتقول

"وهل هذا يكفي؟.. لمجرد أن انطباعك عنه أفضل ممن سبقوه!.."

ضحكت عالية وهي تقول ببساطة

"لستُ في موضعٍ يؤهلني لإختيارِ أفضل من هذا.."

نظرت إلى ساعة معصمها ثم قالت بتوتر

"حسنًا.. قد حان الموعد المتفق عليه، بعد اذنك يا ليلة.."

استدارت عنها ودارت حولها لتخرج من الغرفة.. بينما وقفت ليلة مكانها أمام المرآة تنظر إلى صورتها بنظرة خاوية وهي تتخلل شعرها الطويل بأصابعها على مهلٍ.. وحزن..

*****

"هل تحب القراءة؟.."

سألته هذا السؤال بإهتمامٍ جم وتهذيبٍ بالغ، بينما كان وكأنه جالسٌ نفس الجلسة منذ المقابلة الماضية..

متراجع في مقعده مستندًا بمرفقه إلى ذراع كرسيه.. رافعًا

يده إلى ذقنه وهو يتأملها بدقةٍ مربكة وكأنه يتفحص فيها شيء أعمق.. وكأنه ينفذ داخلها.. وهذه المرة لم تمانع تأمله، ربما لأنها شعرت بنفسها تفضل هذا العمق في التأمل أكثر من سطحيةٍ عومِلَت بها من قبل..

أخفض يده بعد سماعه سؤالها ثم أجاب بإختصار

"كنت أحبها، كنت قارئًا نهمًا ذات يوم.."

ازداد فضولها وهي تسأل بإهتمام

"أما الآن فلا؟!.."

أجاب مباشرة دون تزيين للكلمات

"نبذتها منذ زمن.."

عقدت حاجبيها قليلًا وهي تقول بخفوت

"هذا غريب.. قارىء نهم، لا يمكنه نبذ القراءة فجأة دون

سبب مقنع، أي نوعٍ كنت تفضل قرائته؟.."

تحركت شفتاه قليلًا لا تعلم إن كانت ابتسامة أم مللًا وامتعاضًا.. لكنه أجاب بهدوء

"لطالما حيرني سؤال كهذا، لم أكن أقرأ ما أفضل فحسب.. كنت أقرأ لأنني مهتم بمعرفة كل ما يمكنني معرفته.. وخلال هذا راق لذوقي الكثير من بين ما قرأت.. قرأت في الشعر الجاهلي.. قرأت لدستويفسكي ووويليام شكسبير.. قرأت للعقاد وطه حسين ونجيب محفوظ.. قرأت مختصر مقدمة ابن خلدون.. قرأت الإلياذة والأوديسا والعديد من كتب الميثولوجيا الإغريقية أحببت التاريخ بشكلٍ خاص وكنت نهمًا في القراءة عن العصور والأسر وانهيار دولٍ وقيام حضاراتٍ وأهوال الحروب.. قرأت عن الحب كتبًا وروايات.. أحببت القديم منها أكثر من الحديث فيها.."

كانت عالية أثناء كلامه قد مالت للأمام واستندت بمرفقيها على سطح المكتب وذقنها بين كفيها تستمع إليه.. وحين خفتت كلماته وصمت.. سألته بفضول

"لماذا؟.."

انتبه لسؤالها فرفع عينيه إلى عينيها وسألها بصوتٍ أجش خفيض

"ماذا؟؟.."

كررت سؤالها شارحة

"قلت للتو أنك تفضل روايات الحب القديمة عن الحديثة.. لماذا؟.."

أسبل جفنيه للحظة ثم أجاب بواقعية

"ربما لأن التضحية في الحب كانت متواجدة في زمنٍ فات فكانت مقنعة.. أما الآن فمن يكتب عنها لن يقنعني مطلقًا.."

أرادت أن تجادله وتعارضه.. لكن على أي أساس؟!.. هل تملك دليلًا أو برهان؟!..

ظل صامتًا لفترة ثم قال متابعًا ببساطة

"أحببت علوم الفضاء والفيزياء الفلكية جدًا.."

ثم تابع سائلًا بإبتسامة ملتوية ظهرت أخيرًا، على الأقل يمكن تعريفها كإبتسامة..

"هل أمكنك الإستنتاج مما ذكرت أي نوعٍ من الكتب كنت أفضله؟.."

ابتسمت ابتسامة عريضة ثم أجابت بهدوء

"سأعتمد على حدسي وأجيب بأنك أحببت التاريخ بشكلٍ خاص.. كما ذكرت.."

تجاوب مع ابتسامتها بإبتسامة صامتة وهو ينظر إليها وعاد يستند برأسه المائل على كفه عائدًا للتفحص..

فسألته قائلة

"منذ متى توقفت عن القراءة؟.. وإن كان السؤال غريبًا ومشوهًا جدا بالنسبة لي.."

أجابها بوضوح

"عشر سنوات تقريبًا.."

ارتفع وجهها عن كفيها وهي تهتف

"عشر سنوات!!!.. هل انغمست في معارك الحياة المادية وتكوين نفسك وتأمين مستقبلك؟!.. وكيف تمكنت من التعافي من إدمان القراءة هذه الفترة الطويلة دون انتكاساتٍ بالعودة يومًا لجرعةٍ متخمة أدبية أو تاريخية..بإختصار، لماذا؟."

نظر إليها ثم قال ببطء

"يمكنك القول أنني فقدت إيماني بالكثير من المعاني.. فباتت القراءة دون ثقةٍ خاوية.."

ساد الصمت بينهما للحظات، ثم سألت بإختصارٍ شديد مكررة

"لماذا؟.."

سألها بهدوء شديد

"هل تفضلين الصراحة منذ البداية أم نؤجلها لمقابلاتٍ تالية؟.."

شحب وجهها قليلًا ثم همست بعد تفكير

"أفضل الصراحة، وأظنني لم أكن صريحة معك في معلومةٍ ستجعلك تذهب بلا رجعة.."

ضاقت عيناه وهو يقول بصوتٍ أجش

"هذه نقطة مشتركة بيننا غاية في الأهمية..فأنا لم أكن صريحًا معكِ في نقطةٍ ستجعلك تذهبين بلا رجعة"

نظرت إليه بعينين واسعتين منتظرة.. ثم همست ببطء

"هل تبدأ أنت أم أبدأ أنا؟!.. ترى من منا سيُفاجأ أكثر!.."

أجابها مبتسمًا بسخرية دون اهتمام

"تعنين من منا سيصدم أكثر.."

تنهدت بملامح شاحبة وابتسمت قائلة تهز كتفيها

"اعتدت الصدمات منذ زمن.. ثم ما هو أقصى ما قد يحدث؟!.. سنودع بعضنا مع تمنياتٍ بالتوفيق ونغلق الشاشة.."

ساد صمت طويل وهو ينظر إليها مبتسمًا بطريقة غريبة لم تصل إلى عينيه ثم قال بهدوء

"لقد كنت في السجن.. محكومًا بخمسة عشر عامًا، وتبعًا لسنواته قضيتها أحد عشر.."

شعرت وكأن أحدهم قد لكمها فجأة ففغرت فمها ببلاهة منتظرة منه أن يضحك ويخبرها بأنها كانت مزحة سمجة.. لكن ملامحه الجادة الهادئة أخبرتها أنه لا يمزح

ارتعشت شفتاها وهي تسأل متلعثمة تكرر الأحرف والكلمات

"ما هي تهمتك؟!.."

رد عليها بهدوء مبتسمًا

"قتل انسان.."

سقط فكها وهي تمد وجهها للأمام تتحقق من جدية عينيه مرة أخرى.. ثم تراجعت في مقعدها وهي تغطي فمها بيدها وفوقها عينين واسعتين..

منحها بعض الوقت قبل أن يسألها ساخرًا

"اذن هل ستصارحيني بما كنتِ تخفين أم ستتمنين لي

التوفيق وتغلقين الشاشة؟.."

بدت غير قادرة على الكلام لفترة، ثم شعرت بأنها على الأقل مدينة له ببعض الصراحة حتى وإن كانت هذه هي آخر مقابلة..

فأخفضت يدها عن فمها ومدتها خلف ظهرها تسحب بها الغطاء الوردي البراق عن ظهر مقعدها ببطء شديد وهي مطرقة الوجه.. وأمام عينيه المصدومتين اكتشف أنها تجلس على مقعد متحرك كانت تخفيه ببراعة!!

مضت بضع لحظات لم ترفع خلالها وجهها إليه ثم همست سائلة بهدوء رغم ابتسامة الحزن

"ترى من منا صدم الآخر أكثر؟!.."

لو كانت رفعت عينيها إليه في تلك اللحظة، لعرفت أن صدمته فاقت كونه قاتلًا بمراحل زمنية!!

*****

لم يتوقف الرجل الذي وعد بالمساعدة عن زيارة جميلة وابنتها.. أما الأخرى فقد كانت راقدة في المشفى بعد إجراح عملية جراحية لم تمنحها أي أمل في المشي من جديد..

و كان يساعدها بمبلغٍ بين الحين والآخر وكانت جميلة تتقبله منه شاكرة بخفوت..

فهو أحد سكان الحي، سبق واقترض منه إبراهيم عدة مرات والحقيقة أنه مرابي، يقرض الناس ثم يطالبهم بفائدة..

لكن الحق يقال أنه ومنذ وفاة إبراهيم لم يطالب بديونه.. لذا حملت له جميلة معروفًا وتقبلت زياراته..

لكنها في قرارة نفسها كانت متحرجة من دخوله البيت بعد خلوه من رجله.. وهي تسكن منطقةً، الألسنة فيها لا ترحم أرملة أو أم تعاني بطفلة مريضة.. ومهما بلغت الصدمات التي مرت بها فلن تتورع الشائعات عن نشر شيئًا شائنًا يحدث في بيت ابراهيم..

لكنها لم تستطع منعه من القدوم.. فقد كانت في حاجة

لمساعدته..

الأيام تزداد عنفًا وقتامة.. فقد صرفت المبلغ المتبقي من التعويض على جراحة ابنتها، وباتت خالية الجيبين تمامًا لا تعرف كيف ستدفع ثمن جلسات الغسيل المقبلة..

حوالي عشر جلسات في الشهر.. كل جلسة تعادل ما يقارب يومين تنظيفٍ كاملين، لكن وماذا عن الأكل والتعليم والمتبقي من أساسيات الحياة؟!..

هذا إن وجدت كل هذا العدد من البيوت لتنظفها بإنتظام.. وعلى الأغلب لا تجد..

ابراهيم لم يترك معاشًا ولا ادخار.. ومبلغ التعويض حصلت عليه بعناء وها هو قد تبخر

حتى الأمل الأخير تبدد تمامًا..

فقد أجبرت ابنتها الأخرى على الذهاب بالقوة لعمل الفحص.. وثبت أنها غير مطابقة..

كل الطرق مغلقة أمامها تمامًا..

و لن تخدع نفسها، فقد كانت تلمح في عيني الرجل اهتمامًا خاصًا.. لكنه لم يقدم على أي شيء منكر..

و لم تحتج أن تعترف لنفسها بأنه إن عرض عليها الزواج ستوافق..

ستوافق أن تكون زوجة ثانية، بل وخادمة للأولى.. إن تضمن هذا تكفله بعلاج ابنتها..

إنه الحل اليائس الأخير..

جلست بجواره فوق الأريكة المتآكلة وهي تختلس النظر إليه مشبكة أصابعها بملامح شاحبة مهمومة..

بينما كان يرتشف كوب الشاي بصوتٍ بطيء.. وبادلها النظر للحظة، فإضطرت للإبتسام بصعوبةٍ ابتسامة قصيرة..

ثم قال أخيرًا عارضًا

"وما رأيك فيمن يحل لكِ مشاكلك كلها؟!.."

سألت بخفوتٍ مضطرب

"كيف وقد عرفت البئر بما فيه.. أي أمل لي ولبناتي؟!.."

وضع الكوب من يده ونظر إليها قائلًا

"ما رأيك إن خلصتك من هم جلسات الغسيل كلها والخوف من نتيجتها المحتومة.. وأجريتِ عملية نقل كلى لإبنتك؟.."

فغرت فمها غير مصدقة لما تسمع، قلبها يخفق بجنون والأمل يبدو وكأنه قد عاد للحياة من جديد، فإستدارت إليه بسرعة وهي تهتف

"لكن كيف، أمامنا طابور طويل من المحتاجين.."

ابتسم الرجل وهو يقول بخفوت

"هناك طرق أخرى غير البنوك.. متبرعين في حاجةٍ للثمن.."

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وحدقتاها تهتزان ثم تلعثمت سائلة

"ومن أين لي بالثمن للمتبرع؟!.."

وضع يده على صدره قائلًا بثقة

"أنا سأتكفل بالثمن وتكاليف الجراحة.. وسأجد لك المتبرع فهم كثر والمحتاجين لا أكثر منهم هذه الأيام.."

هزت رأسها علها تفيق من هذا الحلم الذي تحياه، ثم أعادت عينيها إليه فقال متابعا بنبرة ذات مغزى

"لكن ماذا ستعطيني في المقابل؟.."

ها هي اللحظة التي حسبت لها حساب.. نعم إن طلبها للزواج ستوافق، لأجل ابنتها ستفعل فلا خيار..

لن تقف عاجزة وتترك طفلتها تموت أمام عينيها.. فقالت

تسأله بصوتٍ مختنق متعثر

"ماذا تطلب؟.."

رد عليها مشددًا على كل كلمة دون تردد

"ابنتك السليمة.. ليلة.."

*****

سمع صوت الأجراس الهوائية المعدنية تتخابط وتصدر لحنًا معلنًا عن دخول أحد الزبائن إلى متجره..

سيكون هذا الزبون الثالث منذ افتُتِح المكان، وفي الحقيقة هو لا يبالي..

راض هو بجلوسه هنا وحيدًا لا يعرفه أحد بل لا يدخل إليه أحد من الأساس.. كل ما يؤرق ضميره فقط هو أن المتجر افتُتِح بإدخار والده طوال السنوات وبأمرٍ منه.. فقرر أن يرضيه ويوافق على أن يوافق والده في المقابل بأن يمكث

لوحده في الشقة البعيدة..

خرج من غرفةٍ ملحقة بالمتجر وهو يجفف يديه بعد أن غسل الكوب الخاص به.. لكنه توقف فجأة متسمرًا وهو يرى الشخص الذي دخل..

لم يكن زبونًا.. بل كانت هي بعينها!!..

توقف معاذ عن الحركة وتصلبت ملامحه وعيناه وهو يدقق النظر بها.. كانت تسير متمهلة تنظر يمينًا ويسارًا تتأمل المستلزمات الرياضية المعلقة في كل جزء.. لكن التوتر كان يحيط بها ويكذب هالة اللامبالاة التي كانت تحاول رسمها عبثًا.. فغر فمه بشكلٍ غير ملحوظ وعيناه تجريان على طول قوامها وساقيها.. في فستانها الطويل كشعرها المسدل على كتفيها..

شعرت أن هناك من يراقبها خلال ثانيتين فإستدارت حتى إلتقت أعينهما مما جعلها تكتم أنفاسها مترقبة..

و ساد الصمت لفترة قبل أن يقول بصوتٍ أجش غريب

"هناك اثنتان منكما!!.."

*****

" الفصل السادس "

تراجيديا

" المأساة "

"المأساة كما عرفها أرسطو هي محاكاة أي حدث يثير انفعال الألم في العمل الدرامي أو الأدبي، وغالبًا ما ينتهي بالموت! "

أما عن مأساة الواقع، فحياة كل انسان هي عمله الدرامي الخاص، قد ينسج منه مأساة كل يوم ويفنن تفصيلها، حتى وإن لم تكن إبتلاءات القدر من اختياره، لكنه يخلق لها سببًا يدور من حوله دائمًا..

يجعل من نفسه مذنبًا يستحق أو مظلومًا ضحية فاق احتماله الجميع ومختارًا للإبتلاء

أي كان السبب فهو يغفل عن حسن استقبال الإبتلاء.. يغفل

عن الحكمة فيه ويتعمق في السبب

و قد ينهار أكثر وينسبه للخرافة!

*****

" كان من المنطقي أن تنهار قوى إبراهيم ذات يومٍ فيسقط..

ومن الطبيعي أن تتهاوى ابنته بضعف المرض وتلحق به سقوطًا لكنها تظل على قيد الحياة، سجينة العجز مع المرض..

لكن جميلة أبت إلا أن تنسبها للخرافات أو أفعال البشر، ولم يكونوا أفضل منها قط فقد نسبوا حياتها للنحس. وعرف عنها المتبقي من حياتها أنها نحس ونذير شؤم على كل من تعرف..

و للأسف قد تلجأ في حالها إلى أسوأ الخيارات وأكثرها فظاعة. "

*****

"هناك اثنتان منكما!!.."

حاولت استجماع السيطرة على أعصابها المتوترة، فرفعت يدها تدس بها شعرها خلف أذنها وهي تخفض وجهها بعصبية.. وتبادر نفس السؤال إلى ذهنها

" ماذا تفعل هنا؟!.. "

لكن ما حدث قد حدث وها هي هنا..ثم قالت بصوتٍ فاتر خفيض

"لم أظنك ستتعرف علي بهذه السرعة!.."

تحركت قدماه ببطء وهو يقترب منها، عيناه لا تحيدان عنها.. حتى وصل إليها ووقف..

انتظرت منه أن يتكلم أو يبدي دهشته من زيارتها له.. لكن عيناها الناظرتان أرضًا اتسعتا قليلًا وهي تشعر به يدور

حولها ببطء أكبر.. مما جعلها تتحفز وترتفع كتفاها تلقائيًا..

أكمل دورانه حولها وكأنه يدور بكوكب ثم وقف حيث بدأ.. وبقي صامتًا محدقًا بها..

لا تعلم لماذا شعرت به عاجزًا عن الكلام.. فزاد توتر أعصبها، لكنه قال أخيرًا بصوتٍ غريب خفيض

"للوهلة الأولى تبدوان لمن ينظر إليكما نسختين متطابقتين.. لكن مع تدقيق النظر يسهل التفريق بينكما.."

ارتبكت بشدة من نبرة صوته وعينيه المحدقتين ثم قررت البدء بالكلام فقالت بصوتٍ خافت أجش

"لا بد أنك تتسائل عن سبب زيارتي.."

تكلم بصوتٍ أجش بدا غريبًا بعض الشيء

"ليس تمامًا.. من الطبيعي أن يحاول أحد أفراد عائلة عالية التعرف على شخص مرشح للزواج بها ورؤية مكان عمله.."

أومأت برأسها متمسكة بتلك الحجة ممتنة، بينما هي في الحقيقة لم ترِد سوى أن ترى هذا الرجل الذي قد يتزوج عالية..

ما هو شكله.. شخصه.. اسلوبه..

ربما لتشعر بمزيدٍ من نقمةٍ حاولت كتمها داخلها لسنوات حتى أمرضتها وبدأت في الخروج للعلن..

تابع كلامه قائلًا بصوتٍ هادىء وكأنه استعاد وعيه سريعًا..

"على أني أعترف ببعض الدهشة من الخطوة المبكرة قليلًا.. فنحن، أنا وهي.. لم نتخذ قرار الموافقة بعد.."

شعرت به يحرجها، فتمالكت نفسها وهزت كتفها وهي تنظر إليه قائلة بفتور

"وإن يكن.. كلامكما معًا يعني دخولك بيتنا بشكلٍ ما وهذا يستدعي التأكد من شخصك.."

ساد صمت طويل ثم قال أخيرًا بهدوءٍ غير مطمئن

"هذا منصف كفاية.."

ثم استدار عنها فجأة وهو يلقي بالمنشفة بعيدًا قائلًا بنبرة آمرة

"تعالي اجلسي.."

تصلب جسدها تحفزًا من النبرة والصوت المتسلط، فظلت واقفة مكانها تنظر إلى ظهره بقلق..

مما جعله يلتفت اليها قبل أن يجلس، ثم سأل بصوتٍ أجش

"لماذا تقفين عندك؟.. تعالي واجلسي.."

قالت بتردد وهي تتشبث بحقيبتها

"أنت لا تجيد الدعوة.."

ابتسم متهكمًا ثم دعاها بطريقة مسرحية وهو يقول بجفاء

"هلا تفضلتِ بالجلوس.."

أرادت الهرب من هذا المكان بسرعة، وهي تلعن الغباء والغيرة اللذان دفعاها للمجىء إلى هنا كي تعاينه بنفسها..

و أما بعينيه هو فقد كان يراقب حركاتها المتوترة وأصابعها المتشبثة فوق حقيبتها المعلقة بكتفها..

كانت قاتمة بشكلٍ ما.. داكنة كشيء مظلم..

استطاع الشعور برغبتها في الهرب، خاصة وهي تستدير للحظة بعينيها تحاول تقدير المسافة التي تفصلها عن باب المتجر..

وأخيرًا قررت خوض المزيد من المغامرة، فاقتربت على مهل حتى جلست في الكرسي المقابل له، تريح حقيبتها فوق ركبتيها مخفضة وجهها المتجهم قليلًا، الشارد كثيرًا..

سألها بصوتٍ جاد أقرب إلى نبرة التحقيق

"ما اسمك؟.."

ابتلعت ريقها وشعرت بأنها في قسم الشرطة ومجددًا رفعت وجهها تنظر لباب المتجر، ثم قالت أخيرًا بقنوط

"ليلة.. ليلة إبراهيم عبد الحي.."

في ظروفٍ أخرى كان ليبتسم من ذكرها اسمها الثلاثي كاملًا، لكنه الآن لم يكن ليبتسم مطلقًا..بل كان متراجعًا في مقعده يراقبها بتفحص وظاهر يده على ذقنه..

سأل أخيرًا بصوتٍ أجش

"هل أرسلتكِ عالية لتفقد مكان عملي؟.."

أجفلت للحظة ورفعت وجهها إليه، ثم عادت وأخفضته بسرعةٍ وهي تهز رأسها نفيًا.. فقال ساخرًا

"اذن جئتِ من تلقاء نفسك!.. ما الذي تبحثين عنه؟.."

الآن يجب عليها أن تتخلص من توترها وتهاجم كي تحمي نفسها من استجوابه، فرفعت وجهها إليه وبدت أكثر ثقة هذه المرة وهي تجيبه بجفاء

"أنا أختها ومن حقي رؤية من سيتقدم طالبا الزواج منها.."

لم يفقد ابتسامته الساخرة وهو يقول

"مجددًا، الخطوة مبكرة.. لما لم تنتظري حتى نبدي موافقتنا؟.."

رفعت ذقنها وهي تقول ببرود

"بناءً على رأيي ستتخذ قرارها بالموافقة أو الرفض.."

مال برأسه موافقًا بطريقةٍ ساخرة، ثم قال بهدوء

"مجددًا، هذا منصف كفاية.. بل أكثر إنصافًا.."

يفترض بها أن تشعر بالزهو لتحقيقها هدفًا، للاشيء منه في الحوار.. لكن ارتباكها زاد لسببٍ مجهول

الصمت بينهما بات محرجًا ثقيلًا، وكم شعرت بنفسها غبية.. لماذا لم تحضر بضعة أسئلة تسألها له كي تخفي سببها الحقيقي في المجيء إلى هنا!..

تكلم مجددًا سائلًا، وكأنه هو من استدعاها إلى هنا ولم تأتي بمحض إرادتها

"هل تخبرك عالية عما يدور بيننا من محادثات؟!.."

أجفلت للحظة إلا أنها ردت بغرور

"بالطبع، وماذا تظن؟!.."

ضاقت عيناه للحظة ثم سألها مجددًا

"هل أخبرتكِ عن.. سفري خلال العشر سنوات الماضية!!.."

هل كان مسافرًا لعشر سنوات!!..

زمت شفتيها بقسوة فآخر محادثاتٍ بينهما تعمدت عالية أن تخفي ما تضمنته تمامًا، لم تقل سوى عنوان متجره هذا.. وهو ما استغلته لتأتي وتتفحص الرجل الذي سيتزوج أختها..

ردت بتردد أخيرًا

"نعم.. بالطبع أخبرتني.."

تراجع رأسه للخلف بتفكيرٍ عميق وهو ينظر إليها طويلًا.. فتظاهرت بتأمل متجره ثم سألت بطريقة عفوية

"هل متجرك هذا افتُتِح حديثًا؟.."

لم يرد على الفور، ثم قال أخيرًا ببديهية

"طالما كنت مسافرًا لعشر سنواتٍ وأكثر وقد عدت لتوي فهذا يعني أنه افتُتِح حديثًا.."

تورد وجهها بغيظٍ فأخفضته ضاغطة قبضتيها معًا، ثم وبحركةٍ عصبية رفعت يدها تسحب شعرها على جانب كتفها وكأنها لا تدري ماذا تفعل بيدها من شدة التوتر.. وليتها ما فعلت..

فحين نظرت جانبًا بعصبية ظهر عنقها له، مما جعله ينظر إليه للحظات ثم قال بهدوء

"لديكِ.."

نظرت إليه مستفهمة، ثم انتفضت لرؤيته ينظر إلى عنقها بهذه الوقاحة.. لكن اصبعه كان يشير إلى عنقه هو وهو يتكلم، فضيقت عينيها بحيرة.. مما جعله يقول

"بطاقة الثوب.. لاتزال معلقة بياقته.."

اتسعت عيناها للحظة وهي ترفع يديها بسرعة تتأكد مما يقول، ثم احمر وجهها بشدة وهي تحاول نزعها بالقوة.. لكنه قال بخفوت

"ستمزقين الياقة.. انتظري لدي مقص.."

حاول النهوض ليحضره، إلا أنها صرخت فيه بحدة

"لا.. لا أريد.."

ثم أرجعت شعرها للخلف بقوة وجلست أمامه محتقنة الوجه، فعاد في مقعده يقول مبتسمًا بسخرية

"أعتذر على التطفل، لكن ظننته شيء لا تودين إظهاره.."

هتفت بعصبية وهي تفرك أصابعها

"إنه شيء غير هام بالنسبة لي على الإطلاق.."

لكنه كان مصممًا على إرهاق أعصابها أكثر فسأل رافعًا حاجبه

"لكنه يرضي غروري.. اختيارك ثوبًا جديدًا لم يلبس من قبل لأجل هذه المقابلة.."

شعرت بالدماء الحارة تجري في عروقها بغليانٍ على الرغم من برود جسدها الشديد.. احتاجت للمزيد من الهواء ففتحت فمها قليلًا علها تتنشق قدرًا أكبر..

ما بين الغباء الإحراج وصدمة الخجل الموجعة كانت ترتعش فعليًا..

أرادت أن تقول شيئًا باردًا كي توقفه عند حده، لكن لسانها كان معقودًا بعجزٍ يؤكد نظريته.. كانت فقط تحتاج للحظات كي تتغلب على هذا الحرج، لكنه لم يمنحها هذه اللحظات..

بل مال تجاهها ثم قال آمرًا بصرامة

"ارفعي وجهك وانظري إلي.."

انتفضت رافعة وجهها تلقائيًا مع نبرة الأمر في صوته.. ونظرت في عينيه..

لم يكن متهكمًا أو ساخرًا.. بل كان متجهمًا غاضبًا منتظرًا..

فأغمضت عينيها وهي تهز رأسها قائلة بإختناق

"يجب أن أذهب.."

و دون انتظار كلمة أخرى منه قفزت واقفة تسرع الخطى تجاه الباب، إلا أن صوته نادى من خلفها بهدوء

"ليلة.."

تسمرت مكانها واستدارت إليه بعينين واسعتين خائفتين.. لكنه كان لا يزال جالسا مكانه مادًا ساقيه يراقبها بنفس الملامح الجادة.. ثم تابع بشبه ابتسامة

"أتمنى لو قمتِ بزيارتي مجددًا.."

أخذت نفسًا طويلًا باردًا قبل أن تندفع خارجة من المتجر تهرول بسرعة يلحقها غبائها وغيرتها العمياء التي تسببت لها في ما حدث..

*****

غمست سن القلم الخشبي ذو الطابع الفني القديم في دواة الحبر النحاسية قبل أن تبدأ في الكتابة بخطِ النسخ بمهارة وإتقان

" أنا أجازف بالكلام مع قاتل!..تحيرني نفسي وأسألها ما سبب تماديكِ في الحوار معه حتى هذه اللحظة وبعد اعترافه بأنه قتل نفسًا حرم الله قتلها.. الجواب غير صادق بداخلي، وربما يكمن الصدق في عدم وجود جواب واحد ثابت.. بل عدة،

هل ينتابني الفضول لمعرفة أسبابه، وهل للقتل مبرر أو أسباب؟!..

هل أشعر بالرغبة في إدانته مجددًا ونثر الملح فوق جرحٍ قديم على الرغم من تسديده لحق المجتمع والقانون!

أم أنني أريد ببساطة تخيل كيف تمكن من ازهاق روح انسان بهذه البساطة وحقيقة شعوره منذ لحظتها وحتى يومنا هذا.. هل يشعر بالندم أحيانا؟!.. هل يرى الكوابيس في نومه وتطارده أشباح جريمته!..

من ترك خلفه هذا الذي أراق دمه ؟

أرملة بأطفالٍ يتامى أم أمُ ثكلى.. هل يتفقدهم من اقتلع منهم حبيبهم غدرًا، أم لم يشغلوا له بالًا قط!..

جواب آخر يحرج نفسي أمامي ويصدمني فيها، فهل أتخذ الصدق وأصرح به؟.. سأفعل

فضولي أساسه هش ما هو إلا مجرد شعور بأنه ليس قاتلًا أبدا..

أمام الوقائع والإدانة والحكم والإعتراف.. تقف كفة شعوري ثابتة على الرغم من ضعف أساسها..

و لهذا لا أستطيع مقاومة المتابعة.. علني اكتسبت شيئًا جديدًا وأنا أتعلم عن نوعٍ مختلف من البشر لم أعايشهم من قبل إلا في صفحات الكتب..

" عالية عبد الحي "

*****

"لما تعمدتِ إخفاء إعاقتك؟.. هل ظننتِ أن تتم اجراءات الزواج جميعها عبر الشاشات ولا يكتشف زوجك الأمر؟!!!.."

السخرية الخشنة في صوته جعلت وجهها يحتقن بشدة، كانت أكبر إهانة تعرضت لها وهي تستحقها بكل تأكيد..

لكن مجددًا هل عليه أن يكون فظًا إلى هذا الحد؟!!..

أجابته على مضض معترفة

"كنت أول من أخفيت عنه الأمر.. أما من سبقوك فجميعهم كانوا على علمٍ بالأمر قبل أن يروني"

ارتفع حاجباه فوق عينان مدققتان، ثم سأل السؤال البديهي

"ولما أنا بالذات؟!.."

أخفضت وجهها المتورد وهي تتلاعب بأصابعها ثم قالت بإستسلام يحمل الشعور بالإدانة

"كانت فكرة الخالة حسنات.. ظننت أنا لو تعارفنا قبلًا.."

صمتت محرجة من المتابعة، فتابع هو قائلًا

"لو تعارفنا قبلًا لربما زاد اعجابي بكِ بما قد يتغلب على أمر الإعاقة.. إنها سياسة توريط مشاعر قبل معرفة الحقيقة.."

عقدت حاجبيها بشدة وهي تنظر إليه قائلة بحدة

"لا أظنك من النوع الذي قد تتورط مشاعره خلال بضعة مقابلاتٍ فقط..الأمر وما فيه أن الخالة حسنات ظنت من حقي أخذ فرصة في إظهار مزاياي قبل عيوبي، وهذا ما يفعله أي تاجر ماهر إذا أراد بيع بضاعة معيوبة.."

ساد صمت طويل بعد كلامها العنيف وأشاحت بوجهها غاضبة من نفسها قبل أن تكون غاضبة منه.. ثم تكلم أخيرًا قائلًا بصوتٍ بدا أكثر انسانيةٍ من ذي قبل:

"لستِ بضاعة معيوبة.."

نظرت إليه مستاءة وهي ترفع كفها إلى صدرها مشيرة ثم قالت ببرود

"بلى أنا بضاعة معيوبة، صدقني.. هذا رأي الجميع.. لا أحد ممن قابلتهم اهتم لشخصي أو تنازل بالحوار عني أو عن دراستي.. عما أحب وما أكره.. لا أحد منهم يهتم لحلقاتي أو تنازل بمشاهدة واحدة منها عله يرى كيف أتكلم وأعبر.. جميعهم أتوا لسوق البضائع المعيوبة مفاصلين حتى آخر نفس، والأكثر مراعاة فيهم كان مشفقًا ولا يبتغي مني هو وزوجته سوى الثواب.."

صمتت تتنفس بسرعة، ثم أغمضت عينيها نادمة على اندفاعها إلى هذا الحد كاشفةً عن جزء متألم من نفسها وهذا ما لا تحبه أبدًا..

تمنت بشدة ألا يكون مجبرًا الآن على أن يشفق عليها فيسمعها الكثير من عباراتِ التشجيع الزائف والنفي الكاذب..

لكنه حين تكلم قال بنبرةٍ عابرة

"لكنك تخفين الإعاقة في حلقاتك أيضًا!.."

رفعت عينيها إليه ثم أجابت بجفاء

"هذا أمر آخر.. لا أحب أن يتابعني أحد من باب التعاطف والتشجيع الإنساني وهذا ما سيحدث بالتأكيد، أريد من يسمعني يفعل لأنه يريد أن يسمعني.."

ساد الصمت لفترة ثم سألته بفضول

"ما هو السبب الذي لفت نظرك لي؟..هل كنت مهتمًا بالحلقات ورأيت شخصي فيها؟.."

لم يجب على الفور، ثم قال بإختصار مباشر

"لا.."

ارتفع حاجباها متفاجئة من صراحته الفجة، فسألت مجددًا

"اذن ما الذي جذب نظرك وجعلك لحوحًا بهذا الشكل في تعليقاتك؟!.."

ساد الصمت للحظة، ثم قال بهدوء

"شكلك.."

تراجعت للخلف قليلًا بعينين واسعتين، ثم احمر وجهها بشدة وهي تسبل جفنيها..و على الرغم من شعور الأنثى في داخلها بالرضا، إلا أنها قالت ببطء

"إنها.. نظرة سطحية قليلًا، بل كثيرًا في الواقع"

ابتسم ابتسامة قصيرة وهو يقول بجفاء

"أنتِ تتاعملين مع رجلٍ خرج من سجن أكثر من عشر سنوات، لم يرى خلالها أي أنثى، فترفقي بي.."

تحول التورد إلى احمرارٍ شديد، وفي نفس الوقت أعادها تنبيهه إلى ادراك مدى لعبها بالنار بالحوار مع قاتل!..

سألته بصوتٍ حذر وهي تتأمله عن قرب

"هذا يجعلني أسألك سؤالًا يثير فضولي بشدة، ما سبب هذا التفكير المتعجل في الإرتباط بعد كل هذه السنوات؟ لما لا تتمهل قبل اتخاذ القرار ببدء تكوين أسرة، وربما سأكون فظة معك قليلًا حين أخبرك بأنك لست المرشح المثالي.."

ساد الصمت طويلًا وهو ينظر إليها دون كلام.. فأخفضت عينيها وهي تدرك كم كانت قاسية، لكن لا ينبغي أن تكون ضعيفة القلب تجاه انسان مثله.. أي كانت مبرراته، فلا يزال هو نفس الشخص الذي تمكن من أن يسلب انسانٍ حياته..

سألته بخفوت

"هل يمكنك أن تقص علي ظروف جريمتك؟.."

كانت شديدة التهذيب نسبة إلى شخصٍ يريد الإرتباط بها، من المفترض أن تسأل آمرة.. لكنها أرادت السماع.. حقًا السماع، لا الحصول على معلوماتٍ رسمية مختصرة..

لم يرد، بل أخفض عينيه أمامها.. فسألته مجددًا

"هل سألت عن أسرته منذ خروجك من قبيل الفضول أو الندم؟.. هل تحلم به أو بأولاده إن كان لديه أولاد؟!.."

صمت من جديد، ثم رفع عينيه إلى عينيها أخيرًا ثم أجاب بكلمة واحدة باردة

"لا.."

*****

ضجيج عالٍ وهتاف بعد النطق بالحكم.. أصابعه تنقبض فوق حديد القضبان تتماوج بسرعة، بينما صوت فتاة تصرخ بعنفٍ منتحبة

" قتلت أبي.. قتلت أبي.."

شعر بأنفاسه تختنق ورئتاه تلتصقان عاجزتان عن التقاط الهواء.. بينما الظلام يطبق عليه من كل جانبٍ ويزداد حتى

لم يعد يرى شيئًا ولا يستطيع التنفس كأنه القبر..

ثم فجأة فتح عينيه شاهقًا بصوتٍ حشرجة.. ليجد نفسه مرتميًا على فراشه يلهث، يحدق في السقف بنظراتٍ فارغة..

*****

"هوياتكم.."

ترنح قليلًا رامشًا بعينيه وهو يحدق في الظابط الجالس أمامهم يطالعهم بإزدراء ونفاذ صبر.. ولا يعلم لماذا كان يشعر برغبة عنيفة في الضحك دون أي تقدير للموقف..

التفت إلى الشاب بجانبه والذي كان واقفًا بتهذيب ويديه خلف ظهره على الرغم من اهتزاز حدقتيه هو أيضًا..

لكنه كان أكثر ثباتًا واتزانًا من معاذ نظرًا لفارق الخبرة في سنوات تعاطي المكيفات..

تكلم معاذ قائلًا بصوتٍ مكتوم مشدة الرغبة في الضحك

"هل لديك هوية يا فريمان؟.."

تحسس مرجان صدره وبنطاله وهو يحاول تذكر مكان هويته وإن كانت معه قبل الهجوم أم في بيته أو بيت جدته.. لا يتذكر تمامًا مما جعله يضيق عينيه قائلًا

"الهوية..نسيتها في بيت جدتي.."

لم يسطع معاذ كتم ضحكته أكثر فأفلتت من بين شفتيه وهو يشعر بجسده خفيفًا جدًا وكأنه مرتفع عن الأرض ببضعة إنشات..

ضرب الضابط على سطح المكتب بقوة وهو يهدر بغضب

"احترما نفسيكما قبل أن أعلمكما الإحترام.. هل معكما هوية أم نلقي بكما في الحجز؟.."

تحصص معاذ جيبه حتى وجد حافظة نقوده.. فأخرجها واستغرق وقتًا لا بأس به كي يستطيع العثور بطاقة الهوية، نظر إليها طويلًا يتأكد من أنها تخصه.. ثم تقدم خطوة يمدها

للضابط، والذي التقطها ناظرًا إليه من فوقها بإمتعاض.. ثم رفع عينيه إليه مجددًا يقول بخشونة

"تبدو من أولاد الناس، ما الذي أوصلك إلى مكانٍ كالذي أمسكنا بك فيه؟.."

رد معاذ قائلًا بصوتٍ ثخين

"حافلة سبعة راكب.."

ضحك مرجان غير قادرًا على منع نفسه وكذلك استسلم معاذ للشعور الطاغي بالدغدغة في داخله وانفجر ضاحكًا حتى دمعت عيناه واهتز جسده.. فصرخ الضابط محتدًا

"سأعرفكما معنى الضحك يا حبيبي أنت وهو كي تتعلما الأدب.."

رفع معاذ اصبعه وهو يحاول استعادة رزانته قائلًا بصوتٍ مهتز يموج ما بين السخرية والجدية

“هل يمكنني الإستعانة بصديق؟..”

عاد مرجان ليضحك إلا أنه سارع بإغلاق فمه بين أسنانه، أما معاذ فسعل بقوة كي ينقي حنجرته من الضحك المحتجز بها ثم قال مصححًا

“هل يمكنني الإستعانة بشخص؟..”

سأله الضابط ساخرًا

“من يستطيع انقاذك وأنت بهذا الوضع يا " باشمهندس "..”

أوشك معاذ على النطق بكلمة " أبي " بكل براءة.. إلا أنه عقد حاجبيه مفكرًا وهو يقول

“لا، ليس أبي..”

رفع مرجان يده يغطي بها فمه كي لا يضحك مجددًا حتى أن الدموع سالت من عينيه بغزارة.. ثم قال معاذ أخيرًا

"هل يمكنني إجراء مكالمة هاتفية؟.."

ظل الضابط صامتًا للحظات، ثم أشار له أن يفعل.. فمد معاذ يده يتحسس جيوبه قبل أن يعقد حاجبيه متسائلًا

"أين الهاتف؟.. أين الهاتف؟!!!!!.."

أغمض الضابط عينيه بملل بينما استدار معاذ إلى مرجان هاتفًا فيه بإستياء

"لقد سرق أحدهم هاتفي.."

التفت إلى مرجان وقال بعنف

"أحدهم سرق هاتفي من بين أصدقائك المجرمين في الوكر الذي اصطحبتنا إليه.."

اتسعت عينا مرجان ببريقٍ محذر وهو يعض على شفتيه مصدرًا صوت أشبه بالزئير كي يصمت.. بينما زفر معاذ هاتفًا بحنق

"الهاتف لا يزال جديدًا!!!.."

حينها هتف فيه مرجان بإستياء

"لما لا تكن أنت من أسقطته!!، كيف تتهم أصدقائي، لكل واحد منهم عدة هواتف

وهم ليسوا بحاجةٍ لهاتفك"

مط معاذ شفتيه قائلًا بتهكم

"عدة هواتف!!.. وتقولها بفخر عظيم!.."

هدر فيهما الضابط بقوة

"اصمتا.."

صمتا بالفعل، ثم تكلم معاذ بعد لحظةٍ بخشونة

"هل يمكن لسيادتك إجراء إتصال لأجلي.. لا أحفظ الرقم،

لكن يمكنك البحث عنه بسهولة"

*****

"سؤالي هو، هل تم ضبطه أي ممنوعاتٍ معه؟!.."

زفر الضابط بقوة وهو يرفع عينيه لأعلى بنفاذ صبر ثم قال بحدة

"إنه في حالة إنتشاء واضحة يا أستاذ يوسف وأنت أدرى الناس بالقانون.."

بنفس إبتسامة الثقة رد يوسف قائلًا

"لننتهي من نقطة نقطة بعد إذنك، هل تم ضبط أي من الممنوعات معه؟.."

نظر إليه الضابط للحظات بتجهم ثم أجاب أخيرًا

"كان قد دخنها وانتهى منها.."

فتح يوسف كفيه وهو يرفع حاجبه سائلًا بدهشة مقصودة

"هل استنتجتم هذا يا سيادة الملازم؟.. أم وجدتم أعقاب السجائر المحشوة في جيبه؟!.."

ضاقت عينا الضابط وأوشك على الرد قبل أن يطرق الباب، ثم فتح وأدخل العسكري معاذ يدفعه للغرفة..

استدار يوسف ناظرًا إليه لفترة طويلة وكذلك نظر إليه معاذ.. ثم ابتسم، فإبتسم يوسف..

لكنه أعاد إنتباهه للضابط قائلًا بهدوء

"لقد تم ضبطه لمجرد جلوسه في مكانٍ خاصٍ بالمتعاطين دون علم منه، فكيف يتم ضبطه معهم؟!.."

رد الضابط قائلًا ببساطة

"سيتم عرضه على النيابة، ثم يخضع لإختبار فحص سموم.. وهو الذي سيحدد.."

ضرب يوسف كف على كف وهو يقول مندهشًا عن قصد

"على أي أساس يا سيادة الملازم!!.. هذا يعني أن تلقي القوة القبض على أي كان في الطريق بتهمة التعاطي وتعرضهم على النيابة ثم الخضوع للفحص وبعدها يفرجون عنهم إن كانوا غير متعاطين.."

شدد الضابط على كلماته قائلًا

"كان في وكرٍ للتعاطي.."

رفع يوسف إصبعه مصححًا

"هذه معلومة معروفة لديكم بالطبع، وبما أنه عديم الخبرة في هذه الأماكن فهو كان جالسًا فيها كمقهى شعبي دون علمٍ لديه عما يتعاطون فيه.."

لم يستطع معاذ كتم ضحكةٍ شاءت أن تتفجر الآن فأطبق عينيه وهو يضحك بشدة مسقطًا رأسه.. مما جعل يوسف

يتوقف عن الكلام وينظر إليه رافعًا أحد حاجبيه،فرفع معاذ كفه معتذرًا وهو يقول من بين ضحكاته بإختناق

"آسف.. آسف.. أنا فقط لم أستطع منع نفسي من الضحك وأنا أسمع عبارة عديم الخبرة.. الأمر فقط ارتبط لدي بشيء آخر.."

ابتسم يوسف مخفيًا فمه بيدٍ مظللة متظاهرًا بالتنحنح فسأل الضابط بنبرةٍ ذات مغزى

"لا أظنه في حاجةٍ لإجراء اختبارٍ من الأساس.. على ما يبدو أن الصنف كان من نوعٍ جيد.."

رفع يوسف وجهه قائلًا ببراءة

"لما لا يكون أحد قد أعطاه شيئًا دون علم بحقيقته لجر قدميه للمكان.."

انفجر معاذ مجددًا بصوتٍ أكثر علوًا حتى كاد أن يفقد القدرة على التنفس من شدة السعال فلوح الضابط بكفيه

قائلًا بنفاذ صبر

"بالله عليك يا أستاذ.."

أسبل يوسف جفنيه مبتسمًا وهو يضغط فمه منتظرًا أن ينتهي معاذ من نوبة الجنون تلك..

ثم وبعد فترة مال على المكتب قائلًا بهدوء

"حضرة الملازم، لن أحدثك الآن بصفة قانونية، مؤكد لديك نظرة.. وهذا منظر شخص لم يسبق له تعاطي كوب مشروباتٍ غازية حتى.. ليس من العدل عمل محضر تعاطي له لمجرد أنه كان في المكان الخاطىء.."

فتح الضابط كفيه قائلًا بتسليم

"أستاذ يوسف.."

قاطعه يوسف قائلًا بهدوء مقاطعًا

"فقط اسمح بسؤال صاحب هذا الجحر، وهو سيؤكد لك أن معاذ تعاطى شيئًا ما دون علمه بما تحتويه.."

رفع الضابط حاجبيه بنظرة طويلة ممتعضة، بينما قال يوسف بجدية

"أنا لن أغادر الليلة يا سيادة الملازم، وأنا لحوح فيما يخص أحد موكليني.."

كان الضابط صامتًا بملل، بينما تكلم معاذ قائلًا بترنح

"أريد خروج فريمان أيضًا.."

عقد يوسف حاجبيه وهو يضغط على أسنانه سائلًا بعصبية

"من؟!!!.."

أجابه معاذ دون تنازل

"مرجان فريمان، تم القبض عليه معي.. لن أخرج بدونه"

نظر كلًا من يوسف والضابط إلى بعضهما للحظة.. ثم همس يوسف قائلًا مغمضًا عينيه

"وسؤاله عن مرجان.. فريمان.. رجاءً .."

و بعد إلحاح قانوني طويل شديد اللجاجة، استدعى الضابط صاحب الوكر بعد أن كان يوسف قد اتفق مع واحد من أعزائه في القسم الدخول له قبلًا مقدمًا له عرض يصعب رفضه.. وبالفعل قبله شاكرًا..

*****

كان جالسًا مستندًا إلى مقدمة سيارة رائعة بالنسبة لشابٍ في الرابعة والثلاثين.. محدقًا من فوق الهضبة العالية إلى أنحاء القاهرة المضيئة ليلًا كفضاءٍ حالك بملايين النجوم تنيره وتملأه صخبًا..

وصل إليه يوسف حاملًا كوبين ورقيين من القهوة، ناول أحدهما إلى معاذ ثم استند بجواره قائلًا

" ثاني كوب قهوة، عسى أن تستعيد بعضًا من رشدك.."

ارتشف معاذ من الكوب ببطىء، بينما حدق يوسف أمامه متأملًا المدينة المتلألئة على بعد كبير..

ثم قال معاذ أخيرًا دون أن يلفت إليه

"لم أشكرك على مجيئك لنجدتي، وإن كنت.."

تابع يوسف الكلامه عنه قائلًا بسخرية

"وإن كنت في غير وعيك وبدأت تفيق الآن.."

ابتسم معاذ دون رد، ثم قال بصوتٍ أجش

"على ما يبدو أن سمعتك لم تأتِ من فراغ.."

رمقه يوسف بنظرةٍ جانبية وهو يقول بتشدق

"لأنني أخرجتك من قسم شرطةٍ!!!.. أنت تهين سمعتي يا "

باشمهندس "..”

ضحك معاذ ضحكة قصيرة خشنة، بينما تابع يوسف سائلًا بخبث

“لكن على ما يبدو أنك كنت مهتمًا بتقفي الأخبار عني!..”

هز معاذ كتفه قائلًا

“ذاع اسمك في السجن خلال آخر سنتين، لا أنكر تفاجئت لصغر سنك مع هذه الشهرة..”

ارتشف يوسف من قهوته ثم قال مبتسمًا

“ربما لو كنت في نفس العمر منذ أحد عشر عامًا لكان اختلف الحكم الذي أُصدِر ضدك..”

ضحك معاذ قائلًا وهو يرفع حاجبيه مؤكدًا

“بل على الأرجح لكنت محامي الخصوم، فهم من نوعية

موكلينك.."

تنهد يوسف قائلًا بسخرية

"يبدو أن أحد عشر عامًا لم تغير بك شيئًا، وهذا شيء متوقع فأنت ابن والدك.."

ارتشف معاذ رشفة كبيرة من كوب القهوة ثم جعدها في قبضته قبل أن يلقي بها من فوق الحافة بكل قوته، مما جعل يوسف يرفع حاجبيه مندهشًا وهو يراقب ما حدث للتو ثم قال ببطء

"يبدو أنك تغيرت قليلًا.. ما كنت لتقدم على تصرف كهذا من قبل!.."

رد عليه معاذ ضاحكًا

"بالله عليكِ لقد أخرجتني من محضر تعاطي منذ قليل.."

ضحك يوسف بقوة وهو يمد ساقيه مرتاحًا

"ما يدهشني أنك قضيت في سجن الجنايات أحد عشر عامًا لم تحاول خلالها تعاطي أي ممنوعاتٍ تم تسريبها للداخل، والآن فقط تجرب للمرة الأولى!!.."

شاركه معاذ الضحك، بينما تابع يوسف وهو يهز رأسه غير مصدقًا

"ومرجان فريمان!!.. بالله عليك من هذا؟! هل رأيت كيف راح في سباتٍ عميق على مقعد السيارة الخلفي؟!!.."

ضحك معاذ بقوة وهو يرجع رأسه للخلف، ثم هتف قائلًا

"ألا يكفي أنك أجبرتني على حمله معك وتمديده فوق الرصيف أول الطريق لمنطقته!!.. ألم تشعر بتأنيب الضمير؟!.."

هز يوسف رأسه قائلًا

"لم أكن لأدخل بالسيارة في زقاقٍ كهذا..كنا سنتعرض للتثبيت لتؤخذ منها السيارة وملابسنا أيضًا.. وانا الليلة لست

في مزاجٍ يسمح بالعودة بملابسي الداخلية.."

ضحك معاذ غير قادرًا على التوقف، بينما نظر إليه يوسف طويلًا ثم سأله أخيرًا بهدوء

"اذن.. كيف تُبلي في حياتك بعد خروجك؟.."

مشط معاذ شعره بأصابعه، ثم قال بصوتٍ مبهم

"لقد خرجت منذ أربعة أشهر.."

رد يوسف بخفوت

"أعرف،.. أعرف يوم خروجك والساعة، وكنت في انتظارك على بعدٍ.."

عقد معاذ حاجبيه وهو ينظر إليه قائلًا

"ولماذا لم تقترب؟!.."

هز يوسف كتفيه وهو يقول

"رأيت والدك في انتظارك.. فلم أشأ أن أفسد اللحظة بخلافٍ جديد"

سأله معاذ ببطء

"وفقدت حماسك بعدها طوال أربعة أشهر!.."

نظر يوسف أمامه شارد العينين، صلب الملامح على الرغم من الإبتسامة الواهية المستقرة على شفتيه الجافتين، ثم قال أخيرًا..

"فكرت في الحضور.. كل يومٍ أقرر أن الغد سآتي.."

ضحك معاذ ضحكة مختصرة قائلًا بصوتٍ أجش

"لطالما كنت راغبًا في الفرار.."

ابتسم يوسف متجاوبًا، ثم رد ببعض الجفاء

"يمكنك توقع رأي والدك بي وبعملي وحياتي كلما زرته في تلك المرات القليلة النادرة.."

صمت للحظة وهو يهز رأسه ضاحكًا بإستياءٍ شديد، ضحكة سوداء لم تصل لعينيه.. ظل معاذ صامتًا، قبل أن يقول ساخرًا

"على الأقل لا يزال لديه ببعض الإهتمام يجعله، يطلعك برأيه بكل صراحة، ليس كوالدتك.. التي قررت ذات يومٍ أن حتى تلك الزيارة المختصرة الصامتة كل عدة أشهر، لم يعد لها فائدة فتوقفت.. لا أتذكر المرة الأخيرة التي رأيتها فيها.."

مط يوسف شفتيه مجيبًا بقسوة

"والدتك لم تفكر سوى في نفسها.. لا تنظر للأمر بصفة شخصية، ستحيا وتموت وهي محور عالم نفسها، عمياء عن رؤية الآخرين.. وكأنها تعتبرهن جميعًا كمرتبة أقل تحتها.."

ارتفع حاجبا معاذ وهو يرمقه بطرفِ عينيه معلقًا بدهشةٍ ساخرة واضحة

"أهذا أنت من تتكلم حقًا!!.. إنه التغيير الأكثر صدمة رأيته منذ خروجي، ظننتك ستظل رضيعها المدلل للأبد.."

لم يرد يوسف، لم يلتفت إليه، لكن الإبتسامة قد زالت عن شفتيه، كما غارت النظرة القاتمة في عينيهه.. وساد صمت طويل حتى قال أخيرًا بنبرة خفيضة باردة

"ما نحن جميعًا إلا أسرة، الخير فيها هو ابتعاد كل منا عن الباقين أقصى استطاعته كي يأمن شرهم.."

ضحك معاذ ضحكة خافتة وهو يخفض وجهه ناظرًا لموقع قدميه، ثم سأل بهدوء:

"أتتذكر يوم اجتمعنا وضربنا زوج أمك؟.. كانت تلك أفضل لحظة شعرت فيها بأنك لست نفس المدلل التافه الذي غادرنا، فلم أصدق قبلها أنك قد تقدم على أي شيء يغضب أمك.. وكنت أشعر بالغيظ وأنا أتسائل كيف لك أن تكون بمثل هذا البرود لتتمكن من البقاء معها وزوجها دون أن تثور وتغضب.. كيف كنت تتحمل رؤيتها مع رجل غريب.. أتذكر حالها في

قسم الشرطة بعدها؟! كانت تبكي ليس لأجلنا بل خوفًا من أن يطلقها ويحرمها من الحياة المرفهة التي لطالما تمنتها.."

ضحك يوسف أيضًا وهو يتذكر هذا اليوم، ثم قال ببطء

"أتذكر أكثر الضرب الذي نلناه من والدك بعدها.."

شاركه معاذ الضحك بخشونة وهو يقول

"نعم.. لا أزال أشعر بوجع الضربات،.."

صمت لحظة حتى خفتت ضحكاته، فتابع بعدها

"لكن لن أنسى كلامه لي بعد خصامٍ طويل.. قال أنه فخور بي كرجل دافع عن أمه وشقيقه.."

التفت إليه يوسف سائلًا بدهشة عاقدًا حاجبيه

"هل حقًا قال هذا؟!.."

أومأ معاذ برأسه وهو ينظر إليه، بينما هز يوسف رأسه ساخرًا، متجهم الملامح وهو يقول ببرود

"رائع.. لم أسمع منه شيئًا مماثل رغم أنني كنت معك في نفس المعركة!.."

ساد الصمت للحظات ثم هز كتفه سائلًا بغضبٍ واستياء

"لماذا ضربنا اذن طالما هو فخور بشجاعة ابنه المغوار!.."

رد عليه معاذ ببطء ناظرًا أمامه

"لأننا أفسدنا الممتلكات، بخدشنا لسيارات المعرض عن قصد.."

نظر إليه يوسف ذاهلًا رافعا حاجبيه لفترة طويلة ثم سأل ببلادة

"حقًا!.."

أومأ معاذ برأسه ببساطة، ثم لم يلبث أن انفجر في الضحك بقوةٍ لم يشاركه يوسف فيها وهو يرمقه مستاءً غاضبًا.. لكن ضحك معاذ زاد أكثر فأكثر، مما جعل يوسف يهز رأسه ببطء قبل أن تظهر ابتسامة ناقمة على شفتيه سرعان ما بدأت تتسع رغم عنه.. ثم ضحك أخيرًا بإستياء..

و زاد ضحكهما حتى لفتا إليهما أنظار الثنائيات من العاشقين القابعين في سياراتهم فوق الهضبة مثلهم..

حاولا التخلص من نوبة الضحك العنيفة تلك بصعوبة.. وبعد فترة طويلة، وبعد السعال والفواق..تنهد كلًا منهما تنهيدة كبيرة وساد الصمت طويلًا حتى سأله يوسف بهدوء

"اذن.. لم تخبرني عن سبب انحرافك اليوم بالذات!.. هل كانت مناسبة خاصة أم مجرد رغبة متأخرة في تعويض ما فاتك من ملذات الحياة وقررت البدء بالخوض فيها من أقذر جحرٍ للتعاطي عثرت عليه.." ظل معاذ صامتًا للحظات، ثم قال أخيرًا بصوتٍ باهت

"كنت أهرب.."

نظر إليه يوسف سائلًا بسخرية

"مما تهرب؟! من نفسك أم من الواقع المرير؟!.."

رد معاذ ضاحكًا مجددًا

"بل من خطبة.."

عقد يوسف حاجبيه بعدم فهم وهو ينظر إلى حالة أخيه الغريبة، فاستدار إليه فوق مقدمة السيارة يسأل

"ماذا تعني بهاربًا من خطبة؟!.."

أجابه معاذ قائلًا وهو لا يزال يضحك وقد اسودت عيناه

"كان يفترض بي الذهاب لخطبة فتاة، لكنني هربت.."

فغر يوسف فمه بصدمة وهو يراقب ضحك معاذ محاولًا استيعاب ما سمع منه للتو فهتف سائلًا

"تخطب من؟!.. هل ستتزوج؟!.. أهي رؤى؟!.."

ازداد ضحك معاذ جنونًا وبدا فاقدًا السيطرة على نفسه مجددًا وهو يقول بصعوبةٍ حتى دمعت عيناه بغزارة

"رؤى!!.. رؤى قاربت تزويج ابنيها.."

كانت عينا يوسف تأملان معاذ بحالته الصعبة، ثم أمسك بذراعه يقول ببطء وقوة

"من كنت ستخطب اذن؟؟!!.. من هي وأين تعرفت عليها ومتى بالله عليك!!.."

رد عليه معاذ مجهدًا من شدة الضحك على الرغم من أن عينيه كانتا غائرتان بشدة، لا يظهر فيهما سيماء روح المزحة أبدًا

"فتاة رأيتها على موقع تواصل.. تعارفنا، ثم طلبت أن آتي لزيارتها مع والدي، كان الموعد الليلة إلا أنني لم أذهب.."

ساد صمت تام، حتى معاذ توقف عن الضحك متنهدًا، بينما يوسف ينظر إليه مصعوقًا ثم سأله ببطء

"هل اعتذرت؟!.."

هز معاذ رأسه نفيًا دون كلام ودون أن ينظر ليوسف..فسأله الأخير محققًا بدهشة وعنف

"هل رضي والدك عما حدث؟!.."

الصمت التالي كان غير مريحًا خاصة مع ملامح معاذ الجامدة وعينيه الناظرتين أمامه للقاهرة الممتدة بالأسفل، ثم اعترف أخيرًا بصوتٍ فاتر

"والدك.. لا يعرف عن الفتاة شيئًا، فلم أخبره من الأساس.."

لم يصدق يوسف ما سمع، ومكث في مكانه يراقب معاذ طويلًا منتظرًا منه أن يضحك ويخبره أنها كانت مجرد مزحة، إلا أن معاذ كان وكأنه قد اكتفى من الضحك تماما.. وجلس يراقب الليل ويديه في جيبي بنطاله.. تكلم يوسف

أخيرًا بصوتٍ ذو غضبٍ مكتوم سائلًا

"لا أفهم، أكنت تتلاعب بها؟!.. على ما يبدو أولى خطوات تعويض ما فاتك لم تقتصر على سيجارة مزاج رخيصة..لقد قررت الإنحدار لدرجات أكثر دناءة!.."

ظلت ملامح معاذ جامدة وعيناه بعيدتان.. ثم لم يلبث أن ضحك ضحكة خشنة، لكنها لم تكن صخبة أو مرحة.. بل كانت ساخرة وهو يقول بصوتٍ أجش

"حين أسمعك الآن وأنت تحاضرني، أشبه بوالدك ونبرته.. لا أصدق أنك نفس الشخص الذي قد يأتيه رجل يوكله في قضية نسبٍ للتخلي عن مسؤوليته تجاه طفل غير مرغوب فيه!!.. حينها ستقبل وتلجأ لأقذر الوسائل كي تخلصه.."

صمت وهو يلتفت لعيني يوسف الغاضبتين ثم تابع برود

"فلا تحاول لعب الدور معي.."

استقام يوسف واقفًا منتفضًا وهو يقول محذرًا بنبرة

غاضبة

"أولا أنا لا أشبه والدك في شيء.. أي شيء، فلا تكررها.. ثانيًا، لن تستخدم أنت اسلوبه حين تود الفوز بنقاشٍ فتلجأ إلى معايرة الشخص بكل ما يفعل حتى يشعره أنه أدنى من حشرة بينما هو في الحقيقة غير قادر على إدارة حوار متكافىء يكشف فيه عن نفسه.. ثالثًا وهو الأهم، ستتصل بالفتاة حالًا وتعتذر وتخبرها أنك صرفت نظر عن موضوع الزواج بأكمله.."

رفع معاذ وجهه بوجوم، ثم قال أخيرًا معترفًا

"لقد سرق الهاتف.. يحمل رقمها ورقم السيدة الوسيطة وكل المعلومات.. لا أعرف الآن سوى عنوان بيتها.."

وقف يوسف واضعًا كفيه في خصره وهو ينظر إلى معاذ بقنوطٍ مستاء.. ثم رفع اصبعًا يقول

"اذن ستذهب إليها في الصباح وتخبرها معتذرًا أنك انتهيت من الأمر بأكمله وتنصرف وتتوقف عن إيقاع الفتيات

عبر مواقع التواصل يا " كازانوفا "..”

رفع معاذ عينيه إليه ينظر بطرفها صامتًا.. ولم يجد مفرًا، فقال أخيرًا بجمود

“اسمها عالية عبد الحي، لها صفحة على موقع التواصل.. حاول مراسلتها أو اذهب واعتذر لها.. أنا لن أفعل..”

أطبق يوسف فكيه مغتاظًا حانقًا.. ثم همس يقول

“أنت جبان.. لم أعهدك بمثل هذا الجبن من قبل”

لم يرد عليه معاذ بل تراجع للخلف حتى استلقى على مقدمة السيارة وذراعيه أسفل رأسه يحدق في هذه الليلة الحالكة بعينين تماثلانها سوادًا وعمقًا بملامح لم تحمل أي تعبير..

*****

“الإمبراطورة أوجيني، امبراطورة اعتلت عشر فرنسا

لسبعة عشر عامًا..

أوجيني واحدة من أجمل النساء التاريخ وأكثرهن أناقة، لم يقتصر سر جاذبيتها على جمال الشكل والملبس فقط، بل كانت تأسر كل من يعرفها لقوة شخصيتها وعزمها الدائم على النجاح في كل ما تريد..

ولدت في إسبانيا في إقليم غرناطة، وتلقت العلوم في فرنسا

لم يفلت من سحرها الإمبراطور نابليون الثالث، فتزوجها وأقاما في قصر التويلري..

ذاع صيتها لاهتمامها بالحياة السياسية فكانت موضع الحفاوة أينما ذهبت وزاد نفوذها وشعر الشعب الفرنسي بدورها المتزايد فأطلق على ابنها لقب " ابن فرنسا "..

و كما كانت أوجيني موضع ترحيب من ملكة انجلترا الملكة فيكتوريا في زيارتها، نظرًا لتقريبها المسافات السياسية بين انجلترا وفرنسا.. كان الترحيب بها أكبر وأضخم في مصر..

لسبعة عشر عامًا..

أوجيني واحدة من أجمل النساء التاريخ وأكثرهن أناقة، لم يقتصر سر جاذبيتها على جمال الشكل والملبس فقط، بل كانت تأسر كل من يعرفها لقوة شخصيتها وعزمها الدائم على النجاح في كل ما تريد..

ولدت في إسبانيا في إقليم غرناطة، وتلقت العلوم في فرنسا

لم يفلت من سحرها الإمبراطور نابليون الثالث، فتزوجها وأقاما في قصر التويلري..

ذاع صيتها لاهتمامها بالحياة السياسية فكانت موضع الحفاوة أينما ذهبت وزاد نفوذها وشعر الشعب الفرنسي بدورها المتزايد فأطلق على ابنها لقب " ابن فرنسا "..

و كما كانت أوجيني موضع ترحيب من ملكة انجلترا الملكة فيكتوريا في زيارتها، نظرًا لتقريبها المسافات السياسية بين انجلترا وفرنسا.. كان الترحيب بها أكبر وأضخم في مصر..

فقد دعاها الخديوي اسماعيل لزيارة مصر في حفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩..

جاءت أوجيني إلى مصر وحدها دون الإمبراطور..

في الثالثة والأربعين لا تزال في قمة الأناقة والجمال، لكن مع نفوذٍ ضخم قارب نفوذ زوجها الإمبراطور

احتفاء الخديوي اسماعيل بأوجيني كان كبيرًا كريمًا.. كان حفل افتتاح القناة ضخمًا مهيبًا لدرجة جعلتها تعترف بأنها لم تر حفلًا أجمل ولا أروع من هذا الحفل الشرفي العظيم..

لا غرو في إعجابها.. فقد أمر الخديوي اسماعيل بتشييد قصر في جزيرة الزمالك قبل وصولها بثلاث سنوات، وبالفعل تم تشييد قصر سرايا الجزيرة على غرار قصر الهمبرة أو قصر الحمراء في غرناطة..

و تم استخدامه كمقر لأوجيني وحاشيتها خلال الحفل، وكان أشبه بقصور الأساطير..

كما أمر الخديوي بزراعة أشجار زهور الكرز تحت نافذة غرفة أوجيني حين علم بشوقها لها..

أما عن هدية الوداع فكانت غرفة نومٍ من الذهب تتوسطها ياقوتة حمراء نقش من حولها عبارة بالفرنسية تقول

" عيني على الأقل ستظل معجبة بك للأبد.. "

يظن بعض المؤرخين أن الخديوي اسماعيل قد وقع في غرام أوجيني، بل وأنها قد تكون من أشهر قصص الحب غير العادية..

حتى أن أوجيني بعد الكثير من الأحداث الدامية من الحرب بين روسيا وفرنسا.. وثورة الشعب عليها وهربها إلى انجلترا ومصرع ابنها خلال سنواتٍ طويلة وابتعادها عن السياسة للأبد.. شعرت بالحنين إلى مصر وعادت إليها في سن التاسعة والسبعين عام ١٩٠٥.. في زيارة خفية حيث نزلت فندقًا في بورسعيد، وما أن عرفوا حتى تبارى الشعراء في وصف تحول الأيام.. وفي سن الرابعة والتسعين رحلت أوجيني عن الحياة بسبب الضعف والشيخوخة بعد حياة

طويلة ضمت النفوذ والجمال، السلطة والترف.. الحرب والثورة وفقد الإبن.. وقصة عشق لا تزال أسرارها متغايرة حتى يومنا هذا"

ضغطت عالية زر الإيقاف بعد مقطعٍ طويل كانت تتكلم خلاله مبتسمة مشرقة بصوتٍ جميل ولباقة تحسد عليها زادتها فتنة، خاصة مع التحليق في الماضي عبر نبرتها وملامح وجهها المعبرة..

لكن بعد أن انتهت.. عادت ملامحها هادئة وقد خفت الإشراق فكأنما عادت إلى أرض الواقع وبينما هي تستدير بكرسيها المتحرك.. وجدت ليلة واقفة تنظر إليها بجمود مكتفة ذراعيها..

فتنهدت عالية مدركة ما ستسمع الآن.. لقد كانت ليلة كريمة بما يكفي بحيث لم تجرحها حول زيارة ليلة أمس التي لم تحدث..

تكلمت ليلة سائلة بقسوة

"تصورين حلقة!!.. حقًا!!!.. وكأن شيء لم يحدث!!.."

زمت عالية شفتيها وهي تعاود الإستدارة بكرسيها كي تبتعد عن ملامح ليلة الحادة، ثم قالت بجمود

"وما الذي حدث يا ليلة؟!.."

ارتفع حاجبا ليلة وهتفت بدهشة محتدة وبعينين واسعتين

"ماذا حدث؟!!.. تسألين عما حدث؟!.. عريس الغفلة كان يفترض به المجيء إلى هنا ليلة أمس كي يطلب يدك.. وانتظرناه مع حسنات وابنها وفي النهاية لم يظهر ولم يعتذر حتى.."

أغمضت عالية عينيها للحظة وهي تتنهد مجددًا ثم قالت بلا مبالاة

"قد يكون أصابه مكروه.. أو لديه عذره، الله أعلم.."

هتفت ليلة بحنق بالغ

"لديه عذره وقد تعمد إغلاق هاتفه منذ الأمس وحتى هذه اللحظة!!!.."

استدارت إليها عالية وهي تتكلم من بين أسنانها وقد عيل صبرها

"ماذا بإمكاني أن أفعل أنا؟!.. هل أذهب إليه وأجره إلى هنا بالقوة!!.. شخص وذهب كمن سبقوه وانتهى الأمر!.."

هتفت ليلة وعيناها تشتعلان غضبًا

"أنتِ حتى منعتِ ابن حسنات من الذهاب إلى متجره اليوم!!.."

ردت عالية بصلابة وهي تبعد عينيها

"كان ليتشاجر معه، وهذا يحط من قدري.. مجرد شخص لا يمثل لنا شيء وراح لحال سبيله أرجوكِ اغلقي الموضوع.."

صرخت فيها ليلة بحدة أكثر مما يتطلبه الأمر

"كيف لكِ أن تكوني باردة إلى هذا الحد؟!!.. لقد أهاننا.. لقد تعمد أن يسخر منا.. لقد.. لقد.."

استدارت إليها عالية هاتفة بقوة

"لماذا تجمعين نفسك معي؟!!.. أنا من أهينت، أنتِ بخير.. فقط.."

لوحت بكفها في الهواء بعصبية وهي تتعثر في الكلمات ولأول مرة كانت عيناها متقدتان غاضبتان شبيهتين بعيني أختها، ثم تابعت وقد انطلق صوتها أخيرًا

"فقط.. ارحلي.. ارحلي اليوم يا ليلة أو الغد.. ارحلي ساعة تريدين، أنا تعبت من حرب بيع النفس تلك، أنا لست عاجزة.. أنا لست عاجزة نفسًا ولا أحتاج لرجلٍ يرعاني، أستطيع إعالة نفسي وإيوائها ورعايتها بقدرةٍ تامة.. وأنتِ حلقي في سمائك وتحرري مني.."

تجمدت ليلة مكانها تمامًا إزاء هذا الهجوم المفاجىء والذي

تراه على أختها لأول مرة.. حتى أن وجهها انخفض بعد انتهائها من ثورتها.. ورأت قطرة وقعت من عينها تسكن راحة كفها فوق ركبتها..

ساد صمت طويل بينهما، حتى قالت ليلة أخيرًا بصوتٍ باهت

"ألن تتناولي فطورك، لقد تركته على الطاولة دون أن تمسيه.."

استدارت عنها عالية قائلة بجمود

"لا أشعر بالجوع.. حين أجوع آكل، شكرًا لكِ.."

زفرت ليلة بصمت، ثم قالت مجددًا بإستياء

"تعالي اذن لأساعدك على الإستحمام فأنا سأخرج بعد قليل وقد لا أتمكن من مساعدتك طوال اليوم.."

صرخت عالية بعنفٍ مجددًا

"سأبقى بقذارتي.. اتركيني يا ليلة.."

لم تستدر، حتى سمعت صوت خطوات ليلة المندفعة.. وبقت هي في غرفة المكتبة المحببة لديها تحاول ترتيب الكتب فوق سطح المكتب، تشغل نفسها بأعمالٍ وهمية.. لكنها انتفضت مع صوت صفق الباب بعنفٍ فعرفت أن ليلة قد خرجت..

حينها فقط سمحت لتنهيدة كبيرة بالخروج من صدرها وهي تسقط كتفيها مثقلة القلب والنفس..

*****

كانت قد نسيت كل ما تعلق بتهورها في حوارٍ مع سجين سابق وقاتلٍ سابقٍ وحاضرٍ كما سيظل مستقبلًا..

و نست تجاهله للزيارة ليلة أمس مع والده وركزت على ترجمة الكتاب في يدها عائدة إلى عالمها الحبيب

لكن صوت رنين جرس الباب جعلها ترفع وجهها عن الكتاب

عاقدة حاجبيها بحيرة..

من تراه يأتي الآن وهي وحدها؟!..

تنهدت وهي تجر عجلتي كرسيها تجاه الباب، ثم سألت بصوتٍ منادٍ "من؟.."

ساد الصمت للحظة، ثم أتاها الجواب بصوتٍ رجولي ملول بعض الشيء، غير أنه أنيق مهذب بطريقة رسمية باردة: "يوسف الجندي.."

ضاقت عيناها للحظات، ثم مدت وجهها تسأل بحذر:"من يوسف الجندي؟.."

فترة صمت أجزمت أنه يرفع حدقتيه لأعلى علامة على نفاذ الصبر، ثم قال بإقتضاب: "يوسف الجندي، شقيق معاذ الجندي.."

زمت شفتيها وقد تصلبت نظراتها للحظة، إلا أنها رفعت ذقنها واقتربت تفتح الباب قبل أن تتراجع ببطء في كرسيها

كي تعطي مساحة كافية للباب.. ثم نادت: "ادفع الباب وادخل من فضلك.."

عقد يوسف حاجبيه لكنه هز رأسه ثم دفع الباب ببطء حتى رآها على مسافة قريبة تنظر إليه..

جالسة على كرسي متحرك، رافعة ذقنها بغرور وقد رسمت على ملامحها تحفظ رسمي..

يدها اليمنى مرتاحة فوق اليسرى بثبات، جعلها أشبه بالموناليزا.. لكن مع ملامح أكثر تكبرًا..

مقعدة!!!!!.. تبًا لك يا معاذ، لم يهتم حتى بذكر الأمر ولو بطريقة عابرة..

هذا يجعل مهمته أكثر سوءًا.. تبًا!..

حين طال الصمت سألته عالية مختصرة كل المقدمات سائلة ببرود

"هل أصابه مكروه؟.."

كان المقصود واضحًا والجواب مفروغ منه.. فزم شفتيه بنظرةِ استياء مما جعلها تجيب نفسها ببساطة وعفوية

"لم يمت اذن!.. جيد، بركة أنه بخير"

نظر إليها للحظة، ثم سأل بوجوم

"الآنسة عالية عبد الحي؟.."

ظلت ملامحها ثابتة ببلادة، ثم ابتسمت بتهذيبٍ قائلة

"الأمر لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء بعد مقدمة التقريع الإستهلالية، لكن اسمح لي أن أخبرك بأنك لست المعني بها، فأنت لم تذنب بشيء...."

أفلت من بين شفتيه نفس بصوت عن قصد ثم قال رافعًا حاجبه

"أرحتني فقد كنت في موقف لا أحسد عليه.."

ردت مبتسمة وهي تقول بلطف

"اذن لنتعارف من جديد.. عالية إبراهيم عبد الحي.."

فتح فمه ليكرر اسمه إلا أنها سبقته تتطوع بالنيابة عنه قائلة

"وأنت يوسف صالح عبد العظيم الجندي.."

توقف مكانه متفاجئًا ثم سأل مندهشًا

"هل سبق وتعارفنا؟!.. هل أنتِ قريبة لأحد الموكلين؟.."

ردت بتهذيبٍ مع ابتسامة لطيفة

"لم يسعدني الحظ بمعرفتك ولا أعرف بوجودك من الأساس كأخ له قبل دقيقتين.. لكني أعرف الوالد واسمه فقط كان السبب في سماحي لشقيقك أن يأتي إلى هنا مع

دكتور صالح كما تمنيت.. وهو السبب في استقبالي لك الآن.."

تسمر يوسف مكانه وقد تبلدت ملامحه تمامًا وعلا الجمود نظراته حد البرود ثم سأل

"تعرفين والدي!.."

هزت رأسها موافقة وهي تبتسم بإشراق ثم ردت بإحترام بالغ

"كان أستاذ التاريخ في الكلية.. حين ذكر لي أخاك اسمه كاملًا تمنيت ألا يكون مجرد تشابه أسماء، ومن حسن حظي أنه لم يكن كذلك.. كاد قلبي يقفز من بين أضلعي وأنا أكتشف بأنني أكلم ابن الدكتور صالح.. كان من أحسن وأعظم الأساتذة وبسببه تحول التاريخ بالنسبة لي من مجرد دراسة للنجاح إلى عشقٍ لا حدود له.."

أومأ يوسف برأسه ممتعضًا وهو ينظر في ساعة معصمه ثم سألها ما أن انتهت من الكلام

"هل تسمحين لي بدقيقتين من وقتك؟.."

ردت عليه مداعبة مبتسمة

"حتى الآن أخذت خمس!!.."

رفع كفيه قائلًا بنفاذ صبر قائلًا بعصبية

"بل أنتِ من أخذتِ مني خمس دقائق.. أنتِ لم تتوقفي عن الكلام للحظة!.."

تورد وجهها قليلًا فأخفضته مرجعة شعرها خلف أذنها مجيبة بخفوت

"يمكنني منحك دقيقتين.. تفضل"

زفر يوسف بصوتٍ عالي ثم استدار ليغلق الباب، إلا أن صوتها نادى من خلفه

"اتركه مفتوح من فضلك.. فأنا وحدي هنا.."

أغمض عينيه يدعو بالصبر لحين إنتهاء هذه المحنة المتمثلة في فتاة نحيلة على مقعد متحرك..

و بينما هو يرفع عينيه رأى فوق الباب حفرًا في الحجر برقم عام.. عام ١٧٦٩..

حينها فقط انتبه للمكان الذي هو فيه!..

رفع وجهه مستديرًا يحدق أكثر ثم ارتفع حاجبه ببطىء، يشعر وكأنه وبعد دخوله من هذا الباب قد عبر بوابة الزمن للماضي!!!!..

حين دون العنوان ووجده في أحد الحواري القديمة زفر بقنوط وقام بقيادة سيارته بناءً على خاصية التتبع في هاتفه كي يصل إلى هنا..

دخل من شارع إلى شارع أضيق فأكثر ضيقًا، شاتمًا المطبات والطرق غير الممهدة وآلاف عربات بيع الخضراوات المنتشرة.. والطيور التي تعبر الطريق على أقدامها بأمنٍ

وسلام..

كان المكان عشوائيًا بشكلٍ لا يحتمل.. وما أن وصل للبيت أخيرًا شعر بالدوار من أكوام القمامة المجمعة حول السور المحيط به.. أكوامٌ غير طبيعية،تكاد تقارب انسانًا متوسط الطول!!..

البيت لم يكن ضخمًا ككل البيوت العشوائية هنا، لكنه ذو تصميم غريب، يغلب على بنائه الحجر.. نوافذه من الخشب كمشربياتٍ من الأرابيسك.. لم يسرف في التأمل ودخل مسرعًا كي يتم مهمته الثقيلة وينتهي..

لكن الآن فقط بدأ عقله ينتبه، ويعمل بسرعة.. هل يعقل؟!..

رفع يده وساعده طوله على أن يتلمس الحفر الواضح في الحجر القديم، ثم سأل بصوتٍ أجش خافت

"ما الذي يشير إليه هذا التاريخ؟!.."

التفتت تنظر إلى حيث يشير، ثم ابتسمت مجيبة

"سنة بناء البيت.."

*****

الفصل السابع

" هل يحقق القانون العدل؟.. وإن كان يفعل لما اذن ينجو الفاسدون؟! "

*****

"سنة بناء البيت.."

ارتفع حاجباه ببطء وهو يتابع تلمس الحفر ببطء شديد متسائلًا بصدمةٍ عن اختفاء بيت كهذا عن أنظار هيئة الآثار!!.. ومن كان يملكه طوال تلك السنوات!!..

وجد نقش آخر أصغر مكتوب بخطٍ مختلف، لم يستطع قرائته فسأل بخفوت

"ما المكتوب هنا؟.."

ردت عالية من خلفه بهدوء

“مكتوب " منزل الحاج عبد الجليل الطرقاوي ".. يصعب قرائته لأنه حفر بالخط الكوفي، كما تآكلت زوايا الحفر بفعل الزمن..”

هز رأسه مندهشًا متجهمًا بتركيز حتى سمع صوتها وهي تسأل بحيرة

“ألن تتفضل؟!..”

أخفض يده واستدار إليها بسرعة.. ثم لحق بها متمهلًا بينما تابعت هي طريقها تجر الكرسي للداخل، أما هو فكانت عيناه تلاحقان كل جزء..

بداية من رواقٍ طويل سارا فيه جدرانه من الحجر تزينه نقوش هندسية زخرفية بنمطٍ محدد، ليس متعمقًا في التاريخ، لكن تصميم البيت واضح، عربي ذو معمار شرقي.. أشغال الأرابيسك تزين نصف الجدار السفلي على إمتداده.. كما تزين السقف متدلية في شكل تيجان وأقواس.. وصلت إلى بوابة خشبية في نهاية الرواق سطحها مقوس وتبدو

على شكلٍ مصغرٍ من باب زويلة كما يتذكره.. وما أن خرج منه حتى وجد نفسه في ساحةٍ أرضها مرصوفةٍ من أحجارٍ مربعةٍ بالأبيض والأسود كساحة شطرنج أو ما تبقى من ألوانها التي أمتص الزمن بهائها..أما سقفها فكان السماء!!!.. تتوسطها فسقية من الرخام جف مائها منذ زمن بعيد

رفع يوسف رأسه يتحقق من أنها السماء فعلًا.. وتابع سيره فتعثر في عجلة كرسيها الذي توقف عن السير وكاد أن ينقلب على وجهه لولا أن دعم نفسه ممسكًا.. بذراعها!!..

شهقت بصوتٍ مكتوم واحمر وجهها بشدة، بينما أفاق من صدمته يستقيم بسرعة وهو يسألها متجهمًا

"هل أنتِ بخير؟.. كنت أمسك بكِ كي لا تتأذين.."

رمشت بعينيها الكبيرتين مرتين ثم ردت على مهل رغم ارتباكها

"لم أكن لأسقط عن الكرسي إلا إن كنت معتوهة!!.. أنت الذي كان سيقع على ركبتي! لما لا تنظر أمامك وأنت

تسيرا!!.."

زفر يوسف وهو يتنحنح كي يجلي حنجرته محاولًا التخلص من إحراج الموقف ثم سأل بفظاظة زائدة عن الحد

"لما توقفتِ فجأة؟!.."

ظلت صامتة تنظر إليه وكأنما تنظر إلى محدود الذكاء، ضيق الإستيعاب ثم أشارت بيدها تقول بحذر رافعة حاجبيها

"تفضل!!.."

نظر إلى حيث تشير فوجد مقاعد حجرية مبنية مع جدار البيت وتتبع نفس الإسلوب في الزخرفة فتقدم لأحدهم وجلس عليه بينما بقت هي في مقعدها المتحرك منتظرة منه أن يبدأ في الكلام، لكنه كان يتأمل المشربيات من فوقه..

أبنية البيت كانت على شكلٍ مربع مفرغ وفي المنتصف توجد هذه الساحة..هز رأسه قليلًا وهو يقول بخفوت

"هذا البيت.."

صمت قليلًا وفكره شارد في مكانٍ آخر، فقالت عالية مبتسمة تساعده

"ساحر؟.."

أخفض عينيه إليها، إلا أنه قال بصوتٍ هادىء

"بل يساوي الكثير.."

شعرت بخيبة الأمل فمطت شفتيها قليلًا ثم قالت بقنوط

"هذا ما أنا متأكدة منه لأن عليه حاليًا نزاع يوشك أن ينقلب حرب قذرة في أي لحظة.."

أجفل يوسف عاقدًا حاجبيه شاعرًا بالإحباط مكررًا

"عليه نزاع بين الورثة.."

مالت عالية برأسها وهي تقول

"كنوعٍ من التصحيح يمكنك القول " نزاع من الورثة.."..

سألها مهتمًا وهو يميل للأمام

"ماذا تقصدين؟.. اشرحي لي.."

ارتفع حاجباها وقد تبلدت ملامحها ثم سألت بجفاء

"هل جئت اليوم كي نتكلم عن البيت، أم أتيت حاملًا اعتذارًا من أخيك عما بدر منه ليلة أمس!!.."

تراجع للخلف قائلًا بخشونةٍ وقد سائته ثقتها الزائدة

"لم أقل أنني أتيت حاملًا أي اعتذار!.."

كتفت ذراعيها وهي تسأله بتعالٍ

"تبرير اذن؟.."

هز يوسف رأسه بحنق شاتمًا أخيه في سره من هذا الموقف، ثم ما لبث أن رفع رأسه مستحضرًا جمود عاطفته وعمليته الزائدة وقدرته على بتر الشفقة وقال باتزان:

"أتيتك باعتذار، لكنه ليس الإعتذار الذي تتوقعين.. معاذ ليس مستعدًا للإرتباط بأي شكلٍ من الأشكال في هذه الفترة.."

ساد الصمت بينهما وهي تنظر إلى عينيه للحظات.. كانت ملامحها هادئة تمامًا وكأنها لم تتأثر لكنه متيقن بأنه لمح طيف من الإهانة والحرج قد مر بوجهها، وما فاجئه حقًا، هو ذلك الشعور البغيض بالتعاطف والذي تسرب داخله..

سألته أخيرًا بهدوء

"ألم يكن في إستطاعته قول هذا الكلام بنفسه لي.."

زم شفتيه للحظة ثم أجاب بصدقٍ واختصار

"لا.. لم يكن بإستطاعته.."

أخفضت عينيها وعم السكون تلك الساحة التي جمعتهما ولم يقطعه سوى صوت السوق المزدحم في الخارج ولعب الأطفال بشغب وأبواق السيارات البعيدة..

تأملها للحظات وهو يلاحظ خصلة من شعر طارت مع نسيم خفيف فحطت بين شفتيها، مما جعلها ترفع أصابعها لتسحبها ببطء شديد مما جعله يتكلم فسأل من العدم

"هل تعلقتِ به؟.."

رفعت عينيها إليه متفاجئة، ثم تورد وجهها بشدة وهي تضحك بخفوت.. ووجد نفسه يبتسم

لا يذكر أنه رأى في حياته إمرأة تتورد إلى هذا الحد!!.. ثم قالت أخيرًا ببساطة

"بالطبع لا.. أنا فقط كنت أتمنى رؤية الدكتور صالح، مجرد فكرة أنه سيأتي هنا لطلب يدي لابنه فهذا جعلني.."

لم تتابع كلامها وكأنها لم تجد الكلمات المناسبة لوصف شعورها، كانت تنظر للبعيد وهي تهز كتفيها كرعدة برد سرت فيها.. ثم رددت متابعة

"جعلني أشعر بومضة بهجة.."

كان يتأملها ساخرًا ممتعضًا، ثم قال أخيرًا ببرود

"اسمحي لي أن أكسر بعضًا من فرحتك.. الدكتور صالح لم يعلم عنكِ من الأساس.."

أجفلت وهي تنظر إليه مصدومة فاغرة فمها للحظةٍ ثم سألت

"مطلقًا!!.."

ابتسم بقسوة مرددًا

"مطلقًا.."

نظرت عالية بعيدًا رافعة حاجبيها تحاول الإستيعاب ثم همست

"النذل!.. كان يتلاعب بي اذن"

قاطعها يوسف قائلًا بخشونة

"راعي أنكِ تتكلمين عن أخي.."

نظرت إليه بحرج وهي تقول بقنوط "أعتذر لم أقصد لكنه بصراحة نذلًا بالإضافة إلى كونه جبانًا.."

قبض فكيه وهو يحاول جاهدًا إلتزام أكبر قد من السيطرة على الذات بينما تابعت مرتاحة بشكلٍ مفاجىء

"كان يجب أن أعلم أن الدكتور صالح لن يتصرف بهذا الشكل مطلقًا.."

نظر إليها بدهشةٍ، ثم سأل منفعلًا رغم عنه

"بالله عليك ما سر هذا الإعجاب المبالغ فيه.. بالدكتور صالح؟!!.."

دهشتها كانت أكبر من دهشته وهي تسأل بعدم تصديق

"هل تسألني عن سر إعجابي بوالدك؟!!.. يجب أن تكون أنت أدرى الناس والأكثر قدرة على وصف رجل مثله.. الدكتور صالح، كان من أكثر المحاضرين قدرة على التخلل لعقل كل واحد من طلابه، ما أن يدخل المدرج حتى يعم الصمت تام، كنا نستمع إليه بإنبهار لشدة ما كان اسلوبه آسرًا يسلب العقل إليه ثم يعيده إلى أدمغتنا عامرًا ممتلئًا متخمًا.. لم يكن يتكلم في التاريخ كمادة دراسية علينا حفظها، بل كان يسافر بنا لعوالمٍ وأزمنة مختلفة.. وكان يربط كل حدثٍ بمبدأ، بقانون، بحكمة، بنظرية.."

كان يوسف أثناء كلامها المنبهر الفخور، مغمضًا عينيه، زامًا شفتيه.. ملامحه كالقناع الصلب لا يحمل أي تعبير، ومع آخر عبارة لها قال ساخرًا

"كان أكل عيش.."

وجهت عينيها إليه سائلة بدهشة

"عفوًا!!.."

نظر إلى عينيها وقال مكررًا ببرود

"كان أكل عيشه، مهنة يتقن أساليبها لأنها مصدر رزقه.. بينما يترك من خلفه طلاب أمثالك يحلقون في حياةٍ مغايرة للواقع الذي نعيشه هنا على سطح الأرض، فيفجعون مع أول صدمة تخبرهم أن مبدأ الإنسان الوحيد هو الحفاظ على مصلحته.. دون شعارتٍ زائفة وخطبٍ رنانة خادعة.."

فتحت شفتيها غير مصدقة لما تسمع، ثم همست ما أن انتهى

"يا لخيبة أملي!!.."

مط شفتيه يميل برأسه قائلًا برزانة

"أعرف.. لكن على الأقل فلتشعري بالإمتنان لأن هناك من

وعَالِكِ.."

ردت بخفوت:

"بل يا لخيبة أملي في ولدي الدكتور صالح!!!.. كيف يمكن لرجل مثله أن يخفق في تربية ابنيه بهذا الشكل!!.. الدكتور صالح لم يكن يقول مجرد شعاراتٍ زائفة، كم من معركةٍ خاضها بين أعضاء هيئة التدريس محاربًا فسادًا سبقه واستمر لأجيال ولم يكن ليهدأ له بال حتى يقضي على واحدًا تلو الآخر.. رشاوى للدراسات العليا، تسريب اختبارات، تقديم طالب فوق آخر في التعيين رغم أنه تحته في الترتيب،"

سكتت وهي تراه ينظر إليها بطريقةٍ غريبة، فقالت بخفوت

"كما أن له موقفين معي أنا بالذات لن أنساهما مطلقًا..أولهما حين كان طلاب الدفعة يلتقطون الصور الجماعية بإستمرار وكنت نظرًا لوضعي أخجل من الظهور فيها وأتحاشاها.. وذات مرة وقفت عن بعدٍ أراقبهم مبتسمة وهم يتدافعون للتصوير بجواره وهو يضحك تلك الضحكة

المميزة التي تخصه.. وكنت أضحك لضحكه وفجأة رأيته يتركهم ليقترب مني.. وحين وصل إلي انحنى وقال بصوته المحبوب مبتسمًا

" لما لا تأتين لأخذِ صورةً مع زملائك بالقرب من والدك الدكتور صالح؟.."

آه لو أخبرك دون مبالغة، شعرت لحظتها أن والدي عاد من جديد.. كنت أبتسم فاغرة فمي ببلاهة ودفعت الكرسي ووقفت بالقرب منه وكنت في الصف الأول، الصورة لا تزال معي حتى هذه اللحظة في غرفتي لا أفرط فيها أبدًا.."

كانت ملامحه ممتقعة وعيناه باردتان وهو يستمع إلى صوتها الجميل المتراقص مع المشاعر في كلامها، يعلو حين تتحمس وينخفض حين تتأثر، سأل بصوتٍ أجش غاضب

"كل هذا الفيض من التأثر لأنه قال تعالي وقفي بالقرب من والدك الدكتور صالح!!!.."

نظرت إلى عينيه مبتسمة على الرغم من أن الإبتسامة لم

تكن له.. بل عليه وهمست بخفوت شديد

"بل لأنك لا تعرف أثرَ جبرِ الخواطر على من يحتاج.."

فوجئت به يسألها ببرود

"والموقف الثاني؟.."

فوجئت بإهتمامه، لكنها ضحكت وهي تحك جبهتها قائلة

"موقف محرج للغاية، حسنًا.. كنت لأتمكن من دخول المدرج في الطابق الثاني، إما أن يحملني طالبان بالكرسي على الدرج.. أو تحملني شابة كلفها زوج أمي بمرافقتي، كانت قوية الجسد وأنا لا أزن الكثير.. وطالب يلحقنا بالكرسي، لم يكن هناك مصعد لهذا المدرج وكنا أول العام الدراسي.. وما أن رأى الدكتور صالح ما يحدث وشعر بحرجي وأنا أدخل المدرج محمولة بين ذراعي شابة، حتى أصر على تغيير المدرج لآخر في الطابق الأرضي حتى نهاية العام"

صمتت قليلًا تهز كتفها وهي تحك جانب شعرها مبتسمة

بحرج، خجولة من نظرته المتجهمة لها وهو يستند بكفه إلى ساقه متحفزًا.و رأت أن ملامحه باتت على حافة الخطر.. فتنهدت تسأله مغيرة الموضوع

"ماذا تحب أن تشرب؟.."

رمش بعينيه زافرًا، ثم أجاب باقتضاب

"لا شيء شكرًا.."

إلا أنها كانت قد بدأت تتحرك فعلًا قائلة

"لا يصح، يجب أن تشرب شيئًا.."

رد عليها بإختصار قائلًا "لا بأس، شاي إن أمكن.."

أومأت مبتسمة وابتعدت فسألها ببطء من خلفها

"هل تستطيعين تحضيره وحدك أم تحتاجين لمساعدة؟.."

ردت دون أن تتوقف ممتعضة بصوتٍ عالٍ

"حقًا!!.."

ثم توجهت للمطبخ ذي البابين.. واحد منهما داخل البيت أما الآخر فهو المفتوح على الساحة المتوسطة وهو ما دخلت منه..

كانت تشعر بشيء من الحماس غير من وحدة حياتها الحقيقية، نفس الحماس الذي كان بالأمس وهي تنتظر الدكتور صالح وابنه بقلبٍ خافق..

نفس الحماس حين أرادت أن تعرف أكثر عن شخصٍ قتل وسُجِن..

أرادت أن تتكلم وتسمع، لا أن تحاكِم..

و حين استيقظت مع خيبة الأمل في الإهانة التي لحقت بها كانت في أسوأ حالاتها النفسية..

رتابة، إهانة، غضب، وجزء من الأنثى يرفض تلك المعاملة..

لكن الآن عاد الحماس.. شخص حقيقي من لحم ودم يكلمها وهو ابن الدكتور صالح..

شخص ليس خلف الشاشة، بل معها على نفس الجانب..

أمسكت بإناء السكر، وأخذت تبحث عن الشاي يمينًا ويسارًا.. حتى وجدته في الأعلى فوق الرف!!!

همست غاضبة غير مصدقة

"فعلًا يا ليلة!!!!!.. تركتِ الشاي على الرف؟!!!!!!!.. لا أصدق هذا!!.."

أغمضت عينيها وهي تضغط على أسنانها من شدة الغيظ والكبت وقلة الحيلة.. وأخيرًا تنهدت لتعاود جر أذيال الخيبة مع عجلات كرسيها عائدة إلى حيث يجلس وما أن نظر إليها مستفهمًا حتى اضطرت للقول بوجوم

"هل تريد قهوة؟.. لأن البن بالأسفل أما الشاي فقد تركته الذكية أختى على الرف بالأعلى.."

تنهد بملل واضح، يتمنى الخروج ثم قال

"أي شيء.. في الواقع لم أعد أريد شيئًا.."

رآها تخفض وجهها بحرج، ورآى تتنفس نفسًا طويلًا ثم أومأت برأسها بصمت.. ومن حيث لا يدري وجد نفسه يقول مستسلمًا بجفاء

"أو.. هلا سمحتِ لي بدخول المطبخ؟.."

نظرت إليه مجفلة، ثم ردت بخفوت

"آآ.. تفضل، له باب من الخارج.."

نهض من مكانه معدلًا قميصه، وللمرة الأولى لاحظت كم يبدو منظره عصريًا مقارنة بالبيت!

كان كمن دخل زمن آخر بالفعل!..

اقترب يوسف منها حتى استدارت بسرعة وسبقته للمطبخ.. وما أن دخلت حتى توقفت ورفعت إصبعها لأعلى هامسة

"ها هي العلبة هناك.."

مر بها وتجاوزها ليرفع كفه ويحضر الشاي، فمدت تحاول أخذه، إلا أنها صدمت بالمرة الأولى التي يبتسم فيها قائلًا بود

"ارتاحي أنتِ وأنا سأضايفك في بيتك.."

لم ترد عليه متفاجئة، واعتبر هو صمتها موافقة فألقى نظرة سريعة على المكان قبل أن يبدأ في تحضير الشاي لهما..

أخذت عالية نفسًا مضطربًا وهي تنظر خارج باب المطبخ، ثم أعادت عينيها إليه.. لا يجب عليها أن تثق في غريب إلى

هذه الدرجة..

"كم ملعقة سكر؟.."

انتفضت من شرودها على سؤاله الهادىء ورأته ينظر إليها بتفحص.. فابتسمت متوترة وهي تقول : "واحدة.."

وضع معلقة، ثم قال بهدوء دون أن يلتفت إليها

"لا تخافي.."

رفعت وجهها وقالت ضاحكة بإرتباك

"لست خائفة، كنت شاردة فحسب وأجفلتني.."

ساد الصمت لفترة لا يقطعه سوى صوته تقليب الملعقة ببطء ثم قال

"قصدت ألا تخافي لأني لن أؤذيكِ.. وهذا ما أنتِ خائفة منه.."

شحب وجهها بشدة وهي تنظر إلى ظهره وفكرت كيف يمكنها التصرف إن أقدم على أي شيء؟!..

نظرت إلى موضع السكاكين لكنها كانت أقرب له هو..

و في أثناء ما كانت تفكر، التفت إليها حاملًا الكوبين وقال بهدوء

"تفضلي، اسبقيني.."

تحركت عالية بصعوبةٍ من التوتر حتى عادا معًا إلى صحن البيت وجلس أمامها يناولها الكوب فأخذته منه شاكرة بخفوت..

تمهل يوسف وهو ينظر إليها من فوق حافة كوبه، ثم سألها باهتمام

"لما لا تخبريني عن هذا البيت أكثر وورثته.. كيف استمر حتى يومنا هذا وكيف وصل إليكِ.. أنا مهتم بالسماع.."

تعجبت لإهتمامه الزائد، إلا أن نقطة ضعفها هي القصص، كانت تحب أن تحكي وطالما أنه مهتم بالمكان الأغلى على قلبها لذا قالت مبتسمة

"هذا البيت بناه الحاج عبد الجليل الطرقاوي، عام ١٧٦٩و هو نفس العام الذي أعلن فيه علي بك الكبير نفسه سلطانًا واستقل عن الدولة العثمانية.. عبد الجليل كان شيخًا حافظًا لكتاب الله، أتى للقاهرة في وقتٍ غير معلوم تمامًا للدراسة في الأزهر الشريف، بنى البيت بعد سنوات وتزوج ثلاث زوجات، سكن جميعًا نفس البيت وكان له عدد ضخم من الأبناء.. وقد توارثته عائلة الطرقاوي عامًا بعد عام وقد ترك وصية بعدم هدم البيت.. استمرانتقاله وكل مقتنياته من وريثٍ إلى آخر حتى بدأ العدد المعلوم من عائلة الطرقاوي يقل شيئًا فشيئًا، خاصة أن من كان يريد البيت والسكن فيه كان يقوم بشراء نصيب الباقين ويبقى هو ساكن فيه.. واستمر الحال أجيالًا حتى ساءت أحوال المنطقة المحيطة بالبيت كما رأيت، ووصل لوريث واحد فقط من عائلة الطرقاوي وهو عبد الحليم الطرقاوي.. زوج أمي.."

ضاقت عينا يوسف وهو يستمع إليها بتركيزٍ شديد وما أن

انتهت حتى سأل ببطء

"زوج أمك!.. ومن هم الورثة؟.."

ردت عالية شارحة له

"عائلة غانم، هي عائلة عبد الحليم لكن من جهة الأم، والورثة أبناء خاله..عبد الحليم لم ينجب أبدًا كان قد تزوج من أمي جميلة منذ ثلاثة عشر عامًا، توفت خلال سنواتٍ بعدها وبقيت معه أنا وأختي حتى لحق بها منذ شهور.."

تابع يوسف قائلًا بتفكير

"وبالطبع أتى أبناء غانم يطالبون بحقهم في البيت، لكن ما يثير دهشتي لماذا تأخروا في اخراجكما من البيت لمدة أشهر؟!.. ما سبب تعطيل إجراءات الميراث؟.."

ردت ببساطة تهز كتفيها وهي تتنهد بحسرة

"المسألة مسألة وقت.. أنا فقط لا أخضع للتهديد بسهولة

وهم لم يدخروا جهدًا.. كما أنني في حاجةٍ لإيجاد مكانٍ للسكن قبل أن أترك لهم البيت.."

زم شفتيه مفكرًا بضيق بينما ارتشفت هي من كوب الشاي بشرود وقد عاد إليها الخوف من المستقبل غير الواضح حتى الآن..

لوحت بكفها قائلة على مضض

"مجرد أن أجد لي مأوىً آخر سأنهي إجراءات التنازل.."

ارتفعت عينا يوسف إليها ببطء وهو يكرر سائلًا بتركيز

"أي إجراءات؟!.."

تنهدت قائلة بعفوية

"تنازلي عن البيت لهم، فقد سجله عبد الحليم بإسمي قبل وفاته.."

ساد صمت غريب بينهما ويوسف ينظر إليها فاغرًا فمه غير مصدقًا، ثم رفع حاجبيه مكررًا مشددًا على كل كلمة

"سجل لكِ البيت!!.. هل تريدين القول أن هذا البيت ملك لكِ؟!!.."

أومأت برأسها قائلة

"كان يريد تأمين مكانٍ لي أنا وأختي.. كما أنه كان متأكدًا من أنني لن أفرط في البيت أو أبيعه لكن للأسف سأخذله رغم معرفتي بأنهم يريدون هدمه والطلوع ببرجٍ عالٍ لا قيمة له.."

رفع يوسف كفه مقاطعًا بإستياء حاد

"هشششششش.. توقفي عن الكلام للحظة ودعيني أفهم، هل عرضوا عليكِ شراء البيت؟! هل يدركون قيمته الفعلية وكم يساوي؟!.."

ضحكت عالية وهي تقول كمن يكلم معتوهًا

"أي شراء!!! هل تمزح؟!.. أقصى ما عرضوه هو مبلغ خمسين ألف جنيهًا كي أتنازل وأخلي البيت أو سيبدأون في اتخاذ الإجراءات القانونية.."

سألها ذاهلًا وهو يميل برأسه للأمام

"أي إجراءات؟!.. ما نوع الدعوى التي يريدون رفعها؟!!.."

تنهدت مجددًا وهي تقول بخفوت

"يريدون رفع دعوى سفه على عم عبد الحليم رحمه الله.. سيدعون أنه لم يكن في كامل قواه العقلية حين سجل البيت بإسمي، سيسيئون لإسمه بعد وفاته دون رحمة.."

ساد صمت طويل بينهما حيث كانت جالسة تتأمل صحن البيت بشرود بينما كان هو ينظر إليها بنفس الذهول غير قادر على الاستيعاب.. ثم هتف فجأة مما جعلها تنتفض مكانها

"هل أنتِ مجنونة؟!!!.."

نظرت إليه برعب للحظة ثم هتفت بغضب

"ما الذي جرى لك فجأة؟!.. لماذا تصرخ وتهينني؟!.. ماذا فعلت لك!.."

أغمض عينيه وهو يغط على أسنانه محاولًا إلتزام الهدوء وضبط النفس.. ثم رفع كفه كي يهدىء الأوضاع قبل أن ينظر إلى عينيها قائلًا وهو يضغط على كل كلمةٍ بأسنانه

"بيت كذا، بقيمة مهولة.. بمعنى مهولة.. وهو مسجل بإسمك بشكل قانوني صحيح مئة بالمئة.. ولمجرد أن هددوكِ برفع دعوى وهمية لا أساس لها من الصحة تقومين بالتنازل عن البيت لهم مقابل ملاليم!!!!

أي نوعٍ من العقول تمتلكين؟!.. ما هو تعليمك؟!.. هل متأكدة أنكِ جامعية فعلًا؟!!!.."

كانت تنظر إليه ببرود شاعرة بالإهانة من كل كلمة ثم ردت بقسوة ما أن انتهى:

"أنا لست غبية كما تظنني، الأمر وما فيه.. أنني أولًا أخشى على اسم رجل أكرمنا أنا وأختي، وثانيًا أنا لا أستطيع أن أحيد عن الحق أكثر من هذا، فالبيت من حقهم فعلًا، شرعًا لا يجوز له أن يحرمهم من ميراثهم حتى وإن كان الإجراء قانونيًا سليمًا وقد حاولت منعه في حياته إلا أنه لم يكن في تمام صحته وتقبله لأي جدال.. كان مصممًا بشدة.."

فاغرًا فمه للحظاتٍ طويلة وهو ينظر إليها عاقدًا حاجبيه ثم لم يلبث أن هز رأسه وهو يرفع أصابعه إلى جبهته غير مصدقًا وقال بعدها بجنون

"الرجل وهبك في حياته شيئًا من أملاكه وهو حر تمامًا وقانونًا يملك كل الحق في التصرف كيفما يشاء فيما له.."

هزت رأسها تجادله قائلة

"هنا تكمن المشكلة، هو لم يهبني شيئًا مما يملك، بل وهبني كل ما يملك.. لم يترك لهم أي ميراث وهذا شرعًا لا يجوز.. لا أستطيع القبول بشيء ليس من حقي"

أطبق عينيه مجددًا هامسًا بصدمة

"هذا صالح عبد العظيم يتكلم.. نعم إنه هو، لقد بدل عقولكم بعقله في تجربة بشرية مريعة.."

نظرت إليه بقنوط بينما يحاول أن يتمالك نفسه، ثم نظر إليها وسأل بخشونة

"وما رأي أختك في الموضوع؟.. ألا يحق لها أن تبدي إعتراضًا وأنتِ تنوين سلبها شيء تملكه أم أنها موافقة على رأيك كي أفقد المتبقي من عقلي؟.."

ردت تهز رأسها نفيًا

"عم عبد الحليم سجل البيت بإسمي أنا فقط، لأنه يثق أنني الوحيدة التي لن تتخلى عنه وتسمح بهدمه.."

رفع كفيه للسماء مكلمًا نفسه حتى كاد أن يجن فعلًا.. بينما تابعت عالية ناظرة حولها تقول بإهتمام

"على أنني أفكر في عقد صفقة معهم.."

ضاقت عيناه وقد بدا عليه الإنتباه الجاد أكثر وسأل بقوة

"أي صفقة؟!!.. أرجوكِ غيري نظرتي لكِ وترأفي بي.."

نظرت إليه وقالت بجدية

"البيت يحتوي على مجموعة ضخمة من الكتب القديمة، الكثير منها نادر وقيمته لا تقدر بمال وهناك نسخ أصلية عتيقة ومخطوطاتٍ عمرها أكثر من مئة عام.. لو أمكنهم التنازل لي عن الكتب مقابل تنازلي عن البيت فهذا عرض لن أستطيع رفضه مطلقًا.. لكنني أعرف أنهم هم من لن يقبلوا.. فهذه الكتب والتي لن يقرأوا منها حرفًا واحدًا تساوي مبالغ طائلة، وهم يقومون ببيعها بكل تأكيد.."

صمتت وهي تراه مائلًا للأمام، مستندًا بمرفقيه إلى ركبتيه.. دافنًا رأسه بين كفيه ناظرًا للأرض فسألته بقلق

"أستاذ يوسف!!.. هل أنت بخير؟! هل تعاني صداعًا؟!.."

رد ببطء شديد: "أعاني غباءً .. أعاني ذهولًا.."

تراجعت في مقعدها سائلة ببطء

"أنت تراني غبية!!.."

رفع عينيه ينظر إليها ثم قال ببطء شديد

"العفو، الغباء صفة تدل على القليل من الذكاء، أما أنتِ فأراكِ وقد حرمتِ من أي ذرةِ تفكيرٍ أو عقل.."

عقدت حاجبيها بشدة وفتحت فمها تنوي رد الإهانة لكن صوت تهشم ضخم جعلها تنتفض، ثم تغمض عينيها بشدة تزم شفتيها.. أما يوسف فقد نظر حوله سائلًا:

"ما كان هذا الصوت؟!.."

ردت عليه بسخرية مستاءة غاضبة

"هذه رسائل تهديد اعتدنا أن تصلنا بإستمرار.. هي ليست

مؤذية فلا تقلق، لكنها كلفتنا مربعات الزجاج الملونة الرائعة للنافذة الكبيرة والآن لم يعد متبقي فيها سوى ثلاث مربعاتٍ فقط.."

ضاقت عينا يوسف للحظات مفكرًا ثم تراجع وهو يخرج حافظته من جيبه ليخرج منها بطاقةٍ مدها إليها قائلًا بجدية

"خذي، هذه بطاقة مكتبي وأرقام هاتفي.. عليكِ التفكير لفترة وجيزة، ثم تقومين بعدها على الفور بعمل توكيلٍ لي.. وأنا سأتولى الأمر.."

أخذت منه البطاقة من باب الأدب لكنها هزت رأسها معتذرة وهي تقول بحرج

"أستاذ يوسف، يشرفني التعامل معك حقًا.. لكنني أخبرتك بما أنا مقتنعة به ولا أظن أنني س.."

قاطعها قائلًا بهدوء

"اقتربي.."

نظرت إليه بدهشة لكنه أشار إليها بأصابعه مكررًا

"اقتربي قليلًا.. تعالي.."

حركت عالية عجلات كرسيها ببطء حتى أصبحت في مواجهته فنظر إليها مليًا قبل أن يسأل بهدوءٍ شديد

"أنتِ تحبين هذا البيت أليس كذلك؟.. أنت تدركين قيمته الحقيقية وتعرفين أن زوج أمك قد سجله بإسمك أنتِ فقط لمعرفته أنكِ تفعلين.. لا أحد سواكِ، لا أختك ولا ورثته.. فكيف لكِ أن تتخلين عن شيء بهذه القيمة لمن سيقوم بهدمه؟!.. كيف تشاركين في جريمة كهذه؟!!.."

بدت وكأن كلماته قد لمست بداخلها نزاعًا عنيفًا رآه بوضوح في عينيها الواسعتين المتهربتين من عينيه..

فشعر بالرضا وهو يسألها وكأن الموضوع منتهٍ

"لاحظت أنه لا وجود لحارسٍ على البيت، فكيف لكما أن تعيشا هنا بمفردكما دون حماية.. يستطيع أي شخص القفز

إلى هنا من فوق السطح..”

أجابته بخفوت مشيرة للسطح:

“لقد غطينا السطح بالكامل بالأسمنت ذو شظايا من الزجاج مغروسة فيه تمنع أي أحد من التسلل فوقه.. أو ستقطع الشظايا قدمييه..”

صمت للحظات بملامح بليدة قبل أن يرفع حاجبيه يهز رأسه قائلًا بهدوء

“مع احترامي لهذه الوسيلة الرائعة في الحماية، لكنني أفضل حارس مخصوص..”

رفعت كفيها محاولة إيقافه وهي تهتف

“أستاذ يوسف، لحظة واحدة فقط.. بالنظر إلى تلك البطاقة الأنيقة الغالية المختلفة كليا عن البطاقات المصممة بطريقة رديئة وبالنظر إلى عنوان مكتبك فيها والحي الراقي الذي يضمه فأنا بكل أمانة وإخلاص أؤكد لك أنني لا أستطيع

التكفل بأتعابك.."

نهض يوسف من مكانه وهو يعيد حافظته لجيبه ثم نظر إليها قبل أن يبتسم قائلًا

"هذا آخر ما قد تقلقين بشأنه.."

ارتبكت واهتزت حدقتاها للحظة، بينما نظر إلى ساعة معصمه ثم عقد حاجبيه بشدة غير مصدقًا.. إنه هنا منذ ساعة كاملة!!.. لم يتكلم فيها عن معاذ سوى خمس دقائق فقط!!!..

هز رأسه زافرًا وهو يقول مستاءً

"علي الإنصراف.. لقد تأخرت جدًا.."

اتجه إلى حيث الباب لكن قبل أن يخرج إلتفت إليها قائلًا بنبرة جادة

"انتبهي لنفسك جيدًا.. وإن حدث أي شيء، أو أي خطوة

من قبل أولاد غانم، فقط اتصلي بي فورًا.."

أومأت برأسها ببطء لكن بداخلها كانت تشعر بشعورٍ غريب من السعادة لوجود شخص مهتم يقلق.. وهذا إحساس غاب عنها بغياب العم عبد الحليم..

سألها ينتشلها من شرودها "هل يمكنني أخذ رقمك؟.."

فتحت فمها للحظة مترددة، فبادرها قائلًا

"سأكون محاميكِ!.."

مجددًا ظلت صامتة غير واثقة، فقال بخشونةٍ متجهمًا

"تعرفين والدي، ولأجل اسمه فقط استقبلتِني لمدة ساعة كاملة.."

حينها فقط ابتسمت أمام عينيه المندهشتين.. فرفع حاجبيه وهو يهز رأسه متعجبًا متنهدًا بينما أملته الرقم بصوتٍ هادىء قام بتسجيله..

تحرك خطوتين لكنها قالت من خلفه

"كنت أود أن تحكي لي عن والدتك.."

تسمر مكانه تمامًا دون أن يستدير إليها وقال بصوتٍ قاتم

"أمي؟!!.. لماذا؟!.."

ردت بحماس ونعومة

"حلم قديم من أيام الدراسة، كنت أتمنى أن أعرف من هي زوجة الدكتور صالح.. شخصها وحماس ملامحها لدى كلامهما.. هل هي مهتمة بالتاريخ مثله؟.. وهل عاشا قصة حبٍ يضرب بها المثل ؟ بكل صراحة كنت أحسدها لأنها نالت رجل فيه كل المواصفات التي تمنيتها أنا.."

استدار إليها ببطء رافعًا أحد حاجبيه، يدقق النظر في ملامحها، ثم سألها ببطء وبصوت غريب

"هل أنتِ واثقة أنه كان مجرد إعجاب بأستاذ؟!.."

ضحكت بمرحٍ وبصوتٍ عالٍ وقد عاد وجهها يتورد بشدة، لكنها رفعت كفها هاتفة بخجل

"أقسم.. اعجاب تاريخي بحت"

ابتسم رغم عنه ابتسامة باهتة ثم سألها بصوتٍ أجش

"ألا أقارب لكِ اعترضوا على فكرة احتمال زواجك من سجين سابق كأخي وبتهمة مروعة كهذه، وددت لو أسألك هذا السؤال منذ اللحظة الأولى لدخولي هنا؟!.."

لم تختفِ ابتسامتها الجميلة عن شفتيها، لكن ملامحها ونظراتها كانت هادئة وهي تقول ببساطة

"كان لنا أقارب منذ زمن.. لكن انتهت كل صلة، وخاصة بعد زواج أمي من العم عبد الحليم وانتقالنا إلى هنا.. أرادت وضع حد أخيرًا للخرافة.."

ضيق عينيه سائلًا

"أي خرافة؟!.."

ردت بهدوء "خرافة النحس، عُرِف عنا أننا نحس.."

*****

جلس في سيارته خلف المقود ينظر للبيت القديم عن بعد والذي تحيط به أكوام من القمامة، ثم أخرج هاتفه وطلب رقمًا وانتظر إلى أن سمع الصوت المألوف فحياه قائلًا بهدوء

"سيد جلال، أرجو ألا أكون قد اتصلت على هاتفك الخاص في وقت غير ملائم.. نعم، شكرًا لك، الموضوع بإختصار بيت بني سنة ١٧٦٩ موجود وله مالكة واحدة، ولم تشعر به هيئة الآثار بعد..

هل أنت مهتم؟.."

بعد أن أنهى الإتصال مبتسمًا والحماس يدق في أوردته دماء المكسب وهو يربت على المقود بأصابعه عازفًا لحنًا سريعًا.. لكن مع نظرته للبيت، خفتت سرعة أصابعه واختفت

البسمة عن شفتيه بالتدريج وهو يتذكر عالية عبد الحي عابسًا..

لا يعلم إي شعور أثارته تلك الفتاة بداخله أكبر.. الغضب، أم الشفقة.. الإحساس بالذنب أم الإعجاب..

لكن أي كان شعوره، فهو ينوي أن يعوضها بربحٍ يرضي شفقته ويخفض إحساسه بالذنب، ويناسب إعجابه..

أرجع رأسه للخلف قليلًا مستندًا لظهر المقعد.. متذكرًا بجسد متشنج طريقتها الحالمة في الكلام عن والده ووالدته.. عن صالح ودلال..

*****

لم تحصل دلال على الطلاق من زوجها إلا بعد سنواتٍ.. كانت كلما ضربها قررت الإنفصال وصرخت طالبة الطلاق بعد معركة بينه وبين ابنها يوسف تسفر دائمًا عن كدمات وجروح للطرفين..

لكن ككل مرة وما أن تهدأ الأمور حتى تعاود طريقتها في استمالة زوجها مجددًا كي لا تفقد الترف الذي منحه لها.. كان يدفع ثمن تماديه في الإسلوب الذي يحب وهي كانت تعرف ذلك وبينهما اتفاق ضمني بالمتابعة..

لكنه ذات مرة تمادى كثيرًا.. فقد ضربها بشدة في غياب يوسف وطردها من بيته مغلقًا الباب وهي بقميص النوم!..

وقفت تبكي وتطرق الباب مع الجرس تترجاه أن يفتح لها لكنه لم يهتم..

حينها نظرت حولها لا تعلم كيف تتصرف ثم تحركت منتحبة للباب المقابل وضغطت الجرس شاهقة بقوة..

مضت لحظات حتى فُتِح الباب ووقف جارها ناظرًا إليها بذهول فقالت بصوتٍ مختنق باكٍ

"أعتذر عن.. عن تطفلي ومظهري، لكن أنا.."

فهم جارها الوضع على الفور دون الحاجة للكلام، فنادى

على زوجته والتي أتت مسرعة وما أن رأت دلال حتى صُدِمت بالمنظر إلا أنها أمسكت بذراعيها وهي تقول بخفوت مضطرب

"لا بأس.. تعالي للداخل.."

أغلق زوجها الباب خلفهما، فقادتها جارتها للداخل مربتة على كتفها قائلة بصوتٍ قوي مواسي

"اهدئي، سأعيرك شيئا لتبدلي ملابسك.."

و بالفعل لم تتركها إلا بعد أن غسلت وجهها وبدلت ملابسها فجلست على حافة السرير تبكي بقوة دون توقف..

جلست الجارة بجوار دلال وربتت على ركبتها قائلة بتعاطف

"يؤسفني ألا نتعارف سوى في ظرفٍ كهذا.."

لوحت دلال بكفيها وهي تقول بصوتٍ مرتعش وهي تعاني

إحدى حالتها العصبية الخانقة

"لم تسمح لي الظروف كما ترين، فإختفائي أفضل لي كي لا يرانى أحد على هذا الشكل والحالة.."

و كانت جارتها تماثلها عمرًا، جميلة على نحوٍ هادىء وراقي.. لم يسمع لها صوتًا خارج باب شقتها مطلقًا

مما جعل دلال تشعر بالخزي أمامها وتزيد البكاء

لكن تلك الصديقة الجديدة أحاطت كتفيها بذراعها مشددة وهي تقول بحزم

"لا تقولي هذا، المهم أنكِ بخير وقد أنقذك الله منه.. إن شئت ذهبنا معكِ لتحرري محضرًا بالضرب ضده.."

خفت بكاء دلال العنيف وهي تنظر أمامها بعينين حمراوين متقرحتين شاردتين ثم ردت أخيرًا بخفوت غامض

"ليست هذه المرة.. لكني سأفعل إن أعادها.."

تعجبت جارتها وقالت بجدية

"سيعيدها ويزيد.. ليس عليكِ التحمل أكثر، خاصة وأن ابنك شاب وكثيرًا ما ضربا بعضهما، أخشى أن يتهور ذات يوم ويضيع مستقبله في مصيبة غير محسوبة.."

ظلت دلال صامتة تمامًا، حتى الدموع جفت من عينيها وهي تفكر فيما تسمع،..

و كما تنبأت صديقتها التي تسكن على بعدِ أمتار منها، فقد حدث عراك عنيف بين يوسف وزوج دلال.. انتهى بهما في قسم الشرطة، حيث رفضت دلال تحرير محضر ضد زوجها بينما أمضى يوسف ليلة في الحجز!!..

تلك الليلة غيرت الكثير من مشاعره تجاه أمه.. فحفاظًا على مستقبله لم يشأ الضابط إلا أن يحل الموضوع وديًا.. لكن بعد عدة صفعات نالها يوسف تأديبًا على كل ردٍ متبجح في القسم..

تلك الليلة التي أمضاها في القسم جلس على الأرض

الباردة، مستندًا بظهره لجدار الحجز وهو يشعر بالإهانة والخذلان.. كان الغضب بداخله يتفجر لكن في صمتٍ تام.. فقط فاض من عينيه بينما عضلاته ترتعش قهرًا..

و حين خرج لم يعد للبيت، بل عاش أيامًا متسكعًا بين بيوت أصحاب المقاهي الشعبية وبعض الأصدقاء من العاطلين..

أما دلال، فهي أيضًا لم تعد للبيت على الفور، بل ذهبت إلى بيت جارتها بإقتدار وأتاها زوجها طالبًا الصلح..

حينها جلست واضعة ساق فوق أخرى وطلبت تعويضًا أن تسجل الشقة بإسمها كي تقبل العودة..

نظرت جارتها وزوجها إلى بعضهما بدهشة من قدرتها على إدارة الأمور لصالحها رغم كل الضرب الذي نالته ورغم الهشاشة والعصبية الشديدة التي تنتابها كل حين..

قبل زوجها وقدم عربون الصلح فعادت معه راضية بثقة لكنها لم تنس أن توطد صداقتها بجارتها أكثر وأكثر لظروفٍ

كهذه..

و مضت عدة أعوام ودلال تحاول تجميع أكبر قدرٍ من التعويضات المادية، تمضي معظم أوقات فراغها مع صديقتها.. في بيتيهما أو تخرجان معًا حتى باتت دلال فردًا من أفراد أسرتها..

تكرر الضرب!!.. ولكن هذه المرة كانت المرة الأخيرة.. فما أن أصيبت حتى خرجت جريًا بملابس البيت لقسم الشرطة تحرر محضرًا بالضرب مع تقريرٍ طبي وشهادة جارتها.. ثم رفع قضية طلاق انتهت بفوزها بالشقة والمصوغات الثمينة..

و أتت بيوسف تترجاه كي يبقى معها وألا يتركها بمفردها، وقد تعلمت من السنوات الماضية درسًا لن تنساه..

حاول التملص منها إلا أنه عاد وخشي أن تقدم على خيارٍ تعيس آخر فرجع معها بصفة غير مستقرة لشقةٍ ربحتها بالكثير من الضرب والإهانة..

و كانت الصدمة الأكبر في حياته..

و التي اكتُشِفَت بعودة صديقتها ذات يومٍ من الخارج واتجهت لدلال مباشرة تريد منها شيئًا..

لكن حين فتحت دلال الباب بدت مرتبكة بشدة،و الإضطراب ظاهر على محياها..

أوشكت على الإنصراف لعلها أتت في وقتٍ غير مناسب لولا أنها لمحت خف منزلي تعرفه جيدًا، فهو يخص زوجها!!..

نقلت صديقتها عينيها إلى عيني دلال بصدمة تحاول قتل الشك المجنون الذي انتابها، لكنها لم تستطع.. ووجدت نفسها تدفعها بقوةٍ مندفعة داخل البيت باحثة في كل غرفة ودلال تصرخ فيها حتى توقفت أمام الباب الوحيد المتبقي.. باب غرفة نوم دلال، فدفعته بأصابع مرتعشة وهي تشعر بإعياءٍ شديد مما ستراه..

و هناك وجدته واقفًا يحاول ارتداء قميصه القطني البيتي بسرعة وتوتر، لكنه توقف ما أن واجهته عيناها المصعوقتان..

شاهقة بنفس مؤلم ويدها ترتفع إلى صدرها المطعون

بخيانة أقرب اثنين لها..

حينها فقط تكلمت دلال من خلفها بصوتٍ مضطرب

"لا تفهمي الأمر بشكلٍ خاطىء يا نوال، أنا وشكري متزوجان منذ أشهر.."

*****

دفعت باب المتجر بعنف محدثة صخبًا عالٍ بواسطة أجراس الهواء واندفعت بخطواتها المسرعة تجاهه وهي تراه مستلقيًا على الكرسي خلف المكتب.. ساقاه ممتدان فوق سطحه ورأسه مرتد للخلف مغمض العينين

كان يبدو غارقًا في النوم!!.. وكانت هي تشعر بغضبٍ عنيف ومنظره نائمًا زادها جنونًا، فانحنت وضربت على سطح المكتب بكفها عدة مرات..

لكنه لم يتحرك، لم يهتز.. ولم يفتح عينيه حتى!..

كانت تهتز في وقفتها، عيناها متقدتان حمراوان وهي ترمقه بكرهٍ واضح.. قبضتاها تتوقان لضربه بكل وحشية، وكي لا تتهور وتفعلها وانحنت مجددًا تضرب المكتب بقبضتها أعلى وأقوى..

فتح معاذ فمه وتكلم بصوتٍ جاف مقتضب

"سمعتك في المرة الأولى.."

زمت شفتيها وهي تحاول السيطرة على نفسها، غاضبة بشدة نعم، لكنها أيضًا تخافه.. لكنها حتى وإن كانت خائفة فهي لن تتراجع عن قول رأيها فيه بصراحة..

فقالت بصوتٍ قاسٍ حاد

"أنت.. كيف تجرأت على إعطاء عالية موعدًا لطلب يدها، ثم تخلفه دون اعتذار!!!.. كيف لك أن تكون حقيرًا لهذه الدرجة!!.."

فتح معاذ عينيه ينظر إلى عينيها مباشرة فشعرت وكأنه

يتخلل كيانها كله لا تعلم لماذا ينتابها هذا الإحاسس!! لكنها أخفت إجفالها ووقفت تواجهه بثباتٍ حادة النظرات..

مضت بضعة لحظات وهو ينظر لعينيها قبل أن ينزل ساقيه من فوق سطح المكتب ببطء شديد ودون اهتمام ثم نهض من مكانه ليدور حوله حتى وقف أمامها، إلا أنها تراجعت للخلف خطوة بتوتر.. وسألت بصوتٍ أعلى مضطربة

"سألتك سؤالًا.."

انحدرت عيناه عليها في لمحة خاطفة جعلتها ترتعش لكنه عاد سريعًا إلى عينيها بنظراتٍ لا مبالية وإن كانت أكثر عمقًا ثم قال بصوتٍ هادىء تمامًا

"قميص فضفاض وبنطال بسيط، أقرب إلى زي شاب صغير.. هذه المرة لا ثوب جديد يلبس لأول مرة أو شعر محرر على كتفيك!.. هذه المرة أتيتِ كأخت غاضبة تدافع عن كرامة شقيقتها بكل عنفٍ وتفاني.."

صمت للحظة يدقق النظر في عينيها أكثر بينما تراجع

وجهها الشاحب غير مطمئنة لما يقول.. وبالفعل تكلم بنبرة أكثر خفوتًا وخشونة

"بينما أنتِ في الأساس كاذبة، يمكنني أن أرى في عينيك غيرة دفينة تجاه أختك ويعلم الله السبب على الرغم من أنها تستحق كل تعاطف.."

اتسعت عيناها بصدمة وتلعثمت هامسة برعب

"كيف.. كيف.. كيف.."

ابتسم ساخرًا وهو يسأل ببرود

"كيف تجرأت، أم كيف عرفت؟!.. اختاري سؤالا واحدًا.."

ودت صوتها العاجز أخيرًا فصرخت بقوة وغضب

"كيف تجرؤ على اتهامي بهذا، وأنت الذي دخلت حياتنا دون أن نعلم من أنت.. أنت أيها الدنيء الذي أعطاها الأمل ثم انسحبت بتلك الطريقة القذرة!!.."

ضحك بصوتٍ أجش وهو يسألها ساخرًا رافعًا حاجبه

"هل أخبرتِ أختك عن زيارتك السابقة لي؟!.."

شحب وجهها تمامًا واضطرب لكنها تمكنت من النطق بجفاء

"ط.. طبعًا.."

ضحك مجددًا وهذه المرة كانت ضحكته أكثر إهانة وتكذيبًا.. مما جعلها تقول بصوتٍ مختنق

"أنت شخص مريض.."

ارتفع حاجباه وهو يسألها ببراءة

"أنا أم أنتِ؟!!.. ماذا كنتِ تأملين بزيارتكِ لي المرة السابقة؟!.. تقدير ما قد تحظى به أختك؟!.."

كانت ترتعش فعليًا أمام عينيه النافذتين ثم صرخت فجأة

بغضب

"ماذا ينقصني عنها كي أحاول تقدير ما قد تحظى به؟!.. إن كنت أستطيع الحصول على أكثر!!.."

كان بينهما نارًا تتشعل وقد فقد كلًا منهما السيطرة على الموقف بشكلٍ مريع..

إلى فتح الباب بصوتٍ عالٍ أجفلهما معًا ودخل مرجان إلى المتجر يهتف بمرح

"صباح على مساء أي كان.. صباح السعادة يا صديق.."

توقف مكانه وهو يرى صديقه الجديد مع تلك الشابة أمامه وبينهما شراراتٍ غريبة من غضب ومشاعر متقدة.. فصفر بصوتٍ طويل وهو يتأملها ببطىء..

تراجعت ليلة للخلف بسرعة بوجه محمر متجهم، أما معاذ فقد استند إلى سطح المكتب يراقبها عن بعد..

تكلم مرجان قائلًا بنبرة خبيثة

"أعتذر إن كنت قد عكرت الجو.. يمكنني الإنصراف و.."

قاطعه معاذ قائلًا بصرامة

"اصمت يا مرجان.."

ثم نظر إليها بجفاء وتابع

"الآنسة ستنصرف.."

شعرت بأقصى درجات الحرج وهي تنقل عينيها بينهما بملامح ممتقعة، ثم تحركت خطوات تجاه الباب إلا أنها رفعت إصبعها إليه وهمست تلهث آمرة

"ابتعد عن عالية.. فأنا أعرف أنك ستحاول التسلي بها من جديد لأن أمثالك لا يفعلون إلا هذا لتعويض النقص بداخلهم، لكنني أحذرك.. أنني أنا من ستقف لك إن حاولت التواصل معها مجددًا.."

ثم انصرت تجري خارجة من المتجر بينما همس مرجان لمعاذ بعينين واسعتين

"لما أغضبت الصاروخ لهذه الدرجة يا صديق؟!.."

زم معاذ شفتيه وهو يستقيم عن سطح المكتب متجهم الملامح متجهًا إلى نافذة المتجر، يراقبها وهي تجري مبتعدة لتعبر الطريق..

*****

"الأسطورة والخرافة.. أهما وجهان لنفس المعنى أم هناك فرق بين الإثنين؟

الأسطورة هي أصل الخرافة.. والحقيقة هي أصل الأسطورة..

الأسطورة حكاية لها في الأصل حقيقة وقد تكون تلك الحقيقة مجرد فكرة أو ملاحظة، تناولتها الأجيال فغلفت الحقيقة بقشورٍ وبالغت في وصفها حتى وصلت إلينا كقصة

من ضرب الخيال والجنون حفظت كما هي بعد أن استقرت على شكلٍ أخير.. والمثال على هذا أسطورة طروادة

فقد ثبت بالدليل الحروب التي قامت بين مدينة طروادة الواقعة في آسيا الصغرى والممالك الإغريقية الواقعة في جنوب القارة الأوروبية

لكن الأجيال تناولت تلك الحقيقة التاريخية، كل جيل يحاول أن يضيف التفاصيل إليها مما جعلها تتحول في النهاية إلى اسطورة حملت الكثير من الخيال.. ينبغي للأسطورة دائمًا أن تكون ذات مغزى ومعنى يستفاد منه

أما الخرافة فقد بنيت على قشور الأسطورة والمبالغة فيها فصدقها الناس وآمنوا بها..

الخرافة صنيعة خيال الإنسان واختار بمحض إرادته أن يصدقها على أنها حقيقة..

والخرافة لا مغزى لها مطلقًا"

أغلقت عالية التصوير وهي تتنهد ناظرة إلى الشاشة السوداء بحزن غير قادرة على المتابعة فتراجعت في مقعدها شاردة والذكرى تراودها حيث كانت مستلقية في فراشها طفلة في الثانية عشر، عاجزة عن الحراك تماما..نصفها السفلي بات كعبء لا إحساس فيه إلا بثقله.. مع آلام المرض القديم باتت أيامها كعذاب مستمر..

أمها وليلة تتعاملان معها كجثة يتم نقلها من مكان لآخر، فقدت أدنى قدر آدمي من الخصوصية فباتت كلا منهما تحممها وتنظفها وتساعدها على قضاء حاجتها..

في سن الثانية عشر تمنت الموت بكل صدق ومن كل قلبها كي تتخلص من الآلام وانعدام الخصوصية وثقلها على أمها وأختها..

و في تمددها سمعت جارة في الخارج تجلس مع أمها.. وكانت تقول بالحرف

"لا تحزني مما سأقول يا جميلة، لكن كل من رأى عالية منذ صغرها عرف أنها ابنة موت.. الفتاة كانت جميلة بشكلٍ

غريب، شهق فيها كل من رآها ولم تكن لتنجو أبدًا.. مهما حاولتِ فكأنكِ تحفرين في البحر

سنواتٍ تحاربين المرض فيموت والدها بأبشع الطرق، تحاولين التماسك فتسقط البنت من النافذة وتصبح جثة هامدة، انظري إليها الموت لها رحمة.."

سمعت عالية عويل أمها الخافت لشدة ما راح صوتها في الصراخ من قبل.. واكتفت بالترنح فوق الأريكة وهي تنوح كل ساعة دون توقف..

تابعت الجارة بأسى

"سامحيني يا جميلة، أنتِ أختي وحبيبتي لكني أردت أن أفتح عينيك على الحقيقة كي لا تتعذبي أنتِ والبنت أكثر نصيحة مني، سلمي أمرك لله واتركي العلاج ودعيها تذهب بسلام، فهي في كل الأحوال راحلة.."

مجددًا سمعت عالية أمها تنوح بخفوتٍ وبطىء،متخيلة منظرها وهي تتأرجح في جلستها كيوم موت والدها..

و في تلك اللحظة فكرت أنها لو كانت قادرة على الحركة لقامت من الفراش وقفزت من النافذة للمرة الثانية كي تنهي آلامها وآلام أمها..

لكن صوت صراخ علا في الحي أجفلها، وانتفضت له كلًا من جميلة وجارتها.. صراخ عنيف مفزع..

أحد مات.. أغمضت عالية عينيها بشدة عل الصوت يختفي، لكنه بدا أكثر وضوحًا..

امرأة تبكي وتولول وتصرخ بأن أختها ماتت.. أختها فتحية ماتت، وكانت في ريعان شبابها وكانت في كامل صحتها بالأمس..

و صراخ متداخل لم تفهم عالية على الفور سبب اقترابه من بيتهم!!.. ثم بدأ صوت الخالة بدرية يعلو فوق النواح

"قلت لكم أن جميلة وجه نحسٍ لم يصدقني أحد.. ألم تزرها فتحية أول أمس؟!!.."

تعالى صوت امرأة أخرى تهتف بعنف مصدقة

"أنا أصدق بأنها نحس، أمي لم تصب بالمرض الخبيث إلا حين طلت عليها جميلة بعينيها.."

صرخت بدرية بغضب

"هي تتعامل مع دجال لأعمال السحر الأسود واعترفت بنفسها، سمعتموها جميعكم.."

ازداد انطباق جفني عالية بشدة، حتى شعرت بثقل على الفراش بجوارها ففتحت عينيها لترى ليلة تستلقي على جانبها ووجهها قريبًا من وجه عالية ثم همست بخفوتٍ شديد

"عالية، هل تصدقين أننا نحس؟.."

ردت عليها عالية بصوتٍ أكثر خفوتًا

"لا أعلم، لكن ما سبب كل ما يحدث لنا؟.."

أسبلت ليلة جفنيها للحظات ثم همست

"ترى من منا سيموت أولًا؟.."

ردت عالية ببطء "أنا طبعًا، المسألة مسألة وقت.."

أجابتها ليلة تقول بقنوط

"إن كنا نحس فعلًا فالمرض ليس سببًا، أبي لم يكن مريضًا.. وفتحية لم تكن مريضة.."

نظرت عالية للسقف وهمست كالأنين

"أتتذكرين حين كان أبي يدعونا الأميرة رقم واحد والأميرة رقم اثنان؟.. اشتقت لسماعها مجددًا"

مطت ليلة شفتيها تهمس بإستياء

"بعد موته باتت أمي تفضحنا بتعمد مناداتنا ب " طين " و" عجين " أمام الناس.. أنا أخجل منها"

حركة من خلفها جعلتها تستفيق من شرودها وأفكارها الحزينة فنظرت لشاشة الحاسوب السوداء أمامها ورأت صورة ليلة منعكسة فيها وهي تستند بكتفها لإطار الباب، فإستدارت عالية إليها بكرسيها المتحرك ببطء مما جعلها تسأل بوجوم

"هل أساعدك على الإستحمام الآن؟.."

تنهدت عالية قائلة دون حماس

"نعم أرجوكِ.."

تحركت اليها ليلة حتى استدارت ووقفت خلفها ثم بدأت تجر الكرسي خارجة بها من المكتبة وصولًا للسلم

فتوقفت وتركت الكرسي كي تستدير لعالية ثم انحنت وحملتها بصعوبةٍ شديدة وبدأت تصعد السلم وهي تحملها درجة درجة.. صوت أنفاسها يلهث بصعوبة ووجهها يزداد احمرارًا من شدة المجهود، فقالت عالية آسفة

"أعتذر لأن الحمام بالأسفل مكسور.."

ردت ليلة لاهثة

"سأتصل بالسباك غدًا.."

وصلت بها للحمام أخيرًا وما أن وضعتها على حافة المغسلة حتى انحنت تستند بكفها إلى الجدار وهي تتنفس بصعوبة، فرمقتها عالية بصمت وتركت لها بضعة لحظات ثم قالت بخفوت

"أكثر ما يؤرقني بعد رحيلك هو الإستحمام.. حاولت التجربة حين انزلت أرضًا وكانت كارثة"

رفعت ليلة وجهها إليها وأمرتها بصلابة

"لا تحاولي مجددًا.. هل فهمتِ؟.."

سألتها عالية ببراءة "وكيف سأتصرف اذن؟.."

هتفت ليلة من بين أسنانها بغضب

"توقفي عن هذا الإبتزاز العاطفي يا عالية.."

ردت عالية بجدية قائلة

"ليس ابتزاز عاطفي بل واقعي.. كيف سأتصرف يا ليلة؟.."

استدارت عنها ليلة وبدأت تعدل حرارة الماء بحركاتٍ عصبية عنيفة وعالية تراقبها بصمت ثم سألتها بخفوت

"هل أنتِ غاضبة لأن زوج أمنا سجل البيت بإسمي أنا فقط يا ليلة؟.."

توقفت ليلة تنظر للماء الجاري بملامح باهتة ثم سألت بصوتٍ أجوف

"ما الذي جعلك تسألين هذا السؤال الآن بعد مرور أشهر على الوفاة؟.."

ردت عالية بهدوء قائلة

"أحاول استنتاج السبب الذي جعلك تنقلبين ضدي فجأة.. بعد هذا العمر.."

أجابتها ليلة ببرود وهي تجفف يديها "ربما لأنه لم يعد في العمر بقية.."

فرت الألوان من وجه عالية تمامًا ووجدت نفسها تسأل بصوتٍ يرتعش لا تعلم سبب السؤال

"هل أنتِ مريضة؟!.."

التفتت إليها ليلة رافعة حاجبيها بتعجب، ثم ابتسمت ساخرة وهي تقول

"ستكون نهاية محزنة جدًا بعد حياة كحياتي، أليس كذلك؟.. لا يا عالية اطمئني لست مريضة، أنا فقط أنوي الإحتفال بكوني السليمة فينا.. فهذا شيء لم أحتفل به من قبل، بل كان دائمًا سببًا في شقائي، وآن الأوان كي أحتفل به

بنفسي ولنفسي.."

*****

استلقت ليلة في سريرها محدقة في السقف بعينين واسعتين خاويتين وهي تحدق في الضوء الشاحب، تستمع إلى الضوضاء في الخارج..

" أنتِ السليمة.. وعليكِ أن تتحملي مع أختك "

عبارة سمعتها معظم سنوات حياتها، وقد كانت مملة للغاية، لا تأثير لها بالطيب أو السيء.. إلا في موقفٍ واحد.. كانت النكبة التي حلت عليها وعلى حياتها..

يوم كانت جميلة متربعة فوق الأريكة تمسك بذراعي ليلة الواقفة أمامها، تتلمسها ببطء وهي تتأمل جمالها باكية، والعجيب أنها كانت تبتسم بحسرة في نفس الوقت..

همست ليلة بصدمة غير مصدقة أو مستوعبة

"أرجوكِ يا أمي لا تفعلي هذا.. هذا جنون، سأتبرع لعالية إن أردتِ وأنا آسفة لرفضي في البداية"

أغمضت جميلة عينيها وهي تهمس بإختناق

"هل نسيت أننا أجرينا التحليل ولم تتطابق النتائج؟!.."

هتفت ليلة بتوسل "نجرب مرة أخرى، ربما نجح الأمر.."

لعقت جميلة الدموع عن شفتيها وهي ترسم الحسم على وجهها المحتقن قائلة

"هي مرة واحدة فقط، عرفنا منها أنه لا مجال للتبرع.. وأنتِ لن تتركي أختك لتموت يا ليلة، أليس كذلك؟.."

ردت ليلة بسرعة ودون تفكير

"تزوجيه أنتِ يا أمي، أنتِ مناسبة له أكثر.."

رفعت جميلة كفها بسرعة وغضب وكادت أن تصفعها مثلما

فعلت المرة السابقة، لكن كفها توقف في الهواء للحظات قبل أن يسقط على وجنتها هي وهي تلطم وتبكي بينما ليلة تراقبها بخوف..

استمرت في البكاء للحظات قبل أن ترفع عينيها الحمراوين بلون الدم إلى ليلة وهمست متوسلة وهي تتلمس ذراعيها

"أتوسل لكِ يا ليلة، لا خيار آخر لنا.. لم نعد نملك مليمًا واحدًا وأختك تحتاج للكثير.."

حاولت مسح دموعها وهي تقول بنبرة تشجيع تحاول إقناع ابنتها بكل قوتها

"إنه ليس عجوزًا.. أليس كذلك؟ إنه في الثانية والأربعين.. لا يعتبر كبيرًا أبدا"

ردت ليلة بخوف أكبر

"كان والدي أصغر منه.."

رفعت جميلة يدها تربت بها على وجنة ليلة وقالت بخفوت شديد

"أنتِ السليمة وعليكِ أن تتحملي مع أختك.."

*****

"ها هي هناك.. هذه هي زبيدة التي تسأل عنها.."

ضيق معاذ عينيه وهو يراقب عن بعد الشابة ذات العباءة السوداء التي تقف بالقرب من أحد الباعة تقلب في الخضراوات..

ثم إلتفت إلى عابرٍ أرشده إليها فشكره بخفوتٍ شاردًا واقترب منها ببطء وهي توليه ظهرها..

المرة السابقة أتى للحي باحثًا عنها لكن الأمر انتهى به بالتعرف إلى مرجان، أما اليوم فقد تعمد السؤال أكثر من شخص عنها، حتى دلوه على عنوان جديد لها قريب من نفس المنطقة وأخذه أحدهم إليها شخصيًا..

أصبح الآن على بعد خطوتين خلفها.. لم يظهر منها شيء سوى ليونة حركاتها حتى وهي ترتدي تلك العباءة السوداء الضيقة..

تكلم قائلًا بصوته العميق الخشن

"زبيدة.."

توقفت أصابعها عن البحث في الخضراوات، ثم استدارت ببطء تنظر إلى الرجل ذي اللحية الواقف خلفها يناديها ويدقق النظر فيها.. فعقدت حاجبيها وهي تقول ماضغة علكة في فمها

"خير، من أنت؟.."

ظل صامتًا أمام نظراتها المشككة وهي تنتظر منه ردًا بإستنكار بدأ يتزايد، فقال أخيرًا بجفاء

"هل تخفي اللحية وجهي أم أن أحد عشر عامًا قد تركت بصماتها على ملامحي؟!.."

تلبد وجهها فجأة، وتصلبت ملامحها كقناعٍ غريب يستدعي الذكرى من بعيد، ثم لم تلبث عيناها أن اتسعتا ببطء وخوف وهي تهمس بصدمة

"أنت!.. المهندس!.."

ابتسم بسخرية وهو يميل برأسه محييًا قائلا بصوتٍ ذي صدى

"نعم إنه أنا.. المهندس.."

تراجعت للخلف تتعثر هامسة وقد فرت الألوان من وجهها تمامًا

"متى خرجت، وماذا تريد مني؟.."

كانت تبتعد عنه وكان هو يلحقها بخطواتٍ هادئة ثم قال بهدوء

"أتيت أسأل عن حالك.. وأسألك عن شخص.."

صرخت فجأة وقد وجدت صوتها المتحشرج

"تسألني عن حالي؟!.. ألا يكفي ما فعلته؟!.. ألا يكفي أنك حرمتني الرجل الذي رباني واعتنى بي كأنه والدي؟!.. صدق المثل القائل " يقتل القتيل ويمشي في جنازته "!!.."

واصل معاذ اقترابه وهو يقول

"سعدت أنكِ بخير، فعلى ما يبدو قد تدبرتِ أمورك بشكلٍ أو بآخر.. أردت سؤالك عن شخص"

لكنها صرخت فيه وغضب مجنون

"لا أعرف أي شيء أن أي شخص.. ابتعد عني ولا تقترب مني مجددًا.."

ثم استدارت صارخة بذعر

"يا ناس انقذوني.. هذا الذي قتل أبي، خرج من السجن ويلاحقني.. ابعدوه عني"

رمقها معاذ تهرول وكأن الشياطين تلاحقها، بينما تجمع الشعب الغاضب وعيونهم تقدح شررًا ونارًا، فكان عليه تركها مؤقتًا والإهتمام بهم.. لكن من بين المعركة، كانت عيناه عليها في هروبها حتى الإختفاء

*****

الفصل الثامن

" أسمَيتُها.. قمراء "

*****

جلست خلف حاسوبها تعمل على الكتاب المسلم إليها بكل تركيزٍ، فاصلة نفسها عن العالم المحيط منذ الصباح الباكر، خاصة وأنه كتاب في التاريخ الأندلسي الإسلامي..

الكتاب رائع وقد تعمقت بين أسطره، تحاول جاهدة نقل السحر منه تترجمه لسحر لغتها الخاص..

كانت كمن يرسم لوحة أو يعزف لحنًا..

فأفظع ما في الرسم استخدام الورق الشفاف لنسخ لوحةٍ طبق الأصل من تحتها، فقد تكون النتيجة خطوط مماثلة للنسخة الأصلية تمامًا، لكن بالإبتعاد عنها مسافة مناسبة تستطيع العين وحس تذوق الفن المرهف إدراك مدى جمود

الحركة وإختفاء الروح في النسخة التي تم شفها..

كذلك هي الترجمة، فالترجمة نسخة طبق الإصل حرفيًا تفقد الكتاب سحر روح كاتبه والتي لهثت هنا، ابتسمت هناك.. تعجبت وشجبت.. وانهارت إنهيار تام في بضع مقاطع..

تمامًا كحالها ما أن تصل إلى سقوط غرناطة والتي قُدِر لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين وأن تقيم حضارة ثقافية مهيبة سجلت في التاريخ بأحرفٍ من ذهب..

قاطعها صوت رنين هاتفها، فعقدت حاجبيها منزعجة كمن انتُزِعَ من أعمق أعماق أحلامه انتزاعًا، فنظرت للرقم الغريب، ثم ردت بفظاظةٍ أكثر من اللازم

"نعم.."

ساد الصمت للحظة، ثم وصلها صوت رجل أنيق في نبرته يسأل بحذر

"هل أزعجتك إلى هذا الحد؟.."

ضاقت عيناها قليلًا وهي تسأل غير متأكدة تمامًا

"أستاذ يوسف؟.."

رد عليها بعد لحظتين قائلًا بجمود "أنتِ لم تقومي بتسجيل رقمي!.."

ازداد انعقاد حاجبيها وهي تسأل بحيرة

"هل أعطيتني رقمك؟.. لا أتذكر أنك.."

قاطعها بجفاءٍ باتر "البطاقة.."

رفعت أصابعها لشعرها محركة رأسها حولها وهي تهتف

"آه نعم البطاقة... البطاقة.."

سألها بوجومٍ أكبر "هل أضعتِها؟.."

فغرت فمها للحظة وهي تتذكر، ثم أغمضت عينيها كاذبة بحرج

"بالطبع لا.."

ضغطت أسنانها وهي تفكر في البطاقة التي مزقتها على الفور نصفين ودستها في كوب الشاي الفارغ بعد مغادرته..

فهناك مثل شهير يعد من أصدق الأمثال في البلاد " كلام الليل مدهون بزبدٍ، طلع عليه النهار فساح "

وهذا بالضبط ما حدث.. فبعد أن أغراها بقبول البيت ملكًا لها وعدم التنازل عنه مطلقًا وقد صادف هذا هوى في نفسها وفكرت بالفعل توكله محاميًا لها.. مجرد أن خرج من باب البيت استصعبت الفكرة ومزقت البطاقة لا مبالية.. وقررت أن تنسى ولدي الدكتور صالح بكل مشاكلهما وتحتفظ في نفسها بذكرى أستاذ أسر عقلها أجمل أسر..

و الآن كيف لها أن تتصرف في مثل هذا الحرج!!.. لكنه سبقها في الكلام وقال ببرود:

“بالطبع غيرتِ رأيك في موعدنا اليوم أيضًا..”

فغرت فمها وهي تهمس بغباء

“موعدنا!!.. هل كنا على موعد؟!..”

أجابها قاطعًا “كي تقومين بتوكيلي، لا يمكن أن تكوني قد نسيتي!!..”

رفعت يدها إلى جبهتها تسأل الفراغ المحيط بها بذهول، ثم أعادت انتباهها للهاتف قائلة

“قلت سأفكر.. بل لم أرد من الأساس بجوابٍ قاطع، لم نكن على موعد اليوم أنا متأكدة!!..”

حملت نبرة صوته ضيقًا ومللًا وهو يقول

“لقد استيقظت باكرًا خصيصًا كي ننهي هذه المهمة!!!..”

أسندت جانب جبهتها إلى كفها. مائلة برأسها قائلة بخفوت وتردد

"أنا كنت في حاجة للتفكير.."

أجابها قاطعًا "عالية عبد الحي، آن الاوان كي يكون لكِ من يتولى عنكِ التفكير في أمورٍ كهذا وأنا مستعد تمام الإستعداد لها.."

ابتسمت على الرغم منها ثم قالت ببطء

"يوسف صالح عبد العظيم.. أنت لحوح جدًا"

لم تر إختفاء ابتسامته إثر الإسم الكامل الذي نادته به، لكنه قال بهدوء

"سأكون أمام البيت خلال نصف ساعة، أرجو ألا تكوني ممن يتأخرن.."

أوشكت على أن ترد ممازحة لولا أن صوت قذيفةٍ زجاجية

أخرى جعلها تشهق مغمضة عينيها فسألها بقلق

"ماذا حدث؟!!.. عالية.."

ظلت مغمضة العينين وهي تكتم أنفاسها للحظات، ثم ردت من بين أسنانها بغضب

"كان هذا المربع الزجاجي الملون الأخير في النافذة الضخمة والتي كانت رائعة ذات يوم.."

تكلم يوسف قائلًا بسرعة

"جيد.. في وقتها تمامًا، أسرعي بتحضير نفسك ريثما أنهي ما أريد.."

لكنها هتفت فيه مدركة أمر غاب عن وجهها

"انتظر لحظة، دخولي وخروجي لأي سيارة ليس بالسهولة التي تتخيلها أحتاج من يحملني ويضعني على الكرسي ثم يحمل الكرسي المتحرك لحقيبة السيارة وما أن نصل حتى

يحدث نفس الشيء بالعكس.."

أجابها بصوتٍ هادىء، واثق حمل ابتسامة

"لقد أمنت كل شيء.. كل ما عليك هو أن تحضري نفسك فقط.."

أنهت عالية الإتصال وهي شاردة تفكر فيما يحدث، سيكون لها محامٍ ينهي لها كل ما تحتاج.. لكنه متساهل في الأتعاب، أيعقل أن يكون كل هذا الإهتمام إكرامًا لوالده!!.. ترى هل حكى عنها للدكتور صالح وهل تذكرها؟!..

سمعت صوت ليلة فجأة تسأل من خلفها كالوطواط دائمًا

"ماذا تفعلين بالضبط؟!.. ما سبب هذه الإتصالات والحجج؟!.. شقيقه لن يعود، وإن عاد فسيكون لغرض التسلي مجددًا.. أراهن أنه تراهن مع أخيه على خداعك مجددًا.."

مطت عالية شفتيها وهي تقول ببرود

"ليس جميع البشر ملتوين التفكير كما تفكرين أنتِ.."

هتفت ليلة بحدة وحنق

"بلى إنهم كذلك واسأليني أنا.. كيف يمكنك ألا تلاحظي مدى التلاعب في عيني معاذ هذا وطريقته في الكلام!! ودورانه حول من يكلمه كي يفقده هدوءه..كان كال.."

صمتت وهي ترفع كفيها متشنجة الأصابع دون أن تنتبه للصمت القاتل الذي ساد المكان.. وحين انتبهت لنظرات عالية المصدومة أدركت الخطأ الذي أوقعت فيه نفسها بكل غباء..

سألتها عالية بصوتٍ باهت مرتعد

"أين رأيته؟!.. أين سمعتهِ ونظرتِ في عينيه؟!!!.."

امتقع وجه ليلة للحظات لكنها ردت بعصبية

"عبر الشاشة، أحيانًا كنت أمر أمام باب المكتبة وأراه.."

هزت عالية رأسها نافية ببطء ثم قالت بصلابة وصوتٍ غريب

"وهل كان يخرج من الشاشة ليدور حولي وأنا أتكلم ثم يعود إليها مجددًا؟!!.."

استدارت عنها ليلة بسرعة كي تخفي شحوب وجهها واهتزاز عينيها، لكن عالية لم تتركها، بل دارت بكرسيها المتحرك حولها وهتفت بحدة وخوف

"أين رأيته يا ليلة؟!!!!.. أنا أنتظر جوابًا حالًا.."

زفرت ليلة نفسًا حادًا قويًا ثم ردت بقسوةٍ وبرود

"ذهبت إليه في متجر الأدوات الرياضية خاصته.."

اتسعت عينا عالية بذهول ثم صرخت

"هل جننتِ يا ليلة؟!!!.. أي سبب يحتوي على ذرة عقلٍ واحدة جعلك تقدمين على تصرفٍ كهذا!!!!!.."

ردت ليلة قائلة بعصبية

"كنت أريد أن أرى من سيتزوج أختي عن قرب كي أطمئن عليها، هل هناك مشكلة في هذا؟!!.."

صرخت فيها عالية قائلة بغضب

"ليلة، أنا عالية.. تلك المراوغة لا تنطلي علي، لقد ذهبتِ لمعاينته فعلًا لكن لسببٍ آخر في نفسك والدليل أنكِ لم تخبريني إلا بعد أن زل لسانك، وأي كان السبب فهو غير مهم بالنسبة لي.. المهم أن هذا الرجل خطير، بل خطير جدًا.. ابتعدي عنه يا ليلة أنا جادة.."

هتفت ليلة بحدة وإستياء

"من يسمعك يتخيل أنني قررت سرقته منكِ؟!.. حبيبتي لا أنا أريده ولا هو يريدك.."

و دون انتظار أي رد آخر منها انصرفت مندفعة تصعد إلى غرفتها بينما عالية تنظر في إثرها بملامح شاحبة وعينين

قلقتين خائفتين من تلك الإندفاعة الجديدة!!.. ماذا تعني؟!..

*****

فتحت الباب لتراه واقفًا يبتسم لها، وكان هذه المرة يضع نظارة سوداء جعلته يبدو أكثر عصرية..

و بادر بالكلام قائلًا بهدوء

"أنت فعلًا من النوع الذي لا يتأخر على الرغم من روعة النتيجة.."

ابتسمت بتورد وهي تخفض وجهها قائلة بتهذيب

"صباح الخير يا يوسف صالح عبد العظيم.."

اختفت الإبتسامة عن شفتيه بسرعة، ثم لم يلبث أن قال بهدوء

"يوسف فقط تكفي.."

بدت مترددة لا تعرف هل تخرج أم لا.. لكن من يساعدها على دخول السيارة وليلة في الأعلى غاضبة لن تنزل لتساعدها.. وهي بالتأكيد لن تسمح له بأن يحملها..

احمر وجهها أكثر إلا انه فاجأها بطلبٍ غريب، فقال بتردد

"هل يمكنني رؤية أجزاء من البيت من الداخل يا عالية؟.. ينتابني الفضول الشديد لرؤيته"

اتسعت عيناها للحظات وساد الصمت بينهما بينما هو يرمقها من تحت نظارته السوداء بترقب منتظرًا، لكنها أومأت ببطء دون كلام وابتعدت عن الباب المفتوح على الحارة وأكوام القمامة المهملة لتسمح له بالدخول ومن نفس الرواق والبوابة إلى صحن البيت تقدمته حتى بوابة أخرى وهي البوابة التي ستدخله على القاعة السفلية فمدت يدها تدعوه للدخول قائلة

"هذه هي المندرة.."

دخل يوسف من الباب الخشبي ذي المصرعين من الخشب

مزخرفين بشريطين من النحاس وثبت كلًا منهما بمساميرٍ ضخمة..

و بعد دخوله للقاعة خلع النظارة عن عينيه ببطء ثم رفع رأسه تلقائيًا ليتأمل السقف الخشبي والذي يضم زخارف مدهونة وملونة مكونة من عقودٍ، بداخل كل عقد مزهرية مذهبة..

ثم انخفضت عيناه إلى الأرض حيث كساها الرخام الملون المزخرف بزخارف هندسية..

النوافذ كانت كلها خشبية من الأرابيسك المشغول بدقة.. والأرائك اختيرت كي تتماشى مع الذوق العام للبيت، لكنها كانت قديمة بلا شك..

دار يوسف حول نفسه نصف دورة.. ثم أخفض عينيه لعيني عالية وسأل بصوتٍ خفيض

"طلب آخر لكنه يبدو أكثر غرابة، هل يمكنني تصوير أجزاء البيت؟.. الطابق السفلي طبعًا"

ارتفع حاجباها وتوقع أن ترفض لكنه فوجىء بها تسأل مبتسمة بحماس

"هل تنوي أن تُرِي الصور للدكتور صالح؟.. هل كلمته عني؟.. هل تذكرني؟، أرجو ألا تكون قد أشرت إلي بالفتاة المقعدة.. على الرغم من أنها صفة مميزة لكنني لا أحبها.."

أغمض عينيه وهو يرفع قبضته المضمومة لفوق وحين فعل صمتت فعلًا بحرج.. ومضت بضعة لحظات، ثم قالت مبتسمة بعفوية

"يمكنك التصوير بالطبع، لن أمنع من يرى سحرًا في البيت أن يلتقط ومضات من سحره.."

نظر إليها يوسف نظرة غريبة وقد انحنت عيناه للحظة، إلا أنه أخرج الهاتف بتردد ثم بدأ يلتقط بعض الصور بإتقان شديد.. وحين انتهى سألته بسعادة

"هل تود رؤية المكتبة؟!.. أعدك أنك سترى شيئًا لم تر مثله من قبل.."

أومأ برأسه ثم لحق بها حتى دخلت من باب مقوس أعلاه ويشبه نفس نمط الأبواب في البيت، وبالفعل تسمر مكانه وهو ينظر للمكتبة.. كانت ضخمة جدرانها مكسوة بألواح الخشب البني الداكن من الأرض وحتى السقف.. والسقف كان كأقواس من الخشب المفرغ المتداخل بشكلٍ أشبه بالقبة.. ثم تبدأ أرفف المكتبة والتي تغطي الجدران الأربع، ممتلئة بالكثير من الكتب العتيقة الضخمة..

تقدم يوسف فاغرًا فمه فوق البساط العجمي القديم الغالي يتأمل المكان الذي تفوح منه رائحة الكتب والورق القديم الأصفر.. وهي تراقبه مبتسمة بسعادة كبيرة، تكور أصابعها بترقبٍ لرأيه..

و بينما هو يقوم بالتصوير، قالت ملوحة بإهتمام

"لطالما أردت تغيير ترتيب الكتب.. لكنها ستكون مهمة شاقة جدًا"

رد عليها بطريقةٍ عفوية وهو يصور زاوية أخرى

"يمكنني أن أساعدك إن أردتِ.."

نظرت إليه بدهشة، ثم سألت بفضول

"ظننتك منشغلًا بإستمرار.."

ألقى إليها بنظرة قصيرة قبل أن يعيد انتباهه للسقف مصورًا

"بلى، لكن بإمكاني إيجاد ساعة أو ساعتين لكِ يوميًا.."

شعرت بنفس الشيء الغريب، وهو الرضا لإهتمامٍ حديث مفاجىء.. شيء لم تجربه من الجنس الآخر، إلا لو تم احتساب والدها والعم عبد الحليم..

انتهى أخيرًا، فانتبهت من شرودها وهي ترفع وجهها إليه مبتسمة وهي تقول

"أرجو أن تكون تلك الصور قد أسعدتك.."

توقفت أصابعه للحظة وهو ينظر إليها شاعرًا بنفس الشعور المقيت منذ الأمس وكأنه على وشك أن يدهس عصفورًا مكسور الجناح..

و في الخارج في المندرة بالقرب من الرواق المظلم الموصل للسلم، وبينما هي تراجع وجود هويتها في حقيبتها وهو يعيد الهاتف لجيبه شارحًا بإهتمام

"أولًا سنذهب لعمل محضر عدم تعرض ل.."

صمت وهو يسمع صوت خطواتٍ تنزل فوق السلالم، فرفع حاجبه متسائلًا بخفوت: "لابد وأنها أختك.."

رفعت إليه عينين مندهشتين تحاول فهم ما يقصد ثم قالت بحيرة:

"ليلة ليست هنا، لقد خرجت منذ الصباح، ليس هناك أحد سواي.."

عقد حاجبيه بشدة وتحفز وهو يشير إليها بكفه أن تتوقف

مكانها قائلًا

"توقفي هنا وابتعدي عن الرواق، هل هناك منفذ على السطح؟.. قد يكون أحدهم قد تسلل للبيت"

ضيقت عينيها محاولة التركيز مع ما يقصد، فسمعت صوت الخطوات على السلم وقد بدأت تصبح ثقيلة بشكلٍ غريب وكأن أحدم يحف حذائه ببطء شديد، درجة بعد درجة فردت بهدوء

"آه، هل تقصد هذا الصوت؟.. لا تقلق لقد اعتدناه فالبيت مسكون"

نظر إليها بغباء وهو يكرر محاولًا الإستيعاب

"البيت ماذا؟.."

أجابته مؤكة بصوتٍ خافت بطيء وهي تبتسم بطريقة مخيفة وعيناها تلمعان

"البيت مسكون بشبح فتاة سقطت من النافذة منذ سنوات سجينة داخل جسدي، تطوف روحها معذبة في أنحاء هذا البيت باحثة عن الخلاص.."

بعينين واسعتين وكأنه ينظر إلى معتوهة، وسرعان ما هتف بإستياء

"عمن تتكلمين، هل جننتِ فجأة؟.."

لمعت عيناها أكثر مع ابتسامة مخيفة وهي تشير إلى شيء خلفه هامسة

"عنها.."

التفت بسرعةٍ إلى الرواق المظلم وعلى بعد مسافة منهما في الركن الأكثر قتامة منه رأى فتاة بشعرٍ طويل ورداء أبيض فضفاض تمد له يدها وكأنها تناشده.. الفتاة كانت هي نفسها عالية، لكن واقفة على قدميها..

لمحة سريعة جعلته ينتفض هادرًا بصدمة

"ما هذا!!!!.."

لكن سرعان ما استوعب عقله في الثانية التالية خاصة مع سماع ضحكات عالية المجنونة من خلفه فإستدار إليها متجهمًا بشدة ليراها تنحني فوق ركبتيها مغطية فمها بكفها..

أعاد وجهه حيث تقف الأخرى وقال ممتعضًا زافرًا: "أنتما توأم.."

استمرت عالية في الضحك العالي، بينما هو ينظر إليها حانقًا ويداه في خصره.. فقالت من بين شهقاتها

"كان عليك أن ترى وجهك وأنت تقفز مكانك.."

لم تلن ملامحه، بل ازدادت غضبًا وهو ينقل عينيه بينها وبين ليلة التي دخلت للقاعة المنيرة مبتسمة غير قادرة على منع نفسها..

هتفت عالية وهي تمسح عينيها من دموع الضحك

"لديك استعداد فطري لتصديق الخرافات للوهلة الأولى.."

مط شفتيه وهو يغمض عينيه متسائلًا بقنوط عما يفعله هنا مع زوج من المجانين، تاركًا أشغاله وقضاياه!..

فتح عينيه أخيرًا وهو يدقق النظر في ليلة ثم قال بهدوء

"الآن وفي النور، يمكن التفريق بينكما بسهولة.."

ردت عالية معترفة بإبتسامة حمقاء

"ما علينا فقط سوى اختيار زاوية معينة وإضاءة مظلمة تتناسب مع القصة.. كما ينبغي ألا يكن المخدوع على علمٍ مسبق بأننا توأم.."

زفر يوسف بنفاذ صبر، ثم لم يلبث أن هدأت ملامحه وهو يومىء برأسه لليلة قائلًا بجفاء

"تشرفنا.."

في إيماءة منها مبهمة، استنتج أنها قد ردت له التحية، بينما كانت عالية تبتسم لها بحنين جارف لأيامٍ رغم قسوتها، إلا أنها كانت الفترة التي تركا فيها الضحك منذ سنوات..

بادلتها ليلة النظر بعينين عميقتي التعبير، ما بين الحزن والحنين كانت هناك غلالة من الرفض للإعتراف..

لكن الأكيد كانت هناك ابتسامة شاحبة تظلل شفتيها..

*****

لدى خروجهما من البيت إلى الحارة الضيقة كان يوسف يساعدها وهو يدفع الكرسي بحرص،يرفعه عند عتب البوابة، ينزله من فوق الرصيف وكانت هي محرجة بشدة، تعض جانب شفتها تود لو انتهيا واستقلا السيارة بسرعة.. فهي تشعر وكأنها دمية يقوم بنقلها وتحريكها بينما ملامحه عادية جدًا وهادئة

لا تحمل شفقة أو تعاطف.. مجرد مهمة يقوم بها!..

حانت منها إلتفاتة فتسمرت فاغرة فمها وهي تهتف همسًا بذعر

"يا الهي!!.. من كتب هذا؟!.."

التفت يوسف إلى حيث تشير، ثم أخذ نفسًا عميقًا قائلًا

"استنتجت أنكِ لم تريها، منذ متى لم تخرجي من البيت؟!.."

أجابته هامسة وعيناها المصدومتان على الكتابة الضخمة المكتوبة بخط بشع بإستخدام رذاذ اللون الأسود على جدار البيت من الخارج.. تنعتهما بأقذر الألفاظ والتي عابت في شرفهما وأصلهما هي وليلة..

"منذ شهرين تقريبًا، من يملك كل هذا السواد والشر ليستطيع أن يفعل شيئًا.. بالغ السوء كهذا!.."

نظر إليها يوسف للحظة ثم قال بجدية

"هل تدركين القيمة المادية الحقيقية لبيتٍ كهذا يا عالية؟!.. أنت تتكلمين عن كنزٍ انتظره أهل زوج أمك الراحل سنوات طويلة وما أن تحقق المراد المذهل بوفاته دون وريث، وظنو أنهم سيملأون الزكائب ذهبًا، سقطت الصدمة على رؤوسهم أفقدتهم العقل.. وهي أن البيت انتقلت ملكيته إلى وعذرًا في اللفظ نكرة صغيرة، حالت دون وصولهم لكنزهم المنتظر والذي لم يحلموا أن يرثوا مثله في حياتهم وحياة آبائهم كاملة.. ماذا تخيلت؟! أن تكون حربًا شريفة ونزيهة ثم يتمنون لك السعادة في النهاية بفوزك بكنزهم!!.. ليت الأمر يقتصر على قذارة الألفاظ، لكن هذا لن يحدث للأسف.. الإنسان قد يقتل في سبيل مبلغ يقدر بواحدٍ على مئةٍ من قيمة بيتٍ كهذا.."

شحب وجهها تمامًا وهي تنظر إليه هامسة بذعر

"هل تقصد!!.. لا بالطبع، لا يمكن أن يكونوا هم المتسببين في عملٍ رهيبٍ كهذا.. يستحيل هذه أعمال بلطجة لا تليق بأبناء عائلة محترمة.."

نظر إليها طويلًا بملامح هادئة ثم قال أخيرًا

"ليت كان لي نفس ثقتك في البشر يا عالية عبد الحي، لكنت رأيت العالم أجمل وفشلت في عملي فشلًا ذريعًا"

ثم دار حولها ليتابع دفع الكرسي المتحرك قائلًا بحزم

"المهم عليكِ الإطمئنان، فقد تم تصوير كل هذا، كما كنت قد كلفت أحدهم بمراقبة المكان الذي تلقى منه الأحجار لتكسر النافذة.. ورأى الفاعل وتم الإتفاق معه على الشهادة أن أولاد غانم هم من قاموا بحثه لفعلٍ كهذا.. وكل هذا سيسجل في محضر عدم تعرض، سنقوم به فور انتهائنها من عمل التوكيل.."

سألته بدهشة وهي ترجع رأسها ملتفتة إليه

"وكيف اقتنع الفاعل أن يشهد لصالحك!!.."

ابتسم يوسف وهو يقول بثقة

"بقوة السلاح الأكثر إقناعًا في العالم يا عالية.. الثمن"

أعادت وجهها أمامها عاقدة حاجبيها مرتبكة الملامح.. ثم قالت أخيرًا بوجوم

"لا أفضل أسلحة كهذه.."

أخفض عينيه ينظر إلى قمة رأسها مبتسما بسخرية، لكنها كانت تحمل بعض التسلية وهو يقول بهدوء

"اذن لا تستخدميها.. اتركي الأمر لمحاميك.."

شعرت فجأة بعدم الراحة لكل هذا واقشعر جسدها بتنبؤٍ غير محمود.. لكنها سرعان ما تنهدت هامسة لنفسها

" اتركي الخرافات يا عالية.. لكِ ما أمامك وهو انسان لم يقدم حتى الآن سوى الرغبة في المساعدة دون مقابل "

وقف بها فجأة رفعت رأسها إليه متسائلة فقال مشيرًا

"ما رأيك؟.. هل استطاع يوسف الجندي توفير كل الوسائل لكِ وبمنتهى السرعة أم أخفق؟.."

نظرت إلى حيث يشير ورأت سيارة ضخمة تشبه الحافلة السبعة راكب فهمست بعدم فهم

"ماذا؟.. هل سنستقل هذه السيارة؟ حسنًا انتظر لأتصل بليلة كي تأتي لتحملني، لكن ماذا سيحدث لدى خروجي منها وعند عوتنا؟.."

ضحك بخفوت، ثم تركها ورأته يفتح الباب الخلفي للسيارة قبل أن يخرج منه منحدر للأرض حينها فغرت فمها ذاهلة وهي تهتف

"سأدخل بالكرسي؟.."

زادت ابتسامته عمقًا ثم دفعها حتى ارتفعت على المنحدر ودخلت السيارة بجوار النافذة خلف مقعده.. وخيل لها فجأة أن الحياة سهلة للغاية

*****

على الرغم من طولِ الإجراءات والزحام والإنتهاء أخيرًا

من تحرير المحضر وعمل التوكيل.. لكن كل التعب والملل زال بجلوسها بجوار النافذة المفتوحة وهي مبتسمة وشعرها يتطاير وأهدابها ترمش استجابة لمداعبة الهواء.. كانت تحلق حرفيًا..

ولم تنتبه ليوسف الذي كان يرمقها بين الحين والآخر في المرآة..لم تتوقف عن الإبتسام لحظة.. كانت تضحك للهواء وكأنها تخرج للمرة الأولى..

أجفل من شروده على صوتها يسأل بنبرة حزن : "هل اقترب البيت؟.."

عاد ليبتسم وهو يرى على ملامحها يأس الأطفال هذا، فقال بهدوء

"سيقترب بعد أن نتناول الغذاء ثم أعيدك.."

ارتفع حاجباها وهي تسأل مصدومة

"غذاء؟!!.. أي غذاء!!.. لا، أنا جادة لن أستطيع أن.."

إلا أن يوسف قاطعها قائلًا بنبرة حازمة

“لم أكن لؤخرك كل هذا الوقت دون أكل، الموضوع منتهي يا عالية.. هل تحبين سماع شيء؟..”

السؤال الأخير أنساها الرفض والجدال، فهتفت بأمل

“هل يمكنك أن تجد أغنية " هدير البوسطة ".. كان والدي يغنيها لي”

ازادت ابتسامته تسلية ومد يده لهاتفه يبحث عن الطلب المنشود وسرعان ما أعادت وجهها للهواء المنادي وابتسمت بسعادة مع سماعها الكلمات القديمة

"عاهدير البوسطة الكانت نقلتنا من ضيعة حملايا على ضيعة تنورين

تذكرتك يا عليا وتذكرت عيونك ويخرب بيت عيونك يا عليا شو حلوين"

*****

"ألن تتناولي طعامك؟!.. هل أطلب لكِ شيئًا آخر؟.."

كانت تميل للأمام، مستندة بمرفقيها إلى الطاولة بينهما، وذقنها بين كفيها تتأمل الأهرامات البعيدة بعينين واسعتين وفم مبتسم مبهور.. لقد أتى بها لواحد من أرقى المطاعم، لكن لم يبهرها شيء كالمنظر المطل عليه وهو الأهرامات..

على صوت سؤاله، حولت عينيها إليه وقالت بهدوء

"هل تعرف ماذا فعلت اليوم؟.. لقد حققت شيئًا شديد الصعوبة، شديد، شديد، شديد الصعوبة وبمنتهى السهولة.. أنت لا تدرك مدى صعوبة الحركة بالكرسي، وبوفاة العم عبد الحليم ظننت أنني لن أرى هذه الأماكن مجددًا فقد كان يتعذب معي كي يرفه عني بالخروج لمكان..و حتى في الفترة الأخيرة من حياته لعامين وأكثر لازمه المرض ولم يعد قادرًا على اصطحابي لزيارة تلك الأماكن التي أعشقها..لم أتخيل أن يكون يومٍ كاليوم، بمثل هذه الروعة!!..

يوسف صالح عبد العظيم، لقد جبرت بخاطري جدًا اليوم وأنا لا أنسى من يفعل مطلقًا.."

ساد الصمت بينهما وهو ينظر إليها طويلًا بنظرة متجهمة قليلًا أو ربما كانت تتوهم، فحين تكلم ابتسم وهو ينظر في ساعة معصمه قائلًا

"للأسف لدي عمل بعد قليل، وإلا لكنت أخذتك لبرج القاهرة.. لكن اعتبريه وعد مني، يومًا ما، سأخصص لكِ وقتًا طويلًا لزيارته.."

رفعت وجهها عن كفيها هاتفة بقوة

"برج القاهرة!!!.. هل هذا ممكن؟!.. لم أزره قط.."

رد عليها مبتسمًا مؤكدًا

"كل شيء ممكنًا لأجلك يا عالية.."

أخفضت عينيها وهي تبتلع ريقها بتورد جذاب، ثم أشاحت

بوجهها تتأمل الأهرامات من جديد، لكن هذه المرة كان الإعجاب بها محجوبًا خلف شيء آخر..

*****

فتحت الباب متأففة، متسائلة عمن سيأتي في مثل هذا الوقت، أتراها عالية قد عادت ولم يكن معها مفتاحها،

لكن ما أن رأته حتى تسمرت مكانها تمامًا، بعينين واسعتين ووجه شديد الجمود كقناع محفور بتعبير لا يتغير

لم تستطع استنتاج سبب وقوفه هنا، فعجزت عن الكلام لبضعة لحظات استغلها هو وهو يمر بعينيه على شعرها الأسود الطويل فوق ظهرها وكتف واحد.. ترتدي ثوبًا أسودا طويل بكمين، لا يحمل أي زينة..

بل أقرب إلى ملابس الحداد.. بدت بمنظرها وزيها والرواق القديم من خلفها وكأنها ماضٍ انتهى منذ عصور..

مخالفة تمامًا للحارة خلفه بصخبها وزحامها وألوانها

المتداخلة، فقال بصوتٍ أجش خفيض

"قمراء.. هذا هو الوصف المثالي لكِ في هذه اللحظة"

اتسعت عيناها أكثر قليلًا، لكنها همست دون تفكير

"ماذا؟.."

رد عليها ببطء وهو ينظر لعينيها

"ليلة والقمر فيها ساطع، غارت منه النجوم وتوارت الشهب.. وحده بدرُ سبى العين فاكتفت، وحيدًا في ليلاه يرجو من يشاركه السهر"

ارتعشت بشدة وهي تحدق فيه وقد ثبتها الكلام فعجزت عن تسليط أحجار لسانها عليه.. وسألت بصوتٍ مضطرب

"من قال هذا البيت؟.."

ابتسم ابتسامة متسلية وهو يجيبها مسبلًا جفنيه في

تحيةٍ قصيرة

"معاذ ابن صالح"

كيف لشفتيها أن تخوناها فتبتسمان استجابة لمجرد بعض العبث!!.. فمحت الإبتسامة بسرعة عاقدة حاجبيها ثم تراجعت وصفقت الباب في وجهه بقوة!..

أجفل معاذ على صوت الباب القوي بعد ابتسامتها الصغيرة غير المتوقعة وتطلبه الأمر بضعة لحظات كي يستجمع نفسه ويلملم كرامته المبعثرة ثم ضغط الجرس وهو يطرق الباب مناديًا

"آنسة ليلة.. لم أقل ما جئت لأجله، على الأقل اسمعيه وسأنصرف بعدها.."

أرهف السمع منتظرًا، ثم فتح الباب فجأة ووقفت في الشق الضيق تسأله بتجهم

"ماذا جئت تقول؟.."

ابتسم مجددًا لكنها كانت ابتسامة حملت مكرًا غير مريح وقال بهدوء وصدق

"جئت حاملًا اعتذارين.. فأرجو أن تكوني كريمة النفس وتريحيني بتقديمهما.."

رفعت ذقنها ولم تلن ملامح وجهها وسألت ببرود

"لماذا لا أصدق هذه الحيلة الرخيصة؟!.. ولمن الإعتذارين؟!.."

ابتسم وهو يضع يديه في جيبي بنطاله قائلًا بسخرية

"وعلى الرغم من أنكِ لا تصدقين الحيلة الرخيصة، إلا أنكِ تبالين بسماعهما!!.."

أخفضت عينيها أمام عينيه الساخرتين، فضحك بصوتٍ خفيض وقال بهدوء

"أول اعتذار لأختك عالية.. بعد تفكير مع نفسي وجدت

أنها تستحق مني اعتذار وليس عبر الشاشة أو الهاتف، بل تستحق أن آتي بنفسي لأعتذر لها وجهًا لوجه.."

ظلت صامتة قليلًا وهي ترمقه بتجهم غير مقتنعة، إلا أنها سألت بفتور

"والاعتذار الثاني!.."

نظر إلى عينيها للحظة، ثم أجاب مباشرة بصوتٍ لا يحمل أي مرح

"اعتذار لكِ، لم يكن ينبغي أن أسمعكِ كلامًا كالذي قلته..أنا آسف"

ساد الصمت بينهما وأظافرها تتشبث بالباب الخشبي، بينما فعلت كلمة الاعتذار البسيطة مفعولها السحري وأطفأت الكثير من نقمتها، لكنها لم تمحها تمامًا.. فسألت بقسوة

"ما هو تبريرك لما فعلت مع عالية؟!.. كنت تتسلى!"

لم يرد عليها لفترة، ثم قال أخيرًا بصوتٍ هادىء

"وهي أيضًا كانت تتسلى.."

اتسعت عيناها بذهول غير مصدقة لما سمعت للتو، ثم هتفت بجنون

"أيها الحقير! كيف تتكلم عن أختي بهذا الشكل القذر لمجرد أن تبرر هروبك الجبان؟!.. أهذا هو الاعتذار الذي أتيت لتقدمه؟!.."

أوشكت أن تصفق الباب مجددًا إلا أنه دفعه بكفه كي لا تغلقه وهتف بجدية

"لم أقصد ما فهمتِ، عالية أختك ما كانت لتتزوجني مطلقًا.. لقد أثرت إهتمامها فحسب وأرادت أن تتعمق في التعرف إلى شخصي، أرادت أن تحللني وتتخلل تفاصيل أمورٍ تخصني.. أختك شفافة للغاية وحديثها نهم لا يكتفي كمن يرغب في سماع المزيد والمزيد عن حالةٍ انسانية.."

لم تصدقه وهي تهتف بعنف

"ولماذا تقدم على هذا؟!.. ما المثير للإهتمام فيك كي تقترب منك إلى هذا الحد؟!.."

تنهد تنهيدة عميقة وهو ينظر خلفه للحارة الصاخبة، ثم أعاد وجهه إليها قائلًا بجمود

"لأنني ومنذ البداية اعترفت لها أنني كنت.. سجينًا لمدة أحد عشر عامًا"

بهتت ملامح وجهها تمامًا وفغرت فمها مما سمعت للتو، بينما كان معاذ يحدق في عينيها بنظرةٍ حادة ثاقبة ومضت لحظات طويلة قبل أن تتمكن من السؤال برهبة

"لماذا.. ماذا فعلت؟!.."

التوت شفتاه في ابتسامة لم تحمل أي معنى وأجاب ببطء ممازحًا

"تسألان نفس الأسئلة بنفس الطريقة.."

عقدت حاجبيها وهي تلاحظ تهربه من الجواب بالسخرية، بينما أخفض وجهه أخيرًا محدقًا في الأرض متنهدًا.. وازداد تشبثها بالباب تراقبه بملامح يصعب تفسيرها وأخيرًا قال بصوتٍ صلب

"عالية انسانة جميلة للغاية روحًا وهي شغوفة بقراءة تفاصيل البشر جدًا.. لكن هذا ما لا أريده لذا هربت من تماديها خاصة بعد أن فوجئت بمعرفتها والدي واعجابها به.. تريد أن تربط وتحلل كل شيء.."

سألت ليلة بصوتٍ باهت

"وما الذي جذبك إليها من البداية اذن؟.."

لم يرد على الفور، بل نظر إليها بطريقة جعلتها تتوتر وترتعد.. ثم أجابها بهدوء

"وجهها.."

احمر وجهها بشدة لا تعلم السبب، على الرغم من أنه يتكلم عن عالية، لكن طريقة نظره إليها أربكتها..

أخفضت عينيها لا تجد ما ترد به، فسألها فجأة

"ما هو عملك يا ليلة؟.."

نظرت إليه بسرعة مجفلة ثم أجابت على مضض

"لا أعمل.. في الواقع، أبحث عن عمل"

ارتفع حاجباه وهو يهمس بصوتٍ غريب

"حقا!!!.. ياللعجب! كنت بالصدفة البحتة أبحث عمن تساعدني في البيع في المتجر، لكن لا أظنها وظيفة قد تتناسب مع مؤهلك الذي بالمناسبة لا أعرفه.."

تحرك حلقها وهي تقول بصوتٍ جامد فاتر: "أنا.. خريجة معهد"

ضاقت عيناه أكثر وهو يسألها بجدية "هل أنتِ مهتمة؟.."

نظرت إليه تسأل بغباء "مهتمة بماذا؟!.."

ابتسم وكأنه يسخر من ارتباكها الواضح لكنه كرر بصبر "هل أنتِ مهتمة بالوظيفة؟.."

لكنها ردت بخفوتٍ وتجهم وبنبرةٍ غير مقنعة

"هل تظنني من الغباء بحيث أقبل العمل لدى شخص اعترف للتو بأنه مجرم!!.."

*****

كشابٍ في مقتبل حياته كان محظوظًا في الحصول على التعيين مباشرة وفور تخرجه والأفضل

أنها كانت وظيفة دون توصية وهذا أكثر ما كان يرفضه والده فظن معاذ أن الطريق سيكون طويلا أمامه لكن ظنه لم يكن في محله وحصل على الوظيفة كمهندس استشاري في

جهاز الحي التابع للمدينة

كان سعيدًا متحمسا مقبلًا على الحياة العملية بكل طاقاته..

و منذ اليوم الأول له في العمل تعرف على " مسعد عبد التواب "

اسم كان نكبة على حياته فيما بعد.. شرُ وسُلِط عليه

أحد موظفي السجلات في الحي وهذا هو التوصيف الوظيفي له

إلا أن أحدًا لم يستطع يوما تقدير الحجم الفعلي لصلاحياته وطرقه وأساليبه والتي يسلك بها في كل شيء حرفيًا..

كان يلقب " بمسعد كل شيء "

و هذا ما عرفه معاذ فيما بعد، وبات الشخص الأكثر مضايقة له بعكس ما ظهر منه في اليوم الأول!!

كان على وشك إنهاء إجراءات التعيين حين شعر بكفٍ على ظهره وصوت جهوري يقول بنبرةٍ غير مريحة

"المهندس الجديد أليس كذلك؟.."

استدار معاذ ليرى محدِثه فشاهد رجلًا في منتصف الأربعينات تقريبًا

أصلع الرأس الا من بعضِ الشعر الخفيف المتناثر

بطن كبيرة نوعًا ما فوق حزام بنطاله الفضفاض غير المهندم

لا يعلم لماذا دقق به النظر يومها يستوعب شكله كاملًا ربما لأنه يمتلك أكثر ابتسامة صفراء وغير مريحة رآها في حياته

و ربما لأن نظرات عينيه ذكرته بنظرات الضبع!!..

رد عليه معاذ قائلًا بنبرة مهذبة وهو يعرف عن نفسه مصافحًا

"معاذ صالح عبد العظيم.."

مد الرجل كفه الممتلئة يصافحه على مهلٍ وهو يرمقه بنظراتٍ غير مريحة خاصة مع تلك الإبتسامة اللزجة على شفتيه ثم قال بهدوء بطيء النبرة

"تشرفنا يا باشمهندس.. جعلك الله منا، لا علينا.."

ابتسم معاذ مجاملة، لكنه لم يفهم يومها من هم " منا " ومن هم من " علينا ".. وفيما بعد عرف لكن بعد وقت طويل..

فمسعد عبد التواب لم يبدأ طريقه المعتاد بخطواتٍ سريعة، بل ببطء شديد وعلى مهلٍ مدروس

في البداية كان متملقًا إلى حدٍ يكاد أن يكون خانقًا.. يعرض خدماته كل لحظة بسببٍ أو بدون

في الأيام الأولى كان معاذ دائمًا ما يصل العمل متأخرًا

بسبب طول المسافة عبر طرقات القاهرة المزدحمة

و كم ساؤه هذا..

و بينما كان يزفر حانقًا بسبب الموضوع اليائس ذات يوم، عرض عليه مسعد قائلًا

"عليك إيجاد حل للأمر، لا يمكنك أن تستمر في التأخير على هذا النحو.."

ضغط معاذ أعلى أنفه بإرهاق قائلًا: "سأستيقظ ساعة أبكر.."

ضحك مسعد قائلًا

"لن تفيدك بشيء، الوضع يزداد سوءًا كل يوم.. لدي الحل لك، لما لا تستأجر شقة بمكان قريب من العمل.."

رفع معاذ وجهه ناظرًا إلى مسعد وقال معترضًا على الفكرة

"أنا والوالد نعيش وحدنا، ولا أفضل تركه لسببٍ كهذا.."

رد عليه مسعد مندهشًا

"وهل ستسافر؟!.. يمكنك زيارته بعد نهار العمل وبعض الراحة.. والعطلات الإسبوعية ستقضيها معه ولا أظنه سيمانع لمصلحة عملك.. فكر في الأمر وإن وافقت، فأنا لدي شقة علوية في بيتي من غرفة وصالة تفي بالغرض، إيجارها لا يذكر، كما أنني سأكرمك فيه.. صحيح أنها في منطقة شعبية ولا تليق بمكانتك يا باشمهندس لكنك ستزدنا شرفًا.."

لم يرد عليه معاذ مستصعبًا الفكرة.. لكن بمناقشتها مع والده فوجئ به يوافق دون نقاش..

صالح عبد العظيم أشد ما كره في حياته بعد الفساد والظلم والتوصية.. التأخير في العمل وكان غير راضيًا عن تأخير ابنه أبدًا..

حين دخل معاذ للمرة الأولى الشقة بصحبة مسعد عبد التواب لم يشعر بالراحة مطلقًا.. ولم يجد لهذا تفسيرًا

كانت مريحة ظاهريًا رغم تواضعها، لكنها مقبضة للنفس وكأن الأشباح تسكنها!!..

وعلى الرغم من شعوره وافق عليها لأنها مناسبة الموقع والإيجار.. وبينما هو يتفحص أركانها

دخلت فتاة شابة، لا يتعدى عمرها العشرين عام.. وإن كان جسدها بحركاته الفطرية أكثر نضجًا

دخلت من الباب المفتوح تبحث عن شيء أو أحد ثم سرعان ما تسمرت مكانها وهي تراهما وهمست بتوتر

"آسفة.. لم أعرف أن معك ضيوفًا!!.."

ابتسم مسعد قائلًا

"الباشمهندس معاذ ليس ضيفًا، بل سيستأجر الشقة..أما هذه يا باشمهندس فتكون زبيدة، أنا من رباها هنا في البيت منذ وفاة والديها وأُعتبَر في مقام والدها.."

أومأ معاذ رأسه يحييها بينما كانت ترمقه بتفحص زائد عن الحد معجبة بالشكل المختلف تمامًا عما ألفته طوال سنوات مراهقتها..

لم يطل به الوقت في العمل حتى اكتشف وجود الكثير من المخالفات في تراخيص المباني التابعة لهذا الحي.. بعضها هين وبعضها مريع وبالنسبة له كان يرفض النوعين..

حتى تحول إلى قاطع أرزاقِ آخذي العطايا من كبارالموظفين، والإكراميات من صغارهم..

وكان مسعد عبد التواب أكثر من أخذ إكرامياتٍ في التاريخ الحكومي.. مهما بلغ صغرها لكنه ما كان يرفض أبدًا لقاء تسهيل وسرعة إنجاز التراخيص بين الموظفين والمهندسين..

كان كالمكوك يجري طوال اليوم بين هنا وهناك لينجز أوراق المتعاملين مع جهاز الحي وأصحاب المصالح..

و لهذا بدأ يتضايق منه معاذ جدًا.. فاسلوبه اللزج كان

يجبره بالضغط والإلحاح أن ينجز مواطنًا قبل آخر لوقوف مسعد بورقه إلى أن يتم إنجازه..

كان أحياناَ يتغاضى وأحيانًا أخرى يضيق به ذرعًا فيأمره أمرًا بالإنصراف..

ثم بدأ ضغط مخالفات التراخيص وهنا وقف معاذ في وجه مسعد وقفة ألزمته موضعه حتى شحب وجهه من صوته العالي وتهديده برفع شكوى ضده..

العجيب أن مسعد كان سميك الجلد بشكلٍ مفزع.. وليلتها زاره في الشقة مصالحًا مبتسمًا وكأن شيئًا لم يكن!!

و عرف معاذ السبب فيما بعد.. فقد كان مسعد يدخره لعملية أكبر وأضخم..

أكبر مجموعة أبراج في المنطقة رغم أن الحي لا يسمح، بمخالفاتٍ جسيمة في رسوم البناء..

مع حلٍ بسيط جدًا..

تزوير إمضاء المهندس الإستشاري الشريف على التراخيص المخالفة!!.. شريف، قليل الخبرة، حديث التعامل مع هذا النوع العالي من الفساد..

إنه النموذج المثالي لخداعه، طالما يرفض التعاون بكل غباء!!!

*****

"لا أصدق،..يا سيد جلال! بكل صدقٍ هذه ورطة كبيرة أوقع فيها ابنك هاني نفسه.."

وصله الطلب الأمر المتسلط في هيئة طلب متملق

"تصرف يا يوسف، ما دورك اذن؟!.. إن لم تكن منقذنا الهمام.."

أغمض يوسف عينيه وهو يتراجع في مقعده مرجعًا رأسه للخلف محاولًا السيطرة على أعصابه وغضبه..

ثم تكلم بصوتٍ مقتضب مغيرًا الموضوع إلى أن يهدأ ويحاول أن يجد حلًا لتلك المصيبة

"هل وصلت سيادتك الصور، لكن أتعشم أن تكون قد أمنت حساباتك كلها قبلًا يا سيد جلال.."

وصله الرد يقول بهدوء

"وصلت يا يوسف وإطمئن.. لكن الحارة بالخلف!.."

دار يوسف في مقعده يجيب مقاطعًا

"أمام شيء كهذا يمكن تذليل كل العقبات.. على الجانب الآخر مساحة يمكن شرائها وتنسيقها، أما من جانب الحارة يمكن شراء بعض البيوت المجاورة وتفريغ مساحة كافية لعزله عن الباقي.."

ساد الصمت للحظات، ثم رد جلال مفكرًا

"الأمر يتطلب الكثير من المهارة والقدرة على السير فوق

الحبل.."

رد يوسف بثقة مبتسمًا

"معك المفاتيح ومعك الساحر يا سيد جلال.. المهم أن نبدأ بسرعة قبل الفوضى التي ينوي أولاد غانم افتعالها.."

سمع طرق على الباب، ثم دخلت مديرة مكتبه والتي انحنت إليه هامسة ببطاقة صغيرة

نظر فيها يوسف ثم ابتسم قائلًا والهاتف على أذنه

"لقد بدأوا بالفعل أولى خطواتهم.. استئذنك في ضرورة التحرك وسأبلغك بما سيحدث فيما يخص هاني ابن سيادتك.."

جلس يوسف في مقعده خلف مكتبه الأنيق، واضعًا ساق فوق أخرى يراقب الإخوة الثلاث

عبد الرحيم، اسماعيل، وسامي غنام..

يستطيع أن يلمح في أعينهم التوتر منه، الغضب من المحضر الذي حرره ضدهم، العنف البادي على ملامحهم وتحفز أجسادهم.. الحذر من تقدير مدى مهارة تلاعبه، خاصة بعد رؤيتهم المكتب وطبيعة الموكلين..

تعمد يوسف أن يبقى في كرسيه جالسا بأريحية ينتظر منهم سبب الزيارة محتفظا بإبتسامته الموترة للأعصاب

و بالفعل مع فترة الصمت المربكة من الطرفين ابتدأ سامي الكلام بابتسامة مداهنة..

إذن هو الشخص الدبلوماسي المفوض بالكلام من قِبَلِهم، وهذا يعني انهم مرتبكين يريدون التفاوض

قال سامي..

باختصار يا أستاذ يوسف أتينا اليوم نطلب تعاونا..""

ازدادت ابتسامة يوسف ثقة وهو يصحح

"تقصد تفاوضا.."

تمكن سامي من الحفاظ على برود ملامحه وهو يقول مبتسمًا

فليكن المهم نحن لن نختلف.. اسمح لي ان اسالك اولا من أين لك بمعرفة عالية وأختها "

و كيف لها أن تتكفل باتعابك؟!!"

ارتفع حاجبا يوسف وهو يقول ساخرا باستهزاء

حقا!!!"

أهذا سؤال يصح سؤاله يا سيد!!!"

مال سامي للأمام وقال بجدية

أستاذ يوسف نحن أدرى البئر وغطائه.."

عالية لا تستطيع التكفل بأتعابك طالما لن تبيع البيت لكن نحن نستطيع.."

مال يوسف للأمام مثله وقال بصوت بطيء كي يستوعب

أستاذ سامي هل أنت مغيب؟!!.. "

لقد قامت عالية عبد الحي بتوكيلي كمحام لها وانتهى الأمر

لقد حررنا محضرا بعدم التعرض ضدكم اليوم وأراك الآن تطلب التكفل بأتعابي!!!"

ضحك سامي بهدوء رغم برودة ملامحه التي تضاعفت

"نحن على استعداد لندفع لك أتعابك كاملة وتُخرِج نفسك من الموضوع بأكمله

و في هذه الحالة ستكون رابحًا بكل تأكيد أكثر منك مع عالية"

هذه المرة كان يوسف هو من ضحك عاليًا وهو يرجع رأسه للخلف.. فقال عبد الرحيم، الأخ الأكبر بفظاظة

"بإختصار وعلى المكشوف نحن نعرف نيتك جيدًا، أنت تمني نفسك بأن تبيع عالية البيت وتربح أنت منها ومنه نسبة ضخمة.. لكن ولنلعب أوراقنا كاملة، هذا البيت مسجلًا في الحي كعقار.. فإن حدث ووقفت في طريقنا فسنقدم شكوى لهيئة الآثار ليتم تعديله وتسجيله كمبنى أثري وحينها سيتوقف أي اجراء يخصه بالبيع أو الهدم.. وقد يتم طردها منه ليكون مزارًا أثريًا حكوميًا.."

ساد صمت ثقيل فوق رؤوس الجميع بينما أغمض سامي عينيه ضاغطًا على أسنانه لفضح كل خططهم دفعة واحدة..

و كان نفس احساس يوسف إلا أنه حافظ على ابتسامته دون أن يرف له جفن، ثم قال ببساطة

"هذا يعني أن يفقده كلا الطرفين.."

رد عبد الرحيم بقسوة "وليكن.. إن لم نربح البيت فلن

نسمح بأن يربح به غيرنا.."

صمت جديد، وقد توتر الجو أكثر.. لكن يوسف حافظ على ثباته للنهاية وقال أخيرًا بمنتهى الهدوء

"اسمع ما لدي اذن.. تعرفون جيدًا أنه لا دعوى لديكم، فالبيت ملكها رسميًا بيع وشراء من جهة المرحوم عبد الحليم الطرقاوي وأنكم كنتم تخدعون تلك المسكينة لسذاجتها فلو حاولتم رفع أي دعوى من أي نوع، لن تكون النتيجة فقط خسارتها، بل سيتم بالفعل تسجيل البيت كمبنى أثري وينتهي الأمر.. وبما أننا انتهينا من موضوع الدعوى الزائف هذا، فلنصل لاتفاق مناسب.. يمكننا عرض مبلغ محدد ومتفق عليه لكم، على أن تخرجوا أنفسكم من الموضوع.."

نظر الإخوة الثلاث لبعضهم بنظراتِ اضطراب وقلق، ومجددًا تكلم عبد الرحيم دون تفكير أو استشارة أخويه قائلًا بخشونة

"نصف ثمن البيت.."

ضرب سامي قبضته في راحة يده مغتاظًا، بينما عاد يوسف ليهز رأسه ضاحكًا متعمدًا السعال من شدة الضحك، ثم نظر إليهم يهز رأسه بعدم تصديق قائلًا

"أي ثقة بالنفس تلك!!.. أعتذر يا سادة فأنا لا أدخل قضية، إلا وأنا متأكد من كونها رابحة، ضعوا هذا ببالكم"

*****

"أستاذ سامي، تمنيت لو أنك احترمت محضر عدم التعرض.. لكن إكرامًا لصلة القرابة بينك وبين العم عبد الحليم فقط سمحت لك بالزيارة.. أرجوك قل ما لديك دون مقدمات.."

نظر سامي غنام لعالية مبتسمًا بعد أن ألقت مقدمتها الحازمة وهي تجلس أمامه ثابتة مرتفعة الرأس، ثم قال بنعومة

"أنتِ غاضبة جدًا يا عالية.."

زمت شفتيها ونظرت في عينيه قائلة ببرود

"لم أغضب من كسر مربعات نافذتي المفضلة واحدًا تلو الآخر.. أما ما كتب فوق جدران البيت من ألفاظ خارجة واتهاماتٍ باطلة وخوض في العرض فهذا ما لن أسامح عليه مطلقًا..ولا تحاول الإنكار"

هز رأسه بأسفٍ قائلًا كمن يخاطب نفسه غاضبًا

"لطالما كان غضب اسماعيل لا حدود له في التدني.. يفقد القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ والخطأ الذي لا يغتفر.."

ثم نظر إليها قائلًا بصوتٍ قوي النبرة

"أنا أعتذر بالنيابة عنه يا عالية صدقيني.. فهذه التصرفات لا ترضي أي أحد، وبغض النظر عن سبب زيارتي اليوم، فأنا مصر على سماع عفوك مع العلم أنني سأعيد دهان الجدران على نفقتي الخاصة.."

سقط فكها السفلي وهي تبادله النظرة ذاهلة، منتظرة منه أن يدعي المزاح أو أن يكون مقلبًا أو برنامج الكاميرا الخفية..

أي تفسيرٍ حاليًا سيكون أكثر منطقية من طلبه..

و حين طال صمته منتظرًا سألته تمد وجهها بصدمة

"هل أنت جاد؟!!.."

رد عليها بإبتسامة أكثر غرورًا وكأنه واثقًا من الجواب تمام الثقة

"ولما لا أكون جادًا!.."

صدمتها في هذه اللحظة أفظع من أن تستطيع وصفها فقالت بتلعثم وهي لم تستفق بعد

"لأن.. لأن هناك فارق في العمر مثلًا!!.."

زفرت بنفاذ صبر وهي تقول

"أستاذ سامي، لا داعي لمثل هذه الأفعال إن أردت الكلام عن البيت فرجاءً تواصل مع المحامي الخاص بي"

تجمدت النظرة في عينيه للحظة، ثم تراجع في مقعده وقال بهدوء مبتسمًا

"لدي حل يرضي جميع الأطراف لكن الأهم، أنه يرضيني أنا شخصيًا وبصراحة كنت أفكر فيه منذ زمن"

زفرت مجددًا وهي تقول مكررة بغضب ظاهر

"أستاذ سامي.. قلت لك إن.."

قاطعها سامي قائلًا بهدوءٍ شديد وثقة زائدة وابتسامة غرور

"أتقبلين الزواج مني يا عالية؟.."

الإبتسامة على شفتيه بردت للغاية كنظرة عينيه وهو يردد متعجبًا

"الفارق في العمر!!!.."

و تعمد أثناء سؤاله أن يمرر عينيه على عجلتي كرسيها المتحركة بنظرةٍ ذات مغزى..

احمر وجهها غضبًا من تلميحه غير المنطوق وشعرت بالإهانة لدرجةٍ جعلتها تصمت للحظاتٍ طويلة غير قادرة على الرد..

وأساء هو فهم سكوتها، فقد ظن أن الرسالة قد وصلتها فآثرت ألا تتمادى في التظاهر بالتردد

و قال بجدية

"اسمعيني يا عالية، لا أنكرأن عرضي سيساعد على حل مشكلة البيت.. لكنني كنت أفكر في الموضوع من قبل، وأعدك أن.."

قاطعته لمعرفتها أنه يكذب كذبًا فاضحًا في موضوع التفكير من قبل..

"كيف سيساعد عرضك في حل المشكلة بالضبط؟!.."

فتح كفيه قائلًا ببديهية

"مصالحنا ستكون واحدة، ولن يرفع أحدنا أي دعاوي أو يحرر محاضر للآخر.. سنبيع البيت ويصبح مالنا واحد وهو بالطبع سيكفي ويفيض.. والأهم ستتزوجين.."

ابتسمت عالية ابتسامة باهتة وهي تنظر إلى أصابعها التي تتلاعب بها ثم همست ساخرة

"الأهم.. سأتزوج نعم.. هذا تنازل كبير منك يا أستاذ سامي.."

رفعت وجهها إليه ثم تابعت ببرودٍ قائلة

"لكن إن كنت في كل الأحوال سأبيع.. فبثمن البيت

أستطيع أن إيجاد عشرة عرسان أصغر وأكثر وسامة وأكثر قدرة على تقديم عرضٍ مرضٍ للكرامة أكثر من هذا.."

*****

استلقى في سريره متعبًا يحاول أن يغمض عينيه لكن صوت رسالة على هاتفه جعلته يتأفف وهو يلتقطه من على الطاولة الجانبية ليجد رسالة واصلة من عالية كتبت فيها

" لن تصدق، خبر بمليون جنيه يا يوسف صالح عبد العظيم.. لقد جائني اليوم عريس، الأستاذ سامي غنام يريد أن يتزوجني.. "

احتاجه الأمر أن يقرأ الرسالة مرتين بعينين واسعتين رمش بينهما قبل أن ينتفض جالسًا وهو يشتم بصدمة غير مصدقًا

" الوغد الثعلب.. لقد تحرك بخطوةٍ أسرع وأحقر مما ظننت "

ثم اتصل بها متوترًا دون انتظارٍ للصباح..

انتظر الرنين بفارغ الصبر حتى سمع الخط يفتح، حينها سأل بنبرة حادة جادة مباشرة

"قبل أي كلام، أين قابلته؟!.. أم أنه اتصل بكِ؟.."

ابتسمت عالية رغمًا عنها وهي تسمع سؤاله الغاضب المصدوم، فقالت بهدوء

"مساء الخير لك أيضًا، بل زارني هنا في البيت.."

انتفض يوسف قافزًا على قدميه هادرًا بغضب

"حقًا يا عالية؟!.. أمن كل عقلك تتكلمين؟!.. كيف سمحتِ لهم بالدخول بعد محضر عدم التعرض؟!!"

أجابته مبررة

"كان وحده وطلب الكلام في موضوع هام، كما أنني أعرف

بأن سامي غنام ليس خطيرًا كأخيه اسماعيل.. إنه الأكثر دبلوماسية بينهم فانتابني الفضول لمعرفة ما يريد.."

أغمض عينيه بقوة محاولًا السيطرة على نفسه وغضبه ثم سألها من بين أسنانه بغيظ

"وماذا كان ردك؟!.."

ردت عليه عالية متنهدة قائلة

"في البداية أعطيته ردًا مهينًا، لكنني عدت وطلبت منه مهلة للتفكير.."

تسمر يوسف مكانه عن الدوران في غرفته وسأل مصدومًا يكاد أن يكسر الهاتف

"لماذا؟!.. عالية، هل ستوافقين؟!!.."

ردت بهدوء

"لأننا نحتاج المهلة فعلًا.. سيجعلهم هذا هادئين لفترة دون مشاكل،إنتظارًا لردي، أكون أنا قد غيرت زجاج نافذتي المفضلة وارتحت قليلًا من أذيتهم.."

صمت يوسف ماطًا شفتيه بتفكيرٍ عميق ثم قال بخفوتٍ وعلى مضض

"حسنًا، هذا تفكير لا بأس به.. بدأت أفكر في تشغيلك معي،إن واظبت على هذا الاسلوب في التفكير"

ابتسمت بمرح، لكنه سرعان ما سألها ولا تزال الصدمة بادية على نبرات صوته

"كيف بدأ عرضه؟!.. بالله عليك كيف استطاع أن يصوغ الأمر ليقنعك؟!.."

قصت عليه المختصر ثم همست بجفاء وقد عاودها الإستياء والجرح مجددًا

"ما أن كرر عبارة " فارق العمر " حتى نظر إلى الكرسي

المتحرك نظرة ذات معنى وهو يرفع حاجبه.. هل تتخيل الرسالة المهينة التي أرادني أن أفهمها!!.."

همس يوسف بصوتٍ خفيضٍ بطيء: "الحيوان.."

تنهدت عالية قائلة بتهذيب رغم الغضب في صوتها

"حسنًا دعنا لا نشتم.. لكنه حيوان فعلًا، لقد آلمتني نظرته هذه جدًا"

ساد الصمت للحظة على الطرف الآخر، ثم سألها بهدوء

"أتودين زيارة برج القاهرة بالغد؟.."

اتسعت عيناها ببريقٍ خاطف لمح مرورًا على شفتيها الفاغرتين الباسمتين..

*****

شعرت وهي في القمة أنها اقتربت من السماء!.. فنظرت

إليها مبتسمة غير مصدقة.. تدور بكرسيها ببطء وهو يلحق بها هادىء الملامح يراقبها صامتًا..

من خلال السور استطاعت الإحساس بأن المدينة كلها تحتها وهي تحلق من فوقها فاردة جناحيها ولولا بعض الإتزان المتبقي لديها لكانت فردت ذراعيها وطلبت منه أن يدفعها مسرعًا لتتشبع بهذا الشعور أكبر فترة ممكنة..

توقفت عالية بكرسيها بالقرب من السور والذي كان مرتفعًا قليلًا عن مجال رؤيها وبقت صامتة مبتسمة.. نظراتها حالمة شاردة حتى سألها يوسف بهدوء

"هل بإستطاعتك رؤية القاهرة كاملة بالأسفل؟.."

هزت كتفها وهي ترفع يدها مشيرة دون أن تفقد ابتسامتها

"السور مرتفع قليلًا، لكن لا بأس.. أنا الآن في غاية السرور"

نظر يوسف حوله حتى وجد شابتان بالقرب منهما تتفرجان من السور العالي فاقترب منهما متحدثًا بتهذيب

"عذرًا، هل يمكنني طلب خدمة منكما؟.."

التفتت عالية إليه بدهشة وهو يراه يكلم فتاتين غريبتين، سرعان ما رأتهما يقتربان منها بحماس ثم انحنت إليها واحدة منهما تقول بلطفٍ مبتسمة

"هل نساعدك؟.."

لم تفهم عالية ما تسألها عنه الفتاة، بل قالت الأخرى

"لفي ذراعيكِ حول كتفينا.."

رفعت عالية ذراعيها حول كتفي الفتاتين بالفعل مترددة وخائفة فأمسكا بظهرها وخصرها وسرعان ما شعرت بنفسها تنهض بقوةٍ قاهرة لتقف على قدميها حتى استطاعت الرؤية من فوق السور!!..

توقف العالم من حولها للحظات بينما تدافعت دقات قلبها بعنف..

لن تستطيع أبدًا وصف شعورها في تلك اللحظة وهي ترى هذا المنظر على الطبيعة..

النيل الممتد الطويل ومساحات القاهرة الشاسعة من حوله جعلتها تفغر فمها المرتعش وصدرها يخفق بجنون..

كان يوسف يقف متفرجًا من فوق السور مبتسمًا ثم التفت إليها لكن الإبتسامة خفتت وراحت.. وحل محلها تعبير غريب أعمق بشعور أكثر غرابة وقتامة وهو يراها تنظر للوحة الحية الضخمة أمامها بفم كبيرٍ مبتسم أكبر ابتسامة رآها.. بينما كانت الدموع تغرق وجهها!!..

همست أحدى الفتاتين في أذن عالية بسعادة

"أنتِ عالية عبد الحي، أليس كذلك؟.. أنا أتابع حلقاتك على موقع التواصل.."

نظرت إليها عالية مبتسمة بعينيها المغرقتين بالدموع وحاولت الكلام إلا أنها لم تستطع في تلك اللحظة فهمست الفتاة برفق

"لا بأس.."

*****

وقفا أمام بناية ضخمة وكانت لا تزال شاردة، مبهورة وقد عاشت منذ قليل أجمل ساعة في حياتها بأكملها

فلم تنتبه للمكان حتى سألها بخفوت كي لا تجفل وهو ينظر إليها في المرآة

"عالية.. أنتِ صامتة طوال الطريق، هل أنتِ بخير؟.."

رفعت عينيها إلى عينيه ثم همست بصوتٍ مرتعش وابتسامة جميلة

"أنا بخير تمامًا.. شكرًا لك.."

نظرت حولها مدركة أنها ليست في الحارة التي تضم بيتها، بل هي في شارع أنيق ضخم فسألته بحيرة

"أين نحن؟.."

رد عليها بهدوء قائلًا

"أنا محتاج لأخذ بعض الأوراق من مكتبي وإنهاء عدد من الأشغال، ففكرت أن أصطحبك معي.. توفيرًا للوقت كي لا أذهب لبيتك وأعود إلى هنا مجددًا.. هل لديكِ مانع؟.."

بدت أكثر ترددًا، غير قادرة على الموافقة وقد أجفلها تصرفه، فقالت بخفوت

"لا بأس، سأنتظرك في السيارة.."

عقد حاجبيه قائلًا بإعتراض

"لا تكوني سخيفة!.. لن يتطلبني هذا الكثير من الوقت، لكني بالتأكيد لن أتركك في السيارة بمفردك، كما أنكِ موكلتي وعليكِ زيارتي عاجلًا أم آجلًا.."

كان مكتبًا أنيقًا بحق!.. كانت تتأمله مبهورة وهي تحرك

عجلتي كرسيها تتأمل الذوق الراقي في تأثيثه..

سبقها هو في خطواتٍ سريعة عمليةٍ محييًا فتاة شابة جذابة وهي مديرة مكتبه على ما يبدو..

و المكتب عبارة عن شقة واسعة يضمم عددًا من الغرف في كل واحدٍ منها شاب خلف مكتبه..

شعرت بالحرج وهي الآن محط أنظار الجميع، ناظرين إليها بتساؤل وفضول.. فتوقفت عن الحركة متوردة الوجه، تتمنى الإستدارة والخروج من هنا.. لكن يوسف ناداها وهو يقف في باب مكتبه المقتوح

"تعالي يا عالية.."

ازداد تورد وجهها ولحقت به على مضض، بينما هو إلتفت هو إلى السكرتيرة قائلًا

"الآنسة عالية عبد الحي يا هدى، موكلة لدينا، من فضلك ابدأي بعمل ملف خاص لها بناءً على ما سأرسله لكِ.."

أومأت الشابة بتهذيب وهي تبتسم لعالية..

و في مكتبه توجه مباشرة إلى أحد أدراجه يخرج منها بعض الأوراق أخذ يتفحصها مخرجًا منها ما يحتاج..

قالت بتوتر مبتسمة وهي تراقبه

"الجميع كانوا ينظرون إلى، أراهن أن منظري غريبًا جدًا بالنسبة لهذا المكتب!.."

ابتسم قائلًا دون أن يرفع وجهه عن أوراقه

"ينظرون إليكِ لأنكِ جميلة.."

احمر وجهها أكثر، ورفعت أصابعها تعبث بخصلةٍ فارة من شعرها، إلا أنها قالت بمرحٍ تداري خجلها

"أنت تجيد الكلام يا أستاذ يوسف ولديك اسلوبك الخاص"

نظر إليها من فوق حافة أوراقه مبتسمًا وهو يقول بتشدق

"نعم، قيل لي هذا من قبل، وهذا ليس غريبًا.. فإجادة الكلام أساس عملي والإسلوب هو صميمه.."

ردت عليه تضحك

"هذا الشبل من ذاك الأسد.. الدكتور صالح أيضًا كان يجيد فن الكلام ولديه اسلوبه الخاص والذي كان يسحر به مدرج يقارب عدد طلابه الألف!.. ليس هذا فحسب، بل لقد وقعت في غرامه العديد من الطالبات كذلك، أتعلم هذا؟!.. كنا يتركن له رسائل غرامية غير موقعة.."

مط شفتيه وهو يقول مركزًا في أوراقه دون ابتسام

"نعم، كان نمسًا في عمرٍ أصغر.."

ضحكت عاليًا وبشدة هاتفة

"تأدب، أنت تتكلم عن والدك.."

استمرت في الضحك بينما رفع هو وجهه عن أوراقه ينظر إليها بصمتٍ للحظات ثم قال أخيرًا بهدوء

"أنتِ جميلة فعلًا يا عالية، وما أقوله هذا لا يندرج تحت صف حسن الاسلوب، بل هي الحقيقة ببساطة كما أن لديكِ أجمل ضحكة.."

كتمت أنفاسها مبتسمة شاعرة بالحرج والتوتر.. ثم ردت أخيرًا ببطء

"أنت أيضًا لا بأس بك يا يوسف صالح عبد العظيم.."

*****

خرجا معًا من البناية وهما يضحكان لكن ضحكته غابت فجأة وحل محلها عبوس شديد وهو يرى السيدة التي اقتربت منه منهكة الملامح مما جعله يهمس بنفاذ صبر

"ليس مجددًا.."

لم تفهم عالية ما كان يقصد حتى وصلت إليه تلك السيدة وبادرته قائلة بنبرة حملت من القهر ما جعل جسد عالية يرتعد

"حاولت الدخول لكن حارس العقار منعني بأمرٍ منك.. أنا ما أردت غير سؤالك، هل تنام ليلًا مرتاح الضمير؟!!.."

رفع يوسف يده إلى جبهته زافرًا بتعب

"سيدة درية.. كفى، سيدتي آخر ما أحب فعله هو تحرير محضرًا ضدك.. فأرجوكِ توقفي عما تفعلين"

انحنت عيناها بألم هامسة ساخرة

"أتظن أن محضرك سيخيفني؟.. لقد حررت أنا محضرًا لدى الأكبر منك وممن وكلك له محاميًا..حررت محضرًا عند الله..بكيت وسجلت فيه شكواي، بعد أن أيقنت أن الشكوى لغير الله مذلة.."

زفر بقوةٍ وهو يدفع كرسي عالية قائلًا بحزم

"هيا بنا يا عالية، لنغادر.."

إلا أنها اعترضت طريقهما هاتفة بقوة

"فقط أرحني وأجب، هل تنام ليلًا قرير العين؟!!.."

هتف فيها بنبرةٍ أشد

"سيدة درية ابتعدي.."

لكنها لم تبتعد، بل نظرت إلى عالية بعينيها المتوجعتين الغاضبتين وحول زاويتهما خطوط ألمٍ تخبر بالكثير وسألته بصوتٍ أجش

"من هذه؟.. أختك؟.. كيف تشعر وأنت تراها عاجزة غير قادرة على الحركة؟!.."

امتقعت ملامح عالية بشدة وارتجفت أصابعها بينما هتفت السيدة متابعة تخاطبها بقسوة وقهر

"أنتِ من ستشعرين فقط، أما هذا الذي يدفعك، فقد طمس الله على قلبه وأعمى عينيه.. أنتِ فقط من ستشعر بقلب أمٍ وهي ترى ابنها وقد أصيب بعاهة في ساقه أثرت على مستقبله وعوضًا عن أن ينال صاحب العمل جزاءه للإهمال والجشع، فقد أخرجه هذا الواقف خلفك بكل بساطة كالشعرة من العجين..كنا واثقين في دعوانا لأن الحق معنا، إلى أن تولى هو كل شيء وبدل المظالم مضيعًا حق ابني.."

ازداد شحوب ملامح عالية وتحولت إلى قناعٍ حزينٍ مكسور..لكنها شعرت بنفسها تتحرك بسرعةٍ واندفاع مدركة أن يوسف قد فقد صبره وتجاوز السيدة مندفعًا فيما سمعت صوت هتافها يعلو من خلفهما

"حسبي الله ونعم الوكيل.. طلبت من الله أن يريني بك يومًا، وأنت مكسورًا مهزومًا.. حسبي الله ونعم الوكيل.."

صفق يوسف الباب المجاور له بعد أن جلس خلف مقعد القيادة ولا يعلم لماذا ارتفعت عيناه إلى المرآة، فرأى عيني عالية تنظران إليه وقد أصدرتا الحكم.. ثم قالت بهدوء

"أريد العودة للبيت.. رجاءً "

*****

الفصل التاسع

" من بين شقوق الصخرِ قد تنبت زهرة، وتجد رزقها في قطرة غيثٍ قبل أوانها "

*****

دفع الباب ذي الأجراس الهوائية، مثقل الكتفين.. بطيء الخطوات، يتأمل المتجر البسيط من حيث التجهيزات، إلا أنه كان جيدًا إلى حدٍ كبير..

قد يثير اهتمام عددًا لا بأس به من الشباب، ربما لن يدر ربحًا ضخمًا في الشهور الأولى لكنه جيد في الوقت الحالي نظرًا لظروف معاذ.. وها هو معاذ واقفًا هناك يوليه ظهره يكلم شخصًا ما..

فناداه يوسف مبتسمًا دون مرح

"لم تدعوني منذ افتتاحه.. فقررت دعوة نفسي.."

استدار معاذ متفاجئًا بصوت أخيه من خلفه، لكن مفاجئته لم تكن كمفاجأة يوسف والذي رأى من يحادث أخاه بعد أن استدر.. فتسمر مكانه للحظة بعد أن تبلدت ملامحه وقال بصوتٍ خفيض غير مرحب

"أبي!.."

ساد الصمت للحظات بين ثلاثتهم، وصالح يرمقه بنظراتٍ جافة حتى قال بتحفظ

"كيف حالك يا يوسف؟.. مرت أشهر منذ رأيتك آخر مرة.."

حاول يوسف الرد بدبلوماسية فقال مقتضبًا

"نعم، للأسف كنت مشغولًا.. فقد زادت القضايا في المكتب مؤخرًا.."

أرجع صالح رأسه للخلف قائلًا بنبرة مبهمة

"آه.. القضايا.."

تصلب وجه يوسف كقناعٍ جامدٍ خالٍ من التعبير، ثم قال بفظاظة وهو ينظر لباب المتجر

"صدفة غريبة أن نتقابل اليوم هنا.."

تطوع معاذ بالرد قائلًا

"والدك يأتي لزيارتي كل يومٍ تقريبًا.. يقضي معي ساعة أو اثنتين.."

ارتفع حاجب يوسف وهو ينظر لوالده بطرفِ عينيه مكررًا بسخرية

"كل يوم!!!.. لما لم أعد أشعر بالعجب، رغم أنك لم تقم بزيارة مكتبي ولا مرة.."

ساد صمت متوتر ثم قال صالح أخيرًا بصوتٍ قاطع

"دعنا لا نفتح الموضوع مجددًا وأنت تعرف السبب.."

الآن تغلب عليه غضب قديم لم ينجح الزمن في مداواته ووضع يديه في خصره سائلًا بهدوءٍ خطير

"لا من فضلك أخبرني.. لماذا؟.. أنا مهتم بمعرفة السبب.."

نظر صالح في عمق عينيه ثم سأل

"هل حقًا تريد السماع؟!.."

هتف يوسف منفعلًا وهو يبتسم رغم العصبية البادية عليه

"نعم، أرجوك.. مهما كان السبب لديك أريد معرفته، وصدقني لم يعد هناك ما هو قادر على صدمتي أكثر"

واجهه صالح رافعًا رأسه قائلًا بقوةٍ نافذة

"السبب أنه لا يشرفني دخول مكتبك يا يوسف.. هل ارتحت الآن!"

استدار معاذ عنهما متنهدًا بينما صمت يوسف للحظات غير قادرًا على الرد.. فقط رأسه تهتز فيما يشبه الإيماءة المتشنجة، وعيناه تبرقان بقسوةٍ ظاهرة.. ثم تمكن من القول بصوتٍ واهٍ مضطرب بخطورة

"لا يشرفك دخول مكتبي.."

رد صالح قاطعًا كي لا يدع مجالًا للشك

"نعم.."

أومأ يوسف برأسه مجددًا ثم ضحك ضحكة مجوفة وهو يقول

"لا يشرفك دخول مكتبي.. ذلك المكتب الذي حقق شهرة خلال عامين لا يمكن لغيري وفي مثل سني أن يحقق مثلها!!.. لا يشرفك دخوله، بينما تأتي هنا يوميًا في متجرٍ لبيع الأدوات الرياضية كي ترى ابنك البكر جالسًا خلف طاولة ينتظر مرور زبونٍ به.."

رمقه معاذ بنظرةٍ مبهمة لكنه لم يتدخل في الحوار، بينما قال صالح بصوتٍ مزدري

"ما أسهل الوصول للشهرة التي حققتها وما أصعب الثمن الذي دفعته.. ألا تعلم لما حصلت على هذه الشهرة وبهذه السرعة؟!.. لأنك ناصرت من كان الحق عليهم، لا لهم.. كم صاحب حقٍ توليت قضيته يا يوسف.. وكم آكل حقٍ رفضته؟..هل يمكنك أن تكون صادقًا مرة واحدة في حياتك وأنت تجيب على سؤالٍ كهذا؟!.."

ضاقت عينا يوسف وهو يتنفس بسرعة وحدة ثم قال بصوتٍ خفيض منذرٍ بالشر

"وما أدراك أنت؟!.."

هز صالح رأسه مبتسمًا بسخرية سوداء، ثم قال بصوتٍ أجش وهو ينظر في عيني ابنه

"منذ طفولتك وأنت تنجح في الكذب على الجميع، إلا أنا.. لكنك لم تتوقف قط عن المحاولة.."

اقترب منه خطوة ثم تابع قائلًا بصوتٍ مزدري

"هل ستتهمني أنني أظلمك دون علم؟!.. منذ عملك في مكتب أستاذك قبل أن تفتح لك مكتبًا خاصًا وأنا أعرف أنك ستتخذ نفس طريقه الملتوي في الدفاع عن الفاسد والباطل.. وليتها كانت النتيجة الوحيدة، لكن مع كل آكلِ حقٍ دافعت عنه، فإنك تسلب ذي حقٍ حقه.. كم مظلومٍ دعى عليك! كم مرة شعرت بقلبك ينتفض خوفًا لسماعِ هتافِ لجوءِ أحدهم لله يتضرع ليقتص له منك!.."

لوح يوسف بكفيه هادرًا

"إنها المحاماة!!.. إنها وظيفتي!!.."

صرخ والده بقوةٍ جعلته يتراجع خطوة للخلف وقلبه ينتفض كقلبِ صبي صغير

"أنت عارُ على الكلمةِ والمهنة.."

تدخل معاذ واقفًا بينهما يواجه والده قائلًا بإقتضاب

"أبي.. لا داعي.."

لكن صالح أزاح ابنه وهو يشير إليه هادرًا

"أخاك هذا دفع من عمره سنواتٍ في السجن لأن هناك فاسدون خارجه يتمتعون بحياتهم حتى هذه اللحظة لأن واحدًا مثلك دافع عنهم وظلمه.."

كان يشعر بكلِ ذرةٍ من جسده تنتفض وكأنه مس تيارٍ كهربيٍ عالٍ ثم رد أخيرًا بصوتٍ بارد خفيض رغم ارتعاشه

"القصة القديمة، والتي يجب أن أتحمل ذنبها لا لشيء سوى لأنه محاميكم أخفق!!.. ربما على كل محامٍ بعد ذلك يرجع انتقاءه القضايا التي سيترافع فيها للأهواء الشخصية.. فيقبل هذا ويرفض ذاك!!.."

رد عليه صالح قائلًا بصوتٍ ثابتًا قوي النبرة عاليًا

"بل يرجع انتقاءه للضمير.."

أخفض يوسف وجهه يعض على شفته بصمت.. يهز رأسه يائسًا، ثم نظر إلى والده قائلًا

"لقد اكتفيت.. بالفعل لقد اكتفيت، أتعلم لماذا تجنبتك لأشهر، كي لا أسمع المزيد من هذا التحقير واثباط العزيمة.."

رفع صالح حاجبيه وهو يقول بلامبالاة

"أنت من طلب سماع رأيي، فلا تبكِ الآن.."

صرخ فيه يوسف بجنون

"توقف عن اهانتي.."

تدخل معاذ هادرًا بخشونة "ما بالك يا يوسف هل تصرخ في والدك!.."

رفع يوسف يدًا مرتجفة يمسح بها على وجهه وهو يشعر بالدوار من شدة الإنفعال.. ثم مد كفه المفتوحة قائلًا بخفوت

"سأغادر.. مجيئي هنا كان خطًا كبيرًا.."

اتجه للباب بسرعة، ومعاذ يناديه حانقًا

"يوسف.. انتظر"

توقف يوسف بالفعل يوليهم ظهره للحظات، ثم لم يلبث أن عاد لوالده متجهمًا قائلًا بفظاظة

"لقد شائت الصدف أنني كنت سآتي لزيارتك في وقتٍ قريب لكن وبما أننا التقينا هنا، أريد منك خدمة.."

ارتفع حاجبا صالح غير مصدقًا مدى برود ونفعية هذا الولد بعد كل هذا الصراخ!!..

*****

تقدمت للباب تفتحه لكنها قبلًا نادت تسأل:

"من؟.."

وصلها صوت يوسف يقول بهدوء من الخارج

"يوسف.."

أخذت نفسًا طويلًا وهي ترفع عينيها قليلًا، ثم لم تلبث أن فتحت الباب ووقفت تنظر إليه وهو يبادلها النظر بهدوء مبتسمًا، مما جعلها على وشكِ الإبتسام تجاوبًا لكنها في اللحظة الأخيرة رسمت قناعًا من الرسمية المتحفظة وهي تقول بلطف متعمد

"أستاذ يوسف.. أتيت دون موعد، أعتذر لكني.."

رد عليها قاطعًا ببساطة

"أستاذ يوسف!!.. لا بأس، أتيت دون موعد يا أستاذة عالية لأنك لا تردين على اتصالاتي.. شيء بديهي"

ارتفع حاجباها وهي تسأل بجمود

"فقررت أن تضعني أمام الأمر الواقع وتأتي مباشرة!!.."

هز رأسه قائلًا بنبرة منطقية

"بديهي.."

أمسكت لسانها عن الألفاظ الحادة ثم نظرت إليه مبتسمة بتهذيب قائلة

"أعتذر يا أستاذ يوسف، لكن الوقت الآن.."

قاطعها سائلًا بتشدق

"أهذا يعني أنكِ لا تودين رؤية الهدية التي أحضرتها معي.."

حسنًا الآن تمكن من لفت انتباهها وتسارع قلبها حماسًا لكنها حافظت بمعجزةٍ على هدوء ملامحها سائلة

"أي هدية؟!.."

نظر يوسف جانبًا وعلى الرغم من هدوء ملامحه إلا أنه بدا متحفظًا أكثر وهو يقول بهدوء

"تفضل.."

مالت برأسها تريد أن تعرف من يخاطب، وفجأة ظهر لها رجل يميل برأسه ناظرًا إليها مبتسمًا ببشاشة..

مستقيم الكتفين، منظم الهندام، كفيه إلى جانبيه وملامح وجهه تجمع بين الحزم والأبوة.. ما أن رآها حتى زادت ابتسامته قليلًا.. ففغرت فمها مصدومة وهي تهتف بذهولٍ وكأنها تحلم

"دكتور صالح!!!!!.. دكتور صالح!!!!.."

ظلت الإبتسامة الجميلة على وجهه وهو يقول بهدوء

"السلام عليكم يا عالية.."

ظل فمها مفتوح وقلبها يتسارع أكثر وأكثر وهتفت بسعادة

"دكتور صالح، هل تتذكرني فعلًا أم أنك أتيت لأن يوسف طلب منك فقط؟!.. وإن كنت تذكرني هل تتذكرني لشخصي أم بسبب الكرسي المتحرك فقط؟!.. وإن كنت.."

قاطعها يوسف قائلًا بملل

"وأنتِ ستتابعين كلامك ونحن على الباب، سآخذ أبي وننصرف.."

قبل أن تتكلم سبقها صالح يقول بهدوء مبتسمًا

"قبل أي كلام أود الاعتذار عن شيئين، أولهما أنني لم أقم بزيارة مخلوقٍ في حياتي دون استئذان، والثاني عن هاذين الإثنين فأنا لا أعرف ماذا فعلا وكيف وصلا إليكِ من الأساس فقد رفضا الكلام في الأمر، لكن ما فهمته أنهما أخطأ خطًا شديدًا، لذا قولي ما صدر عنهما وأنا كفيل بهما.."

ضاقت عيناها وهي تسأل بعدم فهم رغم فمها الذي لا يزال مفتوحًا مبتسمًا ببلاهة

"أي اثنين؟!!.."

نظر صالح جانبًا، فرأت ثالثًا يظهر مطرق الوجه، سرعان ما نظر إليها قائلًا بصوتٍ أجش مقتضب

"كيف حالك يا عالية.. أتيتك باعتذار أنا مدين لكِ به، وإن كنت قد سبق وأتيت ولم تكوني موجودة.."

رمشت عالية بعينيها وهي تقول مصدومة صدمة ثلاثية

"" باشمهندس " معاذ!!.. هذه مفاجأة.."

سألها صالح بصرامة قائلًا

"كان موجودًا حين طلب أخاه مني زيارتك، وتشبث بنا كالأطفال.. لكنه محرج من ذكر ظروف معرفته بك والخطأ الذي صدر عنه!!.. فماذا فعل يا عالية، قولي ولا تخجلي.."

مطت عالية شفتيها ناظرة إلى معاذ قائلة ببرود

"اذن فوالدك لا يعرف فعلًا.. رائع والله.."

أسبل معاذ جفنيه قائلًا بخشونة

"أعتذر يا عالية.. كانت دناءة مني.."

عقد صالح حاجبيه بشدة وهو يسأل بحزم "دناءة؟!!!!!.."

تطوعت عالية قائلة بتعالي وهي ترمق معتز بطرف عينيها

"لا بأس يا دكتور صالح، كان مجرد تعليقًا على أحدى حلقاتي، فظًا بعض الشيء.. لكنني أسامحه لأجل زيارتك فقط،.."

ثم انقضت على كفه تمسك بها بيديها هاتفة بسعادة

"تفضل أرجوك فقد أطلت الوقوف عند الباب.."

*****

تأمل صالح الجدران المحيطة به وهو يجلس في صحن البيت، مضيقًا عينيه وهما تتجولان على المشربيات من الأرابيسك المشغول، بينما عالية تتأمله هو سعيدة بشكلٍ لا يوصف ثم قالت أخيرًا

"أنا حقًا لا أصدق.. أتعرف شيئًا يا دكتور، رسمت في خيالي خلال سنوات الدراسة الكثير من سيناريوهات رؤيتك للبيت الذي أسكن فيه، كنت أعرف أنك ستنبهر به.. كنت أتخيل انطباعك ونظرة عينيك، وأسئلتك.. كلها كانت تصورات من محض الخيال، لكنني لم أتخيل أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه الخيال واقع!!.."

تكلم يوسف سائلًا ببرود

"والفضل لمن؟.."

أحمر وجهها دون سبب وهي ترمقه بطرفِ عينيها ثم أسبلت جفنيها، وكان صالح يراقبهما يحاول إستنتاج ما يحدث بالضبط.. ثم أجاب بصوته الرخيم قائلًا

"كل التصورات في خيالك يا عالية لن تماثل اعجابي بهذا البيت وتاريخه.. إنه تراث يحمل كل ركنٍ فيه زمن من الأزمنة التي تعاقبت عليه.. فأطفالِ عهدٍ جروا بين أروقته صاروا رجال عهدٍ آخر جالسين في مضيفته

و عرائس شبابه، باتو أرامل شهدائه يومًا.. أتذكر منذ جلوسي كل حقبة مرت على البلد منذ بنائه.."

ابتسمت عالية وهي تتأمله بسعادة كبيرة، ثم نظرت خلف كتفه للبوابة المجاورة حيث يجلس، وكذلك فعل معاذ الذي ارتفع وجهه على الفور وتغيرت ملامحه فضاقت عيناه ببريقٍ خاطف قبل أن تقول عالية بخبث

"هل تعرف يا دكتور، أن البيت يسكنه شبح يحمل نفس روحي؟!!.."

ارتفع حاجبا الدكتور صالح وهو يسأل ساخرًا

"حقًا!.. وأين هو هذا الأستاذ شبح؟.."

مدت إصبعها مشيرة خلفه قائلة بخوف

"ها هي.."

استدار صالح بهدوءٍ إلى حيث تقف ليلة في الظلام، أول الرواق ثم ضحك قائلًا

"أنتما توأم.. كم هذا لطيف.."

اختفى المرح عن وجه عالية قائلة بقنوط

"لم تخل عليك الخدعة!.."

رد عليها ممازحًا "أنت تحاولين خداع رجلٍ تعايش مع خداع الطلاب لأكثر من ثلاثين عام!.."

دخلت ليلة وهي تهمس محيية بصوتٍ خافت قبل أن تجلس بجوار عالية تضم كفيها فوق ركبتيها..

شعرت في تلك اللحظة أن معاذ يراقبها بتدقيق فاضح

فرفعت عينيها لتصدم بعينيه تتلقيان نظراتها كالصقر.. مما جعلها ترتبك وتشيح بوجهها.. أما عالية فقد أمسكت بذراعيها تميل عليها قائلة بمحبة

"هذه ليلة يا دكتور، رفيقة المولد والطفولة والصبا.. وكل يومٍ حتى هذه اللحظة"

تكلمت ليلة قائلة بخفوت مصححة:

"ليس كل يوم.."

اختفت ابتسامة عالية وسحبت كفيها ببطء متخاذل وقد شحب وجهها..

كان معاذ ويوسف في تلك اللحظة يتأملانهما بتعجب وكأنهما نوعًا من معجزةٍ واحدة لكنها متنافرة بشكلٍ غريب

كقطبي مغناطيس متشابهين متنافرين!!

تكلم معاذ قائلًا بصوتٍ أجش خافت قاطعًا الصمت

"مرحبًا قمراء.."

ارتفعت الرؤوس والتفتت العيون بدهشةٍ إليه.. بينما اتسعت عينا ليلة بصدمة وتلون وجهها قبل أن تقفز واقفة وهي تقول بتلعثم

"سأعد مشروبًا للجميع.."

حل الصمت القاتم بعد اختفاءها.. ثم سألت عالية بنبرة غاضبة نوعًا ما

"بماذا دعوتها؟.."

نظر إليها معاذ قائلًا بهدوء

"قمراء.. أراه منصفًا لها أكثر من مجرد ليلة، قد تكون مظلمة.."

نظرت عالية بحدة ليوسف وعيناها تبرقان بعنف، فهز كتفيه قائلًا بصوتٍ خافت: "عائلة من النموس إلا انا.."

علا صوت صالح يقول بصرامة "كفى.. لا تتمادا.."

ثم إلتفت سائلًا عالية مغيرًا الموضوع

"أظنني لمحت نقشًا محفورًا على التاج الحجري لبوابة الصحن، لكني لم أقرأه، فماذا كان؟.."

ابتسمت عالية على الفور وهي تقول:

"إنهما بيتان من الشعر من قصيدة البردة المشرفة للإمام البوصيري

نصهما:

"ومن تكن برسول الله نصرتـه

إن تلق الأسد في آجامها تجمى

ومن تكن برسول الله نصرتـــــه

الله حافــــــظه من كلِ منتقمي

ابتسم صالح قائلًا باهتمام:

"أتعرفين ما هي قصة البيتين يا عالية؟..يروى أن لهذا البيت قصة استمده منها الإمام.

حيث كان في زمن النبي صحابي يسمي مهران كان الرسول أثناء الرحلات يحمله الأمتعة وأطلق عليه الرسول لقب السفينة لشدة تحمله حتى اشتهر باسم سفينة رسول الله

وقد أدرك هذا الصحابي عصر خلافة سيدنا عثمان

رضي الله عنه وكان في تجارة في البحر فاشتدت به

الأمواج وتكسرت السفينة وظل متكأ على لوح من أخشابها حتى رمت به الأمواج إلى غابة وضل الطريق فيها حتى اعترضه أسد.. فلما رآه الصحابي أخذ ينظر إلى الأسد

وقال: "يا أبا الحارث أنا سفينة رسول الله" "

فطأطأ الأسد رأسه وأقبل على الصحابي وحمله على عاتقه وخرج به من الغابة حتى دله على الطريق"

ابتسمت عاليةٍ بجمالٍ وهي تقول

"كم اشتقنا للشرح بصوتك يا دكتور صالح.."

تكلم يوسف قائلًا بهدوء

"كانت عالية تمتدح اسلوبك يا أبي.. في الحقيقة لم تتوقف عن المدح مطلقًا"

رمقه صالح بنظرةٍ طويلة جادة وامتنع عن الرد مما جعل عالية تنقل عينيها بينهما..

أحست أن بينهما حافة من التوتر كحاجز ضخم، يبعد بينهما وكأن كلًا منهما في عالمٍ لا يشاركه الآخر عالمه.. لا يفهمه ولا يستوعب منطقه..

مضت ساعة وأخذهم الحوار بعد أن عادت ليلة وكانت صامتة تمامًا، مطرقة الوجه بإستمرار..

لا يتوقف معاذ عن مراقبتها والنظر إليها.. يتمنى لو ترفع وجهها لكنها لا تفعل بإصرار عجيب..

تداخل كلام صالح وعالية وحدهما فقط.. يوسف ينظر إليهما بملل، ومعاذ مكتفٍ بالنظر لقمراء..

تكلم يوسف قائلًا مخاطبًا عالية

"لقد رأيت حارس الأمن وقد بدأ عمله فعلًا، فهل لكِ أي تعقيب عليه؟.."

هزت عالية رأسها نفيًا ببطء فتابع يوسف قائلًا بجدية

"كما سيتم تركيب كاميرات على السطح زيادة في الأمان.."

اتسعت عينا عالية تسأله بدهشة "لما كل هذا؟!.. لم نعتد

أبدًا كل تلك الإجراءات من قبل!"

رد عليها يوسف قائلًا بحزم

"الآن وبعد أن صرتما بمفردكما عليكِ أن تعتاديها، وأيضًا ترقبًا لأي تصرفٍ من أولاد غانم"

نظرت عالية لصالح قائلة

"يوسف تعهد بحماية البيت يا دكتور صالح وحمايتنا أيضًا.. لا أصدق أن العالم صغير إلى هذا الحد ويصبح من يتولى حمايتنا هو ابن الدكتور صالح نفسه.."

لم يرد صالح على الفور، ثم قال أخيرًا بجفاء

"أرجو ألا يكون حاميها، حراميها اذن.."

الآن بدا تجهم يوسف واضحًا وارتبكت عالية بشدة فقالت مغيرة الموضوع

"بالمناسبة يا يوسف.. الحمام بالأسفل توقف عنه الماء تمامًا وأخشى أن أستدعي أي سباك فيقوم بالكسر عشوائيًا وجدران كل جزء في البيت تعتبر جزءًا أثريًا فهل لديك من يتولى هذه المهمة بحرص؟.."

مط يوسف شفتيه وهو يقول بجفاء

"وصرت متعهد السباكة للبيت أيضًا!!.. سأتصرف، لكن تذكري هذا المرة المقبلة وأنتِ تتجاهلين الرد على اتصالاتي.."

خجلت بشدة من تقريعه الفج فزمت شفتيها بصمتٍ بينما سألها عاقدًا حاجبيه

"هل هناك حمام آخر غيره في الطابق السفلي؟.."

هزت رأسها نفيًا وهي تجيب

"بل في الطابق العلوي.."

سألها بحيرة ودون تفكير "اذن كيف تتعاملين مع الموقف؟!!.."

امتقع وجهها ثم تورد والثلاث رجال ينظرون إليها، فأطرقت برأسها تضحك بعصبية قائلة

"حسنًا هذا محرج.. لكن لا مفر، ليلة.. ليلة تحملني.."

نظر صالح لليلة طويلًا، ثم قال بخفوت أجش

"اليوم رأيت شيئًا من أجمل ما رأيت في حياتي، وأظنني الرابح بزيارتي هذه.."

رفعت ليلة وجهها له، وفوجئت بأن الكلام موجه لها فارتبكت، خاصة وأن معاذ بجواره ينظر إليها كذلك، عاقدًا حاجبيه إنما بتعبير غريب جدًا.. وكأنه يرى شيئًا مختلفًا عما ظنه من قبل!!.. ترى ماذا كان يظن!!

و قال بصوتٍ خافت بطيء

"صدقت أنا اذن يا أبي حين أسميتُها قمراء.."

*****

- "لماذا كنتِ ممتنعة عن الرد على اتصالاتي؟!.. سؤال أردت طرحه والإصرار على تلقي الجواب، لكن وجود والدي منعني فإنتظرت لحين عودتي.. وها أنا أتصل بكِ فتردين!!.. ما الذي أغضبك مني وما الذي أرضاكِ عني بعدها؟!.."

- "الوقت متأخر.. وأفضل ألا نتكلم الليلة.."

- "وأنا مصر على الكلام، فهل أنتِ جبانة لتخافي اعلان سبب غضبك؟!.."

- "جبانة!!.. لست جبانة، ربما أخشى.. أخشى أن أجرحك بجوابي وما رأيت منك سوى جبر الخاطر"

- "وهل هذا هو سبب الصلح بعد قرار المقاطعة؟!.. لأنني أحضرت معي من جبر بخاطرك منذ سنوات؟!

-"الدكتور صالح كان سعادة ليومي، لكنني أقصدك بكلامي..ربما كنت نسخة منه، لا أعلم.."

- "نسخة ممن؟! من والدي؟!!.. أنتِ واهمة وأخشى أن يصدمك الواقع كل يومٍ أكثر، فأنت لا تستحقين الأذى.."

-"وأنت من سيؤذيني؟!.. كما آذيت تلك السيدة وابنها؟!.."

صمت طويل

- "اذن فقد حكمتِ علي، ارتأيتِ أنه من حقك نبذي احتقارًا، بينما مع أخي فكرتِ في الأعذار التي قد تدفع الإنسان لقتل آخرا!.."

-"وهل كانت لديه أعذارًا؟.."

-"اسأليه.. أما أنا فأجيبيني، هل من حقك الحكم علي؟.."

صمت طويل، ثم همست بكلمة واحدة

-"لا.."

*****

"ترى أتنبت من شقوقِ الصخرِ زهرة؟!.. نعم يحدث، لكن ماذا عن عالم البشر ومن فيه؟!..

أيُخلّق من ظهرِ العالِمِ فاسدُ ومن ظهرِ الفاسدُ عالم؟!.. لماذا الآن بالذات جمعتني الصدفة بإثنين من أبناء مثالٍ وضعته نصب عيني لسنواتٍ وتمنيت أن أكون مثله في كل شيء؟!..

الإثنان صدمة.. لا واحد فيهما يشبه أباه، وفي نفس الوقت أراهما يشبهانه تمام الشبه؟!!..

تجذبني الأوراق ويحثني القلم للسؤال.. وطالما سألت، فلن يهدأ لي فكرُ حتى أعرف الجواب، ولأعرف الجواب لابد وأن أعرف الإنسان..

لكن..

شعورٌ غريبٌ يُزهِر.. يجعلني أغيب عن حيادي ويشوش منطقي.. يجعلني أجبن عن رؤية ما هو واضح.

ترى.. ترى أتنبت من شقوقِ الصخرِ زهرة؟!

"عالية عبد الحي "

*****

وضعت القلم في دواة الحبر وتراجعت في مقعدها تشبك كفيها خلف رأسها شاردة الذهن والعين..

لكن على الرغم من شرودها التقطت أذناها صوت خطواتٍ ثابتة في الرواق، فسارعت تستدير بكرسيها خارجة من المكتبة لترى ليلة تنوي التوجه للمطبخ فنادتها بصرامة

"ليلة، أريد الكلام معكِ.. ماذا يريد منكِ معاذ ابن الدكتور صالح؟!..كم مرة تقابلتما بالضبط ولا تكذبي."

سمعت صوت زفرتها الغاضبة، ثم لم تلبث أن استدارت

إليها سائلة بقسوة وملل:

"هل عدنا لنفس الموضوع من جديد؟!.. أخبرتك أنني لن أسرقه منكِ.."

صرخت عالية بحنق بالغ

"تسرقي من وممن يا غبية.. أنا لا أفكر به مطلقًا بل أفكر بكِ أنتِ فقط، لقد دعاكِ قمراء!!!.."

تململت ليلة وهي تكتف ذراعيها سائلة ببرود

"وهل للإسم دلالة خاصة؟!.."

أوشكت عالية أن تفقد عقلها من شدة العصبية فهتفت

"إنه يدللك.. يغازلك.. يحاصرك بعينيه، ألم تري هذا اليوم؟!.."

ارتبكت ليلة وظهر هذا عليها جليًا، توردت وجنتاها وبدت

بطريقةٍ ما..أجمل!!..

لكنها هزت كتفيها وردت ببرودٍ زائف

"وإن يكن.. هذه مشكلته.."

أمرتها عالية بقوة هادرة

"ليلة، ابتعدي عن هذا الرجل، أخبرتك أنه مجرم لكنني لم أخبرك بأنه قاتل.."

اتسعت عينا ليلة وظهرت فيها الصدمة ثم همست بخوفٍ واضح

"قتل من.. ولماذا؟!!.."

صرخت عالية

"لا أعرف ولم يقبل بالإعتراف.. أنا ما كنت لأتزوجه مطلقًا، كان يستفز تفكيري فحسب.."

قالت ليلة بجمودٍ قاسي

"اذن فقد كان محقًا، أنتِ من كانت تستغله، وليس هو من كان يتسلى بكِ.."

شحب وجه عالية وهي تسألها ذاهلة

"أهو من قال عني هذا؟!! وسكتِ له ولم تدافعي عني؟!!.. كم مرة تقابلتما وأين؟!!.."

قست نظرات أختها أكثر، وازدادت ملامحها صلابة، لكنها انحنت فجأة حتى بات وجهها قريبًا من وجه عالية وقالت ببطء

"عالية.. توقفي عن التدخل في حياتي لأنني صدقًا تعبت.."

ثم استقامت متراجعة وهي تقول متابعة بنبرة جليدية

"وليكن بمعلومك، لقد عرض علي العمل في متجره، وما كنت قد اتخذت قراري بعد، أما الآن فأنا موافقة.."

بهتت ملامح عالية وهي تفغر فمها غير مستوعبة، بينما رمقتها ليلة بتشفٍ مبتسمة..

راضية عن ظهور استقلالها في عيني عالية.. هذا في حد ذاته يمتعها..

*****

كان يرتشف كوب قهوته داخل المتجر.. يتطلع من الواجهة الزجاجية للطريق متأملًا بشرود عميق، حى رآها آتية.. كانت تعبر الطريق متوترة تنظر يمينًا ويسارًا.. متشبثة بحقيبتها وكأنها ما سيحميها!

و لم يفق إلا على صوته يهمس بخشونة

"قمراء!.. لقد أتيتِ بالفعل!.."

ظل على جموده ينظر من الواجهة الزجاجية حتى سمع صوت الباب يفتح والتفت برأسه يراها وهي تدخل باحثة

عنه والعصبية تكاد أن تقتلها..

استدار معاذ وقال بهدوء ونبرة عميقة

"تأخرتِ.."

انتفضت ليلة مذعورة وهي تستدير لتراه واقفًا في جانب المتجر أمام الواجهة الزجاجية، وتسائلت كيف لم تلحظه أثناء دخولها.. لكنها تمالكت نفسها وهمست بتلعثم: "عفوًا!!.."

نظر إلى ساعة معصمه، ثم قال بجفاء

"لقد تأخرتِ ساعتين عن موعد العمل!!.. وهذه ليست بداية مبشرة.."

عقدت حاجبيها وهي ترد بجفاءٍ مماثل

"من قال أنني وافقت على العمل لديك!.."

سألها متعجبًا بخشونة

"إن لم تأتِ للعمل، فلماذا أتيتِ اذن؟!.. أخشى أن يترك لي خيالي بعض الإقتراحات التي لن تعجبك بالتأكيد وحينها سأضطر للاعتذار مجددًا.."

زمت شفتيها وهي تتنفس بإنفعالٍ غاضب ومكبوت.. ثم قالت أخيرًا بإقتضاب

"أتيت طلبًا للوظيفة.. لكن يجب أن تعرف بأنه لم يسبق لي البيع من قبل، بل لم يكن لدي أي عملٍ سابقًا.."

رمق وجهها المتهرب منه للحظاتٍ متمهلًا دون أن يبتسم، ثم قال أخيرًا بهدوء

"ستتعلمين.."

أومأت برأسها ببطء فسألها قائلًا بعملية وهو يتوجه لطاولته كي يستند إلى حافتها والكوب بين يديه

"هل لديكِ حد أدنى بالنسبة للراتب؟.."

رفعت عينيها إليه وسألت عابسة بقلق لا تدري ماذا تقول

"هل أنا من ستحدد؟.."

هز كتفه قائلًا "مجرد تحديد رقمٍ لا يمكنك النزول عنه.."

ردت بخفوت

"أنت حدد.. لا مشكلة لدي.."

رفع حاجبيه وهو يقول بصوتٍ خفيض

"أنتِ متساهلة جدًا ولم يكن هذا هو الإنطباع الذي أخذته عنكِ أول مرة.."

ردت بجمود وهي تشيح بوجهها بعيدًا عنه

"أول مرة كان لها ظروف خاصة تعرفها جيدًا.."

سألها بنبرة غامضة مثيرة للتوتر

"هل أعرفها حقًا؟!.."

لم ترد عليه وقد احتقن وجهها غضبًا من ملاحظته، التي تعيدها لسبب زيارتها الأولى له.. تتمنى لو تخرج من شرنقة هذا الشعور المقيت الذي أجبرها أن تأتي إلى هنا في المرة الأولى..

استقام معاذ من مكانه أخيرًا وهو ينظر حوله قائلًا ببساطة

"اذن.. يمكنك البدء بترتيب المكان حتى يظهر زبون في الأفق، إن لم يكن لديكِ مانع أو شعورًا بالحرج من هذه المهمة.."

هزت كتفيها وهي تستدير قائلة بفتور

"لا بأس.."

نظرت حولها تبحث عن مكانٍ تضع فيه حقيبتها.. ثم علقتها على أحد الأدوات الرياضية وبدأت في التنظيم..

أما هو فكان يراقبها بصمت، ثم نادى عليها بجفاء

"قمراء.."

تلقائيًا ارتفع وجهها إليه متسائلة، وكان متجهمًا يراقبها بتفحص ثم سألها بهدوء

"لماذا غيرتِ رأيك في العمل مع مجرم؟.."

واجهت عينيه بثبات ثم قالت أخيرًا

"عرفت من عالية أنك جريمتك كانت قتلًا.. لكني لا أخافك، لذا سأسمح لهدفي بالتغلب على مشاعر الرفض الأولى.."

بردت النظرة في عينيه تمامًا وباتت ملامحه غير مقروءة بلا تعبير، ثم قال أخيرًا بسخرية

"ربما تغلب على الرفض شيء آخر سوى هدفك.."

لم ترد عليه لكنها كانت متحفزة لجلوسه خلف طاولته

يراقبها بإستمرارٍ وبشكلٍ غير مريح..

فتح الباب فجأة ودخل منه ذاك الفتى الذي دخل المرة السابقة مهللًا بقوة

"صباح الخير صديق.."

لكنه توقف وهو يرى ليلة للمرة الثانية فهتف بعينين براقتين

"الصاروخ!.."

ناداه معاذ غاضبًا

"تعال هنا يا مرجان.."

اقترب منه مرجان بينما عنقه لا تزال ملتوية وهو ينظر إليها بسعادة كبيرة فدار معاذ حول الطاولة ليحيط كتفي مرجان قائلًا

"هذا محمد مرجان يا قمراء، يعمل معنا في المتجر..و ليلة يا مرجان ستعمل هنا أيضًا."

كان مبتسمًا بفمٍ مفتوح، والتفت هامسًا لمعاذ مترجيًا بسعادة

"هل سيعمل الصاروخ معنا؟!!.. بالله عليك لا تخدعني، الصاروخ ستعمل معنا يوميًا؟!!.."

أمسك معاذ بمؤخرة عنقه هامسًا في أذنه بخشونة

"هذه الفتاة تعد من معارف والدي.. سبق ورأيته ويمكنك أن تتخيل ما الذي سيحدث إن أطلت سخافتك تلك!.."

تنحنح مرجان قائلًا بتهذيبٍ مضطربًا "كله إلا غضب عم الحاج.."

اعتدلت ليلة وهي تنظر إليه عابسة، ثم سألت بفظاظة

"هل يحتاج متجرًا كهذا إلى موظفين بخلاف صاحبه؟!..

حتى الصباح لم نر ظفر زبون.."

تجهمت ملامح مرجان بشدة وهو يهتف

"لما قطع الأرزاق يا آنسة؟!.. قادر ربك أن يرزقنا جميعًا، المهم أن تكون النوايا صافية.."

مالت زاوية شفتيها مستاءة إلا أنها تابعت عملها بصمت بعد أن تركت له هويتها وشهادة تخرجها التي كانت في حوزتها وعرضتها عليه فقبلها على الفور..

مالت بوجهها تنظر إليه يتفحص الهوية وشهادة التخرج، ثم رفع وجهه إليها سائلًا بإهتمام

"بالنظر لتاريخ تخرجك فأنتِ متأخرة عن تخرج عالية بحوالي ثلاث سنوات!.. هل رسبتِ كل هذا العدد من المرات؟!.."

توقفت يداها عن العمل للحظات.. وأبقت وجهها منخفضًا ثم تابعت بحركاتٍ عنيفة أكثر وهي تقول بإقتضاب

" نعم.. كان رسوبًا.."

*****

"هل سأتابع مدرستي؟.."

سألت السؤال بصوتٍ خفيض وهي تقف أمام المرآة الرخيصة المتعرجة وجميلة تقف من خلفها تمشط لها شعرها ببطء وقد جفت الدموع من عينيها وأصبحت جسدًا ووجهًا كالأموات بلا حياة..

نظرت إلى ابنتها في المرآة تتأمل جمالها وأخذت تحرك خصلات شعرها بين أصابعها برقة، لكن دون أن تبتسم.. دون حتى أن تظهر آثار الحنان في عينيها وكأنه بات مجهودًا شاقًا أكبر من احتمالها..

ثم أجابت أخيرًا بخفوت لا يحمل أي مشاعر

"لا.. لقد اشترط العريس ألا تتابعي الدراسة.."

عقدت ليلة حاجبيها وهي تهتف بحسرة

"لكن لماذا يا أمي؟.. أريد المتابعة.."

تنهدت جميلة تنهيدة كبيرة وهي تقول بصوتٍ منخفض

"وأنا كنت أتمنى لكِ المتابعة، لكن ما باليد حيلة.. علينا التحمل لأجل أختك.."

انحرفت عينا ليلة تنظر إلى وجه عالية المستلقية في الفراش تراقبهما بصمتٍ وبعض الخوف.. متشبثة بحافة الغطاء بقبضتيها..

سألت ليلة مجددًا "لماذا لم أرتدي فستان زفاف ونقيم عرسًا؟.."

ردت أمها قائلة بإقتضاب "لأنكِ صغيرة، نخشى أن يشكونا أحد رسميًا.. لذا نفضل أن يكون الزواج دون صخب.."

أخيرًا انتهت جميلة ووضعت الفرشاة من يدها على طاولة

الزينة قبل أن تمسك بذراعي ليلة وتنظر في عينيها ثم همست بصوتٍ متعثر

"ليلة، تعرفين.. هناك أمور تحدث في الزواج، أمور خاصة بين الرجل وزوجته.."

صمتت لا تعرف ماذا تقول وكيف تصوغ.. بينما قالت ليلة

"ليس تمامًا.."

أجفلت جميلة ناظرة إلى عينيها الجميلتين الواسعتين بإضطراب.. ثم قالت أخيرًا بإختصار

"ستعرفين كل شيء في وقته، المهم أن تستلمي هادئة لزوجك ولا تغضبيه.. هل فهمتِ؟.."

أومأت ليلة على الرغم من أنها لم تفهم شيئًا فاستقامت جميلة قائلة بحزم

"الآن سنخرج مع عريسك، نتجه للمحامي، سنسجل عقد

زواجك ثم يصطحبك زوجك إلى بيته.."

نظرت إليها نظرة أخيرة ثم تركتها وأسرعت تخرج من الغرفة.. بقت ليلة واقفة أمام المرآة تتأمل نفسها للحظات بالزينة على وجهها والتي جعلتها تبدو كمن تضع قناعًا تنكريًا رخيصًا..

و أخيرًا توجهت للفراش حيث عالية مستلقية تراقبها بصمت، فقالت ليلة بفتور خافت

"أراكِ بخير يا عالية، أتمنى أن تنجح جراحتك.."

همست عالية بصوتٍ مرتعش خفيض وهي تنظر إليها بعينين دامعتين خائفتين

"أراكِ بخير يا ليلة.. لا تتأخري علينا في الزيارة.."

هزت ليلة كتفيها علامة على عدم التأكد..ثم انحنت تحتضنها بسرعة قبل أن تستقيم وتغادر الغرفة..

و في الخارج رأت العريس يجلس بجوار جميلة يخرج بعض الأوراق قائلًا

"كما اتفقنا يا جميلة، الحق حق.. ستوقعين لي على إيصالات ضمان بمقدار المبلغ الذي سأدفعه.."

و رأت أمها توقع بكل خنوع صامتة..

حين انتهى كل شيء ووجدت نفسها وحيدة في غرفة نومٍ معدة خصيصًا للعروسين.. تفرك أصابعها بتوتر وأمامها العريس ينظر إليها بطريقةٍ أرعبتها وجعلتها عضلات حلقها تنقبض بإضطراب.. بينما هو يقترب منها وأصابعه تفك أزرار قميصه ببطىء.. ثم مد يده أخيرًا تجاه ثوبها فشهقت برعب..

و في الخارج بينما تجلس زوجته الأولى تحدق من النافذة بعينين قاسيتين ناقمتين سمعت صوت صرخةعالية من الداخل جعلتها تستدير وترمق الباب بنظراتٍ كارهة..

لاحقًا وبينما هي ترتعش في الفراش الفوضوي تبكي بصوتٍ عالٍ متحشرج.. وعلامات الذعر على وجهها الملطخ

بمزيج الدموع وألوان الزينة.. دخلت الزوجة الأولى للغرفة ونظرت إليها بملامح جامدة ثم قالت بإقتضاب

"ستعتادين.."

نفس الكلمة سمعتها من فتاة مراهقة تنظف البيت فيما بعد.. كانت جالسة القرفصاء تمسح الأرض بالخيش وحين أبصرت عيني ليلة الحمراوين الباكيتين وهي تدور في الصالة تنادي على أحد.. أي أحد يأتي وينقذها..

فقالت الفتاة بخفوت "ستعتادين.."

*****

"ليلة.. قمراء.."

أجفلت من شرودها على النداء الأجش فرفعت وجهها تقول بتوتر وبنبرة خافتة

"ها.. ماذا؟؟.."

رأت معاذ واقفًا ينظر إليها بتجهم شديد ثم قال بحذر

"ماذا بكِ؟!.. لقد توقفتِ عن الحركة تمامًا منذ قدائق متسمرة مكانك، أما ملامحك فقد تغيرت ورسمت خطوطًا للأسفل وكأنكِ على وشك البكاء.. لماذا غامت عينيك بهذا الشكل؟!.."

هزت رأسها بسرعة وحي تمسح وجهها بيدها وكأنها تزيل تلك الخطوط التي يتحدث عنها ثم قالت بخفوت: "أنا بخير.. شكرًا لك.."

لكنه قال بصوتٍ جاد: "ليلة، هل تريدين أن تحكي لي ما آلمك إلى هذا الحد؟.."

لم تلتفت إليه وهي ترتب ما سبق ورتبته قائلة بإختصار

"أنا بخير.."

*****

نظر إليها عبر باب المكتبة مبتسمًا.. حيث تجلس في كرسيها المتحرك تبدأ يومها المعتاد بمتابعة ترتيب كتب المكتبة العتيقة، وكانت من الإستغراق بحيث لم تنتبه لوصوله..

حين تبدأ عالية عبد الحي في شيء من ثلاث فإنها تنفصل عن العالم تمامًا

الترجمة.. القراءة.. ترتيب الكتب..

تكلم قائلًا بهدوء وابتسامة

"باتت كرامتي تتضرر كلما أتيت إلى هنا.. حيث أنني أظل أواقفًا لدقائقٍ طويلة دون أن تشعرين بوجودي"

رفعت وجهها وهي لا تزال متجهمة من التركيز ثم ما لبثت أن ابتسمت..

يوسف صالح عبد العظيم..

أصبح كل الناس مع مرور الوقت.. أصبح عالمًا بمن فيه من بشرٍ وحياة..

نصب نفسه مسؤولًا عن كل شيء في حياتها، تحتاجه في أصغر التفاصيل وأكبرها..

تستشيره، تستغيث به.. تروي له من القصص ما يجعله ساكنًا تماما في الجلوس بجوارها في المكتبة العتيقة، ينظر إليها مستمعًا..

يوسف صالح عبد العظيم.. شق لنفسه مكانًا بالقوة في عالمها الصغير الذي تعيشه بهدوءٍ ووحدة واقتحمه بهيمنةٍ فسقط هذا العالم الضعيف تحت سيطرته وسلم لنفوذه..

ازدادت ابتسامتها عمقًا وهي تقول بأناقة

"تخيل أنني حتى لم أسمع جرس الباب، وكنت قد تعهدت أن أفتح لك بنفسي.. ترى من فتح لك؟ الخالة حسناء أم ليلة.."

دخل إلى المكتبة قائلًا بتشدق

"الخالة حسناء، وأكاد أجزم أنها قد وقعت في غرامي، أما أختك ليلة فلا أظنني أعجبها، بل وأظنها تتمنى أن تراني صريعًا من فوق أحد الجبال!.."

ابتسامتها تتوسع أكثر دون صوتٍ أوكلمات.. فليس عجيبًا أن تقع الخالة حسنات في هواه، فهو أهلٌ للهوى.. وبهجة لأهلِ الغرام..

تنحنحت لتجلي صوتها قائلة بنبرةٍ مميزة تقنعه

"بالطبع لا تتمنى ليلة هذا، فلنقل فقط أن هواك لا يأتي على هواها.."

تقدم منها حتى التقط أحد الوسائد المستديرة الضخمة ووضعه بالقرب منها ليجلس عليها قائلًا مشيرًا للكتاب في يدها

"إن استمر كل كتابٍ في سرقة عينيكِ لإختلاسِ بعض

الأسطر منه فلن تنهي ترتيب المكتبة مطلقًا..عما تقرأين؟."

ضحكت معترفة وهي تنظر للكتاب قائلة

"ضبطتني.. هذا كتاب يحكي عن أشهر قصص الحب في التاريخ.."

رفع يوسف حاجبه قائلًا بمكر

"قصص حبٍ تاريخية!!.. تلك التي بنيت على الألم وانتهت بالتضحية!.."

نظرت إليه بطرفِ عينيها قائلة بتعالٍ

"أعرف أنك ما ترى الحب إلا تفاهة.."

ارتفع حاجباه الآن وهو يسأل بدهشة

"من قال أن هذا هو ما أراه؟!!.."

هزت عالية كتفيها قائلة وهي تتلمس غلاف الكتاب بأصابعها ببطء شارد

"طبيعة حياتك، أفكارك.. لا أظنك تؤمن بعلاقةٍ إلا وكان لك فيها مصلحة ما.."

تأوه يوسف متظاهرًا بالألم وهويقول متجهمًا..

"إلى هذا الحد ترينني متسلقًا نفعيًا ودنيء جدًا.."

سارعت تهتف سرعة وقد احمر وجهها بشدة

"لا بالطبع، لا أقصد هذا.. أنا فقط.. أنت لا تبالي بمشاعر الناس في عملك، لا تفكر سوى في الفوز بقضيتك ومن لا يبالي بمشاعر الناس جميعًا، يستحيل أن يسلم لقلبٍ واحد دون هدفٍ أو غاية.."

رد عليها ساخرًا

"أدلوف هتلر نفسه أحب إيفا براون..أتريدين القول بأنني

أقسى منه قلبًا، يصعب علي إيجاد الحب كما وجده وانتهى بإنتحارهما معًا!!..”

مالت بوجهها قائلة بهدوء

“ربما كان للقصة وجه لا نعرفه.. ربما ما انتحرا إلا لأن النهاية قد حدقت بالإثنين معًا فلم يعد هناك مهربًا”

رفع إصبعه يقول بثقة

“كل قصص الحب في التاريخ اذن، قد يكون لها أوجه لا نعرفها.. وربما ما كانت بنفس الجمال والتفاني الذي نقلت إلينا مصورة فيه..”

سألته بخفوتٍ خجول رغم أن قلبها كان يتقافز لهفة لمعرفة الجواب

“وماذا عنك اذن ؟.. هل عشت قصة حب؟، واحدة من تلك القصص الخالدة التي لن تنساها أبدًا..”

ظل صامتًا، لكنه أخفض وجهه وهو يلتقط الكتاب من بين يديها يسحبه ببطء يقلب فيه.. فشعرت بقلبها يهوي منتفضًا بين أضلعها وهي ترى تبدل ملامح وجهه الصامتة، على الرغم من أن الإبتسامة الهادئة لم تغادره.. ثم قال أخيرًا ببساطة دون أن ينظر إليها

"بالطبع عشت.."

تراجعت في كرسيها وهي تقول محددة

"لا أقصد تلك القصص العابرة والعلاقات الخاوية.."

رفع عينيه إلى عينيها بدهشة قائلًا

"عالية عبد الحي، من أين لكِ بمثل هذه الوقاحة والجرأة؟!.."

احمر وجهها بشدة وهي تبتسم بخجل، ثم همست بخفوت تتلاعب بخصلة من شعرها

ظل صامتًا، لكنه أخفض وجهه وهو يلتقط الكتاب من بين يديها يسحبه ببطء يقلب فيه.. فشعرت بقلبها يهوي منتفضًا بين أضلعها وهي ترى تبدل ملامح وجهه الصامتة، على الرغم من أن الإبتسامة الهادئة لم تغادره.. ثم قال أخيرًا ببساطة دون أن ينظر إليها

"بالطبع عشت.."

تراجعت في كرسيها وهي تقول محددة

"لا أقصد تلك القصص العابرة والعلاقات الخاوية.."

رفع عينيه إلى عينيها بدهشة قائلًا

"عالية عبد الحي، من أين لكِ بمثل هذه الوقاحة والجرأة؟!.."

احمر وجهها بشدة وهي تبتسم بخجل، ثم همست بخفوت تتلاعب بخصلة من شعرها

"اذن؟؟.."

عاد ليتهرب من عينيها المتلهفتين، ثم أجاب باختصار وهو يقرأ مقطعًا من الكتاب: "نعم عشت.."

ساد السكون التام بينهما وهي تراقبه بعينين واسعتين.. ثم قالت مستنتجة

"لابد وأنها من أجمل الفتيات وأكثرهن ابهارًا، تلك الأشبه بعارضات الأزياء.. طالما استطاعت جذب نظرك وقلبك بخلاف الباقي من النساء!.."

رفع عينيه إلى عينيها مبتسمًا بسخرية وهو يقول

"لا يمكنك أن تكوني مخطئة أكثر من هذا.. بل كانت حربًا واندلعت من حولي، حرب الرفض من الجميع لأنها أبعد ما تكون عن كل ما ذكرتيه للتو، كانت آخر انسانة يمكن أن تناسبني..و كنتُ أضحوكة في نظر البعض، ومختلًا لدى البعض الآخر، إنما غبيٌ في نظر الجميع..و مع كل هذا كنت على استعدادٍ للوقوف أمام العالم طالما هي بجواري.."

كانت تستمع إليه، مستندة بذقنها بين كفيها.. ناظرة بحدقتان واسعتان وثغرٍ مفتوح قليلًا، ثم همست بصوتٍ خفيض للغاية

"وماذا حدث؟!.."

مال برأسه ضاحكًا دون مرح، فهز كتفه قائلًا بصوتٍ صلب

"قررت هي وضع النهاية ورحلت.. هذا كل ما في الأمر، قصة لا تليق بالقصص التي تتمنين سماعها بقلبٍ بكرٍ ينشد أن يتذوق من الحب شيئًا.."

تنهدت بصوتٍ طويلٍ شديد الخفوت ثم همست

"ارحميني فقد بلِيث فحسبي.. بعض ذا الداءِ يا بثينة حسبي

لامني فيكِ يا بثينة صَحبي.. لا تلوموا قد أقرحَ الحبُ قلبي

زعم الناسُ أن دائي طِبي..أنتِ والله يا بثينة طِبي"

ضاقت عيناه وهو يستمع لصوتها الهامس مسحورًا بنظرة عينيها لعينيه دون أن تبتسم..و ما أن انتهى حتى سألها بخفوت

"من كان هذا؟!.."

ردت عليه بخفوتٍ متراجعة في كرسيها ترمش بعينيها قائلة بإرتباك

"جميل بثينة.. جميل بن معمر، وقع في هوى فتاة اسمها بثينة، فلُقِبَ بجميل بثينة"

ابتسم ابتسامته الجميلة وهو يسألها بهدوء

"أنتِ تتمنين هذا النوع من المشاعر يا عالية، أليس كذلك؟.."

امتقع وجهها وتوترت، فقررت سؤاله بصوتٍ حالم

"ما الذي أحببته فيها؟! رغم كل الفوارق بينكما.."

لم يرد على الفور، بل عادت ملامحه للهدوء وعيناه لتلك النظرة التي تقسم بأنها تخص حبيبته وحدها.. أجاب أخيرًا

"كانت تسمع.. كانت، تسمع كل ما أقول وتزهو بي، تصفق بكفيها وتمتلىء عيناها ببريقٍ يسحرني، كانت عطوفةٍ لدرجة ما كانت تلومني أو تعاتبني مطلقًا.. فقط تسمع.. تسمع كل مرافعة مستندة بوجهها إلى كفها تراقبني وكأنني الوحيد في هذا الكون.."

صمت للحظة ثم تابع مبتسمًا

"كنت أتكلم كثيرًا.. وهي من تسمع.."

لمع بريق الدموع في عيني عالية وشعرت بوجعٍ في قلبها، أخطأت تفسير أسبابه..فلعقت شفتيها وهي تستدير عنه بكرسيها غير قادرة على المتابعة، فقال من خلفها ممازحًا

"بعكسك يا عالية عبد الحي.. فأنتِ تُسمعيني كل ما لا

أريد سماعه وتصرين، تمامًا كأبي.. اتهامك لنزاهتي وحكمك المستمر ضدي يصل بي في الكثير لحافة الجنون.."

آه لو يعرف كم آلمها بمزاحه في المقارنة، إلا أنها ردت بقسوة قائلة

"اعذرني إن كنت لا أملك سوى قول الحق.."

سألها ببرود من خلفها

"من نصبكِ حاكما له؟!.. ومن أين لكِ بتقرير أنكِ على جانب الحق؟!.."

استدارت إليه ببطء ثم قالت

"حين تدافع عن ظالمٍ مستغلًا ثغرات القانون.. أتسمي هذا حقًا؟!.."

مط شفتيه قائلًا بحدة

"ليس هناك ما يسمى بثغرات القانون.. بل هناك دائماً طرح لنقاط الضعف كي لا يظلم بريئًا طلما أن الأدلة ليست قاطعة تمامًا.."

هتفت بدهشة "كي لا يظلم بريئًا؟!!.. أهذا هو ما تقنع به نفسك ليلًا؟!.. بيني وبينك يا يوسف حين تقرر القبول بقضية فأنت على الأرجح تسأل صاحبها سرًا إن كان متجنيًا فعلًا أم لا، كي تتخذ الشكل المناسب في الدفاع.."

زم شفتيه وهو يواجه عينيها بغضب ثم سألها ببرود

"أخبريني يا عالية، في مجال عملك.. إن وصلك كتاب لا يتقف مع قناعاتك، فهل تقبلين ترجمته أم لا؟.."

ردت بقوة وصوتها واضح

"أرفضه، وقد سبق وحصل هذا فعلًا.."

رد عليها بعنفٍ وهو يميل بوجهه قائلًا

"قمة الجهل اذن، فأنتِ تفرضين قناعاتك على غيرك، لمجرد أنكِ امتلكتِ الأدوات التي تمكنك من هذا.."

هتفت بحدة

"أولًا اسمها ثوابت وليست قناعات، ثانيًا فإن الثوابت تفرض نفسها، لست أنا من يفرضها.. وإن أراد غيري تعديها فلست مجبرة على مشاركته..أما أنت فيومًا ما ستطلق سراح مغتصبِ أطفالٍ وتبرر هذا بالقناعاتِ المختلفة.. ما هي إلا مسألة وقت فحسب."

هدر فيها غاضبًا "احترسي لكلامك يا عالية.."

صمت كلًا منهما يلهث غاضبًا محدقًا في الآخر بعنف بعد الإهانات المتبادلة.. ثم لم يلبث أن ضحك وهو يهز رأسه بعصبية قبل أن ينظر لعينيها قائلًا

"بالضبط كما قلت.. تسمعيني كل ما لا أرغب في سماعه.."

زمت شفتيها وهي تستدير عنه قائلة بفظاظة

"أعتذر إن كانت رفقتي مملة إلى هذا الحد.."

ساد الصمت لفترة، ثم قال بخفوت

"كيف لشهرزاد أن تكون مملة الرفقة يا عالية؟!.. من غيرها يروي القصص والحكايا!.."

ارتعشت بشدة وشعرت بخدرٍ في أطرافها بينما القلب كان في حالة نشاطٍ متزايد وهو يرقص بحماقة والعقل يراقبه حانقًا..

لذا ردت بجفاء

"أدوات البحث عبر الشبكة العنكبوتية لم تترك صغيرة ولا كبيرة.. ابحث لك عن قصةٍ واقرأها.."

صوت ضحكته من خلفها أدفأ قلبها، ثم قال بهدوء

"أفضل شهرزاد بصوتها.."

الآن لم تستطع المقاومة أكثر، فابتسمت وهي تستدير إليه ليرى تلك الإبتسامة، فاختفت ابتسامته..

و كأنها رقصة البسماتِ على ألحانِ مشاعرٍ متناقضة، غير مفهومة

و رآها تحرك عبر بساط المكتبة، إلى أحد الأرفف، تسحب منه صندوق خشبي كبير وضعته فوق ركبتيها، ثم تابعت جر الكرسي حتى وصلت اليه وقالت بنعومة

"اليوم لن أقص عليك حكاية، بل سأريك رسائل قصة عشقٍ عاش بطلها بين جدران هذا البيت وهنا في هذه المكتبة تحديدًا خط لها عشرات الرسائل.. كل رسالة بخطٍ مختلف عن الأخرى وكأنه يناشدها بكل الخطوط علها تلبي النداء، لكن للأسف.. انتهت القصة أبشع نهاية في التاريخ"

عقد حاجبيه يسألها بإهتمام

"هل انتحرا؟!.."

هزت عالية رأسها نفيًا ثم ردت

"بل تزوجت آخر مجبرة من أهلها.. وهو ظل مقيدًا بحبها لسنواتٍ طويلة يكتب لها الرسائل، لكن لم تكن تلك هي النهاية البشعة التي أقصدها.. بل كانت حين مات العاشق، وأما العاشقة فأتت إلى هذا البيت الذي شهد كتابة رسائل الغرام لها.. أتت تطالب بحقها في الميراث، لأن البيت بات يساوي ثروة.."

مدت له الصندوق قائلة بخفوتٍ مبتسمة

"رسائل عبد الحليم الطرقاوي، لحنيفة الغانم.."

أخذ يوسف الصندوق منها ببطء شديد وهو ينظر إليها سائلًا بصدمة

"حنيفة!.. أخت الثلاثي أولاد الغانم؟!.."

ابتسمت قائلة "هي بعينها.."

سألها يوسف محتارًا وهو يلامس خشب الصندوق المحفور

"وماذا عن أمك؟!.."

ردت عالية بصوتٍ حنون يحمل الحنين الجارف وقد فهمت سؤاله

"ما تزوج عبد الحليم الطرقاوي من أمي لأنه أحبها أبدًا.. بل تزوجها لأنه أحبني أنا.."

*****

"سيدي عبد الحليم.. أتيت في الموعد لأجل تنظيف البيت كما اتفقت معي حسنات، لكن أرجو منك العفو.. فلم أجد من يجالس ابنتي اليوم وأتيت بها معي.."

استدار عبد الحليم الواقف في مكتبته لينظر إلى جميلة، تلك المرأة التي هدها شقاء السنين وأصبحت روحًا مظلمة حزينة بإستمرار.. ليجدها تحمل بين ذراعيها فتاة تقارب الثانية عشر!!!..

انتفض عبد الحليم من المنظر وأشار للأريكة هاتفًا

"مدديها على الأريكة يا جميلة بسرعة.."

نفذت الأمر ومددتها فوق الأريكة، لتستقيم واقفة فسألها عبد الحليم بقلق

"ماذا بها؟!.. هل تعاني دوارًا؟!.."

ردت جميلة قائلة بخفوت "بل هي مقعدة.. أتيت بها مستقلة المواصلات العامة، لكن ما كان بوسعي أن آتي بالكرسي أيضًا"

اتسعت عينا عبد الحليم غير مصدقًا وهو يسأل

"من أين لكِ القدرة على حمل فتاة في عمرها؟!.."

ردت عليه متنهدة قائلة

"الزمن كفيل بمنحك القوة على التحمل يا سيدي عبد

الحليم.."

جثا عبد الحليم بجوار الأريكة ناظرًا إلى عالية الساكنة الوديعة، ثم ابتسم لها بحنان وسألها

"هل تجيدين القراءة يا..ما اسمك؟.."

ردت عالية بخفوت مرددة أن اسمها " عالية " فقال رافعًا حاجبيه

"أيا عالية المقام الرفيع، إلينا تصدقي بنظرة.. قد سحرتِ العين ببهاءِ وجهك والعين في الحسدِ لا تؤتمن"

*****

"الحسد حقيقة.. ذكرت في القرآن الكريم، بالغ الناس في تقدير قواها وزادوها قشورًا حتى حولوها لقوى خارقة تسير حياتهم.. فجعلوا منها أسطورة محصنة بالدجل والشعوذة..

أما ما ترتب على الأسطورة من خيالٍ أكبر فهي الخرافة..

خرافة كالنحس والجن الذي يسكنك ويتصرف بجسدك ناطقًا بلسانك..

أتذكر أن فتاة كانت تسكن حينا، كانت تعاني من علة نفسية بشكلٍ واضح.. ولم يحاول أهلها اللجوء إلى العلاج النفسي، بل ظنوه دجلًا ونصبًا.. أما الحق فكان مع الشيخ الذي توجهوا له طالبين المساعدة.. وأنا لا أعلم السبب الذي أطلقوا عليه لقب الشيخ لأجله!!.. فما كان دارسًا في الفقه أو التفسير وأشك إن كان يحفظ شيئًا من كتاب الله.. هذا الشيخ كما لقبوه ما أن مسها حتى شخص حالتها بأنها مسكونة بواحد من جن العالم السفلي يأبى أن يغادر جسدها.. ولن يخرج إلا بالضرب!!..

قضيت ساعاتٍ طويلة في غرفتي أسمع عويل صراخها وهو يقوم بضربها في بيت أهلها المطل على نافذتي..

تصرخ.. تستغيث أن ينقذها أحد من بين أيديهم وعصييهم، لكن ما كان أحد بقادرٍ على إيقاف علاج الشيخ.. حتى سكت الصوت فجأة !.. وعرفنا بعدها أنها فارقت الحياة من شدة الضرب!..

لا أعلم لماذا أقص عليكم هذه الحكاية الحزينة الآن، ربما لأن الخرافة كانت أكثر ما ترك أثرًا سلبيًا على نفسي..

و ربما تتسائلون عن علاقة الخرافة بالتاريخ؟.. من يرى الحلقات السابقة يدرك أن التاريخ ممتلىء بالخرافات التي صدقها الناس وآمنوا بها.. وعلى مدى أجيالٍ وعصور وحتى يومنا هذا أثبت الإنسان مهما كان متعلمًا وعلى قدرٍ من الثقافة فإن لديه ميلٍ فطري لتصديق الخرافات..

مثال بسيط متواجد في بيوت الكثير منا، حين يتأخر سن الفتاة في الزواج حتى وإن كانت من بيتٍ متعلم مثقف فإن الشكوك تبدأ في التزايد مع كل عريسٍ جديد ذهب ولم يعد، في كونِ أحدهم قد حضر لها عملًا شريرًا يمنع الزواج عنها.. وحينها سيتغلف هذا الفكر بالكثير من أنواع التجميل بأن الأعمال نوع من السحر والسحر مذكور في القرآن.. لكن تذكروا، حتى وإن كان هناك من حضر لكم عملًا شريرًا فقد حضره عند دجالٍ طلب منه على الأرجح دجاجة يتيمة وغراب أعور.. فكونوا منصفين مع أنفسكم قليلًا..

لنترك الخرافة الآن ولأكلمكم عن الولادة بنت المستكفي

الأميرة الأندلسية من بيت الخلافة الأموية.. ابنة الخليفة المستكفي صاحبة الفصاحة والشعر والتي كان لها مجلس يحضره الأدباء والشعراء في قرطبة.."

أنهت عالية المقطع الذي تصوره واستدارت إلى يوسف ففوجئت به يجلس مستندًا بوجنته إلى كفه وهو يستمع إليها بملامح شاردة بعيدة، رغم أن عينيه تحدقان في عينيها.. فسألته بقلق

"هل مللت؟!!.."

مضت لحظة قبل أن ينهض من مكانه ليضع صندوق الرسائل جانبًا على الطاولة.. كم رسالة قرأ؟!

فقد القدرة على عدها.. وكم سنة ظل يكتب هذا العاشق عل حبيبته تقرأ!!..

أخذ يوسف نفسًا عميقًا ثم قال بهدوء

"أريد اصطحابك إلى حفل.. فهل تأتين؟!.."

هتفت بذهول

"حفل!!.. في وضعي هذا؟! لا أظنني أستطيع.."

رد عليها بثقةٍ قائلًا

"تستطيعين كل شيء يا عالية.. سأمر عليكِ غدًا في تمام التاسعة، ارتدي فستانًا بسيطًا لكن أنيق"

خرج من المكتبة وهي تناديه بذعر، لكنه لم يتوقف وفي الخارج ألقى التحية لحسنات التي كانت ترمقه بسعادة جمة وهي تجلس بجوار ليلة.. وما أن خرج حتى استدارت إليها وهتفت بمحبة

"ألا تلاحظين ما ألاحظ؟!!.. هناك شرارات في الجو واعجاب، أعتقد أن عالية قد حصلت على عريس أخيرًا..لكن هذه المرة ماشاء الله.. شكل ومهنة ومستوى، عسى الله أن يتمم لها على خير."

رمقتها ليلة بنظرة باهتة وملامح أكثر فتورًا دون رد.. ثم أشاحت بوجهها وهي تمزق العروس الورقية التي رسمتها للتو من باب التسلية..

...

"لا أصدق أنكِ أجدتِ اختيار الثوب والمقاس إلى هذه الدرجة يا ليلة؟!!.. في نهارٍ واحد خرجتِ واخترته دون الحاجة للفٍ طويل!!.."

تابعت ليلة تسريح شعر عالية وهي تنظر إليها في المرآة قائلة بخفوتٍ فاتر

"لطالما اشتريت لكِ ملابسك وأعرف مقاسك.."

ردت عالية بذهول

"نعم.. لكنها كانت ملابس بسيطة، أما فستان كهذا، محكم حول خصري وينسدل بطبقاته الناعمة الشفافة ليغطي ساقيَّ بدقةٍ حتى الكاحلين!!.. إنه رائع، أكاد ألا أتعرف على نفسي..

كما أن لونه الكحلي، لم أتخيل أن أرتديه ويناسبني إلى هذا الحدا!..”

سألتها ليلة دون حماس

“هل تريدين رفع شعرك أم أتركه منسدلًا؟..”

نظرت عالية إلى نفسها والشعر الأسود منسدل على جانب كتفها بنعومة، ثم ابتسمت هامسة بجمالٍ تكلم نفسها في المرآة..

“سأتركه منسدلًا.. بما أنه حفل فسأتمادى قليلًا..”

وضعت ليلة الفرشاة وابتعدت لتجلس على حافة السرير، فنظرت إليها عالية طويلًا في المرآة وبدت مترددة تود أن تنطق بسؤالٍ يؤرقها منذ فترة.. ثم نطقت أخيرًا

“ليلة.. هل هناك شيء ما بينك وبين معاذ؟..”

حدقت فيها ليلة بغضبٍ عبر المرآة فسارعت عالية تقول

"هذه المرة لن أجادل أو أحاكم، أنا فقط أريد أن أعرف.. أنت تعملين معه يوميًا ولا تحكين لي شيئًا مطلقًا، لكن قلبي يخبرني أن هناك شيئ ما بينكما.. فلماذا تخفين عني؟.."

كتفت ليلة ذراعيها ورفعت ذقنها تسألها ببرود وتحدي

"وهل بينك وبين يوسف شيء؟.."

اتسعت عينا عالية في المرآة وقد شحب وجهها تمامًا ودارت بكرسيها لتواجهها هاتفة

"ما هذا الذي تقولين؟!.. بالطبع لا.."

مالت ليلة بوجهها تحدق في عيني أختها بتفحصٍ قائلة

"حسنات تقول أنكِ وجدتِ لنفسك عريسًا أخيرًا.."

ازداد شحوب عالية حتى رفعت يدها المرتجفة إلى صدرها هاتفة بتلعثم

"ما هذا الهراء؟!.. يوسف لا يساعدنا إلا إكرامًا لوالده كما أنه المحامي الخاص بي.."

نهضت ليلة من مكانها بتمهل سائلة ساخرة

"محامي لم يتقاضى شيئًا حتى الآن! لماذا يا ترى؟!.."

ابتلعت عالية ريقها بصعوبةٍ هامسة

"أخبرتك.. إكرامًا لوالده، الدكتور صالح.."

رفعت ليلة رأسها للخلف قائلة

"آه.. الدكتور صالح، صحيح.. بالمناسبة، أراه كل يومٍ أو يومين في المتجر.. يعاملني بلطف"

أجابت عالية بهدوء

"إنه كذلك بطبعه مع الجميع.. هل ظننتِ أنني قد أغار!، أرجوكِ يا ليلة توقفي عن حرب المشاعر تلك، أنا وأنتِ ليس

لنا سوى بعضنا.. أرجوكِ بل أتوسل إليكِ.."

شعرت وكأن اللين والرغبة في الإستجابة قد طغت على حدقتي ليلة.. لكنها تحركت وخرجت من الغرفة دون كلام بينما ظلت عالية وحدها ويدها لا تزال على صدرها الخافق.. وكلمات ليلة ترن في أذنيها، ترعبها..

*****

فتحت عالية الباب بحذر، وتراجعت بكرسيها للخلف مما جعل يوسف يدفعه بيده بهدوءٍ حتى رآها..

حينها تسمر مكانه ويده لا تزال على الباب..

فأمامه رواق مظلم طويل وقديم من عصورٍ خلت.. مضاء فقط ببعض الأنوار الجانبية الضعيفة..

في أوله فتاة تجلس على كرسي بفستان من طبقاتٍ ناعمة منسدلة بلونٍ يشبه الليل، أما شعرها فكان على كتفٍ واحد منسدلًا جميلًا..

جميلًا!!.. ما تلك الكلمة التي لا تليق ببهاء اللوحة المرسومة أمامه..

يذكر أن معاذ أخبره بمرةٍ فتحت فيها ليلة أو كما يسميها " قمراء " الباب له وبدت وكأنها خارجة من الماضي.. ثم صمت متجهمًا..

أتراه السر في الباب أم أماذا؟!.. لقد استنتج أن كلًا منهما يقف صامتًا كالأحمق كلما فُتِح!

رفع حاجبيه ورمش بعينيه متنحنحًا كي يجلي حلقه قائلًا بهدوء

"هل أنتِ جاهزة؟.."

شعرت بخيبة الأمل الموجعة من عدم تعليقه على شكلها والذي انتظرته معلقة فوق لهيب من اللهفة..

لكنه لم ينطق بكلمة، لذا ردت بقنوطٍ "جاهزة.."

و بينما هما في السيارة تتنعم بهواء المساء الذي يداعب وجهها وشعرها، لم تكن بنفس سعادة المرة الأولى

بل كانت حزينة بشكلٍ خاص وهو كان يراقبها في المرآة..

و خلال لحظات قالت بصوتٍ خفيض دون أن تبادله النظر، بل كانت تنظر من النافذة وكأنها تخاطب الليل

"هناك أمر أريد محادثتك فيه يا يوسف لكن أرجو ألا تفهمني بطريقةٍ غير صحيحة.. نحن نقطن على مشارف حارة شعبية، وعلى الرغم من انعزالنا بات الناس يعرفون بالتدريج أن هناك اختين تسكنان البيت القديم بمفردهما.. صحيح أن الوضع تغير في الأعوام الأخيرة وبات الجميع، كل في حاله.. لكنني متأكدة أنه سرعان ما.."

مد يده يفتح مشغل الأغاني فجأة طامسًا على كلامها دون ذوقٍ مما جعلها ترمقه بدهشة بينما تراجع في مقعده شارد الذهن.. فأعادت عينيها الواسعتين إلى النافذة تسعل من شدة الحرج!

و بينما هما في السيارة تتنعم بهواء المساء الذي يداعب وجهها وشعرها، لم تكن بنفس سعادة المرة الأولى

بل كانت حزينة بشكلٍ خاص وهو كان يراقبها في المرآة..

و خلال لحظات قالت بصوتٍ خفيض دون أن تبادله النظر، بل كانت تنظر من النافذة وكأنها تخاطب الليل

"هناك أمر أريد محادثتك فيه يا يوسف لكن أرجو ألا تفهمني بطريقةٍ غير صحيحة.. نحن نقطن على مشارف حارة شعبية، وعلى الرغم من انعزالنا بات الناس يعرفون بالتدريج أن هناك اختين تسكنان البيت القديم بمفردهما.. صحيح أن الوضع تغير في الأعوام الأخيرة وبات الجميع، كل في حاله.. لكنني متأكدة أنه سرعان ما.."

مد يده يفتح مشغل الأغاني فجأة طامسًا على كلامها دون ذوقٍ مما جعلها ترمقه بدهشة بينما تراجع في مقعده شارد الذهن.. فأعادت عينيها الواسعتين إلى النافذة تسعل من شدة الحرج!

*****

في أثناء سيرهما معًا في حديقة بيت فخم مضاء بآلاف الأنوار، سألته عالية بحرج:

"لم تخبرني عن مناسبة صديقك؟.."

ابتسم يوسف قائلًا بسخرية

"عيد مولده، وهو ليس صديقي.. بل عضو في المجلس وأحد كبار الموكلين لدي.."

اتسعت عيناها هاتفة

"عضو في المجلس يحتفل بيوم مولده!!!.. وبكل هذا البذخ!.."

مال يوسف بوجهه إليها هامسًا من بين أسنانه مبتسمًا

"اخفضي صوتك، فها هو قادم.."

سحبت يدها واستدارت قليلًا حين اقترب جلال من يوسف يكلمه بصوتٍ خفيض ساخر.. لكنها سمعته

كان يقول بدهشة ضاحكًا

"ما هذا الذي تفعله بنفسك يا يوسف؟!!.. ما خطبك في الإختيار؟!.."

كان الكلام عام وغير مفهوم لكن شيئًا ما بداخلها أخبرها أنها المقصودة بالسخرية.. فامتقع وجهها بشدة وتحركت بالكرسي مبتعدة دون استئذان، مما جعل يوسف يستدير ناظرًا لإنصرافها عاقدًا حاجبيه بشدة..

و قال جلال من خلفه

"علينا التحدث في أمرٍ هام يا يوسف.."

إلا أن يوسف رمقه بنظرةٍ سريعة مبهمة وهو يقول بتعجل

"لا بأس.. في الغد أتصل بسيادتك.."

ثم تركه ولحق بعالية يناديها بخشونة.

"عالية.. عالية توقفي.."

لكنها لم تتوقف فأسرع في خطواته وأمسك ظهر الكرسي يمنعها من الحركة فإلتفتت إليه هاتفة بحدة

"لا توقف الكرسي هكذا، أنا أعتبرها إهانة..اتركه"

لكنه لم يترك الكرسي بل قال بصرامة غاضبًا

"سأتركه بعد أن تتعقلي.. أنت تجذبين الأنظار إلينا.."

استمرت تحاول الحركة فهز الكرسي بقوة هاتفًا من بين أسنانه

"قلت توقفي.."

توقفت مشيحة بوجهها بغضب جم.. فترك الكرسي وهو ينظر ليرى مقعدًا شاغرًا وبالفعل وجد واحدًا قريبًا.. فدفعها حتى وصل إليه وبعد أن جلس مد كفه يجذب كرسيها إليه وكأنها دمية..

رفعت عينيها الحانقتين إليه لكن الحنق في عينيه كان أكبر فهتف فيها بحدة

"ماذا أصابك فجأة؟!.."

نظرت إليه بعينين شرستين كالقطط وهي تقول

"كان يسخر مني، أليس كذلك؟.. لقد سمعته.."

أغمض عينيه للحظة وهو يزفر بصوتٍ مكتوم، ثم قال بخشونة

"بل كان يسخر مني أنا.."

أصرت عالية بعنف "كان يتكلم عني.. وأنت لم ترد"

أمسك بذراعي كرسيها بكلتا قبضتيه وهزه مرة وهو يقول من بين أسنانه

"إن وقفنا عند كل كلمة ينطقها أحمق فلن نمشي أبدًا.. عليكِ أن تكوني أكثر ثقة بنفسك من هذا"

مالت للأمام تقول بحدة

"أنت مخطىء، ثقتي بنفسي لا حدود لها.. لكني لم آتي إلى هنا كي يهينني أحدهم.."

رد عليها بقوة محتدًا

"هل انتهيتِ؟.."

كتفت ذراعيها بغضب وهي تشيح بوجهها بعنادٍ متجهمة الملامح وكان لا يزال ممسكًا بذراعي الكرسي ينظر إليها بغضبٍ مماثل.. إلى أن سمعا صوتًا طفوليًا يقول

"أنت سمج مع الجميع اذن وليس معي أنا فقط!!.."

إلتفت كلًا منهما إلى مصدر الصوت حيث يقف طفل في التاسعة تقريبًا يراقبهما رافعًا حاجب واحد

زم يوسف شفتيه قائلًا ببرود

"ظننتني سأجدك نائمًا في هذا الوقت.. أو تمنيت.."

مط الطفل شفتيه في ابتسامةٍ زائفة لزجة.. بينما مد يوسف يده معرفًا

"عالية، هذا حمزة.. ابن الجنائني الذي كان يعمل هنا رحمه الله.. حمزة هذه عالية.."

مدت عالية يدها إليه قائلة بإبتسامة

"تشرفت بمعرفتك يا حمزة.."

صافحها حمزة ثم قال ببرود مشيرًا ليوسف "لماذا كان يضايقك؟.."

نظرت عالية ليوسف نظرة خاطفة.. ثم قالت بهدوء

"ربما لأنه لا يعرف ما الذي قد يجرح مشاعرالناس.."

ازداد تجهم يوسف ولمعت عيناه، بينما قال حمزة بغضب

"أعتقد أن البقدونس لديه احساس بمشاعر الناس أكثر من هذا الشخص.."

ضحكت عالية بصوتٍ خفيض بينما كان يوسف ينظر إليها بحنقٍ سائلًا

"أعجبكِ جدًا، أليس كذلك؟!.."

هزت كتفيها وهي تقول مبتسمة بشقاوة "بصراحة، ظريف جدًا.."

تطوع حمزة قائلًا ببرود

"هذا الشخص متباهٍ وشديد الغرور، نصيحة مني لا تثقي

به.."

التفت اليه يوسف قائلًا بغضب

"اسمع لقد تماديت، هيا اذهب من هنا.."

لكن عالية سألته بإهتمامٍ جم

"يبدو أنه فعل شيئًا سيئًا جدًا.. ماذا فعل؟.."

أجابها بنبرة خبثٍ وعيناه ترمقان يوسف المستاء

"إنه يعايرني بهاتفه وبعدم قدرتي على شراء واحد مثله.."

اتسعت عينا عالية بذهولٍ وهي تنظر ليوسف هاتفة

"يوسف!!!.. هل هذا صحيح؟!.."

ضاقت عينا يوسف وهو يرى المكر في عيني الصبي وإبتسامة خبيثة متلاعبة على شفتيه.. فقال ببرودٍ متعمدًا

"الحقيقة دائمًا موجعة، أليس كذلك يا صاحبي!!.."

فغرت عالية فمها هاتفة

"يوسف!!!.."

لكن يوسف لم يتوقف بل أخرج من جيبه هاتفًا لماعًا سارقًا للأعين تلاعب به أمام عيني الصبي وتابع قائلًا بتشفي

"واحزر ماذا أيضًا!!.. لقد قمت بتغييره للأحدث!!.. انظر لهذا الهاتف ومتع عينيك.."

زم حمزة شفتيه بغيظ، بينما مدت عالية يدها تمسك بمعصم يوسف بقوة هاتفة

"يوسف توقف، ما هذا الذي تفعله!!.. ألا تخجل من نفسك!!.."

تكلم حمزة غاضبًا "هل سمعتِ بنفسك!.."

ابتسم يوسف ببرود قبل أن يتنهد تنهيدة كبيرة وهو يدخل هاتفه في جيبه مجددًا، ثم أخرج من جيبه الآخر الهاتف القديم وهو يرفعه أمام وجه حمزة ملوحًا وقال بخشونة

"وكنت ناويًا أن أعطي القديم لأحدهم لكن لسانه يمنعني.. فما رأيك؟!!.."

اتسعت عينا حمزة غير مصدقًا وكذلك عالية التي فتحت فمها خاصة حين مط يوسف شفتيه وهو يمد الهاتف للصبي بحركة تنازل قائلًا

"من منا الأحسن!!.."

تسمر الصبي مكانه وعيناه على الهاتف غير مستوعبًا، فسأله يوسف رافعًا حاجبيه ببراءة

"ألا تريده!!.."

همس حمزة قائلًا بتلعثم "لا يمكنني.. إنه غالٍ جدًا.."

هز يوسف الهاتف قائلًا بصرامة

"هيا خذه قبل أن أغير رأيي.. وسأبلغ السيد جلال عنه كي لا يفاجأ به معك، أعرف أن لديك هاتف عتيق صغير به خط والدك رحمه الله، يمكنك وضع الشريحة في الهاتف الجديد"

بدا الولد مترددًا وهو يمد يده ليأخذ الهاتف فاغرًا فمه ذاهلًا يقلبه بين أصابعه.. وقال يوسف متشدقًا

"كما يمتلك أخي متجرًا للأدوات الرياضية، وأوصيته على قفازات ملاكمة تناسبك، ما أن تصل حتى آتيك بها.."

لمعت عينا حمزة بسعادة حقيقية، ثم قال بخبث

"أنت تحاول إبهارها، أليس كذلك!!.."

نظر يوسف ببطء إلى عيني عالية الذاهلتين وابتسم بخبثٍ يهز كتفيه قائلًا

"الطفل المصري، يلقطها وهي محلقة من فوق رأسه.."

فمها المفتوح تحول لإبتسامة دون أن تغلقه بينما احمر وجهها.. فقال يوسف مخاطبًا حمزة بصرامة

"والآن هلا تركت لنا مساحة خصوصية من فضلك.."

ضم الولد الهاتف لصدره بكل سعادة وانبهار وابتعد خطوتين.. إلا أنه عاد مجددًا وقال ببطء

"شكرًا لك يا صاحبي.."

ابتسم يوسف واحدة من ابتسامته النادرة في صدقها.. وراقب حمزة وهو ينصرف حينها فقط همست عالية بذهولٍ وابتسامة واسعة كبيرة

"لا أصدق!!.. كم ثمن هذا الهاتف الذي أعطيته للولد؟!!.. ما الذي دفعك للتنازل عنه!.."

ابتسم يوسف قائلًا بتشدق

"بصراحة شديدة، لم أتنازل عنه.. فمنذ أن صدر الهاتف

الأحدث وأنا أتحرق شوقًا لشرائه ولمن سأمنح القديم؟!..أنا من أسرةٍ ترى الهواتف الغالية مثارًا للشرور الشيطانية.."

فتحت عالية كفيها هامسة بعدم تصديق

"كان بإمكانك بيعه!!.."

مط شفتيه قائلًا "كم سيكون ثمنه!.. لا أفضل بيع هواتفي.."

رمشت عالية بعينيها مرة ثم قالت بخفوت

"يوسف!!.. أنت أسعدت الولد للتو سعادة على الأرجح هي الأكبر في حياته الصغيرة!!.."

ابتسم يوسف قائلًا بهدوء "أتمنى فقط أن أكون قد نلت اعجاب الأميرة!.."

احمر وجهها أكثر وأكثر من تلك التلميحات التي تخشى تفسيرها فقالت مختارة المزاح

"أعتقد أنك ستنال اعجاب كل الأميرات.."

مجددًا قال بهدوء "لا تهمني سوى واحدة.."

أخذت عالية نفسًا عميقًا وهي تنظر بعيدًا بقلبٍ مضطربٍ كعصفورٍ في مهب الريح.. ثم نظرت إليه بعينين صريحتين في حنانهما وقالت بصوتٍ حالم

"ما فعلته قد يعتبره الجميع كرمًا أقرب للسفه.."

سألها بصوتٍ أجش خفيض "إلا أنتِ؟.."

ابتسمت بنعومة وتمهلت في الرد.. ثم أجابت أخيرًا بصدق "إلا أنا.."

قال يوسف بهدوء وهو يمسك ذراع كرسيها بكفه "وهذا يكفيني يا عالية.."

أخفضت وجهها المبتسم وتنشقت رائحة الورود المحيطة بها.. كانت تشعر بسعادة أشبه بسعادة حمزة في حصوله على

الهاتف الغالي.. وكأنها قبضت على الشيء الأغلى في هذا العالم..

حانت منها نظرة إلى يوسف لكنه لم يكن ينظر إليها، بل كان متجهمًا وفي عينيه تعبير غريب موجع

ينظر إلى شيء خلفها وكأنه في عالم آخر.. فإلتفتت إلى حيث ينظر لكنها لم تجد سوى زوجان يدخلان للحفل

زوجان طبيعان جدًا يبدوان في الخمسينات من عمرهما وإن كانت المرأة تبدو أصغر لأناقتها ورشاقتها..

لكن هذه المرأة كانت تبادل يوسف النظر!!.. بنفس النظرة والوجع!..

ارتفع حاجبا عالية وهي تنقل عينيها بينهما غير مستوعبة ما يحدث!

امرأة متزوجة تكبره بما لا يقل عن خمسة عشر عامًا.. ربما كانت خالة أو عمة مفضلة، لكن اسلوب النظرات بينهما لا

يخطئه أحمق!!

ابتسم يوسف وهو يتذكر اللحظة التي يمكن وصفها بالبداية..

مضت فترة على ليست بالقصيرة على زواج دلال من شكري، لم تتحمل نوال بعدها الحياة معه فطلبت الطلاق وأصرت عليه.. وخرجت من شقتها والبناية بأكملها منتقلة مع ولديها لشقةٍ أخرى..

و من وقتها وهو يراها من حينٍ لآخر جالسة في أحد المقاهي وفي نفس الطاولة وكأنها لا تهوى التغيير..

كم من مرةٍ أوشك على الإقتراب منها ثم تراجع خارجًا من المكان.. لكن هذه المرة بالذات اتخذ قراره واقترب منها قائلًا بصوتٍ هادىء

"صباح الخير.."

يومها رفعت وجهها إليه متفاجئة، متشنجة للحظة.. عاقدة

الحاجبين متألمة، ثم لم تلبث أن أسبلت جفنيها وهي تقول بصوتها الهادىء الناعم

"صباح الخير يا يوسف.. كيف حالك؟ مضت فترة طويلة منذ رأيتك آخر مرة.."

ابتسم بحرجٍ قائلًا "نعم بالفعل.. هل يمكنني الجلوس معكِ قليلًا؟.."

على الفور رأى الرفض السريع في عينيها، ثم لم تلبث أن هزت كتفها قائلة بفتور

"تفضل.."

اتخذ المقعد المقابل لها واضعا حقيبة الظهر الرياضية خاصته على مقعدة مجاور وكتف ذراعيه على الطاولة أمامه.. نظرت نوال إليه تتأمله ثم قالت بهدوء حزين

"تغيرت قليلًا، لكنك تبدو بخير حال.. لا أرى أثرًا للفوضى القديمة"

ابتسم قائلًا "لقد تخرجت من كلية الحقوق وبدأت التدريب في مكتب محامٍ معروف"

ابتسمت ابتسامة قصيرة وقالت "أنا سعيدة لأجلك.. سعيدة لتخلصك من أصحاب السوء ونوبات الغضب والمبيت في الأقسام والضرب المستمر.. شاب مثلك لم يكن من العدل له أن يبدأ حياته بهذا الشكل وكنت أخاف أن يضيع مستقبلك في نوبة تهورٍ.. أو جرعة تعاطي.. أو أي شيء بدأت تنزلق إليه فيما مضى.."

ابتسم هو الآخر مشيرًا للحقيبة الرياضية

"أتمنى التخلص من الملبس غير الرسمي أيضًا.. حتى الآن أنا غير قابل للتقيد بشيء، ومع ذلك الأستاذ الذي أتدرب عنده يرى بي مستقبلًا للمهارة وسرعة البديهة.. لا للإلتزام.."

بادلته الإبتسام، ثم قالت بخفوت

"سمعت ما حدث لأخيك.. أنا آسفة جدًا يا يوسف."

صمتت للحظة ثم ارتشفت من قدحها تنظر للبعيد هامسة بشرود

"يمهل ولا يهمل.."

تجهمت ملامحه بشدة واضطربت عيناه مخفضًا وجهه،بينما قالت نوال بعد فترة شاعرة بالندم لما تفوهت به

"اعذرني يا يوسف.. لا زال الاحساس بالغدر والخيانة بداخلي حارقًا مؤلمًا.. كيف لصديقة أمنت لها وأدخلتها بيتي وحياتي أن تسلبني إياها وبهذا الشكل المروع!!.."

ساد الصمت للحظة ثم قال بصوتٍ خفيض كاره

"تطلب عدم انهياري لتصرفٍ تقدم عليه أمي سنواتٍ طويلة.. حتى اعتدت منها الخذلان والغدر، وفي المرة الأخيرة لم يكن غضبي منها، قدر غضبي على ما أصابك.. لا أزال أتذكر كلما انهرت وصرخت وكسرت بهياجٍ سحبتني من ذراعي بقوة وتكلمتِ معي طويلًا كي لا أتهور وأضيع مستقبلي في حركة غباء غير محسوبة.."

ابتسمت نوال بحنان وحزن ثم قالت برقة "لطالما شغلني مستقبلك وكأنك ابني.."

ضحك عاليًا وهو يقول "هذه مبالغة مضحكة، فأنتِ بالكاد تبدين كأختي الكبرى!.."

ارتبكت قليلًا وأخفضت وجهها ولم يستطع الإعتراف لها أنها كانت بالفعل مثال الجاذبية في سنوات مراهقته

وحتى تلك اللحظة في المقهى لم تكن قد تجاوزت الأربعين بعد.. لا يزال الشباب والجمال رفيقيها ولا يظنهما سيزولان مطلقًا..

تكلم أخيرًا قائلًا بهدوء "في الحقيقة أن ما حدث مع معاذ كان بمثابة لطمة على وجهي، أفقدتني توازني.. كان معاذ بمثابة الشاب الصالح، المتفوق، الناجح والملتزم.. فخر والده دائمًا، بينما كنت أنا على النقيض تمامًا وفجأة أراه متهمًا في قضية فسادٍ، ثم قتل وحكم أنهى مستقبله تمامًا.. جعلني هذا أترنح غير مستوعبًا.."

تنهدت نوال هامسة "أرجوك غير الموضوع إن كان يؤلمك.."

ظل صامتًا للحظة بملامح قاتمة متوترة..فسألته بلطف مبتسمة

"اذن ماذا تفعل هنا؟.. هل هي صدفة؟.."

ابتسم قائلًا ببساطة "في الواقع ليس تمامًا، عادة ما أتناول القهوة هنا وأنا أكتب المرافعات قبل توجهي للمكتب.. وعادة ما أراكِ لكنني كنت أخجل من الإقتراب.."

ضحكت بخفوت وسألته برقة

"وهل تشجعت الآن!!.. ما رأيك اذن أن تقرأ لي المرافعة التي كلفك بها أستاذك، لأقول لك رأيي.."

*****

"أريد العودة للبيت أرجوك.."

أفاق يوسف من شروده على صوت عالية المقتضب فعقد حاجبيه قائلًا بخشونة

"والله ما رأيت امرأة متقلبة المزاج بمثل هذه السرعة.. ماذا حدث الآن؟!.."

ماذا حدث؟!!.. الآن فهمت.. الآن استوعبت كلامه حين قال أن حبيبته بعيدة كل البعد عن الخيار المثالي..

لقد قرأت كل نظرة حنين بينهما.. لقد سمعت كل همسة شوق وأنين ألم.. لقد شعرت بكل الحب من حولها لا من خلالها.. وكأنها غير مرئية بينها..

همست بصوتٍ حزين

"أنا فقط.. أريد العودة.."

تنهد يوسف قائلًا بصوتٍ هادىء

"كنت أود الإنتظار إلى أن نكون وحدنا كي أسألك سؤالًا

أفكر فيه منذ فترة.. لكن أظن أن أوانه قد حان.."

سألت بصوتٍ خفيض غير متحمس

"ما هو؟..."

أجاب سؤالها بسؤالٍ أفقدها النطق والمنطق

"هل تقبلين الزواج مني يا عالية؟.."

*****

الفصل العاشر

" إنَه خَيَاري!"

*****

"كيف كان الحفل؟.."

رفعت عالية عينيها إلى ليلة التي كانت ترفعها من خصرها عن الكرسي حتى تستطيع رفع الفستان من تحتها وبعد أن ساعدتها على خلعه وارتدت قميص نومها فتوقفت ليلة عاقدة حاجبيها وهي لا تسمع من عالية ردًا فسألتها بقلق متجهمة:

"هل أهانك أحد؟!.."

أخذت عالية نفسًا عميقًا ثم نظرت إلى ليلة وقالت بخفوت:

"لقد عرض يوسف علي الزواج.."

ساد صمت غريب وقد تجمدت ملامح ليلة تمامًا وتحولت نظرة عيناها إلى تعبيرٍ غريب يحمل من القسوة ما يشابه خط شفتيها المستقيم.. ومرت بضع لحظات ثم ابتسمت عالية متابعة دون مرح

"يبدو أنني حصلت على عريس في النهاية كما توقعت الخالة حسنات.."

كانت ليلة تتنفس بصوتٍ عالٍ، صدرها يرتفع وينخفض بوضوح ثم سألت بصوتٍ جامد

"هل وافقتِ؟!.."

ظلت عالية صامتة، فقالت ليلة بصوتٍ محتد وهي ترتعش غضبًا

"هل وافقتِ بهذه البساطة؟!.."

نظرت إليها عالية وقالت بخفوت

"كان هذا هو الهدف منذ البداية.. أما أمهلتِني فرصة واثنتين وثلاث كي تتمكنين من الرحيل!.. ها أنا سأخلصكِ من عبئي.."

هتفت ليلة بحنقٍ وصوتٍ مرتعش

"أنتِ أنانية ولطالما فكرتِ في مصلحة نفسك فقط.."

فغرت عالية فمها وهي تقول بدهشة بالغة

"أنا لا أفهمك!!.. لم أعد أفهمك حقًا.."

إلا أن ليلة لم تنتظر لتسمع، بل اندفعت خارجة من الغرفة وسارت مترنحة في الرواق حتى استندت إلى جداره ترفع رأسها وهي تعض على شفتها المرتعشة، بينما لمعت عيناها بدموع الغضب والقهر لا تسمع سوى صوت جميلة يهدر في أذنيها بغضب وذعر

"هربتِ!!!.. هربتِ من زوجك!!.. أتريدين أن يسجن أمك!!.."

كانت ممسكة بذراعيها تهزها بقسوة غير آبة للكدمات التي كانت تعلو جسدها بالفعل وهتفت ليلة باكية

"إنه يضربني بإستمرار.. لا أريد البقاء معه أكثر"

هزتها جميلة مجددًا صارخة

"لأنكِ تعصين أوامره.. نفذي ما يقول وهو لن يضربك،.."

شهقت ليلة باكية وهي تمسح عينيها بقبضة يدها المضمومة

"أنتِ لا تعرفين ما يطلبه مني.."

هتفت جميلة بقوة

"بلى أعرف.. وهذا ما يحدث بين الرجل وزوجته وعليكِ أن تعتادي الأمر، مرت أشهر على زواجك"

عليكِ أن تعتادي.. ذكرتها الكلمة بزوجته الأولى وتلك الفتاة

التي تخدم عندها.. فهزت رأسها صارخة

"لا لن أعتاد.. لا أريد.. أنتِ أجبرتِني على الزواج منه ولم أكن أريد هذا.."

قبضت جميلة على فكها بقوةٍ ترفع وجهها حتى التقت عيناها بعيني أمها وهي تقول بشدة

"ستعودين يا ليلة.. ستعودين لأنه إن طلقك وتسبب في سجن أمك، ستضيعين أنتِ وأختك للأبد"

وفي بيت زوجها وقفت جميلة أمامه هامسة بترجي

"أقسمت بالله عليك ألا تضربها.. الفتاة صغيرة فترفق بها وارحم يتمها.."

ارتعشت ليلة من نظرته لها من فوق كتف أمها ثم قال بصوتٍ كالفحيح

"إن كانت مطيعة، تنفذ ما أريد فلما سأضربها!.."

*****

- "أنتظر جوابًا يا عالية، وتمنيت سماعه وأنا أنظر لعينيكِ لا عبر الهاتف، تفصل بيننا الأميال!"

- "لماذا أنا؟!.. من بين كلِ الفتيات اللاتي تستطيع أن تحصل على أجملهن وأعلاهن شأنًا وأصحهن جسدًا..لماذا أنا؟!.."

- "لأنني أريدك أنتِ، أليس هذا كافيًا بالنسبةِ لكِ؟!.."

- "ليس بالنسبة لي.. فلا يكفيني أن تداعب إحساسي بكلماتٍ مهما بلغ سحرها، عليك أن تقنع عقلي"

- "لأنكِ الوحيدة التي أحب سماعها، على الرغم من أن كل كلمة تنطقين بها قادرة على تحويلي لمجنونٍ من شدة الغضب.. لكن ولسببٍ غير مفهوم أجدني بعد كل مرة عقدت العزم فيها على ألا أنساق معك في الكلام، أعود متسربًا مستفزًا أحثكِ على الشجار في الحوار.."

- "الشجار في الحوار!.. العبارة نفسها تبني حاجزًا بيننا"

- ضحك.. فابتسمت

- "أحب الشجار معكِ يا عالية.. أحب نفسي معكِ"

- "أكنت تحب نفسك معها أيضًا؟.."

- ".. من هي؟.."

- "إن كنتَ تظن بأنني لم ألحظ نظراتكما سويًا، فهذا يعني أنكَ كنت معها في عالمٍ غير العالم.."

- "أصبحت من الماضي.. بقرارٍ منها، لا قراري.."

- "هل يفترض بي الشعور بالراحة ؟!.. معنى الكلام أنها رحلت ولازال قلبك معها!.."

- ".. لا يفترض بك نبش قبور الماضي ومشاعره.."

- "حتى وإن كنتُ أنا من ستهديها قلبًا فارغًا؟!.."

- "لا أعرض عليكِ قلبًا فارغًا، بل عرضت قلبًا متوجعًا.. لما حكمتِ عليه بالخواء؟! فالموجوع يُشفَى يومًا.."

- "وإن لم يشف؟!.."

- "الحمد لله أنكِ لستِ طبيبة، لكنتِ صرعتِ المرضى بيأسك وتشاؤمك"

- أفلتت منها ضحكة خافتة.. فابتسم

- "اقبلي الزواج مني يا عالية وأعدك ألا تحتاجي أحدًا سواي.."

- "الزواج للإحتياج.. مؤلمٌ جدًا هذا الخيار، والله يعلم كم جرحني.."

- "إن قبلتِ.. فهل سيكون هذا لمجرد الإحتياج؟!.."

- ".. لا.."

وكانت لا النفي في هذه الحالة هي موافقة القلب واعلانه الإستسلام

*****

"لماذا تأخرت؟!.."

لو لم يكن غاضبًا حانقًا في تلك اللحظة، لضحك على السؤال وشكل صاحبته.. فما أن دخل إلى المتجر حتى وقفت في وجهه تسأله، متجهمة الملامح بصوتها الفاتر الخفيض المعتاد.. فبدت كزوجة تقف على الباب في انتظار عودة زوجها وقد جاء موعد الحساب..

أجابها معاذ بجفاءٍ وخشونة

"هل فاتني توزيع النجاح وتحقيق الأحلام أثناء تأخري ولم يتبق لي منهما شيئًا؟!.."

ازداد انعقاد حاجبيها لسخريته الفظة، ثم أشارت بإصبعها للخلف قائلة بقنوط

"والدك ينتظرك بالداخل.."

مال معاذ برأسه، ينظر من خلف كتفها لوالده الجالس مطرق الرأس بملامح صارمة، مستندًا بمرفقه على سطح المكتب الصغير..

فأغمض عينيه متنهدًا بضيقٍ وهو يحك جبهته.. أما هي فكانت تتأمله عن قرب ثم سألت بقلق

"هل كنت تتشاجر؟!.. ما تلك الجروح في وجهك؟!.. كما أن قميصك به مزق!.."

رفع عينيه إلى عينيها قائلًا من بين أسنانه بعنفٍ غاضب غير مفسر

"وما دخلك أنتِ؟!!!.. أنتِ تتجاوزين حدودك.."

تراجعت ليلة للخلف خطوة وقد شحب وجهها من الإهانة،بينما ملامحها لا تزال متجهمة قليلًا ثم ودون كلمة واحدة استدارت عنه لتعود لعملها..

شعورٌ غريب بالندم وشيء آخر اجتاح صدره وهو يراها تبتعد.. مما جعله يزفر بحدة، لكنه كان غاضبًا ومنفعلًا ولم يكن في حالٍ يسمح له بأي استفزاز، ومنها على بالأخص..

اقترب معاذ من والده بخطواتٍ بطيئة، حتى رفع صالح وجهه يتأمله بدقةٍ ونظراتٍ طويلة جادة دون أن تهتز ملامحه.. وحين طال الصمت تكلم معاذ قائلًا بصوتٍ أجش

"مرحبًا أبي.."

لم يرد صالح على الفور، بل زادت جدية ملامحه وصرامته.. ثم قال أخيرًا

"عدت للشجار من جديد ولا أعلم له سببًا حتى الآن.."

زفر معاذ قائلًا بنفاذ صبر

"أرجوك يا أبي.. ليس الآن.."

إلا أن صالح نهض من مكانه هاتفًا

"ما الذي تفعله بحياتك يا ابني؟!!.. إلى أي طريقٍ تنساق؟! هل تريد أن تسير على نهج خطواتِ أخيك السابقة؟!.. مصارعات الأزقة، ومبيت الأقسام وصحبة السوء!!.."

هتف معاذ محتدًا

"كان يوسف مراهقًا حينها يا أبي، أما أنا فرجل!!!.."

لوح صالح بكفيه هادرًا

"أسوأ وأضل سبيلًا يا ولدي. ما الذي تفعله بنفسك في مثل هذا العمر؟! أتظن نفسك لازلت صغيرًا!!"

التفتت نظرات معاذ فرآى ليلة واقفة عن بعد تراقبهما بطرفِ عينيها، فصرخ فيها

"ما الذي تنظرين إليه؟!!.. اخرجي الآن حتى ننتهي من الكلام.."

انتفضت ليلة واضطربت ملامحها فألقت بكرةٍ كانت بيدها بعيدًا حتى أوقعت العديد من الأدوات الأخرى محدثة صخبًا مزعجًا، ثم اندفعت تنوي الخروج من المتجر على وشك البكاء.. إلا أن صوت صالح قصف هادرًا في المكان

"انتظري يا ليلة.. تعالي هنا، إياكِ والخروج.."

وقفت ليلة مكانها مطرقة الوجه، فإلتفت صالح لإبنه محتدًا

"هل جننت؟!.. تريد منها أن تقف خارج الباب إلى أن تنهي سيادتك كلامك!!.."

استدار معاذ لوالده قائلًا بقوة

"اذن ربما علينا أن نتوقف عن الكلام هنا في المتجر على الأقل يا أبي.."

قبض صالح على ذراع ابنه قائلًا بغضب

"يا ابني أفق.. مضت فترة منذ خروجك، والحمد لله بدأ حال المتجر في التحسن فلما أنت مصرُ على جر نفسك للقاع؟!!.."

صرخ معاذ غير قادرًا على التحمل أكثر

"القاع!!.. هل قلت القاع؟!!.. وهل هناك قاع أكثر مما أعيشه الآن؟!!.. أخي الذي تضرب به المثل في حياة الفوضى أصبح ناجحًا متفوقًا واقترب من وصول القمة.. بينما ماذا فعلت أنا؟! ماذا أصبحت؟!.. من مهندس محترم لمجرد سجين سابق يقف في متجرٍ يبيع الكرات.."

وكانت هناك كرة بالقرب من قدمه، ضربها بقوةٍ فإنطلقت كالصاروخ ضاربة ساق ليلة التي فزعت وصرخت رافعة كفيها تغطي بهما أذنيها خوفًا من العنف المحيط..

ساد صمت تام وهو ينظر إليها واجمًا، شاعرًا بأنه قد تمادى بينما الغضب بداخله لا يزال هادرًا لا يستطيع السيطرة

عليه..

أما صالح فكان واقفًا يتنفس ببطء وجهد.. ثم قال أخيرًا بصوتٍ خشن

"يا ولدي لقد تعرضت لإبتلاءٍ فاصبر.."

نظر معاذ لعيني والده بعينين ناريتين وهمس بوحشية

"بل تعرضتُ لظلم.."

هتف صالح قائلًا

"وما الظلم سوى ابتلاء؟!.."

استدار معاذ ضاربًا المكتب بقبضته هادرًا

"بأي منطقٍ ينجو الفاسدون واصبر أنا!!.."

اقترب منه صالح حتى أمسك بكتفه يشد عليه قائلًا بقوة

"حارب بقوة وانتفض لتنال حقك، لكن إن فشلت فعلى الأقل لا تخسر ثواب الصبر.."

انخفض رأس معاذ متساقطًا بينما ربت والده على ظهره برفق قائلًا

"تعال وانظر ماذا حضرت لك.."

التفت معاذ ليرى والده يفتح لفافة ويخرج منها بعض الشطائر متابعًا بهدوء

"شطائر الماضي، هل تتذكر يا معاذ أم نسيتها!.."

ابتسم معاذ بحزنٍ وهو يتذكر.. نعم يتذكر..

مسح وجهه بصعوبة وشدد على ذراع والده، فربت صالح على كفه دون كلمات.. ثم نادى قائلًا بجدية

"تعالي يا ليلة وكلي معنا.."

إلا أنها ظلت واقفة مكانها وهي ترد بقنوط

"شكرًا، لقد أكلت في البيت.."

استدار إليها صالح سائلًا بدهشة

"أترفضين؟!.."

حينها تكلم معاذ بصوتٍ خشن، فظ لكنه منخفض

"لا أحد يرفض طلبًا للدكتور صالح.. تعالي وكفى عنادًا.."

رمقته بنظرةٍ حانقة وهي تضغط شفتيها توضح له بمهارة كم تمقته في تلك اللحظة.. أما صالح فمد ذراعه يدعوها قائلًا

"تعالي يا ليلة.."

تحركت بخطواتٍ بطيئة، فانحنى معاذ يجذب كرسيًا مده لها وهو يضعه على الأرض بصوتٍ مزعج مما جعلها تحدجه

بنظرةٍ قاتلة، لكنها جلست في النهاية بتهذيبٍ واضعة يديها بين ركبتيها، لكن صالح نظر إليها مندهشًا

"هل ستجلسين متجمدة هكذا؟!.. مدي يدك وخذي شطيرة.."

تنهدت ليلة وأخذت واحدة بدأت تأكلها بتوترٍ شديد عاقدة حاجبيها حتى كادت أن تغص باللقمة..

أما معاذ فقد جلس على حافة المكتب يراقبها بصمت وهو يأكل بنهم وغضب..

نظر إليها صالح ثم سأله بهدوءٍ مبتسم

"لماذا أنتِ قاتمة دائمًا ومتجهمة.. تبسمي يا ابنتي.."

رفعت عينيها إليه، ثم سألت بتردد دون أن تفك تقطيبة جبينها

"علام أبتسم؟!.."

رفع صالح حاجبيه قائلًا بدهشة

"على الستر.. على الصحة.. على كونك بخيرا.."

أخفضت عينيها وهي تقول بخفوت

"لست بخير.."

تأملها صالح للحظات، وكذلك كان يفعل معاذ.. لكنها لم تكن لتنظر إليه.. بينما سألها صالح قائلًا مغييرًا الموضوع

"أخبريني عن حياتكِ إن أحببتِ.. كيف تقضين أوقات فراغك، ما هي هواياتك؟..ما هي موهبتك؟."

بدت صامتة قليلًا تنظر إليه عابسة وكأنه يتحدث عن أشياء غريبة، ثم هزت كتفها تقول بخفوت مرتبكة

"لا هوايات عندي ولا أملك موهبة.. أما عن أوقات فراغي، أمضيها في ترتيب البيت وتحضير ما تحتاجه عالية..عالية التي لديها هواية القراءة، ولديها موهبة الكتابة.. كما أن لها

حلقات تتكلم عن أشياء تاريخية وخلافه.."

تكلم صالح قائلًا برفق وإبتسامة

"صحيح، عالية تمكنت من خلق عالمًا مميزًا لنفسها، لكني كنت أتكلم عنكِ أنتِ.."

تحركت حدقتاها وشعرت بأن معاذ يراقبها ويستمع إلى ما تقول بحرص، فزاد حرجها.. وتمنت لو أن هناك ما تقوله وقد يرفع من قيمتها قليلًا.. فهمست بفتور

"لا أعرف.. ليس لدي شيئًا مميزًا.. أشاهد التلفاز أحيانًا.."

صمتت وهي تشعر بمدى غبائها، حتى أن حياتها الآن أفضل فهي على الأقل تعمل.. لكنها قبل العمل كانت مدفونة تمامًا، لا أحد يشعر بها..

سألها صالح محاولًا جرها للمشاركة في الحوار

"هل تحبين بيت الطرقاوي كما تحبه عالية؟.. كانت تتكلم

عنه بسحرٍ يستحقه.."

هزت كتفها تقول ببطء

"هو بيت.. لا أظنني انبهرت به تمامًا، في كثيرٍ من الأحيان كنت أشعر به سجن يحاوطني.."

شحب وجهها فجأة وهي تدرك كم أخطأت في التشبيه نظرًا لوجود معاذ والذي على ما يبدو لم يتخلص بعد من الشعور بالأزمة بعد ضياع الكثير من عمره خلف أسواره.. فعضت على شفتيها كاتمة أنفاسها..

إلا أن صالح قال بصوتٍ عميق

"بل هو جزء من التراث، إحساسك إنكِ كنتِ تسكنين جزءًا من التراث ألا يشعرك هذا بالحماس والميل لإطلاق الخيال والتفكير في الماضي؟.."

انعقد حاجباها قليلًا وهي تقول بخفوتٍ شديد

"لطالما كان التفكير في الماضي ما هو إلا عبث وايذاء للنفس.. بعض الناس لا يمكنها أن تتخلص من ماضيها فهو يظل كشرنقة سوداء حول أرواحهم.. والبعض الآخر يجري إليه ويرى فيه جمالًا.."

أغمضت عينيها للحظات، فسألها صالح بهدوء

"كم طال بقائكن في بيت الطرقاوي؟.."

ردت ليلة دون تفكير قائلة

"انتقلت إليه عالية وأمي منذ خمسة عشر عام تقريبًا.."

سألها محتارًا "ألم تكوني معهما؟!.."

شحب وجهها قليلًا وابتلعت ريقها، إلا أنها هزت رأسها قائلة بخفوت مضطرب

"لحقت بهما بعد سنتين.."

ساد الصمت لفترة، فقضمت قضمة كبيرة ونظرت إلى صالح وتابعت بإرتباك

"الشطائر لذيذة جدًا.."

"أين كنت؟!.."

كان هذا صوت معاذ الذي سأل فجأة دون مقدمات، فبهتت وهي تلتفت إليه سائلة

"عفوًا.."

رد عليها مكررًا السؤال

"أين كنتِ خلال العامين بعد إنتقال أمك وأختك لبيت الطرقاوي.."

شحب وجهها أكثر لكنها ظلت صامتة، فتطوع صالح يقول بهدوء

"ربما كانت مع أحد من أقربائها.."

أجابه معاذ دون أن يرفع عينيه عن عيني ليلة المهتزتين

"ما أعرفه أنه لم يكن لديهن أقرباء.. ولما قد تبقى مع أحد وحدها في مثل هذا العمر لمدة عامين بينما تتركها أمها وأختها التوأم!!.. ما السبب القوي الذي أجبرها على الإنفصال عن أختها التوأم؟!.."

كان يخاطب صالح إلا أنه ينتظر منها الجواب فرد صالح بحزم

"لا تعرف ظروف الناس يا معاذ.."

سألها معاذ قائلًا بإصرار

"لما أنتِ صامتة؟!.. أين كنتِ خلال سنتين؟ هل هو سر؟.. أهناك ما لا تودين قوله؟.."

ارتعشت شفتيها وهي تقول بغضب إنما شديد الإضطراب

"نعم.. لا أود القول.."

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يسألها بدهشة

"لماذا؟!.."

ارتفع صوتها قليلًا بعصبية

"لأنني لا أريد القول، لأنه أمرٌ يخصني.. وأنا لا أحب الكلام عنه، ألا يكفي هذا.."

تحول صوتها في نهاية كلامها إلى هتاف حاد، فسألها

"لكن.."

قاطعه صالح بصوتٍ صارم قوي

"أظنها قالت أنها لا تريد الكلام يا معاذ، فكيف لك أن تجبرها على النطق بشيء ربما يكون مؤلمًا لها!!!"

تكلم معاذ قائلًا بخشونة

"لم أكن.."

قاطعه مرة أخرى بنبرة أعلى "ولا كلمة.. انتهى الموضوع"

ثم نظر إلى ليلة وخاطبها قائلًا برفق

"وأنتِ يا ليلة، لا تسمحي يومًا لأي مخلوق أن يضغط عليكِ للكلام في شيء لا تريدين قوله عن حياتك."

تحرك حلقها بصعوبة وهي تشعر بوخزٍ في عينيها، لكن صالح تابع بهدوء جاد

"وإن حاول معاذ الضغط عليكِ مجددًا في غيابي، الكميه.. أنا من أعطيكِ الإذن"

ابتسمت بضعفٍ على الرغم من سحابة الحزن التي غشت عينيها، بينما ترك معاذ شطيرته مستاءً ..

نظرت ليلة إلى صالح للحظات وهي تعض على شفتها، ثم قالت فجأة بخفوت

"عالية ويوسف سيتزوجان.."

حل صمت مفاجىء على رؤوس الجميع وارتفع وجه معاذ بدهشة قبل أن ينظر لصالح الذي تجهمت ملامحه بشدة.. ثم قال بصرامة جادة

"من قل هذا الكلام؟!!!.."

ارتعشت ليلة من صوت صالح الغاضب القوي وتمنت لو ابتلعت كلماتها قبل خروجها من بين شفتيها

لكنها قالت بخفوت وهي تسأل معاذ العون، لكن معاذ رمقها بنظرة غاضبة زادتها خوفًا

"عالية أخبرتني.."

تشنجت الأعصاب من حولها وقبضت راحتيها بشدة وهي

تنظر إلى صالح الذي كان مطرق الوجه مكفهر الملامح.. وقبضته مضمومة فوق سطح المكتب، ثم لم يلبث أن رفع وجهه لليلة وهو يقول قاطعًا

"بلغي عالية على لساني اذن بعدم موافقتي.."

اتسعت عينا ليلة بذهول بينما نهض من مكانه وهو يقول بجفاء "أنا مضطر للمغادرة الآن.."

اتجه للباب فناداه معاذ بقوة "انتظر يا أبي.."

لكن صالح رفع كفه ملوحًا دون أن يستدر وغادر المتجر مغلقًا الباب خلفه.. وشعرت ليلة في تلك اللحظة وكأن صقيعًا قد جمد الدم في أوردتها..ثم تكلم معاذ سائلًا بصوتٍ ذاهل مخيف

"لماذا فعلتِ؟!!!!.."

تحرك حلق ليلة برعب حتى أنها رفعت أصابعها تمسح بها جانب وجهها تستند بمرفقها لسطح المكتب ضائعة العينين

والنفس..

*****

"لقد فعلت شيئًا.."

رفعت عالية عينيها عن الكتاب في يدها وهي تنظر إلى ليلة التي وقفت في إطار الباب تراقبها بنظراتٍ غريبة..

كانت مضطربة على حافة الإنهيار وهي تفرك أصابعها بتوتر بينما التجهم المعتاد على ملامحها الشاحبة

فسألتها عالية بقلق

"ماذا فعلتِ؟!.. هل أنتِ بخير؟!.."

فتحت ليلة فمها المرتعش وقالت بفتور

"لقد أخبرت الأستاذ صالح عن زواجك من يوسف.."

اتسعت عينا عالية وهي تسقط الكتاب على ركبتيها ناظرة إلى أختها بصدمة، ثم همست بصوتٍ متداعي

"لما فعلتِ شيء كهذا؟!.. كان ينبغي به أن يعرف من ابنه أولًا!!.."

رفعت ليلة يدها إلى شعرها تبعده عن وجهها بعصبية وهي تقول

"هذا ما حدث.. ارتبكت وتكلمت دون قصد.."

ظلت عالية مكانها ترتعش فاغرة فمها ثم همست أخيرًا

"وماذا كانت ردة فعله؟!.."

أظلمت عينا ليلة وهي تجيب بجفاء رغم اختناق صوتها

"طلب مني إبلاغك.. بأنه ليس موافقًا.."

*****

فتح صالح الباب مساءً ليجد يوسف واقفًا مكانه متجهم الملامح، مستعر النظرات.. كمن جاء طالبًا الحرب والصراع..

فترك الباب مفتوحًا واستدار ليدخل دون أن يدعوه، ولم يكن ابنه في حاجةٍ لدعوة.. فقد دخل وأغلق الباب خلفه ناويًا الكلام بكل ما يجيش به صدره حتى وإن كان هذا اضطره لدخول البيت عنوة، لكن لسوء الحظ فإن صالح لم يمنحه الفرصة للتهجم في الدخول..

جلس صالح في مكانه المفضل فوق الأريكة معاودًا قراءة الجريدة اليومية وأمامه كوب الشاي بالنعناع خاصته، متجاهلًا وقوف يوسف تمامًا..

دار يوسف في المكان يتأمله.. لا يتغير مطلقًا، لا أثاث يتم تبديله ولا جدران تتغير ألوانها..

الكتب مرصوصة بنفس الترتيب، والجريدة اليومية لابد وأن تأتي في موعدها كل يوم والذي لم تخلفه منذ أكثر من ثلاثين عامًا..

النظارة السميكة مرتاحة على عيني صالح وهو يقرأ بإهتمام على ضوء المصباح الجانبي في نفس الساعة مع نفس كوب الشاي من كل مساء!!..

لا يتغير.. ولن يتغير.. العناد طبعه والصلابة ميثاقه..

"أتعرف أكثر ما خيب أملي؟!!.."

لم يرد صالح وكأن الفراغ يكلمه.. ولم يرفع حتى عينيه عن الجريدة، لكن يوسف تابع بصوتٍ متشدد قاسي

"أنك تواجهني دائمًا في حربٍ لا نهائية وكلٌ منا على جانبي خطٍ فاصل بين الحق والباطل.. بقرارٍ منك وضعتني في جانب الباطل.. ونصبت نفسك للحق مدافعًا بشعاراتٍ اندثرت منذ قرون، هذا ملخص علاقتنا وقد اعتدتها.. نعم أغضب، أصرخ.. نحتد سويًا.. لكن اليوم كانت المرة الأولى والذي تتخذ فيها اسلوبًا خيب أملي، لقد جرحت فتاة لا ذنب لها مطلقًا في حربنا.. وكانت تضعك رمزًا لها وغاية أملها أن تكون متذكرًا لها فقط بعد كل تلك السنوات.. لقد كسرت بخاطرها فقط لتمعن في اهانتي.."

ارتفعت عينا صالح عن حافة الجريدة ينظر لإبنه صامتًا دون أن يرجف له جفن.. بينما تابع يوسف بصوتٍ يرتعد من شدة الغضب..

"اليوم فقط عرفت أنني كنت رغم كل الخلاف طوال السنين، كنت أحترم عدم تغير قناعاتك حتى وإن كنت أرفضها..

لكن اليوم فقط اكتشفت أن هذه الحرب ما كانت إلا حرب شخصية بحتة، فمن بداية مراهقتنا أنا ومعاذ وأنت تصنفنا جانبين.. جانب صالح عبد العظيم وجانب دلال.."

مال صالح بوجهه يستمع بمنتهى الهدوء، فتابع يوسف بشدة ضاغطًا على أسنانه

"لم تشعرني يومًا بفخرٍ كالذي وجده معاذ منك، كنت دائمًا تراني ضعيفًا، فاسدًا بالفطرة.. طفل مدلل يبكي مهما كان عمره.. حتى بت أمقت هذا البيت ومعاذ وكل ما جمع هذه الأسرة الفاشلة.. إن زاد فشلي وانحداري بين الأقسام، رأيت في عينيك سعادة بنجاح نظريتك.. وحين نجحت وصعدت

ووصلت لما لم يصل إليه الملايين، أوجدت لنفسك حجة تحقر فيها من شأن هذا النجاح وتبخسه حقه.. أنا ما كنت بالنسبة لك يومًا سوى نتاج كرهك لأمي.. لأنني اخترتها، فضلتها عليك، لأنها يومًا أشعرتني ولو كذبًا بأنني الأكثر أهمية في هذا الكون بالنسبة لها.."

صمت للحظةٍ يلهث وهو يواجه نظرات والده المحدقة، حتى أخفض الجريدة بهدوءٍ مصغيًا..

فتابع بصوتٍ مجهد بطيء:

"لكن ما ذنب عالية؟!.. تريد لعب دور الفارس النبيل للنهاية وتعلن رفضك أن تتزوج تلميذته القعيدة من ابنه العاق الفاسد.. دور رائع على خشبة مسرح صالح عبد العظيم، يستحق التصفيق الحاد من المتفرجين، وهم يرون تفضيل الفارس للفتاة المريضة على ابنه.. رائع..أعظم أدواره.."

ظل صالح مكانه صامتًا واضعًا كفًا فوق الآخر وتحتهما الجريدة، بينما قال يوسف أخيرًا بخفوت

"لم تفكر ولو للحظة أن تسيء هذه الفتاة العاشقة لإسمك تفسير سبب رفضك وتربطه بعلتها.. لقد قمت في سبيل الفوز بجولة من جولاتك ضدي بسحقها بمنتهى الوحشية.. فهل أنتِ راضٍ الآن؟!!!.."

ساد صمت طويل بينهما وكلُ منهما ينظر للآخر.. الصوت الوحيد الصادر هو تكات الساعة الخشبية القديمة ذات البندول المتأرجح..

ثم تكلم صالح أخيرًا.. بصوتٍ هادىء جدًا، ثابت لا يهتز وهو ينظر في عمق عيني يوسف

"متى ستسلبها بيت الطرقاوي؟!.."

أجفل يوسف فجأة وهو يعقد حاجبيه متجهمًا قائلًا بتوتر

"ماذا؟!.. ما الذي؟!.."

صمت غير قادر على تكوين سؤال محدد، بينما نهض صالح من مكانه قائلًا بنبرة قوية

"مرافعة رائعة يا أستاذ.. لقد أثرت بنفسي حقًا، لدرجة جعلتني أنصب محاكمة لها وأسألها للحظة، ربما كان يوسف على حق!.. ربما كنت بالفعل لا ترى فيه سوى مساوىء أمه.. ربما كنت تحاكمه على ذنب اقترفته هي.. ربما أخطأت في فهم ابنك طوال السنين..

أتعرف متى اهتز حكمي عليك وظننت فعلًا أنني ربما أكون قد ظلمتك؟.. يوم طلبت مني تحقيق سعادة لطالبة من طلابي، تتمنى رؤيتي.. تطلب مني أن أحقق لها أملًا لأنها لا تستطيع الحركة بسهولة..

أصدقك القول لقد اهتز قلبي لك أنت أولًا.. وكأنني كنت أرى شخصًا آخر غير الذي أسأت الظن به طوال هذه السنوات..

لكن ما أن دخلت بيت الطرقاوي وعرفت اصرارك على أن توكلك محاميًا لها وهي غير قادرة على دفع أتعابك.. اتضحت لي الصورة كاملة.. أنت ما أردت سوى البيت، لقد نسيت وأنت تترافع الآن تلك المرافعة الفخمة أنك تترافع أمام أستاذ تاريخ، يدرك جيدًا القيمة الحقيقية لبيتٍ تملكه هذه

الفتاة.."

ازداد تجهم يوسف واضطراب ملامحه فتابع صالح سائلًا

"أخبرني يا يوسف.. كيف تمكنت من اقناعها بتغيير رأيها بعد أن كانت مقتنعة بأن البيت ليس من حقها وأنه من حق ورثة عبد الحليم الطرقاوي؟.. كيف تلاعبت بأحدى ثوابت مبادئها؟.. واخبرني أيضًا كيف ستتمكن من اقناعها ببيع البيت؟.. طبعا نحن لا نتكلم عن مشترٍ عادي سيقوم بهدمه ليبني مكانه برجًا ضخمًا

فأنت في هذه الحالة تبيع أرضًا فقط.. وحينها ستكون غبيًا وأنا لا أظنك كذلك أبدًا

البيت بقدر بالتراث والتاريخ بين جدرانه، وهو ما لا يقدر بمال.. لكنك ستقدره وتكيله وتجد من يشتري التاريخ وليتم هذا يجب أن يكون هناك تزويرًا في الأوراق.. كي لا يتم البيع لأجنبيٍ مثلًا على أنه مبنىً أثري.. بل سيسجل على أنه عقار عادي، فتقبض أنت وشركاؤك الثمن ويظفر الأجنبي أي كانت جنسيته بالتاريخ فيه.."

ساد صمت مريع بينهما، وتحركت عضلات حلق يوسف بصعوبة ثم تمكن من النطق أخيرًا بخشونة

"اذن فقد افترضت قصة وبنيت عليها.."

رفع صالح كفه وهو يقاطعه قائلًا بهدوء بدا مرعبًا أكثر من الصراخ

"لا تبالغ في التظاهر بدور الضحية، لأنه حين يأتي الوقت ستُحرِج نفسك جدًا وأنت واقفٌ أمامي عارٍ تمامًا تتغطى بغنيمتك المذهلة والتي لا تستر منك شيئًا.."

شحب وجه يوسف حتى تحول للونٍ رمادي باهت وانقبضت كفاه إلى جانبيه فتابع صالح بصرامة أقوى

"اخرج من هنا.. وأغلق الباب خلفك"

*****

- "أخشى أن أكون قد اتصلت بك في وقتٍ متأخر.. لكنني

تمنيت الكلام معك يا دكتور صالح، فهلا منحتني من وقتك القليل؟ أظن حياتي تستحق بضعة دقائق.."

- "تكلمي يا عالية، أنا أسمعك.. لكن عليكِ بعد أن تنتهي من كلامك السماع لما سأقوله أنا.."

- "حين بلغني رفضك من ليلة.. شعرت بقلبي وقد تكسر، شعرت وكأنني لا أساوي شيئًا، فقدت كل ثقة بنفسي بنيتها على مدى السنين.. وتهدم كل انجاز وعدت نفسي بتحقيقه حتى وإن كان يسيرًا.. لم أرى في نفسي لحظتها سوى ساقين عاجزتين، تجعلان مني انسانة بلا قيمة.. لا أساوي شيئًا.. بكيت، بكيت طويلًا يا دكتور ولم يسبق لي أن كنت بمثل هذا الضعف!.."

- "يؤسفني شعورك يا عالية.. لكن يؤسفني ظنك أكثر، فلو كنتِ حقًا قد تعلمتِ شيئًا من الدكتور صالح، لتأكد لكِ بطلان ظنونك.."

- "هذا ما أشعر بالأسفِ لأجله، خاصة بعد جملةٍ سمعتها من يوسف.. قال أنك لا ترفضني له، بل ترفضه لي.. كان متألمًا

أكثر من ألمي حتى وإن لم يبك.."

- "ربما كنت والد ظالم.."

- "مستحيل.. استحالة لا يفرضها كونك أستاذي الذي أفخر به فقط، بل يفرضها احساسي الذي لم يخدعني قط.. يوسف شخص معدنه نقيٌ صالح وأنا مستعدة لأن أتبع احساسي فيما يخصه، فأرجوك ألا تتمسك برفضك وامنحني الفرصة لأثبت لك.."

- "أرفض أن أقف مكتوف الذراعين أشاهدك وأنتِ تؤذين نفسك بيدي ابني.."

- "إنه خياري.. أنا قررت خوض التجربة لا يمنعني سوى رفضك، علمتنا أن نتبع ما نؤمن بأنه الصواب.. وأنا أؤمن أن قراري صائبًا حتى وإن تأذيت فلن أندم.. سأواجه نتيجة اختياري بشجاعة، لا يمكنك حماية شخص قرر التجربة إلا الأطفال فقط يا دكتور، أما للناضجين ففرض الحماية نوعًا من الإستبداد.."

- "استبداد!!.."

- "أعتذر لك ألف مرة إن أصريت على رفضك.. وإن لم تفعل فلن أعتذر لأنك وكما توقعت لم تكن مستبدًا مطلقًا ولن تكون"

- "حافظي على البيت يا عالية، فيوسف يمكنه أن يكون مقنعًا جدًا حين تتطلب مصلحته الخاصة، لكن الأهم حافظي على قلبك من الأذى.."

- "أعدك.. وعالية لا تخلف وعدًا قط"

*****

"ترى من منا يجيد المرافعة أكثر؟.."

سألته مبتسمة وهي تراقبه يخرج بعض الصناديق القديمة مشمرًا كمي قميصه..

رفع وجهه إليها مبتسمًا ثم قال بهدوء

"طالما أنكِ ترفضين البوح لي بتفاصيل مرافعة جلستك السرية مع الدكتور صالح، فلا يمكنني الحكم بأفضلية أحدنا.."

مالت للأمام رافعة وجهها إليه متحدية

"أنت أيضًا ترفض أن تسمعني مرافعتك أمامه!!.."

اختفت الإبتسامة عن عينيه وأطرق بوجهه للحظات، فهمست برفق

"لا بأس.. ربما يومًا ما.."

نظر إلى عينيها للحظةٍ ثم اقترب منها حتى جثى على عقبيه ممسكًا بذراعي كرسيها مما جعلها تشعر بالحرجِ من هذا القرب ثم قال أخيرًا بهدوء

"أنا سعيد لأنني وجدتك.."

انحنى ثغرها الجميل في ابتسامة رقيقة وهي ترد بخفوت

"وأنا سعيدة لأنك عثرت علي.."

ظل يحدق في عينيها للحظاتٍ حتى أخفضت وجهها المحتقن وضحكت بعصبيةٍ

"هلا تابعت عملك رجاءً وأخرجت الأغراض القديمة.. أريد أن يكون البيت جاهزًا قبل زواجنا.."

ضحك بصوتٍ خفيض زاد من خجلها لكنه نهض من مكانه واتجه للصناديق القديمة يقول مستاءً

"لا أشعر بالراحة لزواجنا هنا في بيتك بينما لدي شقة واسعة.."

سألته متنهدة

"ألم تقل أنك لا تفضل اغلاق البيت خاليًا، خوفًا من أي تصرف يصدر عن أولاد غنام؟!.."

رد بحنقٍ قائلًا

"هذا بسبب إصرار أختك الغريب على مغادرة البيت.."

رفعت كفيها قائلة بيأس

"ليلة مصممة على الرحيل منذ فترة طويلة ولم أستطع تغيير رأيها.. وبصراحة أعتبر أن الشقة التي استأجرتها أكثر أمانًا من بقائها وحدها في هذا البيت الكبير.."

تكلم يوسف ساخرًا

"تقصدين غرفةٍ مع خمس فتيات في شقةٍ كالجحر!!.."

رفعت كتفيها قائلة على مضض وهي تمط شفتيها

"خطتها الرهيبة التي أخذت تعد لها أشهرًا من البحث في الخفاء.. حتى وجدت أن مشاركة فتياتٍ لا تعرفهن قبلًا، أخف على قلبها من الإستمرار في مشاركة توأمها!!.."

رفع يوسف حاجبيه قائلًا بحذر

"أختك معقدة جدًا.. وهذا ما لاحظته منذ أن رأيتها للمرة الأولى.."

أخفضت عالية وجهها وهي تبتلع ريقها قائلة بصوتٍ هامس مضطرب

"لديها عذرها.."

نظر إليها قائلًا بجدية "لا أظن هذا.."

رمشت بعينيها وهي تنظر إليه مبتسمة قائلة بلطف

"يوسف!.. أنت تثرثر ولا تعمل.."

ضحك وهو يقترب منها قائلًا

"حسنًا يا رئيسة.. انظري لهذا الصندوق، فهو من ضمن الصناديق التي سنخرجها لكنه يحتوي على أغراض خاصة،

تأكدي إن كنتِ تحتاجين شيئًا منها.."

فتحت حافتي الصندوق قائلة

"لا أظن أن.."

لكنها صمتت في اللحظة التي التقطت أصابعها الدمية القماشية المصنوعة يدويًا فرفعتها تتأملها بعينين غائرتين..

سألها يوسف عاقدًا حاجبيه وهو يرى تبدل ملامحها الساكنة

"ماذا بكِ يا عالية؟!.. ما هذه؟!.."

ردت عالية بخفوت وهي تبتلع ريقها

"هذه عروس من القماش، خاطت أمي بيديها واحدة لكلٍ منا.. العروستان متشابهتان طبق الأصل، لتشبهانا أنا وليلة.. لازلت أحتفظ بدميتي، أما هي فكما يبدو لم تعد تريدها..سأحتفظ أنا بها."

تذكرت يوم عادت ليلة إليهما مطلقة في سن الخامسة عشر.. مهزومة متهاوية، فارغة العينين

فقد انتقلت إليهما في بيت الطرقاوي حيث كانت جميلة قد تزوجت من صاحبه الأعزب المتقدم في السن لترعاه وليرعى هو ابنتها.. وكان نعم الأب..

في نفس ليلة عودتها واستلقائها على جانبها في السرير متكورة حول نفسها، مفتوحة العينين والفم..

اقتربت منها عالية تلامس شعرها بحنان، ثم همست بصوتٍ خافت مختنق وهي تضع الدمية بجوارها فوق الوسادة

"هذه دميتك يا ليلة، لقد تركتِها في بيتنا القديم واحتفظت بها لكِ لحين عودتك، وكنت واثقة بأنكِ ستعودين قريبًا.."

*****

جلست على حافة السرير تنظر إلى عالية في المرآة وهي

تجلس على كرسيها المتحرك، لكن هذه المرة لم تكن هي من تمشط لها شعرها..

لم يعد هناك حاجة لها، فقد استدعى يوسف خبيرة تجميل، ومصففة شعر.. قامت بعملها الإحترافي على أكمل وجه..

وهاهي عالية جالسة تتأمل نفسها بعد أن تم عقد القران مرتدية أجمل فستانٍ زفاف رأته كلاهما في حياتيهما..

التقت أعينهما في المرآة للحظاتٍ طويلة ثم استدارت عالية بكرسيها وهي تحارب الدموع المحتجزة في عينيها كي لا تفسد زينتها.. فاقتربت من ليلة حتى توقفت أمامها وهمست بخفوت

"أراكِ بخير يا ليلة.. أردت قبلًا أن.. أن أشكرك على كل شيء.. وأتمنى لكِ الحياة التي لطالما تمنيتِها أنتِ لنفسك.."

أومأت ليلة برأسها دون كلام.. كانت ملامحها عادية فاترة، أما عيناها فكانتا تحملان الكثير من الألم والعتاب والرغبة في الصراخ.. نعم ترغب في الصراخ منذ سنين ولسانها عاجز.

تنهدت عالية وتحركت بكرسيها، لكن ليلة أمسكت بذراعها فجأة قائلة

"عالية.. إن حدث.. إن حدث وآذاكِ بأي طريقةٍ، ارجعي.. أنا لن أعيدك إليه كما كانت تفعل أمي"

رفعت عالية كفها إلى فمها غير آبهة بأحمر الشفاه الذي لطخ راحة يدها أو بالزينة التي أتلفت مع انسياب دموعها وهي تغمض عينيها بشدة..

ثم سرعان ما جذبتها بين ذراعيها بقوةٍ تبكي في عنقها بصوتٍ مختنق.. وهمست بصوتٍ مبهم مختنق

"أنتِ من ستعود يا ليلة.. أعدك أن تعودي يومًا.."

*****

لم تتخيل يومًا أن تحيا مشاعر عنيفة مربكة كالتي تحياها الآن.. كان قلبها ينتفض بين أضلعها صارخًا بفرحٍ وخوف وجنون..

كل المشاعر المتناقضة تداخلت وتأرجحت بها حتى جلست ترتعش حرفيًا وحين طال الصمت بينهما رفعت عينيه إليه وكم تعجبت وهي تراه واقفًا هنا في الغرفة الكبيرة الضخمة..

كانت الغرفة الأكبر من بين غرف البيت، كل جزءٍ فيها يحمل جمال تراثي من نوع خاص.. ما بين الحفر فوق الأحجار العلوية وبين أشغال الأرابيسك المنخفضة بأقواس رائعة..

وخلفه السرير الواسع ذي الأعمدة النحاسية المزينة بزهرة اللوتس في حفرها والستائر الشفافة المحيطة بجوانبه..

أثاث الغرفة لم يكن من عمر البيت، بل كانت كل قطعة حصيلة زمن من الأزمنة التي مرت وتعاقبت عليه..

ابتسمت بخجل وهي تراه يخلع سترته السوداء ليلقي بها بعيدًا وهو ينظر إليها مبتسمًا بخبث ثم اقترب منها فشعرت أن قلبها يقفز من مكانه مما جعلها ترفع أصابعها إلى صدرها

علها تهدئه..

تكلم أخيرًا، قائلًا بصوتٍ أجش

"أخيرًا، سأقوم بما تمنيته منذ فترة طويلة.."

اتسعت عيناها وهي تسأل بتوجس مرتبكة

"ما هو؟!.."

انحنى وأحاط ظهرها وركبتيها بذراعيه لتجد نفسها مرفوعة عن الكرسي فجأة، محمولة إلى صدره وهو ينظر إلى عينيها مبتسمًا وعيناه تنطقان بمشاعر خافت من تفسيرها..

أخذت نفسًا عميقًا ثم همست بإختناق

"أشعر.. أشعر وكأنني أُحلِق في الهواء!!.."

ارتفع حاجباه وهو يسأل بخبث

"مُحلِقة!!.. لا ليس بعد، الآن ستُحلِقين فتشبثي بي جيدًا.."

لم تجد الفرصة لتسأله عما يقصد، فسرعان ما شعرت به يدور حول نفسه بسرعة والعالم يدور بهما معًا

صرخت عالية بصوتٍ عالٍ وهي تتشبث بعنقه مغمضة عينيها ترجوه أن يتوقف إلا أنه كان يضحك بصوتٍ أعلى من صوت صراخها

كانت تطفو فوق غيمة من السعادة والخوف إلى أن ترنح بها متعثرًا وهو يقول ببطء:

"أشعر بالدوار!.."

تراجع للخلف عدة خطوات وهي تصرخ شاهقة برعب، فوقع فوق السرير وهي من فوقه صارخة..

مرت دقائق من الضحك العنيف بينهما حتى استقرت الأرض أخيرًا..

حينها استقام ليجلس ببطء وهي تجلس على ركبتيه ناظرة إلى عينيه بسعادة ثم قالت بمرح مجنون: "أنت أحمق!.."

أخذ نفسًا طويلًا وهو يقول بصوتٍ متحشرج:"وأنتِ جميلة بشكلٍ لا يصدق!.."

تاهت عيناها في نظرة عينيه المشتعلة بينما قفز قلبها إلى حلقها وهو يقترب منها أكثر حتى قبل شفتيها ببطء شديد.. مرة، مرتين، ثلاث، حتى شعرت بأنها على وشكِ السقوط فقبضت على مقدمة قميصه بقبضتيها شاهقة

مما جعله يرفع وجهه متنفسًا بسرعة سائلًا بدهشة: "ماذا؟!.."

همست بجنون وبعينين واسعتين

"ظننتني سأقع!.."

هز رأسه قائلًا بهدوء:

"لا، هذا من فرطِ المشاعر فحسب.."

هزت رأسها قائلة بصوتٍ مختنق "حسنًا، لا بأس.."

رفع حاجبه يتأكد منها سائلًا "واثقة!!.."

أومأت برأسها مرتعشة، فعاد ليضمها بين ذراعيه بقوةٍ وهو يقبلها بجنونٍ هذه المرة وكأن صبره قد نفذ كاملًا..

وانحنى بها وهي بين ذراعيه حتى استلقيا مجددًا، لكن لم يعد للضحك وجود حين بدأت ألحان مشاعرهما في الغناء بتناغمٍ لم تتخيل أن تعيشه مطلقًا

تنهدت وهي تراقب شعاع الشمس يتسلل من بين الستائر السميكة بشرود.. لكنها ابتسمت بسعادة وهي تشعر بأصابعه تخلل خصلات شعرها وصوته يهمس في أذنها عميقًا

"ما سر تلك التنهيدة؟!.."

إلتفتت إليه فرأته ينظر إليها مبتسمًا وهمست بحبور

"صباح الخير يا يوسف صالح عبد العظيم.."

تجهمت ملامحه وهو يقول بغضب "أنتِ مصممة على استفزازي.."

تلاعبت الشقاوة في عينيها وهي تقول "ربما.."

حينها فقط ابتسم مجيبًا بتشدق "كان عليكِ القول منذ البداية.."

صرخت عالية ضاحكة وهو يدور بها يحملها من جانبٍ لآخر وكأنها دمية صغيرة..

حين استقرت على صدره أخيرًا كانت تضحك بنعومةٍ حتى اختفى صوتها وبدت شاردة، فسألها بخفوت

"ما الذي يشغل بالك منذ أن استيقظتِ؟.."

ضحكت ضحكة قصيرة عصبية، ثم قالت بخفوت "لا أريد

القول.."

ارفع وجهها إليه وقال بجدية "بلى ستقولين.."

رفعت يدها إلى عينيها تغطيهما متنهدة وهي تهمس بإختناق

"هذا.. هذا محرج جدًا.. أحتاج التوجه للحمام والتحمم.. أحتاج ليلة.."

ساد الصمت للحظة، ثم شعرت به يمسك بيدها يبعدها عن عينيها مما إضطرها أن تنظر إليه بعجز حينها فقط قال بصوتٍ خفيض أجش

"أنا سأساعدك من الآن فصاعدًا.. بت لكِ أقرب منها في كل شؤونك الخاصة"

*****

ابتسم رغمًا عنه وهو يجلس خلفه مكتبه يراقبها وهي

تحاول ضرب كيس الملاكمة بكفيها العاريين فتفشل كل مرة..

أول مرةٍ أخطأته فمالت للأمام وكادت أن تقع على وجهها، وثاني مرة ضربته بقوةٍ فارتد ضاربًا وجهها

وثالث مرة ضربته بقبضتيها معًا فإنفتحت ذراعيها ووقعت عليه آخذة إياه بالحضن..

ضحك معاذ وهو يحك جبهته.. نادرًا ما تضحكه، لكنها حين تفعل، تكن ممتعة للغاية..

منذ زواج عالية ويوسف وهي تعاني اكتئابًا حادًا.. على أساس أنها لم تكن كئيبة من قبل!!..

صحيح أنها قاتمة دائما كما قال والده، لكن من راقبها عن قرب خلال الفترة الأخيرة يستطيع أن يرى أنها على حافة الإنهيار..

ربما كانت تعاني من اكتئاب انفصالها عن توأمها.. لكن

الأكيد أنها تغار منها!..

نعم هذه حقيقة يراها الجميع، ليلة تغار من أختها عالية.. والله وحده يعلم السبب، فهي السليمة!

وزادت غيرتها بعنفٍ شديد بعد زواجهما وكأنها تستكثر عليها زيجة كهذه!!..

إنها انسانة سيئة.. بداخلها نفس حقودة..

ومع هذا إنها الإنسانة الأكثر قدرة على إثارة التعاطف دون تفسيرٍ محدد..

أو ربما هو وحده من يتعاطف معها، لأن قلبه الأحمق بدأ يميل إليها!..

حقيقة ميله لليلة، حقيقة مفزعة بالنسبة له..

نهض معاذ من مكانه واقترب منها ببطء ثم سألها بهدوء

"هل تريدين ضرب أحدهم؟!.."

رفعت ليلة وجهها المحمر إليه وهي تلهث بتعبٍ ممسكة بكيس الملاكمة ثم همست

"بل تمنيت.."

رفع حاجبيه سائلًا "تمنيتِ، فعل ماضي.. وماذا عن الآن، ألازلتِ تتمنين ضربه؟!.."

لم ترد عليه، بل أطرقت برأسها وهي تستدير عنه قائلة بخفوت

"سأعود إلى عملي.."

نظر حوله قائلًا

"أي عملٍ هذا يا قمراء؟!.. المتجر خالٍ من الزبائن وأنتِ طوال النهار تقومين بترتيب الكرات، ثم تركليها لتعيدين ترتيبها من جديد مقنعة نفسك بأن لديكِ عمل!!.."

نظرت إليه وهمست ببرود

"هل أذهب للبيت تعني أم ماذا؟!!.."

ابتسم بجفاء ثم سألها "بمناسبة البيت، كيف هي حياتك الجديدة من حيث المشاركة في السكن؟.."

هزت كتفيها قائلة بفتور "جيدة.. لا بأس بها.."

رفع حاجبه متسائلًا بتشكك "حقًا!!.."

زفرت ليلة بقوةٍ هاتفة

"لا ليست حقيقة.. الحياة معهن مريعة، إنهن مهملات وغير نظيفات،أشعر وكأنني أعيش في زريبة..كما أن أصوات ضحكهن عالية جدًا تكاد أن تفقدني صوابي.."

رد مبتسمًا بإستفزاز

"وأنتِ طبعًا عدوة الضحك!.."

رمقته بنظرةٍ غاضبة وأوشكت على الإنصراف إلا أنه ناداها بسرعة

"انتظر انتظري.. كنت أمزح فحسب.."

توقفت ناظرةٍ إليه بإستياء، ثم لم تلبث أن قالت على مضض

"أنت لست مخطئًا، لقد أطلقوا علي لقبًا في الخفاء وسمعته بالصدفة.."

اقترب منها خطوة وهو يسألها بهدوء "ما هو؟.."

رمقته تمط شفتيها مجيبة "بومة!.."

ضحك بصوتٍ عالٍ زادها استياءً فقال من بين ضحكاته

"البومة طائر جميل الشكل جدًا وهي بالتأكيد تماثلك جمالًا.."

ارتبكت قليلًا لهذا النوع من الغزل الأحمق.. فقالت متجاهلة

"لكن هذه ليست نظرة الناس لها، فهي مصدر التشاؤم عند الكثيرين.. أتعرف، كان سكان الحي الذي كنا نسكن فيه قديمًا يخافون منا، لأننا نحس.. لهذا تعجبت أن الصفة تلازمني حتى يومنا هذا.."

انعقد حاجبا معاذ بشدة وهو يسأل متفاجئًا

"تتكلمين وكأنكِ تصدقين هذا!!!!.."

هزت كتفيها قائلة

"لا أعرف.. مررنا بعدة أحداث توالت بسرعة جعلت منا نحسًا على الجميع وعلى أنفسنا"

هتف بها مندهشًا

"كيف لإنسانة متعلمة أن تصدق خرافة كهذه!!.."

هزت كتفيها مجددًا صامتة، فراقبها للحظات ثم قال بصوتٍ جاد

"لما لا تحكين لي عن طفولتك؟!.. ما سر هذا التكتم المظلم الذي تحيطين نفسك به؟!.."

أطرقت بوجهها وشعر وكأن عيناها قد غامتا وتاهت بعيدًا.. فتنهد أخيرًا قائلًا

"لا بأس.. تعالي لأدربك على الملاكمة.."

نظرت إليه متفاجئة وهي تقول بتشكك "حقًا.."

أومأ برأسه وهو يبحث لها عن قفازٍ يناسبها.. حتى وجد واحدًا فألبسه لها وهي تسلمه كفيها بسكونٍ تام

أمسك معاذ كيس الملاكمة يثبته، ثم قال بجدية..

"والآن ارفعي قبضتيكِ أمام وجهك.. أعلى.. أعلى قليلًا وكأنكِ تحمين وجهك.. جيد والآن ثبتي قبضتك واضربي

بقوة.."

حاولت ليلة مرة بعد مرة، لكنها كانت تفشل، فضرباتها كانت خاوية وضعيفة..

ثبت معاذ الكيس مجددًا ثم قال بهدوء

"تخيلي أن الكيس هو الشخص الذي كنتِ تتمنين ضربه.. ووجهي له كل ما أردتِ"

نظرت ليلة إلى كيس الملاكمة ولم تر أمامها سوى وجه واحد.. الوجه البغيض الكريه..

رأت الفحش في عينيه وتذكرت صفعاته والفجر في تصرفاته وطلباته..

فبدأت تلكم بقوة.. مرة بعد مرة.. وزادت قوة ضرباتها أكثر وتضاعفت سرعتها..

ثم بدأت تصرخ مع كل لكمة أعلى.. تصرخ وتصرخ

وتصرخ.. تكيل له اللكمات لكنه لا يزال مبتسمًا نفس الإبتسامة الحيوانية..

كانت تبكي بعنف وهي تجلس فوق سطح البيت على الأرض.. رافعة ركبتيها إلى صدرها، دافنة وجهها بينهما..

كانت هذه الدقائق هي الوحيدة التي تختلي فيها إلى نفسها لتبكي قدر استطاعتها..

وحين سمعت صوت خطوات، رفعت وجهها المبلل بسرعة لتجد الفتاة التي تنظف البيت ترمقها بصمت ثم انحنت لتجلس بجوارها تتأمل السماء المعتمة.. وتنهدت قائلة

"كل ما تمرين به الآن، سبق ومررت به من قبلك.. كنت أبكي كبكائك تمامًا لكن في النهاية تعودت وربما يكون حظك أفضل من حظي وينقذك أحد منه.."

وهذا ما حدث..

في سن الخامسة عشر بعد ثلاث سنوات من الزواج

المشؤوم كانت تجلس في بيت الطرقاوي.. أمام عبد الحليم الذي كان يميل إليها ويكلمها بخفوت قائلًا

"لقد دفعت ما تدين به أمك يا ليلة ومزقت الورق.. وبتِ حرة الآن، من الآن فصاعدًا هذا هو بيتك الوحيد، انسي الماضي ولا داعي لأن تحكي لأحدٍ عن تلك الزيجة، اختفى الحي القديم بساكنيه فانسيهم..

حتى حسنات لا تعرف، أخبرناها أنكِ كنت ترعين جدتك قبل وفاتها وعدتِ لأمك وأختك.."

لم تُظهِر له مشاعر قط..

على الرغم من أنه أصر أن تتابع دراستها التي توقفت عنها لكنه صمم فرضخت وبالكاد تخرجت من المعهد..

لكنها ما كانت تظهر له إمتنانًا أو صداقة كما كانت عالية تفعل..

كانا مقربان لبعضهما جدًا.. يقص عليها من التاريخ ويعيرها

الكتب ويقرأ لها رسائل غرامه القديمة..

أما هي فترفض بإصرار مشاركتهما..

لكن يوم توفي جرت إلى غرفتها وارتمت على الأرض لتدفن وجهها بين ركبتيها وتنتحب بعويلٍ مختنق.. وهذا ما لم تفعله حين سبقته أمها!..

"ليلة.. ليلة.. قمراء.."

لم تسمع النداء القوي حتى أمسك بذراعيها يهزها قائلًا

"توقفي.. اهدئي.."

كانت تصرخ وتبكي بصوتٍ مخيفٍ عالي فهزها مجددًا هاتفًا

"اهدئي.. أنتِ بخير.."

صرخت بقوةٍ باكية "لست بخير.. لست بخير.."

جذبها إلى صدره بقوةٍ رغمًا عنها وهو يحتوي ارتعاشها المؤلم يكبل مقاومة رعبها واستمر في القول بخفوت بين خصلات شعرها

"اهدئي.. اي كان ما حدث لكِ فقد انتهى.."

أغمضت عينيها بألم وهي تحاول السيطرة على جنون هذا البكاء الذي انفجر فجأة من العدم..

وبعد فترة طويلة وبعد أن هدأت دفعته عنها ببطء فاضطر أن يتركها وكأنه يقتلع جزء من قلبه..

وقفت أمامه مطرقة الوجه.. فوضوية المظهر بشكلٍ موجع..

فقال مترجيًا بخشونة

"تكلمي يا ليلة.. احكي ما حصل.. ستجدين من يسمعك مصغيًا وأقسم لكِ أنك ستكونين أفضل.."

أغمضت عينيها وهي تقف، ذراعاها ساقطتان بقفازي الملاكمة إلى جانبيها مهزومة..

فهتف مجددًا بقسوة "ما حدث لكِ يا ليلة؟.."

رفعت وجهها ونظرت إليه بعينين حمراوين خاويتين للحظاتٍ قبل أن ترفع قبضتها في لمح البصر لتلكم وجهه!!..

نظر إليها بذهول وهو يحك فكه غير مصدقًا ثم سأل ببطء

"هل لكمتِني للتو؟!!.."

ردت بصوتٍ أجوف

"العم صالح طلب مني أن ألكمك إن ضغطت علي مجددًا لأتكلم.."

تصلبت نظراته واشتدت شفتاه قبل أن يقول بحدة

"أنتِ جلبتِ هذا لنفسك.."

رأته يستدير ليحضر زوج من قفازات الملاكمة، ارتدى منهما واحدًا فقط.. ثم وقف أمامها فسألته بقلق

"ماذا ستفعل؟!.."

ابتسم بشرٍ قائلًا "سأدربك.. والآن ارفعي قبضتيكِ أمام وجهك للدفاع عنه وحاولي صد ضرباتي"

اتسعت عيناها بذعر فرفعت قبضتيها كي تحمي وجهها.. ما أن بدأت اللكمات تنهال عليها من قبضة واحدة..

كانت مرتعبة ترتعش فصرخ فيها بقوة

"هيا اضربي.. أنتِ تملكين قبضتين بينما أنا ألاكمك بواحدة فقط.."

حاولت ضربه لكنها كانت تفشل بيأس فقال هاتفًا

"صدي الضربة بقبضة والكمي بالأخرى.. لا تقفي عاجزة هكذا.."

بدأت تسدد له اللكمات وهو يتلقاها على معصمه ويرد لها الضربات بالقبضة الأخرى..

مع مرور الوقت بدأت تتشجع أكثر وتصبح ضرباتها أكثر ثباتًا.. فابتسمت بينما عيناها لا تزالان في تجهمٍ معتاد.. لكن كان هذا كافيًا بالنسبة له..

وبينما هما يتمرنان، دخل صبي مراهق يراقبهما ذاهلًا.. فتوقفا لاهثين ينظران إليه حتى سأله معاذ

"مرحبًا، بما نستطيع مساعدتك؟.."

رد الصبي قائلًا

"أريد قفازي ملاكمة.."

ضحك معاذ وهو ينظر إلى ليلة المتوهجة ببريق جديد متورد.. ثم أشار إليه قائلًا

"تعال.."

اقترب منه الصبي سائلًا وهو يشير لليلة

"وهل يمكنني التدريب معها؟!.."

توقف معاذ مكانه متفاجئًا رافعًا حاجبيه وهو ينقل عينيه بينهما، ثم قال بصرامة

"هذه.. ليست للتمرين، إنها للعرض فقط.. عودي لعملك.."

*****

"مستعدة؟؟.."

أغمضت عينيها بشدة، ضاغطة على شفتيها بترقبٍ وسعادة وخوف تومىء برأسها..

جالسة على ركبتيه وظهرها ملتصقًا بصدره

كاحلاها مربوطان بكاحليه بإحكام وقدميها فوق قدميه!!..
فأحاط بطنها بذراعه وبالقبضة الأخرى أمسك حاجزًا طويلًا
لينهض بها مرة واحدة!..

شهقت عالية بعينين واسعتين خائفتين وهي تفتح فمها..
تشعر بنفسها واقفة للمرة الأولى منذ سنوات!!

ثم بدأ يمشي بها ببطء شديد وهو يمسك بالحاجز!..

إنها تمشي!!!.. إنها تمشي!!!..

همست بصدمة

"أنا أمشي!!.. أنا أمشي!!.."

ضحك بقوة وسعاد وهو يشدد من احكام ذراعه حول
بطنها وتابع فأخفضت يدها تمسك بكفه تشبك أصابعها
بأصابعه.. ضاحكة وقد انسابت دموع الفرحة على وجهها
هامسة

"أنا أمشي!!.."

مالت بوجهها فانساب شعرها على صدره وهمست باكية

"أرجوك لا تتوقف.."

همس بصوتٍ أجش خفيض في أذنها

"سأمشي معكِ لآخر العمر.."

*****

"إنه خياري"

"إنه خياري.. راهنتُ بقلبي عليه وتمنيت ألا يخذله.. راهنتُ بإحساسي وبالقوةِ أسكتُ صوت العقل

الحبُ حربٌ، تُهدي العدوَ قلبَك خلالِ جولاتها، غير واثق إن كان سيعود إليك سليمًا أم منهزمًا ممزقًا

لست قوية بما يكفي لأتحمل الهزيمة، فعسى أن يكون العدو حليفًا ويصدق إحساسي

عسى ألا يشمت بنا العقل، فشماتة العقل خزي كبير "

" عالية عبد الحي "

*****

وبينما القلم يخط تلك الأحرف رفعت عينيها عبر باب المكتبة وهي تراه يتكلم في الهاتف بصوتٍ خفيض مضطرب وكأنه كاره!..

لم تسمع ما يقول، لكن أذناها التقطتا كلمةً واحدةً فقط

"سأفاتحها.."

انتبهت للياءِ آخر أحرف توقيعها وقد انحرفت ملطخة الورقة ببقعة من الحبر الأسود حين ضل القلم طريقه وشرد بشرودها.. غير الواثق!

*****



الفصل الحادي عشر والأخير

" للحقيقةِ عدة وجوه.. وجهٌ تراه عينُك ووجهُ يراه غيرُك، ووجه ينقِله لك غيرُك، ووجه يراه قلبك "

*****

"لم يكن ينبغي عليكِ فعل هذا دون استشارتي.."

همس يوسف بهذا حانقًا وهو يجلس متشنجًا فمالت إليه عالية هامسة

"أرجوك يا يوسف لن نعيد الجدال من جديد، علينا أن نقلل تلك الفجوة بينك وبين والدك، حتى وإن كنت أنت لا تريد فأنا لن أبدأ حياتي الزوجية بهذا الشكل مطلقًا.."

نظر إليها حانقًا وهو يقول من بين أسنانه:

"إنه حتى لم يدعونا مرة واحدة منذ زواجنا!.."

هتفت عالية همسًا "الواجب أن ندعوه نحن!! وهذا ما فعلته.. توقف عن التذمر كالأطفال!"

في صحن بيت الطرقاوي أعدت عالية كل التجهيزات الممكنة لإستقبال والد زوجها وأخيه وأختها..

صالح عبد العظيم ومعاذ.. وليلة..

ولم تكن لتنجح في التجهيز دون مساعدة يوسف الذي فاجئته بدعوتهم مما أثار جنونه ورفضه،

إلا أنه عاد وتراجع عن فورة غضبه وبدأ يساعدها دون كلام متجهم الوجه..

كانت ليلة تجلس جانبًا وهي تتأمل همسهما بصمتٍ تام، ساكنة الجسد قاتمة الملامح.. فلمحتها عالية وسألت مبتسمة بتوتر

"أراهن أنكِ اشتقتِ للبيت يا ليلة.."

ردت ليلة بفتور:

"ليس تمامًا.. كان دائمًا في نظري كقبوٍ قديم.."

زمت عالية شفتيها وهي تكتم تنهيدة كبيرة، ثم سألتها بحذر:

"هل أنت سعيدة مع الفتيات؟.."

رفعت ليلة ذقنها وقالت"سعيدة جدًا، ربما للمرة الأولى في حياتي.."

شحبت ملامح عالية وانخفض وجهها منكسرة الخاطر بينما كان معاذ يراقب ليلة متجهمًا حتى شعرت بمراقبته فرمقته بطرفِ عينيها

ونظرة واحدة منه إليها أخبرها عن طريقها أنها كاذبة وتعرف بأنها كذلك!

فأشاحت بوجهها عنه بإصرار.. ثم تكلمت بصوتٍ خفيض

مبادرة

"أرى أنكِ تبلين حسنًا، فلم تعودي في حاجةٍ إلي.."

ابتسمت عالية ومدت يدها تمسك بكف يوسف فوق فخذه قائلة بحنان

"البركة في يوسف.. ما كنت لأتخيل أن أنجح أبدًا لولا وجوده في كل خطوةٍ معي.."

تحرك ابهامه فوق كفها ببطء فنظرت إليه مبتسمة، في حين كانت ليلة تراقبهما ومعاذ يراقبها!..

أما صالح فكان يراقب الجميع متراجعًا في مقعده مكتفًا ذراعيه بملامح جامدة لا تحمل أي تعبير

فتكلمت عالية قائلة

"أنرت بيت الطرقاوي يا دكتور صالح.."

أجابها بهدوء وبصوته الرخيم الهادىء

"البيت مُنارٌ بأصحابه يا عالية.."

ثم نظر إلى يوسف نظرة طويلة جعلته يتلوى في مكانه متشنجًا لكن عالية شددت على كفه بقوةٍ كي يهدأ

ثم قالت بسعادة

"ليكن بمعلومكم أنكم ستقضون السهرة هنا.."

ردت ليلة بفتور

"لن أستطيع التأخير، فأنا سأعود وحدي.."

رد عليها معاذ قائلًا بصوتٍ قاطع

"أنا سأقلك يا قمراء.."

عقدت عالية حاجبيها وهي تنظر إليه بقلق يتزايد مع الأيام

مشككة في نواياه تجاه ليلة، لكنها قالت بعفوية

"أنتِ لن تغادري الليلة.. بل ستبيتين هنا"

ارتفع وجه ليلة وصوتها وهي تقول بقوة أزيد من اللازم

"لا.."

ازداد انعقاد حاجبا عالية وهي تسألها بتوتر وحرج من صيحتها الرافضة

"لما لا يا ليلة؟!.. أليس هذا هو بيتك؟!.."

ردت ليلة بقسوة دون أن ترمش بعينيها

"هذا بيتك أنتِ وبه رجل غريب يسكنه الآن.."

توتر الجو فجأة واضطرب يوسف بينما ابتسم صالح وهو يراقبه.. لكن عالية هي من ردت بحدة

"يوسف ليس رجل غريب، يوسف زوجي وعليكِ أن تعتادي هذا.."

"ستعتادين هذا.. "

أفظع عبارة يمكن أن تسمعها، لذا شعرت بأنها ستتهور لكنها لم تستطع السيطرة على نفسها وهي تصرخ

"لم أعد مجبرة على اعتياد أي شيء.."

تراجعت عالية للخلف بملامح ممتقعة ويوسف يقبض على كفها بقوة

وزاد الجو صدمة، بينما مكثت ليلة مكانها تلهث ثم تراجعت وتخفض وجهها شاعرة بالرغبة في الهرب..

تكلم صالح قائلًا بهدوء

"ما سبب تسميتكِ ليلة يا ليلة؟.."

نظرت إليه مجفلة.. كانت ترتعش بسبب انفجارتها المفاجئة، لكنها قالت بصوتٍ خفيض بعد لحظات

"كان.. كان أبي.. يحب أمي وكان يغني معها أغنية قبل أن تشتد بنا الحياة بمصاعبها.."

صمتت قليلًا وهي تخفض وجهها فتابعت عالية بصوتٍ هامس حنون وقد لمعت عيناها بالدموع رغم ابتسامتها

"أغنية " في يوم وليلة ".. أنا أتذكر حين كان يغنيها معنا أنا وأنتِ بعد أن توقفت أمي عن الغناء، لكنه لم يتوقف..

كان يغني أغنيتين واحدة لي وأخرى لكِ.. أغنية " في يوم وليلة " كانت لكِ.. وكان يقول أنه حين كان يغنيها لأمي كان يعدها بأن أول بنت لهما سيسميها ليلة"

ابتسمت ليلة رغم عنها ودمعت عيناها كعيني عالية لكنها أبقت وجهها منخفضًا صامتة..

اقتربت منها عالية بكرسيها وأمسكت بكفها قائلة

"لنغنيها سويًا يا ليلة.. أرجوكِ"

ضحكت ليلة ضحكة ساخرة وهي تقول بخفوت

"نغني!.."

شددت عالية على كفها بترجي

"أكثر ما أريده الآن هو أن نغنيها سويًا.. مرة واحدة فقط"

أشاحت ليلة بوجهها متنهدة لكن عالية كانت قد بدأت بالفعل تغني همسًا خفيضًا

" في يوم وليلة.. يوم وليلة.. خدنا حلاوة الحب كله في يوم وليلة

أنا وحبيبي.. دوبنا عمر الحب كله في يوم وليلة "

ابتسمت ليلة وكذلك ابتسمت عالية وهي تتشبث بذراعها متابعة بحنان تميل معها

" عمري ما شفته، ولا قابلته.. ويا ما شغلني طيفه "

رفعت ليلة عينيها إلى عيني معاذ الذي كان يراقبهما مبتسمًا فجلت وهي تدندن بخفوت بنفس صوت عالية

" وفي يوم لقيته.. لقيته هو.. هو اللي كنت بتمنى أشوفه

نسيت الدنيا وجريت عليه.. سبقني هو وفتح إيديه "

تعمقت النظرة في عينيه وهو يبتسم ابتسامة حقيقية نادرة لم يعثر عليها سوى مؤخرًا..

كانت الإثنتان في جمال القمر الذي انقسم نصفين.. نفس الصوت ونفس النبرة وكأنهما لسان واحد..

وكان النظر إليهما بهجة والسماع لهما متعة..

ابتسم صالح ابتسامة عميقة مستندًا بوجنته إلى كفه يرمقهما بهدوءٍ مستمتعًا..

توقفتا معًا في نفس اللحظة فأطرقت ليلة بوجهها بينما استندت عالية برأسها لجبهتها وتنهدت هامسة

"اشتقت لكِ.."

لم ترد ليلة بل بقت صامتة بحزن.. فقال صالح بخفوت

"لقد ظُلِمتِ.."

نظرت ليلة إليه ومن بين دموعها أومأت ببطء وتهمس

"نعم لقد ظُلِمت.. لقد ظُلِمت.."

ابتعدت عالية عنها وهي تمسح دموعها مشيحة بوجهها للجانب الآخر صامتة في حين قال صالح

"عليكِ أن تتعلمي الغفران يا ليلة.."

ارتفع حاجباها وهي تهمس بصوتٍ مختنق

"الغفران؟!.. لمن؟.."

رد عليها قائلًا بهدوء وهو يميل للأمام

"لنفسك أولًا.. اغفري لنفسك عجزها وقلة حيلتها يوم تعرضكِ للظلم، لا تكرهيها فهي لا تستحق.."

مسحت وجنتها المبللة وتحرك حلقها بصعوبةٍ وهي تهمس

"وماذا عمن ظلمني؟.. كيف أغفر لنفسي وأنا أراه أمامي كل لحظةٍ من حياتي، حتى حين قررت ورحلت.. أظل أراه كلما نظرت في المرآة!!.. أليست هذه لسخرية مريرة!!.."

شهقت عالية باكيةٍ وهي تنظر إليها هاتفة تضع يدها على صدرها المتألم

"أنتِ تتكلمين عني!!.. أنتِ تتكلمين عني أنا أليس كذلك؟.."

ردت ليلة بقسوة هاتفة

"نعم أتكلم عنكِ.."

صرخت عالية بأسى منتحبة

"ما ذنبي؟.. ما ذنبي أخبريني؟.."

صرخت فيها ليلة وقد بدأت دموعها تنساب على وجنتيها

"ذنبك أنكِ تزوجتِ.. لم يكن عليكِ أن تتزوجي رجلًا رائعًا.. لم يكن عليكِ أن تتابعي حياتك هكذا بكل بساطة! وكذلك أمي.. لم يكن عليها أن تتزوج من رجل كعبد الحليم هذا ليس عدلًا.."

تكلم يوسف مشدوهًا

"ما كل هذا القدر من الحقد والشر بداخلك ولماذا؟!!!.."

وضعت ليلة يدها على صدرها وهي تهتف ضاحكة رغم بكائها

"حقد وشر!!!.. بالطبع أنا الأخت الحقودة التي تغار من أختها، هذا منطقي جدًا.."

صرخت عالية بعذاب

"أنتِ من أجبرتِني منذ البداية.. لم أفكر في الزواج مطلقًا فلماذا تلومينني الآن!!.."

قفزت ليلة من مكانها واقفة وهي تلوح بكفيها هاتفة ببكاء كالأطفال

"لأنني كنت أريد سماع شيء واحد منكِ.. أنا لن أتزوج مطلقًا يا ليلة، كما كان ينبغي على أمك قول نفس الشيء.. هل يمكنك تخيل ما شعرت به حين أخبرتني عن زواجها وانتقالها لتتركني هناك وحدي.. بينما تابعت هي حياتها آمنة مستقرة!!.."

هتفت عالية بقسوة

"أمي تزوجت من أنقذك.. كوني منصفة"

ارتفع حاجبا ليلة وهي تهمس

"تطلبين الإنصاف مني أنا؟!.. حقًا.."

صرخت عالية قائلة ببكاءٍ عنيف

"ليتني أستطيع أن أعطيكِ جزء من جسدي لكن فعلت.. أقسم بالله لكنت فعلت، لكنك أنتِ السليمة وكنت أنا العليلة.."

مالت ليلة إليها حتى تساقط شعرها من حولها بهمجيةٍ وهي تصرخ بجنون لدرجة جعلت أوردتها تبرز بشدة

"أنا لم أعطيكِ جزء من جسدي.. لقد أعطيتك جسدي كله.."

استقامت واقفة تلهث بينما غطت عالية وجهها بيديها تنتحب بصوتٍ عالٍ.. بينما نظرت ليلة لجميع هاتفة: "أنا من دفعت ثمن علاجها.. لكن ليس عن طيب خاطر، بل كنت مجبرة.. لقد أجبروني على الدفع.. دفعت ليالٍ طويلة أما هما

فتابعتا حياتهما بسلام، تاركين البهيمة التي قيدوها وباعوها تدفع الثمن.."

نهض معاذ من مكانه ليمسك بكفها برفقٍ هامسًا

"ليلة توقفي.. مهما كان ما حدث في الماضي فإن.."

نظرت إلى عينيه بعينين واسعتين حمراوين وهي تهتف

"مهما كان ما حدث في الماضي؟!.. هل أنت واثق أن هذا سيكون رأيك حتى بعد أن تعرف ما حدث في الماضي!!.."

صرخت عالية من خلفها بأنين متوجع: "لا أرجوكِ يا ليلة توقفي.."

ابتسمت ليلة رغم احتقان عينيها فرفعت عالية كفيها تغطي بهما أذنيها لا تريد السماع.. فأعادت ليلة عينيها إلى معاذ وقالت ببطء

"لقد زوجوني لمن سيتكفل بجراحة التبرع والعلاج.."

بهتت ملامح معاذ وهو يعقد حاجبيه مرددًا بصدمة

"كنتِ متزوجة؟!.. كيف ومتى؟!.."

مالت بوجهها مرة وهي تردد بصوتٍ ذو صدى مؤلم: "في الثانية عشرة.."

تراجع معاذ للخلف خطوتين وهو يترك يدها تسقط لجانبها فاغرًا فمه..بينما نهض صالح من مكانه مرددًا بصدمة لأول مرة تفقد فيها ملامحه رزانتها

"يا الله!! أي ظلمٍ هذا!!.."

مالت عالية للأمام فوق وهي تبكي بنحيبٍ عالي حتى أن يوسف جذبها إلى صدره بقوة كي تتوقف عن البكاء...

أما ليلة فهمست لمعاذ: "رجل في الثانية والأربعين!.. وليته كان حنونًا لكنت اعتبرته والدًا، لقد ذقت معه مرارًا يكفي عمرين فوق عمري.. ثلاث سنوات مرت وكأنها الجحيم.."

رفع معاذ يدًا مرتجفة يريحها فوق وجنتها برفق، فأغمضت عينيها فوق المتبقي من دموعها..

لكنها سرعان ما انتفضت متراجعة للخلف وهي تنظر للأعين المصدومة ثم أخذت نفسًا عميقا وهي تفتح ذراعيها قليلًا ثم أسقطتهما قائلة بخفوت

"أنا.. أنا ارتحت للكلام.. أنا ارتحت لنظرات الصدمة في أعينكم.. على الأقل لم أعد نفس الحقودة"

استدارت لتغادر، لكن صالح ناداها فتوقفت.. اقترب منها قائلًا بخفوت

"إياكِ والخروج يا ليلة.. ابقي هنا مع أختك حتى وإن بقيتِ في غرفةٍ وحدك، حتى وإن بتما في خصام.. لكن لا تلجأي للأغراب الليلة على الأقل.."

عضت شفتها بألم مغمضة عينيها.. فقال صالح متابعًا وهو يربت على كتفها

"اصعدي إلى غرفتك، هيا.."

لكن وقبل أن تتحرك اندفع معاذ من خلفها مكفهر الملامح بخطواتٍ سريعة ليغادر البيت..

وانتفضت على صوت صفق الباب بقوة.. عقد صالح حاجبيه من تصرف ابنه الغريب، أما ليلة فنظرت في إثره مدركة بأن الليلة لم تعد قمراء ولن تكون حتى وإن مر عليها ألف شهر

*****

"كان علي أن أعتذر.. ربما كان علي أن أعتذر كل ليلة من ليالي السنوات الماضية، لقد اتخذنا القرار بألا نتكلم في الأمر مطلقًا بعد عودتها وكن نظن أن هذا هو الأفضل، أن ندفن الماضي.. لم نكن نعلم أننا كنا ندفن قنبلة موقوتة"

همست بصوتٍ مرتجف خافت والدموع تغرق عينيها، مستلقية في السرير الضخم، وأصابعه تتخلل خصلات شعرها بنعومةٍ وهو يقول بصوتٍ أجش خافت

"لم يكن ذنبك.."

أغمضت عينيها هامسة بنحيبٍ خافت

"بلى هو ذنبي.. إن لم يكن ذنبي فذنب من يكون!.."

همس وهو يداعب عنقها بإصبعه

"ذنب الظروف التي أجبرت أمك على اللجوء لأبشع الحلول.."

بكت عالية بأنين فضمها إلى صدره يقبل دموعها، لكنها همست بألم

"لا.. إنها وحيدة في غرفتك وأنا أحظى بذراعيك!.. كم هي محقة!.."

أمسك بذقنها يرفع وجهها إليه قائلًا بصوتٍ خافت

"ليست محقة، بل لم تنطق شيئًا من الحق.. إنها متألمة

وهذا حقها لذا فإن دفاعها دفاع شخص يحتضر”

أغمضت عالية عينيه وهي تتشبث به هامسة

“شكرًا لله على نعمة وجودك.. لا أدري كيف كنت سأقضي ليلة كهذه لو لم تكن موجودًا، حتى وإن لم أتزوج.. كانت لتفجر يومًا”

طبع يوسف شفتيه على جبهتها بقوةٍ وهو ينظر للبعيد بنظراتِ خوف..

الآن فقط يعرف المعنى الحقيقي " لوجود ما قد يخسره "

*****

فتحت باب المتجر ودخلت بخطواتٍ متعثرة بطيئة.. وما أن فعلت حتى رفع رأسه من فوق ذراعيه عن سطح المكتب ناظرًا إليها متجهمًا متفاجئًا..

توقفت ليلة مكانها وهي تبادله النظر.. وجهها شاحب

بطريقة مخيفة وعيناها بلون الدم وشعرها يبدو وكأن المشط لم يتخلله منذ ليلة أمس..

تكلم معاذ قائلًا بصوتٍ أجوف

"قمراء.."

بدا وكأنه يكلم نفسه، بدا وكأنه لم يذق النوم منذ ليلة أمس.. كان بنفس الملابس! هل بات ليلته هنا؟!

تقدمت خطوة وقالت بخفوت

"هل يسمح لي بمتابعة عملي أم أنصرف؟.. أقدر موقفك إن أدرت صرفي بعد ما سمعت ليلة أمس.."

نهض من مكانه ليدور حول سطح المكتب ثم قال بخفوت وهو لا يحيد بعينيه عن عينيها

"لأنني عرفت أنكِ كنتِ متزوجة وأنتِ طفلة؟!.. سبق وقبلتِ العمل لدي ورغم معرفتك بأنني سجين سابق عن

جريمة قتل.. فهل يعقل أن أصرفك من العمل الآن!!.."

ردت بتردد "غادرت ليلة أمس دون كلام.. وكأنك كنت.. مشمئزًا.."

أغمض عينيه للحظة شاعرًا بقبضة باردة تعتصر صدره وهو يقول بجفاء

"مشمئز منكِ؟!!.. أنتِ لا تعلمين شيئًا عما تقولين.."

أسبلت جفنيها وهي تقول بخفوت

"شكرًا لك.."

استدارت لتتركه لكنها ناداها قائلًا

"ليلة.. كيف كان؟.."

عقدت حاجبيها وهي تسأل

"من هو؟!.."

أجابها قائلًا بصوتٍ خشن متحشرج

"كيف كان الزواج في مثل هذا العمر؟.."

تنهدت قائلة دون أن تستدير إليه

"كالجحيم.. لا أظنني سأشفى مطلقًا.."

حاولت أن تبتعد، إلا أنه أسرع يمسك بذراعها من الخلف.. واقفًا لا يرى ملامحها، لكنه همس

"لقد فعل بكِ شيء أسوأ.. أسوأ مما قد يتخيله أحد، أليس كذلك؟.."

ردت بصوتٍ متقطع دون أن تستدير إليه "نعم.."

اقترب أكثر وشدد أصابعه على ذراعها سائلًا

"ماذا فعل؟.."

ردت بسرعة تحاول الهرب

"لا أستطيع.."

منعها من الحركة ممسكًا بذراعها الآخر حتى باتت مكبلة أمامه وظهرها له، فترجاها بصوتٍ أجش

"حاولي.."

هزت رأسها نفيًا هامسة بتعب

"أنت لا تفهم.. هناك أشياء لا تقال، لا يمكنني النطق بها.."

رد عليها يهزها قليلًا وتحول صوته إلى توسلٍ رغم قسوته

"بلى أفهم، لكن أرجوكِ قولي.. يجب أن أعرف.. ليلة لن أتركك إلا بعد أن تقولي ماذا فعل أكثر.."

أسقطت وجهها للأمام هامسة بصوتٍ شديدِ الخفوت مما اضطره لأن يميل برأسه كي يتمكن من سماعها..

"كان يجمع بيني وبين زوجته في آن واحد.."

لم تحتاج لأن تفسر المعنى أكثر فقد كان واضحًا.. مما جعله يترك ذراعها ببطء بعد أن شدد عليها للحظة، ظلت واقفة مكانها لا تتحرك ثم همست أخيرًا بصوتٍ مرتجف

"ما كان عليك أن تسمع.. أفهم تقززك.."

أجابها بصوتٍ غريب يرتعش قسوة وغضبًا

"بلى، كان علي أن أسمع.. ولا.. أنت لا تفهمين.. عودي إلى عملك"

*****

"دكتور صالح.. كرم بالغ منك أن تأتي للإطمئنان على ليلة، لكنها أصرت على الذهاب للعمل بكل غباء، عامة أنا كنت في

حاجةٍ للكلام معك بمفردنا.."

جلس صالح أمامها وهو يقول بقلق:

"تكلمي يا عالية.. ما الذي تريدين قوله؟.."

رفعت عالية كفها إلى جبهتها ناظرة بشرود ثم قالت:

"أعتذر لك عن جنون ليلة أمس.. أعتذر أن نُضطر لفضح أنفسنا وماضينا على هذا النحو أمامك أنت بالذات.. أدرك كيف نبدو أمامك الآن كأسرة مشوهة مريضة.."

قاطعها صالح قائلًا بهدوء:

"هل هذا حقًا ما تريدين قوله يا عالية؟!.. الاعتذار لي أنا؟!.. علام تعتذرين يا ابنتي في حين أنكِ وأختك تستحقان كل الدعم ممن حولكما.."

رفعت عينيها إلى عينيه وهمست بخوف

"هذا الكلام يشجعني على مفاتحتك بأمرٍ يقلقني منذ فترة.. ليلة، أظنها تكن بعض المشاعر لمعاذ ابنك.. إنها تتغير وحتى انهيارها بالأمس كان وكأنها تريد أن تلقي عن كاهلها عبء هذا السر الذي تحمله أمامه..

و.. أرجوك اعذرني لما سأقول.. معاذ لا يؤتمن مطلقًا، أنا لا أريد أن أحكم عليه لكنه غامض وأخشى أن يؤذيها.. وحتى الآن يرفض أن يذكر سبب سجنه ومن قتل ولماذا.. واحترامًا لخصوصيته لم نسأل.. لكن عليه أن يبتعد عن ليلة، لا أن يقربها منه إلى هذا الحد!.."

ساد صمت مرتبك بينهما ثم قال صالح أخيرًا

"معاذ ليس هو من عليكِ القلق منه يا عالية.."

اضطربت ملامحها وهي تدرك ما يقصد فأشاحت بوجهها إلا أنه تابع قائلًا

"معاذ انسان مستقيم غير ملتوي حتى وإن بدا منه غير ذلك.. لكن لأريحك فإنه وبسبب استقامته في عمله تم تزوير

توقيعه على رسومٍ هندسية غيرمطابقة للمواصفات تخص برج ضخم.. وقدمت له رسومًا أخرى مطابقة هي ما وقع عليها فعلًا.. وفي أثناء بناءه بالمواصفات المخالفة الحقيقية انهار متسببًا في مقتل اثنين من عمال البناء..

و السبب في هذا كان الرجل الذي أوقعه بتلك المكيدة.. موظف سجلات فاسد، إتُهِم معاذ بقتله فيما بعد.. لكنه لم يفعل.."

تنهد صالح تنهيدة مثقلة بينما عالية تستمع إليه بحزنٍ وأسى.. ثم تابع قائلًا وكأنه يكلم نفسه

"لا زلت أحفظ اسمه حتى الآن فقد كان نكبة على حياة ابني.. مسعد عبد التواب جزاه الله بما يستحق"

رفعت عالية وجهها الشاحب وبعينين واسعتين همست

"من قلت؟!!!.."

*****

فتح باب المتجر ودخلت منه شابة ترتدي عباءة سوداء تنظر يمينا ويسارًا حتى رأت ليلة واقفة في أحد الزوايا فاقتربت منها مسرعة تهتف

"ليلة.."

استدارت ببطء على الصوت المألوف وما أن رأتها حتى تراجعت للخلف بعينين واسعتين وهي تهمس بعدم تصديق

"زبيدة!!.. كيف.. كيف عرفتِ مكان عملي؟.."

مرت سنواتٍ طويلة منذ رأتها آخر مرة.. وقد تغيرت بالفعل، فهي الآن تجاوزت الثلاثين من عمرها وبانت آثار الأسى على ملامحها..

تكلمت زبيدة بعصبيةٍ قائلة

"ذهبت إلى بيتكم فلازلت أحفظ عنوانه.. سألت عنكِ فأخبرتني أختك بمكان عملك.."

رمشت ليلة بعينيها وهي تهز رأسها محاولةً الإستفاقة من هذا الكابوس ثم هتفت همسًا وهي تنظر إلى الغرفة الملحقة بالمتجر حيث كان معاذ مختفيًا داخلها منذ فترة

"ما الذي ذهب بكِ للبيت؟.. اتفقنا أن نقطع كل علاقةٍ لنا ببعضنا تمامًا.."

ردت زبيدة بحدة

"لولا الشدة ما ذهبت.. هناك من يبحث عنكِ بإصرار وأنا لا أعرف كيف عرِف بوجودك من الأساس! جائني عدة مرات يسأل عن فتاة بمواصفاتك بإلحاح وآخر مرة رفع هاتفه في وجهي وكان يحمل صورتك.. يسألني عن علاقتي بكِ!!.. ولولا هجوم الناس عليه لما تركني أبدًا.."

همست ليلة تحاول اللحاق بها في هذا الكم المفزع من المعلومات

"من هو؟؟.."

خرج معاذ من الغرفة في تلك اللحظة وما أن رآهما حتى تسمر مكانه وهو يقول ببطء

"زبيدة!.."

استدارت زبيدة بهلع إلى مصدر الصوت وشهقت هامسة

"الباشمهندس!!!.."

نقلت ليلة عينيها الواسعتين بين زبيدة المرتسم على وجهها أشد أنواع الفزع.. وبين معاذ الواقف ينظر إليها بجفاء.. ثم همست بخوف

"هل تعرفان بعضكما؟!.."

ظل معاذ صامتًا وهو ينظر لزبيدة بطريقة أرعبتها فضربت على صدرها بكفها قبل أن تستدير وتجري بكل قوتها خارجة من المتجر..

حينها التفتت ليلة إلى معاذ بملامح شاحبة خائفة وهي

تسأل

"من أين لك بمعرفة زبيدة!!!.."

لم يرد عليها معاذ، لكن رنين هاتفها منعها من تكرار السؤال فأخرجته من جيب حقيبتها وردت بصوتٍ خافت عصبي

"ماذا تريدين الآن يا عالية؟.."

ردت عليها عالية بقوة هاتفة

"معاذ يا عالية.. إنه المتهم في قتل طليقك مسعد عبد التواب.."

انخفضت كف ليلة بالهاتف ببطء وهي تنظر إلى معاذ فاغرة فمها.. فسقط الهاتف متفككًا لعدة أجزاء..

لكنها لم تشعر به..لم تشعر سوى بعيني معاذ المتجهمتين

...

نزلت السلالم جريًا وهي تتلفت يمينًا ويسارًا ثم فتحت الباب لترى زبيدة واقفة تستند بكتفها للجدار تتلاعب بعقدٍ طويل يتدلى من عنقها وهي تنظر إلى ليلة تمضغ علكة في فمها..

ثم قالت بميوعة معتادة منها

"لقد ازداد طولك.."

خرجت ليلة من باب بيت الطرقاوي وأغلقت الباب خلفها ثم استدارت لزبيدة تقول بقلق:

"ماذا تريدين يا زبيدة؟.."

ردت عليها زبيدة بنبرةٍ ممطوطة

"اتفقنا أن تطمئن كلًا منا على الأخرى!!!.."

كتمت ليلة أنفاسها ثم قالت بخفوت

"أنا أريد قطع علاقتي بأي شخصٍ له أي صلةٍ بمسعد عبد التواب.. مضت سنة على طلاقي ولازلت أعاني.."

أخذت تمضغ العلكة بميوعة أكبر ثم ردت ببرود

"شكرًا يا بنت الأصول، أظنك نسيتِ الليالي التي كنت أصعد لأواسيكِ خلالها فوق السطح وأنتِ تبكين!.. لكن عامة ما أتيت إلى هنا كي أعاتبك على الجفاء ونكران الجميل.. أتيت أسألك إن كنتِ تودين تنفيذ انتقامنا القديم.."

تسمرت ليلة مكانها وهي تنظرإليها بملامح شاحبة وعينين زائغتين فإبتسمت زبيدة سائلة

"إحراق البيت لما كان يحدث فيه.."

لعقت ليلة شفتيها الجافتين، ثم همست بضعف

"كان هذا منذ عام، الآن أنا تطلقت.. لما أزج بنفسي في المشاكل؟!.."

اقتربت منها زبيدة وهمست بصوتٍ خفيض

"لن يعرف أحد.."

رفعت ليلة يدها إلى جانب عنقها وقالت بتوتر

"لما لا تقومين أنتِ بالأمر وحدك؟.."

ردت عليها زبيدة همسًا

"إن قمت به وحدي سيتم القبض علي مباشرة فلا يوجد أحد غيري ليكون محل شبهة.. أما أنتِ فقد حصلتِ على الطلاق منذ سنة وابتعدت عن البيت والحي بأكمله.. يمكنك احراق البيت في الخفاء بينما أظهر أنا أمام أحدهم كي لا أُتَهَم.. سأنتظر ليلة يكون فيها مسعد وزوجته في الخارج، سأتصل بكِ لتأتين وتنفذين المهمة ثم تغادري بسرعة.. وأنا من قبلها سأكون قد أخذت ذهب الحقيرة، ولن يظهر بعد الحريق ما اختفى منه.. سنتقاسمه سويًا، ثمنًا لما لاقيناه بين جدران هذا البيت النجس، فكري جيدًا في الأمر"

*****

"خذي اشربي.."

جالسة على الكرسي ترتعش بشدة، حتى أن كوب الماء بين يديها بدأ في الإهتزاز بقوة ليوقع ما فيه.. مما جعل معاذ يحيط بكفيها ويرفعه إلى فمها حتى ارتشفت منه ببطء ثم انتزعه منها ووضعه على سطح المكتب..

كانت تعيش كابوسًا أسود مريعًا!!..

لا وصف آخر لما تعيشه!!.. نظرت إليه باكية بصمت.. بينما كان يستند إلى حافة سطح المكتب بادلها النظر بلا تعبير.. فهمست بصوتٍ مختنق

"أنا لا أفهم.. كيف لم أرك من قبل؟!!.."

رد عليها بصوتٍ أجش مقتضب

"بعد ليلة طويلة من حساب التواريخ وبناءً على المعلومات

التي تكرمتِ بها.. عرفت أنني استأجرت الشقة العلوية في بيت مسعد عبد التواب بعد طلاقك منه.. وحتى ليلة أمس كنت أعرف أنك لسببٍ ما أحرقتِ البيت لكنني لم أعرف أنكِ كنتِ.. زوجته.."

نطق الكلمة بإزدراءٍ عنيف جعل جسدها ينفر ويقشعر.. أخفضت وجهها وهي تبكي هامسة

"كيف عرفت أنني أنا من أحرقت البيت؟!!.."

ساد صمت مضطرب، ثم قال أخيرًا بخفوت: "لأنني رأيتك.."

*****

"ليلة حريق"

أفرج عنه بكفالةٍ على ذمة قضية انهيار العقار الذي وقع بنفسه على رخصة بنائه بناءً على رسومٍ هندسية مطابقة للمواصفات.. لكن تبين أن توقيعه تم تزويره على رسومٍ

أخرى وحتى يتم إثبات التزوير تم الإفراج عنه مؤقتًا..

أول ما فعله هو توجهه لبيت مسعد عبد التواب.. كان ينتفض بقوةٍ كالمجنون يريد أن يزهق روحه وبالفعل ما أن رآه حتى أمسك بملابسه وجره للشارع وانهال عليه ضربًا أمام الجميع.. وأمام الجميع أيضًا توعده بالقتل لولا أن منعه الناس عن الفتك به..

لم يكن الخوف من السجن هو ما أوصله إلى هذه الحالة، بل التفكير طوال فترة الإحتجاز في العاملين اللذين راحا نتيجة الجشع والفساد.. وأطفالهما اللذين يُتِموا ظلمًا..

أمسك به الناس وهو يلهث بينما أبعد آخرين مسعد عن طريقه وأصعدوه لشقته..

بقى معاذ واقفًا مكانه طويلًا حتى خيم الليل ومسعد في بيته يخشى أن يخرج منه.. حينها قرر الصعود فحاول البعض منه إلا أنه صرخ غاضبًا

"ابتعدوا، سأصعد لأحضر أغراضي من شقته اللعينة.."

ثم اقترب من البيت.. لكن وبينما هو يدخل من مدخله اصطدم بفتاة مراهقة كانت تلقي بوعاء بنزين تحت السلم قبل أن ترتطم به وهي تحاول الخروج..

رفعت وجهها إليه بعينين مذعورتين شاهقة.. ثم تجاوزته وانطلقت تجري!!.. صعد معاذ ببطء غير مطمئنًا.. لكن مجرد بضعة سلالم استطاع أن يشتم رائحة الحريق!!..

مال برأسه ينظر لأعلى فرأى ألسنة من اللهب بدأت تعلو بسرعة.. فصعد درجة ينوي الجري ليبحث عنه..

لكنه تراجع فجأة..

عادت إليه ذكرى أطفال العاملين والأرملتين وهم يدعون عليه بخرابِ البيوت..

لم يكن ليستطع الوصول إليه على أية حال.. لكن فكرة تراجعه أخبرته بوضوحٍ أنه كان راضيًا عن عدالة السماء.. وليت جميع الفاسدين يلقون نفس الجزاء العاجل.. لكن للأسف مسعد عبد التواب لم يكن سوى فاسد ضئيل لا يذكر

في شبكة ضخمة

*****

"كيف عثرت علي؟!.."

رفع عينيه إلى عينيها الحمراوين ثم أجاب مبتسمًا بسخرية

"لم أفعل.. بل رأيت حلقة من حلقات عالية، وظننتها أنتِ.."

اتسعت عيناها بصدمةٍ ذاهلة

فاستقام عن حافة المكتب يبتعد موليا ظهره ثم تابع قائلًا:

"حين رأيتها شعرت ببعض الدوار وكأن العالم قد عاد بي للخلف عشر سنواتٍ وأكثر.. نفس الملامح والعينين.. فبقيت ألح عليها في التواصل لأفهم.. لأعرف.. وكانت صدمتي حين عرفت بإعاقتها! لا أعلم كيف! وكنت متأكدًا بأنها هي من رأيت.. لكنني ظللت أقنع نفسي بأن ملامح الفتاة التي

أحرقت بيت مسعد تشبه ملامح عالية فحسب.."

صمت قليلًا ثم استدار إليها قائلًا ببطء:

"حتى دخلتِ من هذا الباب.. حينها استقام كل شيء."

أغمضت عينيها بشدة وهي تهمس بشيء ما باكية.. راقبها معاذ طويلًا وهي تبكي ثم هتفت بإختناق

"لم أعرف أنه كان في البيت.. أقسم لك لم أعرف، لقد أتيت بناءً على موعد حددته زبيدة وكانت قد تركت لي وعاء بنزينٍ ضخم.. دخلت لمدة عشر دقائق فقط لأغرق كل الطوابق والشقة العليا به ثم أشعلته ونزلت جريًا.. أتذكر أنني اصطدمت بأحدهم وارتعبت أن يفتضح أمري.. لكنني لم أتعرف عليك، شكلك تغير تمامًا.."

صمتت للحظة وهي تلتقط أنفاسها المتقطعة ثم تابعت بصعوبة

"حين سمعت بأن مسعد مات محترقًا أصابني الهلع.. كنت

كالمجنونة، لا أعرف كيف حدث هذا، لم أحضر المحاكمة قط، بل اختبأت بكل جبن.. لكن وصلتني أخبار الحكم من زبيدة.. جائتني مرة واحدة تخبرني أن هناك من تشاجر معه أثناء الحريق وألقى به وسط النيران..أخبرتني أنه اعترف أيضًا فظننته سوء عمل مسعد الذي جره لهذا.."

رفعت عينيها إليه وهمست بعذاب

"لكن لماذا لم تخبرهم عني؟.."

ابتسم دون مرح ثم قال ساخرًا

"يؤسفني أن أبدد تخيلك العاطفي.. لقد أخبرتهم عنكِ.. فتاة جميلة خرجت جريًا من بين النيران.. يمكنك تخيل النتيجة بالطبع، لم يصدقن أحد.."

رفعت كفيها تغطي بهما وجهها وهي تنفجر في بكاءٍ حاد.. بينما نظر إليها معاذ بأسى طويلًا..

وفجأة قفزت من مكانها هاتفة

"أنا سأبلغ عن نفسي.."

لكنه انقض عليها بسرعةٍ يمسك بها ليقول بصرامة

"هل أنتِ غبية!!.. بعد أكثر من عشرة أعوام! كلام لا قيمة له سوى فضح نفسك.. لن يعيد الزمن للوراء ويعيد العشر سنوات لعمري.."

هزت رأسها منتحبة بقوة وهي تهتف: "لا أستطيع.. لا أستطيع.."

هزها بعنفٍ حتى اهتز شعرها وهو يهدر من بين أسنانه

"بل ستفعلين ما آمرك به وستنسين كل ما حدث.."

رفعت كفيها تتشبث بقميصه تبكي أكثر وبصوتٍ أعلى.. فضمها إلى صدره بقوة قابضًا بكفه على مؤخرة رأسها

*****

كانت عالية تتحرك بعصبية بكرسيها تنتظر عودة ليلة بفارغ الصبر.. حتى سمعت صوت الباب يفتح ودخلت بشكلٍ مفزع.. محمرة الوجه وعيناها مرعبتان..

انتظرت عالية بهلع حتى اقتربت منها ليلة بخطواتٍ بطيئة.. ففتحت كفيها ثم أسقطتهما بيأسٍ هامسة

"كنت أصرخ منذ ساعاتٍ عن ذنبك.. ليعاقبني الله بذنبٍ أفظع!!.."

جرت إليها بسرعة وهي تلقي نفسها بين أحضان عالية التي تلقتها تضم رأسها بقوةٍ، تهمس لها باكية بخفوت

"أخبرني معاذ عما جرى لأفهم حالتك.. وأمرني أن نبقي الأمر سر بيننا.."

همست ليلة بعذاب

"كيف يمكنني يا عالية أن أحيا مع ذنبٍ كهذا؟!!.."

كانت عالية تتحرك بعصبية بكرسيها تنتظر عودة ليلة بفارغ الصبر.. حتى سمعت صوت الباب يفتح ودخلت بشكلٍ مفزع.. محمرة الوجه وعيناها مرعبتان..

انتظرت عالية بهلع حتى اقتربت منها ليلة بخطواتٍ بطيئة.. ففتحت كفيها ثم أسقطتهما بيأسٍ هامسة

"كنت أصرخ منذ ساعاتٍ عن ذنبك.. ليعاقبني الله بذنبٍ أفظع!!.."

جرت إليها بسرعة وهي تلقي نفسها بين أحضان عالية التي تلقتها تضم رأسها بقوةٍ، تهمس لها باكية بخفوت

"أخبرني معاذ عما جرى لأفهم حالتك.. وأمرني أن نبقي الأمر سر بيننا.."

همست ليلة بعذاب

"كيف يمكنني يا عالية أن أحيا مع ذنبٍ كهذا؟!!.."

ردت عليها أختها بألم..

"كما حملت أنا ذنبك..اغفري لي كما سيغفر لكِ معاذ.."

*****

كانت تعلم بأنها تضع نقطة النهاية لقصتها وهي ترهف السمع من خارج باب المكتبة.. نبرة صوته الخافتة وهي تتحرك ببطء في الرواق جعلتها تقترب بحرص.. حتى وصلت ووقفت خلف الباب الذي أغلقه بعد دخوله..

كلماته ليست واضحة تمامًا لكنها استطاعت سماع الأهم.. والأكثر إيلامًا

بإضطرابٍ كان يجيب

"لم أتأخر.. أعرف أنك وجدته لكن.. يمكنه الإنتظار لفترة، لا يمكنني مفاتحتها في الأمر وقد تزوجنا من فترة قصيرة!..سيد جلال أخبرتك أن البيت من نصيبك وانتهى الأمر لكن دع لي مهمة ترتيب الخطوات كي تقتنع.. لا داعي

للكلام في العمولة الآن، أعرف أن حقي محفوظ.."

أطبقت عالية عينيها بشدة وهي ترفع يدها إلى عنقها شاعرة بأن نصل حاد نحره..

إلا أنها تمكنت بأعجوبةٍ من جر الكرسي ببطء شديد لتبتعد حتى وقفت به في صحن بيت الطرقاوي تتأمل مشربياته الخشبية بشرود..

لا تعلم كم مر من الوقت وهي جالسة مكانها دون حركة ودون دموع إلى أن أحست بأصابعه تمتد من خلفها لتبعد شعرها عن جانب عنقها قبل أن تطبق شفتاه على هذا النبض المتسارع..

أغمضت عينيها بصمت سامحة له بأن يجثو خلفها وهو يحيطها بذراعيه يداعبها برفق حتى همس بصوتٍ أجش في أذنها

"بت غير قادر على الإبتعاد عنكِ مطلقًا.."

همست عالية بصوتٍ خافت فاتر: "حقًا!.."

ارتفع وجهه عنها وهو يسألها ممازحًا عابسًا

"ألا تعرفين!!.. يمكنني أن أثبت لكِ بيسر"

وقبل أن تسأله كان قد استقام واقفًا ليحملها عن الكرسي بين ذراعيه، فنظرت إلى عينيه هامسة بحزن

"أتعرف لماذا أحب أن تحملني؟.."

أجابها مداعبًا بعبث: "أستطيع إيجاد عشرة أسباب مقنعة.."

ابتسمت دون سعادة هامسة لعينيه

"لأن عيناي تصبحان قادرتين على مواجهة عينيك، تمامًا كالآن.."

توقف عن أرجحتها وهو ينظر لعينيها بغرابة ثم سأل بقلق

“ماذا بكِ؟ لما هذا الحزن في عينيكِ؟!..”

لم تفقد ابتسامتها وهي تقول بخفوت: “ربما أكون خائفة من أن أستيقظ من هذا الحلم سريعًا..”

عقد حاجبيه وهو يقول بجدية “ما بيننا ليس حلمًا يا عالية..”

ضحكت بخفوت وهي تقول “لعله كابوس اذن..”

لم يشاركها الضحك، بل نظر إليها طويلًا وهو يشعر وكأنها رفعت بينهما حاجز يحجبها عنه.. على الرغم من أنها بين ذراعيه وأنفاسه..

*****

" أربع وعشرون يوم زواج

ثلاثون رسالة غرام كتبتها لك على مدارها

وكأنني كنت أسجل الفوز برهاني يومًا بعد يوم!!

كتبت عن حبك وعن عشقي.. كتبت عن أجملِ رجل رأته عيني

هذا الذي ارتفع بي فوق القاهرة.. والذي حلق بي في دوامة من الجنون

والذي سمح لي بالمشي من جديد..

كتبت عن رجل أبكاني وأضحكني

كتبت عنك وعن اقتحامك

اقتحمت عالمي الساكن محتلًا مستعمرًا

هدمت تاريخي، وأقمت ثكناتك

كتبت كم كتبت!

لأجدني بعد احتلالك لم أخط سوى أوراقٍ بيضاء خاوية،

فنثرتها في الهواء بقلبٍ منهزم:

" دون إمضاء "

*****

دخل بسيارته من بوابة " فيلا " جلال النقلي بملامح مكفهرة بعد أن أتاه الأمر كي يأتي وفي الحال!!..

اتصال صارم مهين يأمره في الثالثة صباحًا أن يبدل ملابسه ليكون ماثلًا أمامهم خلال دقائق..

اتصال كهذا لا يعني سوى أمر واحد من اثنين.. إما أن يكون هاني ابن جلال النقلي قد أقدم على مصيبة جديدة من مصائبه واستدعوه لينظف قذاراته من خلفه.. أو أن الكلام في أمر بيع البيت أصبح ملحًا خاصة مع المشتري الأجنبي..

كلا الأمرين مريع بالنسبة له، لا يتخيل حتى هذه اللحظة كيف سيفاتح عالية في الأمر!

لقد أصبحت عالية بالنسبة له من الثوابت في حياته.. إن ابتعدت تداعى الباقي..

لا يمكنه خسارتها لأي سببٍ كان..

أوقف يوسف سيارته خلف سيارة هاني الضخمة مما جعله يزم شفتيه مدركًا أن المصيبة تخصه..

نزل مسرعًا ليرى جلال واقفًا على درجات السلم الأمامية متلبد الملامح فبادر يوسف قائلًا

"سيد جلال، أريد القول خيرًا لكن ملامحك لا تبشر به.."

أمسك جلال بذراع يوسف يجذبه وهو يقول بصوتٍ جامد غريب

"لا وقت للمقدمات.. تعال وقل رأيك وما العمل.."

عقد يوسف حاجبيه شاعرًا بأن الآتي مرعب.. ولم يطل به السؤال فقد توقف جلال متجهم الوجه وهو يقول غارسًا أصابعه في لحم ذراع يوسف دون إدراك

"ما الحل لنخرج من هذه الورطة؟.."

لم يفهم يوسف ما يقوله.. لكنه لاحظ نظره لأسفل في وجهةٍ محددة، وتلقائيًا أخفض عينيه معه!..

لكن ما كاد أن يفعل حتى فغر فمه واتسعت عيناه وهو ينحني للأمام مترنحًا..

فعلى الأرض حيث ينظر كان حمزة مستلقيًا على وجهه..و الدماء متناثرة من حوله !..

حاول الصراخ مرة لكنه عجز وكأن حنجرته مكبلة.. ثم لم يلبث أن صرخ بقوة وهو ينتزع ذراعه من يد جلال

"فليطلب أحدكم الإسعاف!!.. ما بالكم هل جننتم؟!.."

لكن جلال جذبه بقوةٍ وهزه كي يفيق هاتفًا

"لن تفيد الإسعاف بشيء.. لقد انتهى الأمر.. لنفكر الآن في الحل"

شعر يوسف بأنه يسمع مجنونًا مختلًا يتكلم، يستحيل أن يكون عاقلًا..

كان يرتعد بقوةٍ وهو ينظر إلى جسد حمزة المسجى أرضًا بينما قال جلال بتوتر

"لقد دهسه هاني بالسيارة لدى عودته.. لم يكن بوعيه ولم يره أو لم يستطع تفاديه.. لا أعرف.."

ازداد اتساع عيني يوسف ثم إلتفت إلى السيارة المقصودة ليرى عارضها المعدني الأمامي مغطىً بالدماء!..

أحس بغثيانٍ مفاجىء، فانحنى للأمام ليتقيأ كل ما في معدته وبقي شاحبًا لاهثًا فجذبه جلال هادرًا

“أفق، ليس هذا وقت ضعفٍ أو عواطف.. أخبرني ما الحل؟..”

نظر إليه يوسف بإعياءٍ هامسًا

“أي حل أيها المجرمون!!..”

ذُهِل جلال غير مصدقًا وهدر بجنون

“ماذا تقول يا يوسف هل جننت؟!..أم نسيت نفسك!”

دفعه يوسف في صدره صارخًا

“جننت يوم قررت العمل مع حيواناتٍ أمثالكم، بل الحيوانات أكثر رحمة.. من أي طين خلقتم؟! هل أنتم بشر مثلنا أم وحوش!!..”

قبض جلال على مقدمة قميصه يهزه بالقوة

“كيف تجرؤ أيها الحقير؟! هل صدقت نفسك! هل ظننت

حين أصبحك لك اسمًا، ستكون مساويًا لأسيادك!!

أفق فما أنت إلا مهرج فوق الحبل.. تفعل ما تؤمَر به دون اعتراض..”

صمت يوسف لاهثًا وهو يخفض وجهه ناظرًا لجسد حمزة مجددًا ثم دفع يدي جلال عنه ليمسح وجهه الشاحب المتعرق بكفه محاولًا استجماع أفكاره..

وابتعد قائلًا بإزدراء مرتعش

“أمهلني دقائق لأستجمع قواي..”

ابتعد أمام نظرات جلال المتجهمة.. ابتعد وابتعد مخرجًا هاتفه ليرمش بعينيه يطرف بهما ثم كتب رسالة لعالية، رسالة من كلمتين فقط: " مات حمزة "

أغمض عينيه لفترة طويلة ثم عاد يجر قدميه حتى وصل لجلال قائلًا بصوتٍ أجوف مجهد: “تحت أمرك يا جلال بيه.. أنا الآن أفضل حالًا..”

وقف يوسف أمام وكيل النيابة بهيئة رثة وشعرٍ مشعث وقال بخفوت:

"يوسف صالح عبد العظيم.. حاضر مع السيد هاني جلال النقلي"

رفع وكيل النيابة عينيه عن الهوية لينظر إلى يوسف قائلًا ببطء

"يبدو أنك أخطأت اسم موكلك!.. ليس هاني جلال النقلي"

أخرج يوسف هاتفه من جيبه وهو يقول بنبرةٍ لا حياة فيها

"أعلم أن التسجيل دون علم صاحبه لا يستخدم كدليل.. لكن على الأقل ليكن لديكم فكرة عن المسؤول مسبقًا ربما سهل هذا سير التحقيق.."

انتهى التسجيل الذي تكلم فيه يوسف وجلال بإستفاضة عن كيفية اخراج هاني من الأزمة كالشعرة من العجين

ثم قال أخيرًا بتعب:

"وبعد أن سمعت سيادتك.. أنا منسحب، ليجد لنفسه مهرجًا آخر فقد انقطع الحبل الذي كنت ألعب عليه"

فتح صالح الباب ليجد ابنه واقفًا مامه بهيئته الفوضوية.. مهزومٌ منكسر، منحني الكتفين..

فتح فمه ينوي الكلام، لكنه لم يلبث أن هز كتفيه بيأسٍ لينفجر في البكاء!!..

أخذه صالح بين ذراعيه وهو يربت على ظهره بقوةٍ قائلًا بصوتٍ عميق متحشرج: "عودُ أحمدُ يا يوسف.. عودٌ أحمدُ يا ولدي.."

*****

زفر بقوةٍ وملل وهو يستند بمرفقه إلى سطح مكتبه، ثم قال بصوتٍ عالٍ غاضب: "انزل من على الكرة يا مرجان والتفت إلى عملك.."

استمر مرجان في التوازن فوقها وهو يفرد ذراعيه هاتفًا بفخر: "انظر..انظر.."

شتم معاذ بصوتٍ خفيض وهو ينهض بنفاذ صبر عله يتخلص من تلك المشاعر السلبية داخله، شاردًا بعيدًا

كان على وشكِ دخول الغرفة الملحقة بالمتجر لكن صوت أجراس الهواء جعله يتوقف للحظة..

قلبه أخبره أنها هي قبل أن يستدير، على الرغم من أنها لم تأتِ منذ أشهرٍ ولم يرها خلالها..

كان يكتفي بالسؤال عنها ليصله ردُ مقتضب لا يشبعه ولا يكفيه..

أما الآن فهو يشعر بها خلفه.. تلك الخطوات الهادئة البطيئة التي تقترب منه حتى وقفت خلفه تمامًا فأغمض عينيه قائلًا بصوتٍ خفيض:

"قمراء.."

مرت لحظة قبل أن يسمع صوتها يهمس من خلفه:

"أتراني دون الحاجة لعينيك؟!.."

استدار إليها ببطء وكأنه يتمهل في الوصول لغايته حتى رآها أخيرًا.. كانت أفضل حالًا:

بالتأكيد أفضل حالًا.. وأكثر جمالًا دون شك..

ارتعشت ابتسامتها وهي تهمس سائلة:

"هل يمكنني استعادة عملي بعد طول غياب؟!.."

علا صوته فجأة بصرامةٍ آمرًا

"مرجان.. انتظر بالخارج قليلًا.."

عقد مرجان حاجبيه بشدة إلا أنه خرج متذمرًا..

أما معاذ فلم يجبها على الفور يتأملها بصمتٍ طويل حتى أسبلت جفنيها مشبكة أصابعها..فقال أخيرًا بصوتٍ أجش

"ربما يمكننا التعارف أولًا ومن جديد.."

رفعت عينيها إليه ثم ابتسمت تمد يدها قائلة بنعومة: "قمراء.."

أمسك بيدها بين أصابعه رافضًا أن يحررها فانتفض قلبها.. وقال بهدوء:

"معاذ ابن صالح.."

ازدادت ابتسامتها جمالًا وهي تهمس:

"تقدم أحدهم طالبًا يدي من عالية يحمل نفس الإسم منذ أيام.."

أجابها ببساطة رافعًا حاجبه: "أملت أن يخرجك العرض من مخبئك!.."

ارتفع حاجباها وهي تقول سائلة:

"مستعد للزواج من امرأة لمجرد أن تخرجها من مخبئها؟!.."

رد عليها يهز كتفه: "طالما سيدخلها مخبئي أنا، فلا مانع لدي.."

أخذت نفسًا عميقًا مرتعشًا ثم همست بخفوت:

"معاذ.. أنا لست بخير ولا أظنني سأكون.. كما أن ما بيننا"

قربها إليه قائلًا بصوتٍ جاد واثق

"بلى، أنتِ بخير.. أو سأحرص بنفسي على أن تكوني بخير..أما ما بيننا، فهو رابط ربطنا معًا للأبد"

همست تسأله بخفوت: "هل يمكنك أن تغفر؟.. كيف لك أن تفعل؟.."

أومأ برأسه قائلًا: "ما لا يمكنني غفرانه هو ألا تعوضيني عن تلك السنوات.."

لعقت شفتيها مرتجفة ثم سألت بقلق: "أتظنني أستطيع؟.."

ضاقت عيناه وهو يقول بخفوت : "لو تمكنتِ من دخول قلبي لحظة أن استدرت ورأيتك أمامي لعرفتِ أن مجرد النظر إليكِ كل لحظةٍ تعويضًا"

ازدادت ابتسامتها عمقًا ولمعت عيناها قبل أن تسعل ناظرة حولها سائلة

"اذن.. هل نتابع تمرين الملاكمة أم نبدأ بالعمل مباشرة؟!.."

رد عليها بإبتسامة أكبر وهو يقول متنازلًا:

"لا بأس من بعض اللعب أولًا"

*****

انتفض في نومه مضطربًا فانحنت إليه تقبل ظهره برفق وتربت على كتفيه.. مضى على الحادث عدة أشهر ولا تزال الكوابيس تنتابه!!..

أرجعت عالية رأسها للخلف مستندة إلى ظهر السرير البسيط في الشقة التي كانت ولازالت ليوسف .. تلك التي اشتراها له والده منذ سنواتٍ طويلة.. ربما ليست بفخامة شقته، ليست بعراقة بيت الطرقاوي...

لكنها بالتأكيد مملكة جمعتهما بحياة جديدة...

ابتسمت برفق وهي تتخلل شعره بأصابعها.. ثم نظرت للأوراق بين يديها تعيد قراءة رسائلها...

حتى سمعت صوته يقول متذمرًا:

"ألن تنامي؟!.."

نظرت إليه سائلة بدهشة وأسف:

"هل أيقظتك؟.."

انقلب على ظهره ينظر إليها بتعبيرٍ عميق ثم قال بخفوت وهو يرفع يده ليلامس ذقنها بظهر إصبعه:

"أيقظتني القبلة على ظهري.. هل من مزيد؟.."

ضحكت بنعومةٍ وهي تقول بخبث:

"ربما لو طلبت بلطف أكبر.."

استقام يوسف جالسًا بجوارها ليسحبها فوق ركبتيه يقبلها بقوةٍ حتى شهقت طالبةً التنفس:

"أتسمي هذا لطفًا!!.."

أبعد شعرها عن وجهها بكلتا يديه ناظرًا في عينيها ثم قال مبتسمًا:

"لم أبدأ بعد، امنحيني فرصة.."

رفعت وجهها إليه هامسة بمحبة ضاحكة:

"منحتك فرص العالم كلها.."

وبينما هو ينحني بها يغمرها بقبلاته.. لمحت عيناها رسالة " دون إمضاء " من بين رسائلها المتناثرة...

قبضت عليها بأصابعها وجعدتها لتلقي بها بعيدًا.. مسلمة له كل الحصون...

*****

" الختام "

تسير متهادية في السوق بعبائتها السوداء الضيقة.. تجر الكيس الذي تحمله أرضًا شاردة الذهن لا تسمع من يناديها:

"زبيدة.. زبيدة.."

كانت أفكارها بعيدة تصم أذنيها وتعمي عينيها عن رؤية الطريق..

أفكار بعيدة جدًا.. عائدة لسنواتٍ خلت..

كانت تراقب البيت من بعيدٍ منتظرة وصول ليلة.. وبينما هي تتسامر مع إحدى البائعات أجفلت لسماع الشجار الضخم الدائر في الحي.. فتركت ما يدها وجرت لترى ما يحدث..

كانت مجموعة ضخمة من البشر مجتمعين حول هتاف غاضب عنيف فانحنت تسأل واحد من الصبية:

"ماذا يحدث؟.."

أجابها الصبي قائلًا:

"إنه عم مسعد عبد التواب.. يتشاجر مع المهندس المستأجر لشقة في بيته.."

اتقدت عيناها بالتوتر وانتفض قلبها فظلت واقفة بين الجمع لترى ما سيحدث.. إلى أن تم فض الشجار وصعد مسعد لبيته بينما بقى معاذ يجوب الطرقات ينتظره ليخرج..

اختارت لحظة لم ينتبه خلالها فتسللت ودخلت للبيت.. تجري على درجات السلم حتى وصلت لباب شقته فطرقته بقوة:

عم السكون المتوتر من الداخل قبل أن تسمع صوت مسعد يسأل من خلف الباب بخوفٍ وجبن:

"من؟!!.."

ردت عليه وهي تنظر حولها:

"أنا زبيدة.. افتح.."

فتح الباب متجهم الملامح تعلو وجهه الجروح والكدمات.. نظر خلفها بقلق فقالت بحدة هاتفة

"أنا وحدي لا تخاف.."

ابتعد فدخلت وأغلقت الباب من خلفها ترمقه بحذرٍ وخوف.. ثم سألت متظاهرة بالاهتمام:

"ما الذي حدث بينك وبين الباشمهندس؟!!.. الحي بأكمله يتكلم.."

هتف محتدًا:

"اخرسي، لا دخل لكِ.. لماذا جئتِ الآن أصلا؟!!.."

تمايلت نحوه وهي تقول بدلال:

لم تفكر طويلًا فأمسكت بمقبضها ودون تفكير ضربته على رأسه بكل قوتها فترنح وهو يستدير ناظرًا إليها بذهول فلاحقته بضربةٍ أخرى أشد وأقوى مما جعله يسقط أرضًا غائبًا عن الوعي..

وقفت زبيدة تنظر إليه لاهثة تبتلع ريقها بصعوبة.. ثم جرت إلى إحدى غرف النوم لتأخذ وسادة وخرجت مسرعة لتجثو بجواره لتكتم أنفاسه بها ضاغطة بشدة واستمرت وهي تعد الدقائق ببطء شديد.. العرق يغطي وجهها بل ويغرقه.. وحين تأكد لها أنه مات أبعدت الوسادة وألقت بها بعيدًا.. ثم رفعت ذراعها لتمسح عرقها بكمها..

وجلست تنظر إليه لاهثة دقيقة واحدة.. دخلت بعدها المطبخ وبحثت عن البنزين حتى وجدت زجاجة صغيرة أفرغتها من حوله وأشعلت عود ثقاب ألقته عليها..

وخرجت مغلقة الباب خلفها لحرص.. وتسللت من المدخل حين تأكد أن أحدًا لم يرها..

لم يمض الكثير من الوقت ولم يبدأ الحريق في الظهور

حتى رأت ليلة قد وصلت.. ودخلت للبيت لتتم مهمتها في عشر دقائق ثم خرجت في نفس اللحظة التي دخل فيها الباشمهندس..

لعبت زبيدة دورها كاملًا.. فصرخت في المحكمة تدعو عليه بعد أن سلبها الرجل الذي رباها ويعد بمثابة والدها..

لم تفق زبيدة من شرودها وهي تمشي في الطرقات متثاقلة.. لا تسمع تحية ولا ترد سلامًا

*****

حاولت التخلص من بين ذراعيه لاهثة وهي تقاوم قبلاته المجنونة في تلك الغرفة الصغيرة الملحقة بالمتجر والتي شهدت الكثير من جنون غرامهما.. وهتفت بحدة

"ابتعد يا معاذ، هناك من دخل المتجر.. ستفضحنا.."

زفر بقوةٍ وغضب وهو يقول مستاء:

"لهذا أردت أن نبقى في البيت اليوم..كفانا فضائح."

ردت عليه مستاءة هامسة وهي تعدل قميصها

"ألم تكفك الثلاث أسابيع كاملة في البيت!!.."

هتف فاتحًا كفيه "شهر العسل اسمه شهر!!.."

خرجت من الغرفة لترى الزبائن.. لكن كان المتجر خاليًا فنظرت حولها وهي تقول بحدة

"لا يوجد أحد.. لقد ذهب، هل أعجبك هذا؟.."

لمعت عيناه بخبث وهو يجذبها مجددًا للغرفة ضاحكًا

"أعجبني جدًا.."

*****

خضع بيت الطرقاوي لهيئة الآثار بعد خلافٍ عنيف بين

أولاد غنام وعالية أدى إلى ظهوره للعلن وتسجيله كعقارٍ أثري من التراث منع التصرف فيه بالبيع أو الهدم وتحول إلى مكتبة تراثية ضخمة

نواتها كانت المكتبة الأصلية فيه.. ثم بدأت الدعوى لإضافة الكتب النادرة والتراثية..

وبات مفتوحًا للجميع بعد أن تم ترميمه:

دفع يوسف كرسيها المتحرك برفق وهي تتأمل المكان مبهورة بسعادة وكان هو سعيد لسعادتها ليس أكثر وما أن وصلا للغرفة التي كانت غرفة نومهما ذات يوم.. انحنى ليهمس في أذنها قائلًا:

"تعالي لأريكِ شيئًا.."

رفعت وجهها المبتسم له بحيرة فجرها حتى زاوية معينة حفر فيها نقش بالخط الديواني كتب عليه..!!!!

ضيقت عينيها كي تتمكن من القراءة ثم ما لبثت أن شهقت

عاليًا فنظر إليها بعض الزوار بدهشة مما جعلها تكتم فمها ناظرة إليهم باعتذار..

نظرت عالية مجددًا إليه هاتفة همسًا بذعر وصدمة:

"هل جننت يا يوسف؟!!!!.. تحفر نقشًا في مكانٍ أثري؟!.. أتريد أن تُسجن؟!"

هز كتفه قائلًا بخبث:

"لقد تم نقشه قبل تسليمه.. كنا أحرارًا في بيتنا وقتها، وقررت أن تكون مفاجأة لكِ في أول زيارة"

رفعت يدها إلى صدرها الخافق وهي تعيد قراءة الحفر بعينين تمعان كالنجوم هامسة :"لا أصدق"....

فقد كان مكتوبًا:

"هنا تزوجت عالية المقام الرفيع من الوجيه يوسف بن صالح وعاشا في سعادةٍ أبدية "

" تمت "